روايات فرنسية معاصرة

لوكليزيو

صحراء

ترجمة
أحمد كمال يونس

دار المستقبل العربي

fb/mashro3pdf

صحراء

fb/mashro3pdf

تصميم الغلاف بهجت عثمان

جَمِيعُ الحقوقِ مَحفُوظَة

الطبعة الاولى ١٩٨٥

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة

ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

fb/mashro3pdf

لوكليزيو

صحراء

ترجمة

أحمد كمال يونس

روايات فرنسية معاصرة

دار المستقبل العربي

fb/mashro3pdf

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة للرواية الفرنسية :

© J.M.G. LE CLEZIO, **Désert**, Editions CALLIMARD, Paris, 1980.

* جميع الحقوق العربية محفوظة لدار المستقبل العربى

* تمت الترجمة بالاشتراك مع المركز الفرنسى المصرى للترجمة بالقاهرة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

صحـراء

fb/mashro3pdf

« ساقية الحمراء فى شتاء ١٩٠٩ ـــ ١٩١٠ »

لقد ظهروا كحلم على قمة الكثيب . يكاد يحجبهم ماتثيره أقدامهم من غبار . وبدأوا يهبطون إلى الوادى فى بطء يتبعون طريقا مطمورا لايكاد يرى . وعلى رأس القافلة كان الرجال يرتدون عباءاتهم الصوفية ويخفون وجوههم بأقنعة من قماش أزرق ومعهم اثنان أو ثلاثة من الإبل ثم يتبعهم الماعز والخراف يستحثها على السير بعض الغلمان .
أما النساء فقد كن فى المؤخرة وكن كهياكل إلتفت بأغطية ثقيلة . وكانت جلود أذرعهن وجباههن تبدو أكثر سوادا تحت أقنعتهن الداكنة بلون النيلة .

لقد مضى هذا الرهط فوق الرمال دون ضوضاء وفى بطء ودون أن ينظروا الى أين يذهبون ؟ . وكانت رياح الصحراء تهب حارة فى الصباح وباردة فى الليل والرمال تنثال من حولهم ومن بين أخفاف الإبل لافحة وجوه النساء اللاتى : يسدلن النسيج الأزرق على عيونهن فى حين يبكى الأطفال الرضع وقد لفوا بأردية زرقاء فوق ظهور أمهاتهم كما يجرى الصغار . وتئن الإبل وتتنفس فى صعوبة ولا أحد يدرى إلى أين يذهب .

fb/mashro3pdf

وكانت الشمس تتوسط كبد السماء العارية وتحمل الريح الأصوات والروائح وقد سال العرق فى بطء على وجوه المسافرين واصطبغت جلودهم باللون الأزرق الداكن كما كانت تسيل على خدودهم وأذرعهم وعلى طول أرجلهم . وكان يبرق الوشم ذو اللون الأزرق على وجوه السيدات كالجعران . والعيون السوداء الشبيهة بقطرات من المعدن لاتكاد تنظر الى الفضاء الممتد من الرمال تبحث عن آثار الطريق بين أمواج رمال الكثبان .

ليس هناك من شيء أو إنسان فوق الأرض . لقد ولدتهم الصحراء . ولم يعد هناك طريق آخر يستطيعون أن يهتدوا إليه . فلا حديث بينهم . وليس هناك مايرغبون فيه . فالريح تهب عليهم وتمر بهم وكأنه لا وجود لأناس غيرهم فوق الكثبان الرملية . انهم يمشون منذ مطلع الفجر دون توقف يلفهم التعب وينال منهم الظمأ وكأنهم داخل جحر . وقد يبست شفاههم وألسنتهم بفعل الجفاف طحنهم الجوع فما استطاعوا الكلام حتى لقد صاروا خرسا منذ وقت طويل كالصحراء . يغمرهم الضوء حين تصعد الشمس الى كبد السماء الخالية ثم يتجمدون أثناء الليل عندما تلمع النجوم .

لقد استمروا يهبطون السفح فى بطء نحو قلب الوادى فى غير توازن أو استقامة بسبب إنهيار الرمال تحت أقدامهم . إجتاز الرجال مواطىء أقدامهم دون أن ينظروا وكأنهم يسيرون على آثار غير مرئية تقودهم نحو الناحية الأخرى من الوحدة والليل .

كان من بينهم فرد واحد فقط يحمل بندقية ذات فوهة طويلة

fb/mashro3pdf

برنزية ومسودة مما يحملها جنود المشاة لقد كان يضمها الى صدره بكلتا يديه مصوبا فوهتها إلى أعلى وكأنها حاملة العلم . وكان أخوته يسيرون الى جانبه ملتفين فى معاطفهم ومنحنين الى الأمام قليلا تحت وطأة مايحملون من أثقال . وكانت معاطفهم تخفى تحتها أسمالهم الزرقاء البالية والممزقة من فعل الأشواك ومهلهلة من فعل الرمال . وخلف هذا القطيع المتهالك يسير « نور » ابن الرجل الذى يحمل البندقية يسير أمام أمه وشقيقاته بوجهه الداكن الذى لفحته الشمس ولكن بريق عينيه يكاد يكون خارقا للطبيعة .

انهم رجال ونساء الرمال والريح والضوء والليل . فقد كانوا يتراءون وكأنهم أطياف حلم على قمة الكثيب أو أبناء سماء بغير سحاب يحملون بين أضلعهم صلابة الفضاء . إنهم يحملون معهم الجوع والعطش الذى يدمى شفاههم والسكون القاتل حيث يعانون من قيظ الشمس المتوهجة وبرودة الليل القارسة ونور المجرات السماوية والقمر والأفق يصحبهم فى ذلك ظلالهم الماردة حين غروب الشمس وفى أمواج الرمال التى تلامس أصابع أقدامهم والأفق البعيد المنال . كما كانت هناك على وجه الخصوص نظراتهم المتقدة التى تشع من أعماق عيونهم .

لقد كان قطيع الماعز والخراف يسير أمام الأطفال وحتى الماشية كانت تسير وهى لاتعرف مواقع حوافرها فوق الآثار القديمة . وكانت الرمال تدور فى عنف بين أرجلها لتعلق بأصوافها القذرة . فى حين كان أحد الرجال يقود الإبل بما يصدر من أصوات فقط تارة مستنكرا أو ناهرا وتارة باصقا .

fb/mashro3pdf

فيمتزج صوت تنفسهم الصاخب برفيف الرياح ثم تختفى فجأة بين جنبات الكثبان فى الجنوب . على أن الريح والجفاف والجوع لم تعد لها الأهمية ، لأن الناس والقطيع يسيرون فى بطء هاربين الى قاع الوادى الذى لاظل فيه ولا ماء .

لقد بدأوا رحلتهم منذ أسابيع أو شهور يردون من بئر الى أخرى أو عابرين المجارى المائية التى جفت وضاعت آثارها فى الرمال مارين بتلال الصخور والهضاب . يتغذى القطيع على الأعشاب القليلة والنباتات الشوكية أما القليل من النبات ذات الأوراق الطبية فان الرجال يتقاسمونها فيما بينهم . وحينما تتقدم الشمس فى الأفق نحو المغيب فى المساء وتبدو ظلال الشجيرات طويلة وممتدة بطريقة غير عادية يتوقف الرجال والماشية عن السير لينزلوا الأحمال عن ظهور الإبل وليعدوا الخيمة الكبيرة المصنوعة من الصوف البنى اللون المقامة على عمودها الوحيد المصنوع من خشب الأرز . وتوقد النساء النار ليجهزن الحساء واللبن الرائب والزبد والتمر . يحل الليل سريعا وتتفتح السماء الفسيحة والباردة على سطح الأرض المظلم . فتبدو النجوم وتظل آلاف النجوم ساطعة فى هذا الفضاء . ويهتف الرجل حامل البندقية الذى يحرس القافلة مناديا « نور » ويشير إلى موقع الدب الأصغر وهو النجم الوحيد الذى يدعى « كابرى الجدى » ثم يشير الى النهاية الأخرى حيث مجموعة الدب الاكبر . وفى ناحية الشرق يشير لنور ناحية القنطرة حيث تتلألأ النجوم الخمسة : القائد ـــ ميزار ـــ اليوت ـــ مجريز ـــ فيكدا . وهناك الى الشرق بالكاد فوق الأفق وقت الشفق يبدو « أريون » مع « ألينلام » وهو مائل قليلا على ناحية كصارى المركب . إن

fb/mashro3pdf

الرجل يعرف جميع النجوم حتى انه يعطيها فى بعض الأحايين أسماء عجيبة كبدايات القصص والحكايات . وعليه فإنه يشير لنور نحو الطريق الذى سيتبعونه فى النهار كما لو أن الأضواء التى تلمع فى السماء ترسم الطريق التى يجب أن يتبعها الرجالِ على الأرض .

توجد كثير من النجوم . فَلَيْلُ الصحراء ملىء بأنوارها التى تتراقص فى رفق على حين تمضى الرياح بصوت كالزفير . إن هذا الإقليم يبدو وكأنه خارج نطاق البشرية . فربما كان هذا المكان لايظهر فيه شيء كما لو كان قد فصل من بلدان أخرى كثيرا ماينظر الناس الى النجوم والطريق الأبيض الذى يبدو وكأنه قنطرة من الرمال فوق الأرض . انهم يتحدثون قليلا أثناء تدخينهم أوراق الطباق الملفوقة . فهم يقصون قصص الرحلات وأخبار الحروب ضد الجنود المسيحية وأخبار الثأر ثم هم بعد هذا ينصتون الى الليل .

ويتراقص لهب فروع الشجر تحت القدور النحاسية يصحبه صوت غليان الماء . وعلى الجانب الآخر من المواقد تتجاذب النساء الأحاديث على حين تغنى إحداهن لرضيعها الذى ينام على صدرها فى الوقت الذى ترسل فيه الكلاب الضالة نباحها ويجيبها صدى بطون الكثبان ككلاب أخرى برية وتتصاعد روائح الحيوانات وتمتزج مع رطوبة الرمال ووطأة دخان المواقد . بعد ذلك تنام النساء والأطفال تحت الخيمة . أما الرجال فينامون ملتفين بمعاطفهم حول النيران الخامدة . إنهم يختفون بين مساحات الرمال والصخور حتى لأيُرَوْا فى حين يزداد لمعان السماء السوداء .

fb/mashro3pdf

لقد ساروا هكذا على أقدامهم طوال الشهور وربما السنين . انهم يهتدون بطرق السماء بين أمواج من الكثبان . هذه الطرق التى تأتى من « الذراع » و « تامجروت » من « ارج اجيدى » أو من الشمال طريق « آية عطا » و « الغريس » و « تافيليه » التى تلتقى بالكسور الكبرى لسلاسل جبال « أطلس » أو الطريق الذى لانهاية له والذى يغوص حتى قلب الصحراء ومن هناك من « هانك » نحو المدينة الكبرى « تمبكتو » .

يموت البعض فى الطريق كما يولد البعض ويتزوج منهم البعض . والحيوان أيضا يموت إما عن طريق النحر حتى تخصب الأرض بالدماء أو تموت لإصابتها بالطاعون فتترك حيث نِفُقَتْ وتتعفن فوق الأرض الصلبة .

يحدث هذا وكأنما لاتوجد أسماء ولايوجد كلام هنا . ففى الصحراء تغسل الرياح كل شىء وتمحو كل شىء . فللرجال حرية الفضاء فى نظراتهم وخلودهم المماثلة للمعدن . فضوء الشمس يسطع فى كل مكان والرمال فى ألوانها المختلفة من صفراء ورمادية وبيضاء والرمل الناعم الذى ينزلق مشيرا الى مهب الرياح حتى أنها تغطى كل المعالم والآثار وحتى العظام فهو يطرد النور والماء بل والحياة الى مكان بعيد لايستطيع المرء أن يعرفه ومع هذا فالناس لايخافون الصحراء بل هم مستمرون فى السير فيها دون توقف على طرق قد وطئتها أقدام آخرين من قبلهم حتى يجدوا شيئا جديدا . فالماء فى « العيون » يتلون بلون السماء أو فى الوديان الرطبة والمجارى المائية المليئة بالطين ولكن هذا الماء ليس للرفاهية ولا للراحة ولكنه آثار عرق وجهد على رمال الصحراء بل هو هدية مدخرة لآله الجفاف . انه آخر

fb/mashro3pdf

حركة للحياة . ماء ثقيل منتزع من الرمال ، ماء آسن داخل الحفر . ماء مشبع بالصودا والبوتاسيوم مما يسبب المغص والتقلصات المعوية ونزلاتها فتسبب القيىء . وكان من الضرورى المضى أبعد من ذلك مائلين إلى الأمام قليلا فى الاتجاه الذى رسمته النجوم .. ولكن .... فهو المكان . بل ربما كان آخر بلد حر . بلد حيث قوانين الانسان لم تعد لها أهميه . انه بلد الصخور والرياح كما انه ايضا اقليم العقرب والحيوانات الثديية القارضة والتى تعرف كيف تختبىء حين تشتد حرارة الشمس أو برد الليل .

والآن وقد ظهروا فى أعالى وادى « ساقية الحمراء » فهم يهبطون فى بطء على سفوح الرمال . ففى أعماق الوادى تبدأ آثار الحياة الانسانية . فالحقول محاطة بأسوار من الحجارة الصلبة وحظائر للإبل وتعريشات من النخيل القزم وخيام كبيرة من الصوف تشبه القوارب المقلوبة . يهبط الرجال فى بطء غارسين أقدامهم فى الرمال التى تنزاح . أما النساء فيبطئن فى سيرهن ويبقين بعيدات خلف مجموعات الماشية التى تستثيرها رائحة مياه الآبار . عندئذ ظهر الوادى الفسيح وانفتح تحت الهضبة الصخرية . يبحث « نور » عن النخيل العالى الأخضر الداكن والذى ينبثق من الأرض فى صفوف متقاربة حول البحيرة ذات الماء الصافى وانه ليبحث عن القصور البيضاء والمآذن وعن كل ما حدثوه عنه فى طفولته حين تحدثوا عن مدينة « سماره » فقد مضى عليه وقت طويل دون أن يرى أشجارا . لقد سار نحو الوادى وقد فك ذراعيه قليلا وبعينين نصف مغمضتين اتقاء الضوء والرمال . أثناء هبوط القوم الى أعماق

fb/mashro3pdf

الوادى اختفت للحظة قصيرة المدينة التى رأوها ولم يجدوا الا الأرض الجافة العارية . لقد كان الطقس حارا حتى أن العرق أخذ يتصبب فى غزارة على وجه « نور » والتصقت ملابسه الزرقاء بظهره وأكتافه . والآن ظهر أيضا رجال آخرون ونساء أخريات وكأنهم نبتوا من الوادى . فقد كانت النساء توقدن نيرانهن لإعداد وجبة العشاء . وكان الرجال والأطفال يقفون بلا حراك أمام خيامهم المغطاة بالأتربة . فقد جاء هؤلاء من جميع جهات الصحراء فمنهم من جاء من صخور « الحمادا » أو من جبال « شيهيبة » أو من « أواركيزس » أو من « سيروا » أو من جبال « أم شاكور » ومنهم من الواحات الكبيرة التى فى الجنوب ، أو من البحيرة الجوفية « جواروا » فقد عبروا الجبال عن طريق « الماندر » نحو « ترهامانت » أو من أسفل حيث يلتقى « ذراع » بنهر « هنجرت » عن طريق « راجبات » لقد جمع سكان الجنوب من بدو وَرُحَّل وتجار ورعاة شحاذين وربما كان بعضهم ممن هجر مملكة « بيرو » أو الواحة الكبيرة « أوالاتا » فقد علت وجوههم لفحة الشمس الرهيبة وبرودة الليل القاتلة على أطراف الصحراء . فالبعض منهم كانت سمرتهم تكاد أن تكون حمراء . طوالا فارهين ويتكلمون لغة غير معروفة انهم « التوبس » الذين يأتون من الطرف الآخر للصحراء من « بوركو » أو « بتستى » وهم من أكلة نواة الكولا ويتجهون الى البحر . وما أن يقترب جموع الرجال والحيوان حتى تتزايد أعداد أشباح الرجال السوداء وخلف الأشجار المزهرة الملتوية ظهرت الأكواخ المصنوعة من غصون الأشجار أو من الطين مثل خلايا النمل الأبيض والمنازل الإردوازية والمغارات المعرشة بالأغصان وبالطين وخاصة تلك الحوائط القصيرة من الحجر الجاف والتى

fb/mashro3pdf

تصل الى الركبة فتنقسم الأرض الحمراء الى خلايا دقيقة جدا . وفى الحقول التى لاتزيد على بساط من فراء يحاول العبيد الحراثيون العمل على إحياء بعض الفول وبعض أشجار التوابل . وكانت السواقى تغرس فى الأرض القاحلة حتى يحصلوا على بعض الرطوبة والماء .

لقد وصلوا الى هنا الآن صوب المدينة الكبيرة « سماره » . فالرجال والماشية يتقدمون على الأرض الجافة الى أعماق هذا الجرح الكبير من وادى « الساقية » بعد أن تحملوا عناء أيام قاسية قاطعة كالزلط وكم انتظروا وتحملوا الساعات حتى يروا هذا . لقد تحملوا كثيرا من الآلام بأجسادهم المنهوكة وبشفاههم الجافة والدامية وفى نظراتهم الحارقة . فهم يسارعون الى الآبار دون أن يصغوا الى صرخات الماشية ولا إلى تمتمة الرجال الآخرين . فحين وصلوا الى الآبار أمام السور الحجرى الذى يفصل الأرض اللينة توقفوا . وقد أبعد الأطفال الماشية بقذفها بالحجارة حتى يؤدى الرجال صلواتهم راكعين . ومن ثَمَّ غمس كل واحد منهم وجهه فى الماء يعب منه حتى شربوا كثيرا .

وهكذا هى دائما عيون الماء فى الصحراء . ولكن الماء الدافىء مازال يحتوى أيضا قوة الريح والرمل وكذا برودة سماء الليل القارسة . وعندما شرب « نور » أحس بأنه ملأ ما فى أعماقه من فراغ جوفه حين ينتقل من بئر الى بئر أخرى لأنه لم يكن يستسيغ الماء العكر الأُجاج اذ كان يصيبه بالغثيان كما انه لايروى ظمأه وكان كأنه يزرع فى نفسه شعور هدوء ووحدة

fb/mashro3pdf

الكثبان والهضاب الصخرية الكبيرة . لقد كان الماء راكدا بلا حركة فى الآبار صقيلا كالمعدن تسبح فوق سطحه بقايا أوراق الأشجار ومخلفات أصواف الحيوان . وعلى البئر تغتسل النساء ويسدلن شعورهن . وبالقرب منهن تقف الماعز والإبل ساكنة وكأن أوتادا تثبتها فى طين البئر .

كان هناك رجال آخرون يروحون ويغدون بين الخيام . إنهم محاربو الصحراء بملابسهم الزرقاء ملثمين ومسلحين بخناجرهم وبنادقهم الطويلة . إنهم يسيرون فى خطوات واسعة دون أن يلتفتوا لأحد .

أما العبيد السودانيون بأسمالهم فيحملون المؤن والبلح وقدور الزيت . إن بعضا من أبناء الخيمة الكبيرة فى ملابسهم البيضاء والزرقاء الداكنة وبعضا من قبائل « الشلوة » ذوى البشرة السمراء وبعض أبناء الساحل ذوى الشعور الحمراء والجلود المرقطة وبعضا من الرجال الذين لاجنس لهم ولا أسماء لهم والمتسولين المصابين بالجذام الذى لايقربون الماء كل هؤلاء يسيرون فوق الأرض الصخرية والأتربة الحمراء قاصدين المدينة المقدسة « سمارة » وقد هربوا من الصحراء لبضع ساعات أو بضعة أيام .

لقد نصبوا خيامهم الثقيلة ملتفين فى معاطفهم الصوفية فى انتظار الليل . انهم يتبادلون الآن حساء الدقيق الساخن مخلوطا باللبن والخبز والتمر الجاف ويتراقص الذباب والناموس حول رؤوس الأطفال فى نسيم الليل كما تتساقط الزنابير فوق أيديهم وعلى وجوههم الملوثة بالتراب .

انهم يتحدثون الآن فى أصوات عالية كما ان النساء يضحكن

fb/mashro3pdf

وهن جالسات فى ظل الخيام ويقذفن بعض حبات الحصى على الأطفال الذين يلعبون . كما تنطلق الكلمات من أفواه الرجال مدوية وكأنهم سكارى . وتنبعث الكلمات فى ترنيم أو صياح . ومن خلف الخيام وبالقرب من أسوار « سمارة » تصفر الريح بين أوراق الأشجار وفروع النخيل القزم . ولكن ومع ذلك يسودهم الصمت ويخيم على أولئك الرجال والنساء ذوى الوجوه والأجساد الزرقاء بفعل النيلة والعرق وكأنهم لم يتركوا الصحراء ولم ينسوا ذلك الصمت الذى يعيش فى أعماقهم وقلوبهم فهو ماثل أمامهم دائما فوق الكثبان . وهذا هو السر الحقيقى . ففى بعض اللحظات يتوقف حامل البندقية عن التحدث الى « نور » وينظر الى الخلف صوب رأس الوادى حيث تأتى الريح .

وقد يقترب ذات مرة رجل من قبيلة أخرى ويحيى مادّاً كلتا يديه المفتوحتين وبالكاد يبادلونه بعض الكلمات أوبعض الأسماء . ولكنها كلمات تتلاشى فى الحال وكأنها بعض آثار خفيفة سوف تمحوها الرياح الرملية .

وعندما يحل الليل على مياه الآبار يتجدد تحكم السماء ذات النجوم على الصحراء ففى وادى « ساقية الحمراء » تكون الليالى أكثر هدوءا ولطفا ويتلألأ القمر الوليد فى كبد السماء المظلمة . فتبدأ الخفافيش رقصاتها حول الخيام طائرة على حافة مياه الآبار . وعندها تشتعل نيران المواقد مترنحة ناشرة رائحة الزيت والدخان . ويجرى ويلهو بعض الأطفال بين الخيام صاخبين ومقلدين نباح الكلاب . وقد نامت الماشية . فالإبل

fb/mashro3pdf

مقيدة أرجلها وكذا الخراف والماعز وقد احتوتها جميعا الحواجز والدوائر الصخرية الجافة . أما الرجال فلم تعد لهم قدرة . فها هو المرشد قد وضع بندقيته على مدخل الخيمة وبدأ يدخن ناظرا أمامه الى الفضاء فهو لايكاد يصغى للأصوات الخافتة التى تصدر من أصوات وضحكات النساء الجالسات قرب المواقد . وربما كان يحلم بأمسيات أخرى أو طرق أخرى كأنما حرارة الشمس الملتهبة على جلده أوألم العطش وقد جفف حلقه لم تكن سوى بداية لرغبة أخرى .

ويخيم النعاس فى بطء على مدينة « سمارة » بينما فى مكان آخر فى الجنوب فى هضبة « حمادا الصخرية » قد انعدم النوم أثناء الليل حيث يشل البرد كل شىء حتى أن الانسان لايستطيع النوم خاصة حين تهب الرياح على الرمال فتعرى قمم الجبال فعندها لايستطيع الانسان فوق الطرق الصحراوية فهو يعيش ويموت وهو ينظر بعينين هلعتين من الضوء والتعب . ففى بعض الأحيان يلتقى الرجال الزرق بواحد من ذويهم جالسا فى اعتدال فوق الرمال ممدود الساقين وجسده لاحراك فيه . وهو يلبس أسمالا بالية وفى وجهه الرمادى عينان سوداوان مثبتتان فى الأفق المتحرك على الكثبان . وما ذلك الا لأن النوم قد باغته وهو فى هذا الوضع .

فالنوم والماء شبيهان لايستطيع الإنسان أن ينام حقا بعيدا عن الينابيع تهب الرياح مثلما تهب ريح الفضاء الخارجى والتى تخلع معها كل حرارة الأرض

ولكن هنا فى هذا الوادى يستطيع المسافرون النوم .

fb/mashro3pdf

يستيقظ الحارس من نومه قبل الاخرين ويبقى دون حركة أمام الخيمة . فهو ينظر الى الضباب الذى يعلو فى تؤدة الوادى نحو « هضبة الحماده » . وينمحى الليل أمام مرور الضباب . فيقف الحارس عاقدا ذراعيه فوق صدره وبالكاد يتنفس ويبقى محدقا بعينيه إنه ينتظر تباشير الفجر والبقعة البيضاء التى تولد فى الشرق من فوق التلال . وحين يظهر الضوء فانه ينحنى على « نور » ويوقظه فى رفق واضعا يده على كتفه . ويبتعد الإثنان فى صمت ، يسيران فوق الطريق الرملى الذى ينتهى الى البئر . وتنبح الكلاب من بعيد وفى ضوء الفجر الرمادى الهادىء يغتسل الرجلان وفق تعاليم دينهما . فيغسلان أجزاء جسديهما جزءا جزءا ثلاث مرات فماء الآبار بارد ونقى فهو نابع من الرمل ومن الليل ثم يغمران وجهيهما مرة أخرى ثم يغسلان أيديهما ثم يتجهان جهة الشرق ليؤديا صلاة الفجر ثم تبدأ السما فى إنارة الأفق .

وفى المخيمات تتأجج نيران المواقد انتهازاً لأماكن الظل . وتذهب النساء لتجلب المياه وتجرى الفتيات فى مياه البئر صائحات قليلا ثم يرجعن وهن يتخبطن حاملات الجرار فى اتزان على رقابهن الواهنة . ثم تعلو ضوضاء الحياة ونبضاتها من المخيمات ومن المنازل المصنوعة من الطين تعلو هذه الأصوات وهى خليط من المعادن والصخور والماء . وتتجمع الكلاب الصفراء فى الميدان وتدور فى دوائر نابحة . وتضرب الإبل والماعز الأرض بأرجلها فتثير بذلك التراب الأحمر .

وفى هذه اللحظات يبدو الضوء جميلا فوق « ساقية

fb/mashro3pdf

الحمراء » فهو يأتى من السماء والأرض فى وقت واحد وكأنه وهج من الذهب والنحاس الذى يتلألأ فى السماء الصافية دون أن يحرق أو يعطل الحواس وتزيح الشابات أستار الخيمة قليلا حتى يمشطن شعورهن الغزيرة ويعقصنه ثم يرفعنه الى أعلى حيث يعلقن الحجاب الأزرق ويبرق النور الجميل على وجوههن وأذرعهن النحاسية .

ويرقب « نور » هو أيضا وهو منحنى على الرمال ضوء النهار الذى يملأ السماء فوق المخيمات . وتطير الطيور عابرة فى بطء الفضاء وتعلو فوق الوادى الأحمر الى أين ؟ ربما تذهب حتى رأس « الساقية » أو حتى الوديان الضيقة ذات الأرض الحمراء بين جبال « الأحمر » ثم انها ترجع اذا ماغربت الشمس الى الوادى الفسيح أو الى الحقول هناك حيث تتشابه منازل الرجال ببيوت النمل .

ربما تكون عرفت مدينة « عيون » مدينة الطين والعروش ذات السقوف المصنوعة فى بعض الأحيان من المعدن الأحمر . وربما أيضا تكون قد عرفت البحر ذات المياه الزمردية والبرونزية البحر الحر ؟

يبدأ المسافرون فى الوصول الى « ساقية الحمراء » قوافل من الرجال والماشية تهبط الكثبان مثيرين سحبا من التراب الأحمر . فهم يمرون أمام المخيمات دون أن يديروا رؤوسهم ومازالوا متباعدين ومنعزلين كما لو كانوا وسط الصحراء . انهم يتجهون فى بطء الى مياه الآبار يُرطبوا أفواههم الدامية . لقد بدأت الرياح فى الهبوب هناك فى أعالى هضبة « الحمراء » وفى الوادى كانت تضعف فوق النخيلات القصار أو بين شجيرات الشوك

fb/mashro3pdf

أو فى متاهات الصخور الصلدة . ولكن بعيدا عن « الساقية » فالعالم يلمع كالشرر فى عيون المسافرين فيروا سهولا من الصخور وجبالا ممزقة ومساحات من الرمال تلمع فى ضوء الشمس . فالسماء لاحدود لها فهى زرقاء ولكن زرقتها قاسية تحرق الوجوه فاذا بعدت أكثر فان الناس تمشى فى شبكة من الكثبان فى عالم غريب .

ولكنه عالمهم الحقيقى فهذه الرمال وهذه الصخور وهذه السماء وهذه الشمس وهذا الصمت وهذا الألم لايشبه مدن المعادن والأسمنت حيث يسمع الإنسان خرير ماء النافورات والأصوات الآدمية . فهنا يكون نظام الصحراء الخاوية حيث كل شيء ممكن وحيث يمشى الانسان بلا ظل على حافة موته . يتقدم الرجال الزرق على الطريق غير المرئى نحو « سمارة » غير مبالين أحرارا أكثر من أى شخص آخر فى العالم فحولهم وعلى مرمى البصر تكون رؤوس الكثبان الرملية المتحركة وأمواج الفضاء التى لايعرفها الانسان . فأقدام النساء والأطفال العارية تترك على الرمال آثارا خفيفة سرعان ماتمحوها الرياح . وعلى البعد يتراقص السراب بين السماء والأرض فيبدو وكأن مدائن بيضاء وأسواقاوقوافل من الإبل والحمير محملة بالمؤن وبأحلام لاتتحقق وحتى الرجال يشبهون السراب . ذلك لأن الجوع والعطش والتعب قد أوجدتهم فوق الأرض القاحلة .

فالطريق دائرية تقود دائما الى حيث بدأت . راسمة دوائر تزداد ضيقا حول « ساقية الحمراء » ولكنه طريق لانهاية له . ذلك لأنه أطول من الحياة الانسانية . لقد أتى الرجال من

fb/mashro3pdf

الشرق فوق جبال « عدمة الريح » من « يتى » أو من « تابليالا » كما يأتى آخرون من الجنوب من واحة « العريشا » أو من « بير عبد الملك » لقد ساروا نحو الغرب ونحو الشمال حتى شواطىء البحر أو خلال مناجم الملح فى « تغازا » ولقد عادوا محملين بمؤن وسلاح حتى الأرض المقدسة إلى وادى « ساقية الحمراء » دون أن يعلموا الى أين بعد سيرحلون لقد جابوا الأرض والبلاد مهتدين بالنجوم ومتجنبين الرياح التى تعصف بالرمال حين تصطبغ السماء باللون الأحمر وحين تتحرك الكثبان .

هكذا يعيش النساء فى سير دائم دون راحة . انهن يمتن يوم أن تفاجئهن حرارة الشمس أو يقتلن برصاص عدو أو تطحنهن الحمى . فالنساء يلدن الأطفال فى ظلال الخيام تساندهن عامة اثنتان من النساء أثناء الولادة ويربطن بطونهن بحزام عريض من القماش . ومنذ اللحظة الأولى لحياة الأطفال يوهبون الى هذا الفضاء الذى لاحدود له . يوهبون الى الرمال والى النبات الشائك والى الثعابين والجرذان وخصوصا الى الريح لأن هذا كله هو عائلتهم الحقيقية .

أما الفتيات الشابات ذوات الشعور النحاسية فيكبرن ويتعلمن أمور الحياة وليس لهن مرايا أخرى سوى المساحات الهائلة من السهول الجيريه تحت السماء الواحدة . ويتعلم الصبية أيضا المشى والكلام والصيد والقتال فى بساطة يتعلمون كيف يموتون فوق الرمال .

يظل الحارس واقفا أمام الخيمة من ناحية الرجال مدة طويلة

fb/mashro3pdf

دون حراك لينظر تحركات القوافل تجاه الكثبان وتجاه الآبار ، تضىء الشمس وجهه الأسمر وأنفه المعقوف كمنقار النسر وشعره الطويل الملتوى ذو اللون النحاسى . لقد حدثه « نور » ولكنه لايصغى لحديثه ولكن حين يهدأ المخيم فانه يشير الى « نور » ثم يسيران معا على طول الطريق الذى يقودهما الى الشمال نحو وسط « ساقية الحمراء » وفى بعض الأحيان يمران فى طريقهما بأحد من الناس يسير نحو « سماره » فيتبادلون بعض الكلمات :

ــ من أنت ؟

ــ « يوجيا »

ــ وأنت ؟

ــ « أميه »

ــ ومن أين أنت قادم ؟

ــ « عين راج »

ــ انى من الجنوب ، من « إيجيتى »

ثم يفترقون دون كلمة وداع

والى أبعد من هذا نجد أن الطريق الدارس يمر بين صخور الزينة وخميلات ضئيلة من أشجار الشوك فيكون من العسير السير فيه لكثرة مابه من حصى حاد يخرج من الأرض الحمراء . يجد « نور » مشقة فى متابعة أبيه . وقد صار الضوء أكثر شدة وبريقا . كما تثير الرياح الرمال بين أقدامهم ففى هذا المكان لم يعد الوادى فسيحا فقد أصبح كحفرة رمادية وحمراء تلهب وتصهر كالمعادن . فيتراكم الحصى ويعيق بطن المجرى الجاف الذى صار مليئا بالصخور البيضاء والحمراء والسوداء والتى تجعل منها الشمس لهيبا وهاجا .

fb/mashro3pdf

يسير المرشد عكس الشمس منحنيا الى الأمام ويغطى رأسه بمعطفه الصوفى كما تمزق أشواك الأشجار ملابس « نور » وتشقق ساقيه وقدميه . ومع ذلك فانه لا يأبه لها ويمضى غير عابىء بذلك مسددا بصره الى الأمام ليركزه على هيكل أبيه المجد فى السير . وفجأة يتوقفان عن السير معا . فقد لاحت لهما المقبرة البيضاء من بين صخور التلال ساطعة النور فى ضوء السماء ويقف الرجل بدون حراك منحنيا قليلا كما لو أنه يحيى المقبرة ثم يستأنفان السير فوق الحصى الذى يتهاوى بين أقدامهما .

وفى بطء شديد ودون أن يرخى عينيه يصعد المرشد الى المقبرة وكلما ازداد اقترابا منها بدا سقفها المستدير كأنه يبرز من بين الصخور الحمراء متجها الى السماء . ان الضوء الجميل الصافى يضىء المقبرة ويملؤها بالهواء الشديد الحرارة . فليس فى هذا المكان ظل وانما توجد صخور التل الحادة . والى أسفل يوجد بطن المجرى الجاف .

لقد وصلا أمام المقبرة . انها عبارة عن أربع حوائط من الطين مدهونة بطبقة من الجير وموضوعة على قاعدة من الصخر الأحمر . بها باب واحد يشبه مدخل فرن تغلقه صخرة ضخمة . وفوق الأسوار تقوم القبة البيضاء على هيئة قشرة بيض وتنتهى على هيئة سن حربة . لم ير « نور » سوى مدخل المقبرة وقد تضخم فى نظره الباب فكأنه أمام باب لأثر ضخم له أسوار شبيهة بالصخور الطباشيرية كما بدت له القبة كالجبل تتوقف عندها الرياح وحرارة الصحراء ووحدة النهار . هنا تنتهى الطرقات التى يضل فيها التائهون والمخبولون والمنهزمون ربما كانت قلب الصحراء . انها المكان الذى بدأ فيه كل شىء فى الماضى

fb/mashro3pdf

حين وصل اليه الناس للمرة الأولى . ان المقبرة تلمع على سفح التل الأحمر . إن ضوء الشمس ينير الأرض ويحرق القبة البيضاء فتتساقط فى انسياب من وقت لآخر سيول من الرماد الأحمر على تشققات الحوائط . ظل « نور » وأبوه وحيدين بقرب المقبرة على حين يخيم الهدوء المطبق على وادى « ساقية الحمراء » . ومن الباب المستدير رأى المرشد الظل الوارف كما أحس البرودة حين أزاح الحجر الثقيل . وقد شعر بأن نسيما قد هب على وجهه .

وحول المقبرة كان يوجد مكان من الأرض الحمراء قد مهدته أقدام الزائرين . وعنده وقف المرشد و « نور » لتأدية الصلاة أولا . وهناك فى أعلى التل وقريبا من مقبرة الرجل المقدس ووادى « ساقية الحمراء » الذى يمتد بعيدا حتى نهاية البصر والأفق حيث تظهر قباب تلال عديدة وصخور ناتئة شامخة نحو السماء الزرقاء يصير الصمت أكثر إيلاما ورهبة وتبدو الحياة وكأنها توقفت عن الحركة وعن الكلام وان كل شىء قد تحول الى صخور . ولكن رغم ذلك كله ومن آن لآخر يسمع صوتا يصدر من الحوائط الطينية أو حفيفا صادرا عن بعض الحشرات أو صرير الرياح .

وفجأة يرتفع صوت المرشد الراكع بركبتيه على الأرض وهو يقول « لقد أتيت » ساعدينى ياروح أبى وياروح جدى ... فقد عبرت الصحراء اليكما أطلب بركتكما قبل أن أموت فامنحانى هذه البركة لأنى من لحمك . « لقد حضرت اليكما » . ظل يتحدث بهذا الكلام و « نور » يصغى اليه دون أن يفهم شيئا . فقد كان يتكلم تارة بصوت عميق وتارة أخرى يهمس ويتمتم وكأنه يغنى هازا رأسه يمينا وشمالا مكررا دائما هذه العبارة

fb/mashro3pdf

السهلة « لقد حضرت اليكما » ثم ينحنى الى الأمام جامعا فى راحتيه التراب الأحمر فيهيله على وجهه وجبهته وعينيه وشفتيه . ثم يتوقف ويسير حتى الباب . وأمام هذه الفتحة يركع على ركبتيه ويصلى مرة أخرى واضعا جبهته على صخور العتبة وينقشع الظل فى بطء كضباب الليل فى داخل المقبرة ذات الحوائط البيضاء العارية تماما مثل خارجها . أما السقف المنخفض فتظهر فيه حراب فروع الأشجار المختلطة بالطين الجاف .

لقد دخل « نور » هو أيضا على يديه ورجليه حتى أنه أحس فى كفيه صلابة وبرودة بلاط الأرض مختلطة بدم الخراف . وفى أعماق المقبرة وعلى الأرض انبطح المرشد على وجهه ولمس بيديه الأرضية وقد مد ذراعيه أمامه . لم يعد يصلى الآن كما أنه لم يعد يغنى أو يرتل بل إنه بدأ يتنفس فى بطء شديد من فمه الملتصق بالأرض . وكان يستمع الى ضربات دمه فى حلقه وفى أذنيه . فكان كمن تسلل الى داخله شىء غريب عن طريق فمه أو جبهته أو عن طريق كفيه أو بطنه . شىء قد تغلغل فى أعماقه فبدَّله تماما . ربما كان هذا الشىء هو الصمت الآتى من الصحراء أو البحر أو الكثبان الرملية أو الجبال الصخرية . ربما كان من الصخور تحت ضوء القمر أو من السهول الفسيحة الوردية حيث ضوء الشمس الذى يتراقص ويهتز كستار من المطر . هدوء حُفر الماء الأخضر التى تتطلع كعيون الى السماء . هدوء سماء صافية لاسحاب فيها ولاطيور حيث تكون الريح حرة خاليه .

لقد أحس الرجل الممدد على الأرض باسترخاء أعضائه وأن

fb/mashro3pdf

الظل قد ملأ عينيه فأسبلهما كما لو كان يزمع النوم . ومع هذا فقد أحس نشاطا جديدا نفذ اليه عن طريق بطنه ويديه وشاع فى عضلاته . ففى داخله قد تغير كل شىء واكتمل ولم يعد فى نفسه شعور بألم أو رغبة فى ثأر . فقد نسى كل هذا كما لو كانت مياه الوضوء قد غسلت روحه ولم تعد هناك كلمات ، فان الظل البارد للمقبرة جعل كل ذلك عبثا وقد حل مكان ذلك التيار الغريب الذى يهز الأرض المختلطة بالدماء وهذه الموجة وهذه الحرارة . فكان كل ذلك وكأنه لم يوجد على سطح الأرض .

فقد كانت قوة مباشرة لاتفكير لها تأتى من باطن الأرض متجهة الى أعماق الفضاء وكأنها رباط غير منظور يصل بين جسد هذا الرجل الممدد وبقية العالم . كان « نور » يتنفس فى صعوبة وهو ينظر الى والده من خلال ظلال المقبرة وظلامها . كانت أصابعه تتلمس الأرض الباردة وتسحبه من خلال الفضاء فى سباق مجنون .
لقد بقيا هكذا وقتا طويلا . المرشد ممدداً على الأرض و « نور » منحنيا على أربع مفتوح العينين وبلا حراك . وحين انتهى كل شىء قام الرجل فى بطء وأخرج ولده ثم ذهب ليجلس مستندا الى حائط المقبرة قريبا من الباب . ثم دفع الصخرة حتى تغلق مدخل المقبرة . لقد بدا منهكا كما لو أنه سار على قدميه عدة ساعات دون أن يشرب أو يأكل . ولكن فى أعماقه كانت تعتمل قوة جديدة وسعادة طاغية أضاءت نظراته وتطل من عينيه وصار وقد عرف جيدا الآن مايجب عليه أن يعمل كما عرف مقدما الطريق التى يجب أن يسلكها .

fb/mashro3pdf

أسدل طيات معطفه الصوفى على وجهه ثم توجه بالشكر الى الرجل المقدس بإيماءة قصيرة دون أن ينطق بحرف حابسا تضرعه فى حلقه . ثم لمس بيديه الزرقاوين فى حنان الأرض وقابضا على ترابها الناعم .

واصلت الشمس أمامهما مدارها فى السماء وفى بطء شديد أخذت تهبط ناحية الجانب الآخر من « ساقية الحمراء » وكانت ظلال التلال والصخور تمتد الى بطن الوادى ولكن المرشد كان لاهيا عن كل هذا فلم يعره انتباها ولم يأت بحركة وظهره متكىء على حائط المقبرة فلم يحس بمرور النهار ولم يشعر بالجوع والعطش .

فقد كان تحت تأثير قوة أخرى وزمن آخر جعله غريبا عن كل مايألفه الرجال . فربما لم يعد ينتظر شيئا أو يعرف شيئا بل صار هادئا ساكنا كالصحراء . سكون وغياب . وعندما بدأ الليل يرخى سدوله أحس « نور » نوعا من الخوف فلمس كتف أبيه فالتفت اليه الرجل دون أن يتكلم ولكن علت فمه ابتسامة صغيرة ثم بدأ الاثنان فى الهبوط نحو المجرى الجاف . وبرغم الليل فقد أصاب أعينهما ألم إذ كانت الريح الحارة تلفح وجهيهما وأيديهما . وكان الرجل يمشى مترنحا بعض الشيء فوق الطريق فكان لزاما عليه أن يتكىء على كتف « نور » .

وفى أسفل بطن الوادى كانت مياه الآبار سوداء ويتراقص الناموس فى الهواء محاولا لدغ الجفون . وفوق هذا وبالقرب من الحوائط الحمراء لمدينة « سمارة » كانت الخفافيش تطير فوق رؤوس الخيام وتدور حول الموقد . وما أن وصل « نور » وأبوه الى أول بئر حتى توقفا ليغسلا جيدا كل جزء من جسديهما ثم قاما بآداء آخر صلاة وهما متجهان نحو الجانب الذى يأتى منه الليل .

fb/mashro3pdf

لقد أخذ عدد القادمين الى وادى « ساقية الحمراء » يتزايد . فبعضهم يصل من الجنوب والبعض الآخر يصل فوق إبلهم وخيولهم . ولكن الأكثرية كانت تصل سيرا على الأقدام . ذلك لأن الدواب تموت من العطش أو المرض فى الطريق . ففى كل يوم حول أسوار « سماره » الطينية يرى الشاب المخيمات الجديدة فقد كانت الخيام الصوفية البنية اللون تضيف حلقات جديدة حول أسوار هذه المدينة . وفى كل مساء حين يرخى الليل سدوله يرى « نور » أفواج المسافرين الذين يفدون مثيرين أمواجا من التراب . فهو لم يشاهد مطلقا جمعا من الناس فى مثل هذا العدد . إن أصواتهم فى تضارب مستمر تمتزج فيها أصوات الرجال والنساء بصرخات الأطفال الحادة متداخلة بصيحات الماعز والخراف مع الأصوات التى تصدر عن سروج الدواب فى العربات فى حين كانت تنبعث رائحة غريبة لايعرفها « نور » تحملها رياح المساء . فهى رائحة قوية حادة وناعمة فى آن واحد . إنها رائحة الأجساد البشرية وتنفسهم وعرقهم مع دخان احتراق الخشب فى المواقد والأغصان وروث البهائم وهو يعلو فوق الخيام كما كان يصغى « نور » الى هَدْهَدة النساء للأطفال ليجلبن النعاس الى جفونهم .

لقد كانت أغلبية من وصلوا الآن من العجائز والنساء والأطفال وهم مرهقون من طول السير المضنى فى الصحراء بأسمالهم المهلهلة وأقدامهم العارية أو ملفوفة فى خرقة وجوههم مسودة محترقة من حرارة الشمس وعيونهم كأنها قطع من الفحم . أما الأطفال الصغار فانهم يسيرون عراة تعلوا أرجلهم

fb/mashro3pdf

الجراح وببطون خاوية نتيجة للجوع والعطش .. لقد طاف « نور » خلال المخيم وهاله كثرة الناس ومع ذلك فقد أحس نوعا من الاشفاق الممزوج بالألم لأنه فكر دون أن يفهم كيف ان هؤلاء الرجال والنساء والأطفال سوف يموتون عما قريب .

وكثيرا ماكان يلتقى ببعض هؤلاء الوافدين وهم يتنقلون فى بطء دون توقف بين طرقات المخيم . بعضهم أتى من أقاصى الجنوب سوداً كالسودانيين ويتحدثون لغة يجهلها « نور » ويلبس أغلب رجالهم أقنعة متشحين بمعاطف صوفية وملابسهم زرقاء ويلبسون نعالاً من جلود الماعز ويحملون بنادق طويلة من الحجر ذوى فوهة برنزية ومعهم حراب وخناجر . لقد تنحى « نور » ليفسح لهم الطريق فقد كانوا يسيرون نحو بوابة « سمارة » انهم يذهبون لتحية الشيخ الأكبر مولاى « أحمد بن محمد الفاضل » الذى يسمى « ماء العينين » انهم يذهبون جميعا ليجلسوا على أرائك من الطين الجاف حول فناء منزل الشيخ . انهم يذهبون ليؤدوا صلواتهم حين تغرب الشمس شرق البئر راكعين على الرمال ومتجهين بأجسادهم ناحية الصحراء .

وعندما يحل الليل يعود « نور » الى خيمة أبيه ويجلس الى جوار شقيه الأكبر . فى الجانب الأيمن من الخيمة تجلس أمه وشقيقاته يتحدثن وهن ممدات على البساط بين المؤن وسروج الإبل . وشيئا فشيئا يعود الهدوء فى « سمارة » وفى الوادى . فتخفت تدريجيا ضوضاء الناس وكذا أصوات الدواب . ويظهر البدر وسط السماء السوداء كاسطوانة بيضاء لامعة . وتشتد برودة الليل رغم شدة حرارة النهار والتى تبقى كامنة فى الرمال وتطير بعض الخفافيش فى ضوء القمر هابطة فى سرعة نحو الأرض . ويظل « نور » راقدا على جانبه ورأسه بين ذراعيه

fb/mashro3pdf

يرقب هذه الخفافيش ويتابعها بنظره فى انتظار النوم . وفجأة يغلبه النوم دون أن يدرى وهو مفتوح العينين .
وحين استيقظ أحس احساسا عجيبا بأن الوقت لم يمر وقد جال بعينيه باحثا عن قرص القمر . ولما رأى أنه بدأ فى الهبوط ناحية المغرب عرف أنه قد نام وقتا طويلا .
لقد جثم الهدوء على المخيمات فكان لايسمع سوى نباح الكلاب البرية فى ناحية ما على حدود الصحراء . استيقظ « نور » وقد تبين أن والده وشقيقه لم يكونا بالخيمة ولم تبق سوى هياكل غير واضحة من النساء والأطفال فى بسار الخيمة ملتفين فى البساط . فبدأ « نور » فى السير على طريق الرمل بين المخيمات فى اتجاه أسوار « سماره » كان الرمل أبيض مضاءً بنور القمر ومن حوله ظلال زرقاء للحصى والشجيرات . ولم تكن هناك أية ضوضاء . كأن الرجال جميعا قد ناموا . ولكن « نور » يعرف جيدا أن الرجال قد غادروا الخيام ولم يعد سوى الأطفال يَغُطّون فى نومهم . أما النساء فكن خارج الخيام ينظرن دون حراك وقد التففن فى معاطفهن والأبسطة . فهواء الليل يبعث الرعدة فى الشاب الصغير وان الرمل بارد وصلد تحت أقدامه العاريه .
وعندما اقترب من أسوار المدينة سمع « نور » همهمة الرجال كما رأى على البعد هيكلا لايتحرك ، منحنيا أمام باب المدينة وسلاحه الطويل مستند على ركبتيه . ولكن « نور » يعرف مكانا آخر حيث إنهار جزء من السور المصنوع من الطين فاستطاع الدخول منه الى « سماره » دون أن يمر أمام الحارس .
فى الحال اكتشف تجمع الرجال فى فناء بيت الشيخ فقد كانوا جلوسا على الأرض فى مجموعات مكونة من خمسة أو ستة أشخاص حول المواقد حيث تمتلىء القدور النحاسية بالماء لعمل

fb/mashro3pdf

الشاى الأخضر .

انضم « نور » الى الجمع دون أن يحدث صوتا فلم يلتفت اليه أحد اذ كان الرجال منصرفين بأنظارهم الى مجموعة من المحاربين قد وقفوا أمام باب المنزل . كما كان هناك بعض جنود الصحراء فى أرديتهم الزرقاء . يقفون دون حركة ينظرون الى رجل شيخ يرتدى معطفا بسيطا من الصوف الأبيض يغطى رأسه . وكان رجلان فتيان مسلحان يتكلمان فى شدة كل فى دوره . ومن هذا المكان حيث جلس « نور » فبسبب همهمة الرجال الذين يكررون أو يعلقون على كل مايقال فلم يكن من الممكن تفهّم كلامهم .

وحين اعتادت عينا « نور » هذا التناقض بين الظلال وضوء اللهب الأحمر للمواقد رأى « نور » شبح الرجل العجوز الذى كان هو الشيخ الكبير « ماء العينين » والذى كان قد شاهده من قبل حين حضر أبوه وشقيقه لتحيته عند وصولهم لبئر « سمارة »

سأل « نور » جاره عن الشابين اللذين يحيطان بالشيخ فعرف أسماءهما « سعدبو » و « لارهداف » شقيقا « أحمد الدهيبه » الملقب بقطعة الذهب والذى سيكون ملكنا الحقيقى فى المستقبل القريب . لم يعن « نور » بالإصغاء الى كلام المحاربين وانما ركز نظره فى اهتمام شديد على وجه الرجل الشيخ الذى لايتحرك بين الحارسين والذين كان معطفه زاهى اللون فى ضوء القمر فبدا كنقطة بيضاء .

نظر اليه الجميع أيضا تركزت نظراتهم عليه كما لو كان هو الذى يتكلم حقيقة أو كأنه هو الذى سيشير باشارة منه فيتغير كل شيء ذلك لأنه هو الذى يعطى الأوامر للصحراء نفسها .

fb/mashro3pdf

لم يتحرك « ماء العينين » وبدا وكأنه لايسمع حديث أولاده ولا حتى همهمة المئات من الرجال الجالسين فى الفناء أمامه . وكان فى بعض الأحيان يدير رأسه قليلا لينظر هناك أبعد من الرجال وأبعد من الأسوار الطينية أو نحو السماء الداكنة فى اتجاه التلال الصخرية . لقد ظن « نور » أنه يريد أن يرجع الرجال الى الصحراء التى رحلوا منها فينقبض لذلك قلبه ـــ انه لايفهم مايقوله الناس من حوله . ففوق « سماره » كانت السماء بلا عمق ، باردة ، وبها نجوم غارقة فى سحب كثيفة بيضاء نتيجة لنور القمر وكأنها علامة من علامات الموت أو النسيان أو كعلامة من علامات الغياب القاتل الذى يعمق الفراغ فى الخيام التى لاحركة فيها أوفى أسوار المدينة . لقد أحس « نور » بكل هذا خاصة حين كان يمعن النظر فى شبح هذا الشيخ كما لو أنه نفذ الى قلب الشيخ نفسه ودلف الى أعماق صمته .
لقد حضر جميع الشيوخ ورؤساء الخيمة الكبيرة والمحاربون الزرق . حضر الجميع الواحد بعد الآخر . كانوا جميعا يرددون نفس الكلمات تتهدج أصواتهم من أثر التعب ومن الجفاف .
انهم يتحدثون عن الجنود المسيحيين الذين دخلوا واحات الجنوب والذين جلبوا الحرب الى البدو . فهم يتحدثون عن المدن المحصنة التى بناها المسيحيون فى الصحراء والتى أغلقت الآبار حتى شواطىء البحر .
انهم يتحدثون عن المعارك الخاسرة . عمن ماتوا من الرجال ، كانوا كثرة حتى ان أحدا لايذكر أسماءهم . عن مجموعات من النساء ومن الأطفال الذين فروا الى الشمال مخترقين الصحراء وعن هياكل الماشية الميتة التى يقابلها الانسان على الطريق .
انهم يتحدثون عن القوافل التى لانهاية لها حين يطلق جنود

fb/mashro3pdf

المسيحيين سراح العبيد ، وطردوهم ناحية الجنوب وحين تسلم محاربو التوارج ، نقود المسيحيين ثمنا لكل عبد سرقوه من القوافل . انهم يتحدثون عن البضائع وعن الماشية المغتصبة أو عن مجموعات اللصوص الذين دخلوا الصحراء فى نفس الوقت الذى دخلها فيه المسيحيون . انهم يتحدثون أيضا عن الجنود المسيحيين مسترشدين بزنوج الجنوب . وكان الأعداء من الكثرة حتى انهم غطوا كثبان الرمل من طرف حتى الطرف الآخر من الأفق . ثم عن الفرسان الذين حاصروا المخيمات وقتلوا فى الحال كل من قاومهم ثم يحملون بعد ذلك الأطفال ليضعوهم فى مدارس المسيحيين أو فى الحصون على شواطىء البحر . فحين سمع الرجال الآخرون هذا الكلام أقسموا بالله انه صحيح . فازدادت همهمة الأصوات وتحركت فوق المكان مثل صوت الريح .

أنصت « نور » الى الأصوات التى قويت وزادت ثم هوت كمرور ريح الصحراء فوق الكثبان واحتبس حلقه ذلك لأنه أحس أن أمرا مروعا يهدد البلدة وكذا على الرجال لم يستطع التكهن به أو فهمه .

ودون أن يطرف عينيه أو يحرك أهدابه اتجه ببصره نحو الرجل المسن الأبيض الذى يقف بين ولديه الواقفين دون حراك بالرغم من التعب وبرودة الليل . ظن « نور » بأن « ماء العينين » يقوى على أن يغير مجرى تلك الليله . فبإشارة من يده يهدىء غضب الجماهير كما أن باستطاعته أن يلهب الموقف ببضع كلمات تنتقل من فم الى فم فتثير موجة الغضب والمرارة . « فنور » كباقى الرجال كانوا ينظرون الى الرجل بعيون ملتهبة من التعب وأرواح يملؤها الألم . فالجميع يحسون بأن جلودهم قد

fb/mashro3pdf

يبست من حرارة الشمس وان شفاههم قد تشققت من فعل رياح الصحراء . فقد ظلوا فى أماكنهم ينتظرون دون حركة وقد تركزت عيونهم فى انتظار أية إشارة ولكن « ماء العينين » بدا وكأنه لم يلحظ شيئا . مرسلا نظراته الى المدى البعيد متخطيا رؤوس الحاضرين وأسوار « سمارة » الطينية . كمن يبحث عن اجابة فى ظلمة السماء أو فى السحب التى تسبح حول القمر تشرح ذعر الرجال . نظر « نور » الى أعلى من مستوى الرجل الى حيث يرى الانسان النجوم السبعة التى تكون المجرة الصغيرة ولكنه لم يتبين شيئا ورأى « كوكب عطارد » هو الوحيد الذى ظهر متجمدا فى السماء الباردة . لقد غطى ضوء القمر كل شىء بضبابه . لقد أحب « نور » النجوم ذلك لأن أباه قد علمه أسماءها حين كان صغيرا . ولكن وفى هذه الليلة بالذات بدا وكأنه لايعرف شيئا عن السماء فقد تراءى له كل شىء كبيرا باردا غارقا فى ضوء القمر الفضى وكان كمن أصيب بالعمى . أما على الأرض فقد جعلت نيران المواقد حفرا حمراء انعكس ضوؤها على وجوه الرجال . وربما كان الخوف هو الذى بَدّل كل شىء وجعل الوجوه والأيدى فى هزال . وأحاطت عيونهم هالات من السواد وقد جمد الضوء فى نظرات الرجال وحفر هذه الفجوة الكبرى فى كبد السماء .

وحين إنتهى الرجال من كلامهم وقف كل فى دوره الى جانب الشيخ « ماء العينين » جميعا ممن سمع « نور » أسماءهم من أبيه فيما مضى من رؤساء قبائل المحاربين ورجال الاساطير مثل « ماكيل » و « أريب » و « أولاد يحيى » و « أولاد وليم » و « الاروسيين » و « اشر جيجن » و « الرقيبات » ذوى الاقنعة السوداء وكل من يتحدث بلغة « الشلوه » و « عداد بلال » و

fb/mashro3pdf

« عداد مريبات » و « اية باعمران » وغيرهم ممن لم تعرف أسماؤهم ومن وفدوا من أطراف موريتانيا ومن تمبكتو . وهؤلاء الذين رغبوا عن الجلوس بالقرب من المواقد وظلوا واقفين قرب مدخل الميدان ملتفين فى معاطفهم وعلى سيماهم يبدو الخوف والاحتقار . وغيرهم ممن رغبوا عن الكلام . لقد شاهدهم « نور » جميعا فريقا فريقا ولكنه أحس بالفزع الرهيب المرتسم على وجوههم كما لو كانوا مشرفين على الموت .

لم يرهم « ماء العينين » فهو لم يلتفت الى أحد سوى مرة واحدة ربما حين وقع بصره لمدة قصيرة على وجه « نور » كما لو كان قد دهش أن يراه وسط هذا الجمع . فمنذ هذه اللحظة الخاطفة التى تبدو وكأنها انعكاس لومضة لاتكاد تلحظ ولكن سرعان ماأخذ قلب نور يدق فى سرعة وشدة حتى لقد توقع أن الاشارة التى يجب أن يعطيها الشيخ للناس المجتمعين أمامه . ولكن الرجل المسن ظل دون حركة كما لو أنه انصرف بتفكيره الى شيء آخر فى حين أن ولديه انحنيا نحوه يحدثانه فى صوت خفيض . وأخيرا أخرج الرجل من ردائه مسبحة من الأبنوس وأحنى رأسه للأرض الى الأمام وبدأ فى الصلاة مرددا الصيغة التى سبق أن كتبها لنفسه وقد جلس ولداه الى جانبيه وكأنما هذه الحركة البسيطة قد أرضت جماهير الناس فلزموا الصمت وساد الهدوء على الميدان المزدحم فأصبح باردا كالثلج فى ضوء شديد البياض كالبدر الساطع . فمن العسير أن تسمع الأصوات البعيدة الآتية من الصحراء وصفير الرياح بين صخور الهضبة . فقد بدأ نباح الكلاب الضالة يسمع ويملأ هذا الفضاء . ودون ماتحية أو كلام أو أن يحدثوا أى صوت قام

fb/mashro3pdf

الرجال الواحد بعد الآخر دون جلبة وغادروا المكان . لقد ساروا فوق الطرق ، الواحد إثر الآخر زاهدين فى تبادل الحديث . فلما لمس الأب كتف « نور » قام من فوره ليغادر المكان أيضا . ولكنه قبل أن يغادره التفت ليرى هيكل الرجل المسن الهزيل وقد وجده الآن فى ضوء القمر مرددا صلواته مائلا بجذعه كمن يعتلى جوادا .

تعاظم القلق وتزايد فى الأيام التالية فى مخيم « سماره » وان كان سببه غير مفهوم غير ان كل فرد يحسه كألم فى القلب أو كتهديد . اشتد لظى الشمس أثناء النهار وكانت توزع حرارتها الحادة فوق الحصى وفى بطن المجارى المائية الجافة كما كانت تلال هضبة « الحمادا » العرضية الصخرية تلمع من بعيد وكان السراب يرى بغير انقطاع فوق وادى الساقيه . كما كانت تصل فى كل ساعة من النهار جماعات من البدو الرحل قد طحنهم التعب والعطش وافدين من الجنوب تختلط هياكلهم بالسراب . لقد كانوا يسيرون فى بطء وأرجلهم مربوطة برقائق من جلد الماعز ويحملون فوق ظهورهم أحمالا لاغناء فيها ويتبعهم فى بعض الأحيان إبل اضناها الجوع وخيول أصابها القرح وماعز وخراف . انهم يضربون خيامهم فى سرعة عند حافة المخيم فلا يذهب أحد لتحيتهم ولا يسألهم من أين أتوا .

وببعضهم آثار جراح من المعارك ضد جنود المسيحيين أو من قطاع الطرق فى الصحراء وكان أغلبهم فى شدة الضعف بسبب الحمى أو بسبب أمراض البطن . وفى بعض الأحيان كانت تصل فلول جيش بدون رؤساء بدون نساء جلود رجالهم سوداء يكاد يكونون عرايا من ملابسهم المهلهلة . يطل من عيونهم بريق الحمى والجنون ويذهبون ليرتووا من الينبوع أمام باب

fb/mashro3pdf

« سماره » ومن ثم يرقدون فى ظل أسوار المدينة ثم ينامون وتبقى عيونهم مفتوحة .

ومنذ ليلة اجتماع القبائل لم يعد « نور » مرة أخرى ليرى « ماء العينين » أو ولديه ولكنه كان يحس صدى الضوضاء التى هدأت حين بدأ الشيخ صلاته ولم تتوقف قط . فالهمهمة لم تعد فى الكلام الآن . فوالده وشقيقه الأكبر وأمه لم يقولوا شيئا حتى انهم كانوا يديرون رؤوسهم مخافة أن يسألهم سائل ولكن القلق كان يزداد دائما فيما يصدر عن المخيم من أصوات ومن صياح الماشية التى نفد صبرها ومن الضوضاء نتيجة وقع أقدام المسافرين القادمين من الجنوب . ومن العبارات القاسية التى يتقاذفها الرجال فيما بينهم أو حين يزجرون الأطفال وكان القلق أيضا فى الروائح النفاذة من عرق وبول ومن جوع وكل هذا العفن المنبعث من الأرض ومن ثنايا المخيمات . انه يزداد ويتضاعف نتيجة ندرة الطعام المكون من بعض البلحات الممتزجة بالتوابل ومن اللبن الرائب ومن حساء الشعير الذى يتناوله الناس فى سرعة فى الساعات الأولى من النهار قبل طلوع الشمس من بين الكثبان . ومما كان يزيد فى حالة التوتر والقلق مياه الآبار الراكدة القذرة فى الآبار والتى عكرتها أقدام الناس والحيوان والذى لم يستطع الشاى الأخضر أن يجعله طيب المذاق . فقد مضى وقت طويل دون وجود سكر أو عسل وحتى البلح فقد جف حتى صار كالحجر وأما اللحم فكله للابل التى نفقت من التعب فصار غير مستساغ الطعم وأصبح مقددا . لقد تفشى القلق فى كل شىء فى الأفواه الجافة وفى الأصابع الدامية أو فى الضغط الذى ترزح تحته الرؤوس وتنوء به الكواهل . بل فى حرارة النهار وبرودة الليل التى يرتعد منها الأطفال عند النوم بين ثنايا الأبسطة القديمة .

fb/mashro3pdf

وكان « نور » يسمع فى كل يوم عند المرور أمام المخيمات أصوات النساء الباكيات ذلك لأن انسانا قد مات أثناء الليل . ففى كل يوم يزداد المرء يأسا وغضبا . ولهذا كان قلب « نور » ينقبض أكثر . ولهذا فكر « نور » فى نظرة الشيخ التى تخطى بها أبعد مدى فوق التلال التى لاترى ليلا والتى توقفت عنده وتركزت عليه للحظة قصيره فأنارت أعماقه .

لقد وفد الجميع الى « سماره » وكأنها نهاية رحلتهم وكأن شيئا لم يعد ينقصهم . لقد جاءوا لأن الأرض من تحت أقدامهم وكأنها تفجرت من خلفهم فلم يعد بمقدورهم الرجوع على اعقابهم . والآن وقد استقروا بالمئات بل بالألوف على الأرض لاتقوى على استقبالهم واستيعابهم أرض بلا ماء وبلا شجر وبلا طعام . أخذت عيونهم تدور دون توقف فى جميع اتجاهات الأفق فتارة نحو جبال الجنوب أو صحراء الشرق وتارة أخرى نحو المجارى المائية الجافة فى « الساقية » ونحو هضاب الشمال العالية . كما ضاعت نظراتهم فى السماء الخالية من أى سحاب حيث تعمى أشعة الشمس الأبصار .

وهكذا أصبح القلق خوفا ومن الخوف غضبا . ويحس « نور » موجة غريبة تجتاح المخيمات وكأنها رائحة تنبعث من أقمشة الخيام وتلف حوله بلدة « سماره » كلها . وكانت أيضا نشوى الفراغ والجوع التى غيرت أشكال وألوان الأرض وغيرت زرقة السماء والتى أوجدت بحيرات كبرى من الماء النقى فى أعماق مناجم الملح الحارقة والتى تملأ الافق بسحب من الطيور والذباب .

لقد ذهب « نور » ليجلس فى ظل السور الطينى حين نزلت الشمس للمغيب . ونظر الى المكان حيث ظهر « ماء

fb/mashro3pdf

العينين » فى تلك الليلة فى الميدان . هذا المكان غير المرئى والذى ركع فيه الرجل ليصلى . وفى بعض الأحيان كان يحضر الآخرون مثله ويبقون ساكنى الحركة عند مدخل الميدان حتى يروا سور الأرض الحمراء ذا النوافذ الضيقه . انهم لايتكلمون وانما ينظرون فقط ثم يعودون الى مخيمهم . وبعد أيام الغضب والخوف فوق الأرض وفى السماء وبعد انقضاء هذه الليالى القارسة البرودة التى ينام فيها الانسان أقل وقت ويستيقظ فجأة دونما سبب وقد امتلأت عيونهم بحرارة الحمى وغطى أجسادهم عرق ردىء . بعد كل هذا الوقت الطويل الذى ينطفىء فيه الشيوخ والشباب شيئا فشيئا يُعرف فجأة ولا يدرى المرء كيف عرفوا أن لحظة الرحيل قد أتت . لقد سمعها « نور » من قبل وقبل أن تتحدث عنها أمه وقبل أن ينطق بها أخوه ضاحكا كما لو أن كل شىء قد تبدل « اننا راحلون غدا أو بعد غد . فاستمع جيدا سنرحل نحو الشمال . هذا ماقاله الشيخ « ماء العينين » فلسوف نرحل بعيدا جدا عن هنا » . ربما يكون الخبر قد جاء فى الهواء أو من التراب أو يكون « نور » قد شعر به حين أبصر الأرض فى ميدان « سماره » لقد جاء الخبر وعم المخيم فى سرعة خاطفة ورن صداه كالموسيقى . فأصوات الرجال وصيحات الأطفال ورنين الأوانى النحاسية وخوار الابل ووطء الأقدام وصهيل الخيل كل ذلك يشبه ماتحدثه الأمطار والسيول حين تهبط الوادى مجتاحة أمامها مياه المجارى الحمراء . لقد جرى الرجال والنساء فى الطرقات ووطئت الخيل بأقدامها وقضمت الابل الهائجة أربطتها ذلك لان نفاد الصبر قد نفذ فبرغم حرارة الشمس المحرقة فقد بقيت النساء واقفات أمام الخيام يتحدثن ويتصايحن ومع هذا لم يستطع انسان أن يقول

fb/mashro3pdf

كيف أن الخبر جاء أولا ولكن الجميع يرددون جملة واحدة أثارتهم « سوف نرحل . سوف نرحل الى الشمال »

لقد برقت عينا والد « نور » ببريق سرور طاغ مرددا « عما قريب سنرحل . لقد قالها شيخنا سوف نرحل قريبا » . وسألة « نور » الى أين ؟ الى الشمال أبعد من جبال « الذراع » نحو « سوس » و « تزينت » . هناك توجد المياه والأراضى لنا جميعا وهناك من ينتظرنا انه «مولاى هيبه» ملكنا الحقيقى إنه ابن « ماء العينين » الذى قالها وكذا « أحمد الشمس » أيضا .

سارت جموع الرجال فى الطرقات نحو مدينة « سمارة » وكذا سار « نور » فى تيارهم . وقد أثارت أقدامهم وأرجل حيواناتهم التراب الأحمر . ثار حتى أضحى سحابة كست المخيم . وللمرة الأولى أفرغت البنادق فكان يسمع لذلك صوت كما طردت رائحة البارود الكريهة رائحة الخوف الذى كان مسيطرا على المخيم . تقدم « نور » دون أن يرى يدفعه الرجال فيترنح مصطدما بحواجز الخيام كما جفف التراب حلقه وألهب عينيه . لقد كانت حرارة الشمس رهيبة تقذف بشواظ بيضاء من خلال كثافة التراب . سار « نور » لحظة هكذا حيثما اتفق مادا ذراعيه أمامه . وفجأة سقط على الأرض منكفئا على وجهه ثم زحف فى حمى خيمة . واستطاع أن يستعيد رشده فى الظل . حيث كانت تجلس امرأة عجوز أسفل قماش الخيمة ملتفة فى معطفها الأزرق وعندما رأت « نور » ظنته فى أول الأمر لصا فوجهت اليه سبابا ورمته ببعض الحصى فى وجهه . ولكنها عندما اقتربت منه ورأت صدغيه الملوثين بالتراب وماتركت الدموع عليهما من خطوط حمراء حنت عليه وقالت فى رقة : « مابك هل أنت مريض ؟ فهز رأسه فاقتربت منه على

fb/mashro3pdf

أربع : « اذاً فأنت مريض . سأعطيك قليلا من الشاى » . ثم صبت له الشاى فى اناء من النحاس وقالت « اشرب » وانعش الشاى الساخن « نور » ولم يكن به سكر . رد « نور » فى صوت متردد « سوف نرحل من هنا قريبا ... » .
نظرت اليه العجوز ثم هزت كتفيها : « نعم هذا مايقولونه » . فرد « نور » « انه يوم عظيم بالنسبة لنا » .
ولكن لاح فى عينى العجوز انها لاتصدق بأن هذا اليوم يوم مهم . ربما لأنها فى بساطة عجوز . وقالت « أنت ... ربما ستذهب هناك الى الشمال كما يقولون ولكنى سوف أموت قبل ذلك » . ثم كررت عبارتها ثانية : « انى سأموت قبل أن أصل الى الشمال » . وبعد ذلك خرج « نور » من الخيمة بعد وقت طويل فوجد أن الطرقات فى المخيم خالية كأن جميع الأحياء قد رحلوا . ولكنه لاحظ فى ظل الخيام بعض الأشباح البشرية . انهم الشيوخ والمرضى الذين يرتعدون من الحمى برغم الحر القائظ والأمهات الشابات اللائى يحملن أطفالهن الصغار واللائى ينظرن أمامهن بعيون لاحياة فيها . ويطل منها الحزن . فأحس نور انقباضا فى نفسه ذلك لأنه أحس بظل الموت يرفرف على الخيام .
وما أن اقترب « نور » من حائط المدينة حتى سمع صوت الموسيقى المنغمة . فالرجال والنساء مجتمعون أمام باب « سماره » على هيئة نصف دائرة محيطين بالموسيقيين . أنصت « نور » الى صوت الناى الذى أخذ يعلو وينخفض ثم يعلو وبعد ذلك يتوقف فى حين ان الطبول والربابة تكرر دون ملل نفس المقطع .
ثم ينبعث صوت هادىء ورتيب لرجل يغنى أغنية أندلسية

fb/mashro3pdf

ولكن « نور » لايستطيع فَهْمَ كلماتها . وفوق هذه البلدة الحمراء كانت السماء صافية شديدة الزرقة ولكنها قاسية انه عيد المسافرين الذى سيبدأ الآن . وسيمتد حتى فجر اليوم التالى وسوف ترفرف الأعلام وسوف يطوف الفرسان بأسوار المدينة مطلقين بنادقهم الطويلة فى حين يزغرد النساء بأصوات مرتعشه .

أحس « نور » بنشوة الموسيقى والرقص فنسى شبح الموت الرابض تحت الخيام . كان هذا كأنه السير الى مرتفعات الشمال . هناك حيث تبدأ الهضاب . وحيث تولد المجارى المائية ذات المياه النقية والتى لم يسبق لأحد أن رآها . ومع ذلك فان القلق الذى استقر داخله حين رأى جموع الرحل قد ظل فى مكان ما فى أعماقه . لقد أراد رؤية « ماء العينين » فقد دار حول الجمع باحثا عنه بين المغنين . ولكن الشيخ لم يكن بينهم وعلى ذلك مضى « نور » ثانية نحو الأسوار . لقد نفذ الى المدينة من نفس الفتحة التى استخدمها من قبل أثناء ليلة الإجتماع . لقد وجد الميدان الكبير خاليا تماما وحوائط مسكن الشيخ تلمع فى ضوء الشمس وحول باب المنزل كانت هناك رسومات من الإردواز غريبة الشكل فوق الجدران البيضاء . وقف « نور » لحظة غير قصيرة ليفحصها بعينيه وليرى الحوائط التى اندثرت بفعل الرياح . ثم سار الى وسط الميدان . كانت الأرض صلبة ساخنة تحت قدميه العاريتين تماما كقطع الصخور فى الصحراء . فى هذا الفناء المهجور خفتت أصوات الموسيقى وأصوات المزامير . فكأن « نور » كان يقف فى الطرف الآخر من العالم . أصبح كل شيء ضخما فى حين أن الشاب كان يمشى نحو وسط الميدان . فقد أحس بوضوح بضربات الدم فى

fb/mashro3pdf

أوردة الرقبة والصدغين ونبضات قلبه يرن صداها حتى انها وصلت الى الأرض تحت قدميه .

وحينما وصل « نور » الى الحائط الاردوازى حيث كان الرجل المسن منحنيا ليؤدى صلاته ارتمى على الأرض ووجهه فى التراب دون أن يتحرك أو حتى دون أن يفكر فى شىء قابضا بأصابعه على الأرض كما لو كان معلقا على جدار من الصخور العالية فقد أحس طعم الرماد والتراب يملأ فمه وأنفه .

وبعد فترة طويلة تجرأ ورفع وجهه فرأى معطف الشيخ الأبيض وسمعه وهو يسأله « ماذا تصنع هنا » ؟ وكان صوت « ماء العينين » هادئا وكأنه يصدر من بعيد كما لو كان فى الطرف الآخر من الميدان .

تردد « نور » فركع على ركبتيه وظل رأسه مائلا الى الأمام ذلك لأنه لم تكن لديه الشجاعة لينظر فى وجه الشيخ .

أعاد الشيخ سؤاله « ماذا تصنع هنا » ؟

أجاب « نور » « انى ... انى .... أصلى »

فابتسم الشيخ وقال « ولم تستطع الصلاة ؟ »

فقال « نور » فى بساطة « لا » ثم أمسك بكفى الشيخ وقال « امنحنى بركتك . باركنى لو تفضلت » .

فمر « ماء العينين » بيده على رأس « نور » ثم مسح على مؤخرة رأسه فى رفق ثم رفع الشاب اليه واحتضنه وقبله ثم سأله : « ماسمك ياولدى . ألست أنت من رأيته ليلة الاجتماع ؟ » فأجاب « نور » ذاكرا اسمه واسم أبيه واسم أمه . وعندما ذكر أمه أضاء وجه الشيخ وقال « اذا فأمك تنتمى الى « سيدى محمد الملقب بالأزرق » . فقال « نور » انه خال جدتى . فقال « ماء العينين » « أنت يقينا ولد لشريفة من

fb/mashro3pdf

الأشراف » ثم ظل صامتا لحظة وركز نظره الرمادى على عينى « نور » كما لو كان يبحث عن ذكريات . ثم أخذ يتحدث عن الرجل الأزرق الذى قابله فى واحات الجنوب بالطرف الآخر من صخور « الحمادة » فى فترة لم يكن فى هذه الجهة شيء موجود مما يوجد ولا حتى مدينة « سمارة » . لقد عاش الرجل الأزرق فى كوخ من الصخر ومن فروع الشجر على حدود الصحراء دون أن يخشى انسانا أو حيوانا متوحشا . ففى كل صباح كان يجد أمام باب كوخه قليلا من البلح ووعاء من حليب وقدر ماء عذب . ذلك لأن الله يرعاه ويطعمه . وحين كان « ماء العينين » يأتى لزيارته مستفسرا عن تعاليمه كان الرجل الأزرق يأبى لقاءه لمدة شهر فيظل قابعا عند بابه دون أن يوجه اليه كلاما أو حتى ينظر اليه ولكن كل مايفعله معه هو أن يترك له نصف كمية البلح واللبن الذى لم يذق « ماء العينين » فى حياته أحلى ولا أشهى مذاقا .. أما عن الماء فى القدر فقد كان يروى لساعته ويبعث فى النفس السرور والانتعاش ذلك لأنه كان ماء بكرا صنع من الندى النقى .

ومع ذلك ففى نهاية الشهر كان الشيخ حزينا لأنه لم يفز من الرجل الأزرق بمجرد نظرة وعلى هذا فهو يقرر العودة الى عائلته لأنه كان يظن أن الرجل الأزرق لم يجده أهلا لخدمة الله . فيسير على طريق قريته وقد فقد الأمل ولكنه فجأة يرى رجلا فى انتظاره . كان هذا الرجل هو « الأزرق » الذى يبادره سائلا « لم تركتنى » ثم يدعوه ليبقى معه فى نفس المكان الذى وقف فيه . وظل « ماء العينين » بالقرب منه عدة أشهر الى أن قال له ذات يوم « لم يعد لدى مأأعلمك اياه » ويقول « ماء العينين » « انك لم تعطنى شيئا من تعليماتك » . ولكن الرجل

fb/mashro3pdf

الأزرق يشير الى طبق البلح ووعاء اللبن وابريق الماء قائلا « ألم أقتسم معك كل هذا يوميا منذ وصولك » . وبعد ذلك أشار الى الأفق البعيد ناحية الشمال وناحية « ساقية الحمراء » وقال له أن يبنى هناك مدينة مقدسة لأولاده وأخبره أن واحدا منهم سيصير ملكا . وعلى ذلك غادر « ماء العينين » قريته مع ذويه وبنى مدينة « سماره » ولما انتهى الشيخ من سرد هذه القصة قَبَّل مرة أخرى « نور » وتوارى داخل ظل منزله .

وفى اليوم التالى عند غروب الشمس خرج « ماء العينين » من منزله ليؤدى صلاته الأخيرة . كما أن رجال ونساء المخيم لم يناموا بعد ذلك لأنهم لم يتوقفوا عن الغناء ودق الأرض بأقدامهم . ولكن هذه كانت الرحلة الكبرى نحو الجانب الآخر من الصحراء التى بدأت . وأن نشوة السير على طريق الرمال قد اعتملت فى أجسادهم اذ كانت تملؤهم بالهواء اللافح . ويتألق السراب أمام أعينهم . فلم ينس أحد المتاعب والعطش وحرارة الشمس المحرقة فوق الصخور وفوق الرمال التى لانهاية لها والى الأفق البعيد الذى يتراجع أمامهم دائما . لم ينس أحد الجوع فهو ليس جوع المأكولات فحسب بل الجوع بأشكاله المختلفة : جوع الامل ــ جوع التحرر ــ جوع كل نقص يغرس الدوار فى الأرض ــ الجوع الذى يدفع الى الأمام فى سحب الأتربة بين القطعان المشدوهه ــ الجوع الذى يدفع لتسلق منحدرات التلال حتى النقطة التى يجب أن يهبط معها عشرات بل مئات من التلال الأخرى المماثلة .

كان « ماء العينين » ساجدا من جديد على التراب فى

fb/mashro3pdf

وسط الميدان أمام المنازل المطلية بالجير . ولكن فى هذه المرة كان رؤساء القبائل يجلسون الى جواره . وقريبا منه أجلس « نور » وأباه فى حين بقيت الأم والشقيق الأكبر مع الجمع . لقد تجمع الرجال والنساء من المخيم على هيئة نصف دائرة راكعا بعضهم وملتفا فى معاطفهم الصوفية اتقاء برودة الليل . أما الآخرون وقوف أو يذرعون الطريق على أسوار الميدان . والموسيقيون يرددون موسيقاهم الحزينة . تلمس أصابعهم أوتار « الجيتار ويدقون الطبول بسباباتهم » .

وكانت ريح الصحراء تهب فى عنف على دفعات وتقذف الوجوه بالرمال التى تحرق الجلود . ومن فوق الميدان سماء زرقاء شبه سوداء . وفى كل مكان حول مدينة « سماره » يسود صمت وهدوء لانهائى . صمت تلال الصخور الحمراء . صمت زرقة الليل العميقة . كان هذا كما لو لم يكن هناك رجال سوى هؤلاء السجناء فى حفر ضيقة من الطين . أو أولئك المعلقين فى أرض حمراء حول مستنقع من الماء الرمادى . وبعيدا عن ذلك كان الصخر والريح وأمواج من الكثبان وملح ثم البحر أو الصحراء . وعندما بدا « ماء العينين » حلقة الذكر رن صوته مدويا فى هذا المكان تماما مثل نداء ماعز بعيد ضالة .

لقد رنَّ فى صوت يكاد يكون خفيضا هازا بجذع جسمه الى الأمام والى الخلف ولكن الصمت على الميدان وفى المدينة وعلى الوادى كله « للساقية الحمراء » كان مصدره وسببه فراغ رياح الصحراء . وكان صوت الشيخ صافيا ورصينا كصوت حيوان ملىء بالحياة .

أصغى « نور » الى هذا النداء الطويل وسرت فى جسده رعدة فقد كان الجميع من رجال ونساء فى سكون لا يأتون بحركة

fb/mashro3pdf

وكانت نظراتهم قد انقلبت الى داخل أجسادهم .
فقد كانت هناك جهة الغرب وفى أعالى الصخور المتكسرة من هضبة « الحمادا » كانت الشمس كبقعة حمراء . وتمتد الظلال على الأرض مبالغة . ثم تتجمع ويتحد بعضها مع البعض كماء يعلو ويفيض .
« العظمة لله . الله الحى الذى لايموت أبدا . العظمة لله يرعانا ذلك لأن رسل الله قد جاءوا بالحق » . ارتعش صوت « ماء العينين » فى نهاية كل دعاء وتهدجت أنفاسه حارة كاللهب وبالرغم من ذلك كانت مقاطع ألفاظه واضحة متئدة نقية ومتألقة وسط هذا السكون .
« العظمة لله العاطى الوهاب . والسيد الوحيد الذى يعرف كل شىء ويرى كل شىء ومحيط بكل شىء والآمر الناهى . العظمة لله الذى يعطى الخير والشر لأن كلامه هو الملاذ الأوحد وارادته هى الرغبة ضد الشر الذى يعمله الناس وضد الموت وضد المرض وضد الشقاء الذى خلق مع العالم .. » شمل الليل فى بطء كل شىء فالأرض أولا وبطون الرمال وأسوار المدينة أمام الرجال الذين لاحراك فيهم وتحت أقمشة الخيام وفى الحفر حيث تنام الكلاب وفى أعماق مياه الآبار العكرة
« ان اسمه هو الحافظ واسمه الذى يأتى الى ليهبنى القوة ولأن اسمه هو الأكبر وبإسمه لا أخشى أعدائى . وانى لأذكر اسمه فى أعماق حينما أذهب لقتال . ذلك لأن اسمه هو المسيطر على الأرض وفى السماء ... » .
فى السماء حيث يهرب ضوء الشمس الى الغرب فى حين يخرج البرد من أعماق الأرض ويصعد خلال الرمال الجافة ويتخلل أرجل الرجال .

fb/mashro3pdf

« العظمة لله الأعظم فلا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم . الله الأعلى الله الأكبر فهو ليس فى أرض ولا فى سماء . فهو الذى لايدركه بصرى ولا يدركه ادراكى . هو الذى يعرفنى ولا أستطيع معرفته . الله العلى . الله الأكبر ... » .

كان صوت « ماء العينين » يرنّ صداه بعيدا فى الصحراء كما لو كان يذهب الى أقاصى الأرض المهجورة بين الكثبان البعيدة وفوق الهضاب العارية والوديان الجافة أو كما لو أنه يصل الأراضى الجديدة للجانب الآخر من جبال « الذراع » أو على حقول القمح والحبوب حيث سيجد الانسان طعامه أخيرا .

« الله القوى : الله الكامل فليس هناك إله غيره . الحكيم ذو القوة . العلى الرحيم القريب ذو العلم . العاطى بلا حدود . الكريم الأوحد . الآمر لجيوش السماء والأرض . الكامل الرحيم .. »

ولكن الصوت الضعيف المتباعد لمس قلوب الرجال ونفذ الى أعماقهم . وكان كأنه يخرج من حلوقهم بعد أن خالط عقولهم وأفكارهم وكلامهم . فجعل من كل ذلك موسيقى .

« العظمة لله والحمد للدائم . العظمة والحمد لمن لايفنى ولمن له الوجود الأعلى فهو السميع العليم ... » .

وكان الهواء يدخل الى صدر « ماء العينين » شهيقا ثم يخرجه زفيرا فى قوة دون أن يحرك شفتيه وعيناه شبه مغمضتين وجذعه يتمايل كقمة شجرة .

« ربنا وإلهنا ... السيد إلهنا ... الأحسن إلهنا ... نور الأنوار ... نجم الليل ظل الظل .. الحق الأوحد العظمة لله وحده والحمد لله الذى يحارب معنا ... العظمة والحمد لمن باسمه نهزم اعداءنا .... مالك الأرض .. » .

fb/mashro3pdf

ودون انتباه ينطق الرجال والنساء بكلمات الذكر وترتفع أصواتهم فى كل مرة يتوقف فيها صوت الشيخ مرتعشا « انه الكبير القوى الكامل وهو سيدنا وإلهنا واسمه منقوش فى نفوسنا . المبجل القدوس الكاشف الذى لاسيد له ... الذى قال : انى كنز خبىء أردت أن أعرف ولهذا خلقت المخلوقات ... »

« انه الكبير الذى لاشبيه له ولاشريك له ... هو السابق لم يسبقه موجود لأنه هو خالق الوجود الباقى المالك ... هو البصير والسميع العليم . الكامل الذى لامثيل له »

« انه الكبير .. انه الجميل فى قلوب المخلصين له ... انه النقى فى قلب من عرفه . لامثيل له فى قلب من وصل اليه . انه سيدنا ومالكنا سيدنا وسيد السادة ... »

« هو الذى لاشريك له ... ولا غريم له ... انه من يحيا فى قمم أعلى الجبال وفى رمال الصحراء وفى البحار وفى السماء . انه الصراط . انه الليل انه النجوم ... »

وعند ذلك ودون أن ينتبه . بدأ الموسيقيون فى العزف وامتزجت موسيقاهم الخفيفة مع صوت « ماء العينين » فى تمتمة مع صوت « الماندولين » الرفيع ومع دقات الطبول ثم تتحول فجأة الى صوت شبيه بزقزقة الطيور مع النغمات الرقيقة للمزامير المصنوعة من الغاب . تجاوبت الآن موسيقى الناى مع صوت الشيخ وكأنها تقول نفس الشيء الذى يعلو فوق أصوات خطوات الرجال على الأرض الصلبة .

« لاكفوا له ولاشريك له فهو القادر والذى لم يولد . فهو النور الذى أعطى الحياة للمشاعل والنار التى اشعلت النيران : الشمس نجوم الليل فهو الموجود قبل أن تولد الكائنات فهو

fb/mashro3pdf

الذى يعطى النهار ويعطى الموت لكل شيء حى على الأرض فهو الذى يصيغ ويشكل كل المخلوقات ... » . وعلى ذلك رقص الجمع وصاح فى ضوضاء قاصمة : هو ... هو . هازين رؤوسهم رافعين الاكف الى السماء السوداء .

« هو الذى منح الحقيقة لكل القديسين وهو الذى بارك سيدنا محمد . هو الذى منح القوة والكلام لسيدنا النبى رسول الله على الأرض ... » « آه ... هو »

« العظمة لله . والحمد لله العظيم الكامل قلب السر والذى نقش اسمه فى القلوب العظيم المتعال ... » « هو ... هو »

« العظمة لله لأننا مخلوقاته على الأرض . نحن الفقراء اليه الجهلة والعميان والصم نحن الناقصين ... » « آه .... هو .... »

« فيا من تعرف هبنا الحقيقة .. انك الرحمن الرحيم الحليم الكريم ... يا من لاتحتاج لأحد . الغنى ... » « آه ... هو »

« العظمة لله الملك القدوس القادر العزيز الناصر العظيم الموجود قبل الحياة ... الكبير الواحد المنتصر على جميع الأعداء العليم السميع البصير .. الإله الحكيم الكبير الحكم الخالق البصير السميع . الجميل الكريم القوى المتعالى الكبير ... »

علا صوت الشيخ « ماء العينين » كأنه الصياح وفجأة تعطل كتغريد طائر فى الليل وعلى ذلك فقد سكتت جميع الأصوات (أصوات الطبول) وأيضا سكتت موسيقى « الجيتار » والمزامير ولم يعد هناك من جديد سوى الصمت الطويل المرعب الذى ضغط على الأعصاب وزاد من ضربات القلب وامتلأت العيون بالدموع . نظر « نور » وقد امتلأت عيناه بالدمع . نظر الى الشيخ المنحنى على الأرض وقد أخفى

fb/mashro3pdf

وجهه بكفيه . فأحس فى أعماقه بوخزة سريعة كحد الموسى أحس بأقصى درجات القلق المبهم . وبدأ « لارهداف » « الابن الثالث » لماء العينين فى الترتيل فانطلق صوته القوى فى الميدان ولكن ليس فى وضوح ونقاء صوت « ماء العينين » ولكنه كان مثل نبرة غضب . فى الحال بدأ الموسيقيون عزفهم .

« ياالله ياإلهنا تقبل ايماننا وحقيقتنا وأصحاب مولاى « أبو عزه من بيكايا » وأصحاب « جودفيا » وأصغ الى كلمات ذكرنا الذى أملاها سيدنا الشيخ « ماء العينين » فتبدلت همهمة الجمع فجأة الى صياح قائلين « العظمة لشيخنا ماء العينين « العظمة لرسول الله » العظمة لماء العينين ... العظمة لرفاق « جودفيا » ياالهى اصغ الى ذكرى ولده الشيخ « أحمد الدهيبة » الملقب « كيس الذهب » ومولاى هيبة ملكنا الحقيقى . العظمة لهم . العظمة لمولاى هيبة ملكنا .. »

وهنا أخذت النشوة من الرجال قمتها وارتفع صوت الشاب فأثار الحماس وطرد التعب .

« يا الله .. إلهنا كن راضيا عن مريديك وأتباعك . رجال التعظيم والعظمة الذين رضى الله عنهم . رجال الحب والحقيقة فليرض الله عنهم . رجال الوفاء والنقاء فليرض الله عنهم . والسادة والنبلاء والمحاربون فليرض الله عنهم . والقديسون والمبروكون وخدام العقيدة فليرض الله عنهم . والفقراء والتائهون والبائسون فليرض الله عنهم . نرجو أن تمنحنا بركتك ... » .

وازدادت همهمة الجماهير فرددت أصداءها أسوار المنازل فى حين ان الأصوات كانت تصرخ مرددة الأسماء التى تختزنها دائما والى الأبد فى الذاكرة وفوق الأرض الباردة العارية وفى

fb/mashro3pdf

السماء المزينة بالنجوم . كم نود يا إلهى البركة الكبرى لسيدنا رسول الله أن تعمنا . وكذا بركة الرسول « الياس » وبركة الخضر الذى ارتوى من ينبوع الحياة . يا إلهى وبركة « أويس كارنى » وكذا بركة « سيدى عبد القادر الجيلانى » شيخ بغداد ورسول الله على الأرض ... »

انتشرت الأسماء وسط هدوء الليل وتعالت فوق الموسيقى التى خفت نغمتها فصارت كالنسيم .

« جميع الناس من سكان الأرض ومن سكان البحر . يا إلهى وسكان الشمال وسكان الجنوب وسكان الشرق وسكان الغرب وسكان السماء وسكان الأرض يا إلهى ... »

كلمات الذكر كانت من أجمل وأرق الكلمات والتى تأتى من بعيد من الصحراء والتى تجد صداها فى قلب كل رجل وكل امرأة كحلم قديم يعود من جديد .

« امنحنا ياإلهى بركة الأسياد الكبرى « أبو يازه » و « يالانور » و « أبو مدين » و « معروف » و « الجنيد » و « الحلاج » والشبلى « والسادة المقدسين لمدينة بغداد ... »

ظهر ضوء القمر بطيئا فوق التلال والصخور فى شرق « الساقية الحمراء » فنظر اليه « نور » هازا جسده وبعينين ثابتتين لاتتحركان . نظر أمام عمق السماء السوداء . وفى وسط الميدان كان الشيخ « ماء العينين » منحنيا كشبح أبيض وبين أصابعه يحرك حبات المسبحة الأبنوسية .

« امنحنا ياإلهى بركة الأسياد « الحالوى » الذى يرقص للأطفال و « ابن هوارى » و « نساورى » ويونس بن عبيد و « بكرى »

fb/mashro3pdf

و « أبو يزرد » و « محمد الصغير السوهايلى » الذى يعلم الناس كلام الله و « عبد السلام » و « الغزالى » و « أبو شهيب » وأبو مهدى » و « مالك » و « محمد عبد العزيز التوبة » شيخ مدينة مراكش ... يا إلهى ... »

كانت هذه الأسماء هى نشوة الذكرى كما لو أنهم يمثلون عيون النجوم ومن نظراتهم الضائعة تأتى القوة هنا فى المكان البارد حيث يتجمع الرجال .

« يا إلهى امنحنا البركة بركة جميع الأسياد والرفاق والتابعين وجيش انتصارك وأبو ابراهيم التونسى » و « سيدى بالعباسى السبتى » و « سيدى أحمد الهارتسى » و « سيدى جاكير » و « أبو ذكرى يحيى النوانى » و « سيدى محمد بن عيسى » و « أحمد الرفاعى » و « محمد بن سليمان الغزولى » السيد الأكبر ومبعوث الله على هذه الأرض وشيخ مدينة مراكش ياالهى ... » كانت تردد الأسماء على ألسنة الناس . أسماء لرجال وأسماء لنجوم وأسماء لحبات الرمال فى ريح الصحراء وأسماء الأيام والليالى التى لانهاية لها حتى بعد الموت .

« ياإلهى أعطنا بركة كل أسياد الأرض هؤلاء الذين عرفوا السر والذين عرفوا الحياة وعرفوا العفو . أسياد السماء : سيدى عبد الرحمن الملقب بالصحابى وصاحب الرسول . وسيدى عبد القادر و « سيدى امبارك » و « سيدى بالخبر » الذى جلب الحبرى (ذكر العنزه) ولالا منصوره « ولالا فاطمه » وسيدى أحمد العروسى الذى أصلح جرة مكسورة وسيدى محمد الملقب بالأزرق الذى علم الطريق للشيخ « ماء العينين » وسيدى محمد الشيخ الكامل « وجميع أولياء الأرض والبحر والسماء ... » .

fb/mashro3pdf

عاد الهدوء مرة أخرى ملىء بالنشوى والنور وفى بعض الأحيان تنبعث موسيقى المزامير من جديد ثم تخبو « تفنى وتنطفىء » فيقوم الناس ويمشون نحو أبواب البلدة . ولكن « ماء العينين » وحده لايتحرك منحنيا على الأرض المضاءة بنور القمر ناظرا الى نفس النقطة غير المرئية .

وحين يبدأ الرقص يقوم « نور » من مكانه وينضم للجمع . ويضرب الرجال الأرض الصلبة بأرجلهم العارية وهم فى أماكنهم ثابتون لايتقدمون ولايتقهقرون متلاصقين على شكل هلال يغلق الميدان . ويعلو اسم الله فى قوة وضراعة كأنهم يتألمون فى نفس اللحظة . وتساعد الطبول كل صيحة . « هو .. هو .. » وتصيح السيدات وقد ارتعدت حناجرهن . لقد انتشرت هذه الموسيقى فى الأرض الباردة ثم تصعد الى عنان السماء السوداء وتختلط بهالة القمر . لم يعد هناك وقت الآن كما لم يبق هناك بؤس فالرجال والنساء يضربون بأصابع أقدامهم وبكعوبهم مكررين الصيحة التى لاتنتهى « هو .. هو .. حى » محركين رؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال مع الموسيقى المنبعثة من داخلهم فتنتقل الى حناجرهم وتنطلق بعيدا جدا فى الأفق . وكأنما كانت أنفاسهم الجافة تحملهم وتطير بهم فوق الصحراء الفسيحة على طول الليل نحو تباشير الفجر . وعلى الجانب الآخر من الجبال وفى اقليم « سوس » وفى « تزينت » نحو سهل فاس :

« هو .. الله .. » صاح الرجال فى أصواتهم الخشنة سكارى من أثر صوت الطبول ونغمات المزامير فى حين أن النساء وقد انحنين فكن يؤرجحن جذوعهن ضاربات بأكفهن عقودهن الفضية والبرنزية . وكانت أصواتهن ترتعش فى بعض اللحظات

fb/mashro3pdf

كصوت الناى الذى ينبعث ويمضى الى آخر الوعى الانسانى . وفجأة يتوقف كل شىء فيعود الرجال الى ايقاعهم والى الضوضاء الصاخبة لزفيرهم الذى يملأ الميدان .

« هو ... هو ... حى ... هو .. حى » نداء ودعاء ينطقون به وعيونهم نصف مغلقة ورؤوسهم مائلة الى الخلف . انها ضوضاء انفعال تمزق الواقع ولكنها فى الوقت نفسه تبعث الهدوء . كأنها حركة منشار ضخم فى الذهاب والاياب يلتهم جذع شجرة . فكل زفير حزين وعميق يعمق من جرح السماء ولكنه يوحد بين الانسان والفضاء والذى يخلط دمه بشحمه فكل مرتل يصيح باسم الله فى سرعة مادا رأسه كبقرة تخور وعروق الرقبة شبيهة بالحبال من تأثير الجهد . ان ضوء المواقد ونور القمر الفضى يضىء أجسادهم المترنحة تماما كالبرق يلمع دون توقف وسط سحب التراب وتتلاحق الأنفاس فى سرعة متزايدة ملقيا بندائه الأبكم وبشفاه ساكنة وحناجر شبه مغلقة وفوق الميدان وفى سكون ليل الصحراء لايسمع المرء سوى هه : هه .. هه .. هه . »

لم يعد ثمة كلام وعبارات . كانت هكذا حين تتوحد السماء بالأرض من أثر الريح العاصف من تنفس المخلوقات أو أن يزيد من وقع هبوبها . فتلغى الأيام والليالى والفصول وتمحو أيضا الفضاء الذى لاأمل فيه . وتقترب نهاية كل الأوقات . ان الألم كبير ونشوى التنفس تهدهد الاعضاء وتزيد من حجم الحنجرة . ففى وسط هذه النصف دائرة للرجال ترقص النساء وأقدامهن عاريات وأجسامهن ثابتة وأذرعهن بعيدة قليلا عن الجسد . ان وقع كعوبهن الصامت يدخل فى الأرض صوتا مستمرا كالذى يتركه جيش أثناء سيره . وبالقرب من الموسيقيين كان محاربو

fb/mashro3pdf

الجنوب أصحاب الوجوه الملثمة بالسواد قد قفزوا الى الميدان رافعين الى أعلى ركبهم مثل مايفعل الطائر حين يتحفز للطيران .

وبعد قليل وكلما توغل الليل توقفوا عن الحركة بعضهم وراء البعض . انحنى الرجال والنساء نحو الأرض مادين أذرعهم أمامهم وقد فتحوا أكفهم نحو السماء . ولكن بقى تنفسهم الصاخب مستمرا ومرسلين فى هذا الصمت نفس المقاطع التى لاتعرف الملل : « هه ... هو .... حى ... هه »

ان صوت التنهدات كان كبيرا جدا وقويا جدا حتى ليخيل للانسان أن كل شىء قد رحل الآن وبعد عن « سمارة » من خلال السماء وفى الريح ممتزجا بنور القمر وبتراب الصحراء الدقيق . لم يكن من سبيل وجود الصمت والوحدة فقد شمل صوت التنهدات كل الليل وغطى كل الفضاء .

لم يلتفت « ماء العينين » الى أحد وظل جالسا وسط الميدان مسبحا بمسبحته الأبنوسية ومسقطا بيده منها حبة مع كل زفير يخرجه الجمع . فقد كان هو مركز التنهد وهو الذى يبين للناس طريق الصحراء وهو الذى علمهم الايقاع . إنه الآن لاينتظر شيئا ولم يعد يسأل أحدا ولكنه يتنفس هو الآخر حسب تنهيدات الصلاة . فهو كالآخرين يصدرون تنهيدة واحدة كما لو كانوا جميعا يتنفسون من صدر واحد وحلق واحد . فتنهداتهم قد فتحت الطريق مقدما نحو الشمال الى الأراضى الجديدة . فلم يعد الشيخ يحس الشيخوخة ولا النصب ولا القلق فهذه الآهات وهذه التنهدات انما تدور فى داخله

fb/mashro3pdf

والآتية من جميع الأفواه . هذه التنهدات والآهات العنيفة والعذبة فى نفس الوقت هى التى تطيل من وجوده . لم يعد الرجال ينظرون الى « ماء العينين » فعيونهم مقفلة وأذرعهم منتشرة ووجوهم متجهة الى الليل فهم ينزلقون على طريق الشمال .

وحين لاح النهار فى الشرق وفوق التلال الصخرية بدأ الرجال والنساء فى السير نحو الخيام . فبالرغم من كل هذه الأيام والليالى المليئة بالنشوى والانفعالات لم يحس أحد بالتعب . بل لقد أسرجوا الخيل وطووا خيامهم وحمّلوا الإبل . لم تكن الشمس عالية فى السماء حين بدأ كل من « نور » وشقيقه المسير على الطريق المترب نحو الشمال .
انهما يحملان فوق أكتافهما لفافات صغيرة من الملابس وبعض المؤن . وكان يسير أمامهما أيضا على الطريق رجال آخرون وأطفال آخرون وقد كانت سحابة التراب الرمادية والحمراء تصعد الى السماء الزرقاء . وفى مكان آخر على أبواب « سمارة » محاطة بالفرسان الزرق كان « ماء العينين » ومن حوله أولاده يطيل النظر لهذه القافلة الطويلة الممتدة من خلال السهل الصحراوى وعندها قفل معطفه الأبيض ودفع بقدمه على رقبة بعيره . وفى بطء ودون أن يدير رأسه ابتعد عن « سمارة » وسار الى نهايته .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

السعادة

fb/mashro3pdf

بزغت الشمس فوق الأرض وامتدت الظلال فوق الرمال الرمادية والتراب فى الطريق . ووقفت الكثبان أمام البحر . واهتزت وتمايلت النباتات العشبية الصغيرة من فعل الريح ولم يظهر فى السماء الشديدة الزرقة الباردة أى طير أو سحاب غير الشمس . ولكن بدأ ضوء النهار يظهر حثيثا كما لو كان فى غير ثقة من نفسه .

وعلى طول الطريق وفى حمى خط الكثبان الرمادية سارت « لالاّ » فى بطء وكانت تقف من حين لآخر لتنظر الى شىء ما على الأرض ولتقطف ورقة خضراء لنبات ثم تسحقها بين أصابعها ليفوح عطرها فتشمه . لقد كانت النباتات ذات خضرة داكنة ولامعة فهى تشبه نباتات الماء . وكانت تصادف فى بعض الأحيان « زنبارا » ذهبى اللون فوق باقة من زهور فتغطيه « لالاّ » عدوا دون أن تقترب منه كثيرا لانها تخشاه رغم كل شىء . وحين تطير الحشرة فانها تعدو من خلفها مادة ذراعيها كما لو كانت حقا تريد الامساك بها . غير أن هذا كان للتسلية .

وهنا فى هذا المكان وما حوله لايوجد غير نور السماء على مرمى البصر . ثم الكثبان الرملية التى ترن تحت وقع ضربات البحر الذى لايرى ولكن يسمع هديره . وكذلك النباتات الصغيرة الخضراء التى تلمع من الملح كأنه حبات عرق . كما توجد هنا وهناك حشرات كالزنابير الباهتة اللون وأخرى طولها دقيق حتى ليقال

fb/mashro3pdf

عنها انها مقسمة الى اثنين ومن ديدان الألف رجل التى تترك آثارا دقيقة فى التراب وكذا ذباب سطحه فى لون المعدن والتى تبحث عن سيقان ووجه الفتاة الصغيرة تمتص الملح منها .

ان « لالاّ » تعرف جميع الطرق وكل بطون الكثبان . فهى قادرة على السير الى أى مكان مغمضة العينين وتعرف فى الحال أين هى فيكفيها أن تلمس بقدميها العاريتين الأرض . تقفز الريح أحيانا من فوق حاجز الكثبان وتقذف بحبات الرمال كالإبر على جلد الفتاة وتشوش شعرها الاسود ويلتصق رداء « لالاّ » بجسدها الرطب حتى لتضطر كثيرا الى جذبه لينفصل .

ان « لالاّ » تعرف جميع الطرق حتى التى تنتهى الى مدى البصر على طول الكثبان الرمادية بين الأشواك وحتى التى بها المنحنيات التى تلتوى الى الخلف وحتى الطرق التى لاتنتهى الى مكان ما . ومع ذلك فانها فى كل مرة تسير فيها تصادف جديدا . واليوم ترى أن الزينار الذهبى هو الذى يقودها بعيدا عن مساكن صائدى الأسماك وعن الشاطىء الضحل ذى الماء الراكد . وبين هذه الأشواك يوجد هيكل معدن ملتو ينشب أظافره وقرونه مهددا . لقد وجدت فى رمال الطريق علبة من المعدن الأبيض لطعام محفوظ دون لافتة عليها وبها ثقبان على كل جانب من الغطاء .

استمرت « لالاّ » فى السير ببطء شديد ناظرة الى الرمل الرمادى فى حذر وانتباه حتى تعبت عيناها فقد كانت تفحص كل شىء على الأرض دون أن تفكر فى أى شىء ودون أن ترفع عينيها الى السماء . ثم توقفت تحت شجرة مورقة ظليلة لتحتمى من الضوء ولتغلق عينيها قليلا .
لقد عقدت يديها على ركبتيها ومالت الى الأمام بجسمها ثم الى الخلف ثم الى الجانبين مترنمة بأغنية فرنسية تقول فقط « البحر الأبيض المتوسط » .

fb/mashro3pdf

ان « لالاّ » لاتعرف معنى كلماتها . ولكنها اغنية استمعت لها فى الإذاعة فى يوم ما ولم تحفظ منها سوى هذه الكلمات الثلاث رغم إعجابها بالأغنية . لذلك كانت ترددها من حين لآخر حين تحس بأنها فى حالة طيبة وليس لديها ماتفعله أو على النقيض حين تكون محزونة قليلا دون أن تعرف لذلك سببا . فانها تغنى هذه الكلمة لنفسها فى صوت خفيض لايكاد يسمع أو فى صوت مرتفع منبعث من رأسها ليتردد صداه ولتذهب عنها الخوف .

انها الآن تغنى فى صوت منخفض ذلك لأنها تحس السعادة . فى حين ان النمل الأحمر الكبير ذا الرأس السوداء يسير على أشواك الشجرة مترددا ومتسلقا الأغصان . كانت « لالاّ » تبعده بفرع شجرة جاف وهى تشم رائحة الأشجار التى تحملها الرياح مختلطة برائحة البحر العفنة . ان الرمال ترتفع فى السماء لبضع لحظات على شكل اعصار متوازن فوق الكثبان . وبعد ذلك وفجأة يتكسر فى هبات لاذعة كالإبر على سيقان ووجه الطفلة .

وتبقى « لالاّ » فى ظل هذه الشجرة حتى تتوسط الشمس كبد السماء ثم تعود الى الوراء نحو المدينة فى غير عجلة . انها تتعرف على آثار قدميها فى الرمال وان بدت هذه الآثار أصغر وأضيق من قدميها الا أنها فى عودتها تكون متأكدة من أنها آثارها . انها لتهز كتفيها ثم تبدأ فى العدو . ان ابر النباتات الشوكية تدمى أصابع قدميها . ولهذا كان لزاما عليها أن تتوقف من لحظة لأخرى فقد أحست انها تمشى كالعرجاء ولتنتزع الأشواك من أصابع قدميها .

يوجد النمل دائما حيثما وجد الانسان فيبدو وكأنه يخرج من بين الحصى ويجرى على الرمال المحرقة بسبب الضوء تماما مثل الجواسيس . ومع ذلك فان « لالاّ » تحب النمل كما تحب أيضا حشرة الألف رجل وكذا حشرة الخنافس القارضة وحشرة الحفار والصرصور الذى يشبه قطعة الخشب . أما الجراد فهى

fb/mashro3pdf

تخافه ولهذا فهى تنتظر حتى يبتعد أو أن تحيد هى عن طريقه وكانت تلاحقها بنظراتها . لقد كانت هذه الحشرات تلف حول نفسها وهى تبرز إبرها . كما يوجد أيضا بعض السحالى الرمادية اللون والخضراء . انها تزحف نحو الكثبان شارعة ذيولها الطويلة لتجرى بسرعة قد تنجح « لالاّ » أحيانا فى اقتناص احداها وتتسلى حين تمسكها من ذيلها الى أن ينفصل الذيل عن الجسد . ثم تشاهد هذا الذيل وهو يتحرك وحده فى التراب وذات يوم قال لها صبى بأن الانسان لو انتظر مدة أطول فى المراقبة لرأى أن أرجل السحلية ورأسها تنبت مرة أخرى فى ذيلها المفصول ولكن « لالاّ » لم تصدق ذلك . وهناك الذباب على وجه الخصوص فان « لالاّ » برغم صوته ولدغاته لاتعرف تماما لماذا هى تحبه فربما أحبته لدقة أرجله أو شفافية أجنحته أم لانه يعرف كيف يطير فى سرعة الى الأمام أو الى الخلف أو طريق غير مستقيم . وتعتقد « لالاّ » انه شيء جيد أن تطير هكذا . لقد تمددت على ظهرها فى رمال الكثبان وقد حط الذباب على وجهها وعلى يديها وعلى ساقيها العاريتين بعضها إثر البعض الآخر فهى لاتسقط مرة واحدة ذلك لانها فى البداية خائفة من « لالاّ » ولكن الذباب يجب أن يأتى ليشربماينضحه الجسم من العرق المالح ولكنه يتشجع سريعا . فعندما يمشى بأرجله الخفيفة عليها فانها تبدأ فى الضحك غير المسموع حتى لاتفزعه . وفى بعض الأحيان تلدغ ذبابة صدغ « لالاّ » فتطلق صرخة غاضبة مكتومة . انها تلهو مدة طويلة مع الذباب . ان هذا الصنف من الذباب يعيش فى النباتات المائية على الشواطيء ولكن هناك أيضا الذباب الأسود الذى يعيش فى منازل البلدة على المشمعات أو على الحوائط المغطاة بالورق الكرتون أو على زجاج النوافذ . وفى بعض المبانى يعيش الذباب الأزرق الذى يطير فوق صناديق القاذورات محدثا ضوضاء كسقوط القنابل . وفجأة تقف « لالاّ » وتجرى ماتسمح قوتها نحو الكثبان وتتسلق سفح الرمل الذى ينهار تحت وطأة قدميها العاريتين فتؤذى النباتات الشوكية أصابع قدميها ولكنها لاتهتم لذلك فهى تريد أن تصعد فوق الكثبان حتى ترى البحر بأسرع مايمكن .

fb/mashro3pdf

وما ان تصل الى أعلى الكثبان حتى تهب الريح فى قوة وشدة وتكاد « لالاّ » تسقط الى الخلف . ان هواء البحر البارد يقبض أنفها ويحرق عينيها . فالبحر واسع وفسيح . انه رمادى الزرقة يعلو موجاته الزبد الأبيض انه يزأر بينما تتساقط الشفرات القصيرة على وادى الرمل حيث تنعكس الزرقة الشبه سوداء للسماء الفسيحة

مالت « لالاّ » الى الأمام ضد الريح . التصق ثوبها (الذى كان قميصا لصبى قصت عمتها أكمامه) ببطنها وبفخذيها كما لو أنها خرجت لتوها من الماء . وكان هزيم الريح وزمجرة البحر تدوى فى أذنيها عن اليمين وعن الشمال أخرى مختلطا بالصوت الذى تحدثه خصلات شعرها على صدغيها . وفى بعض الأحيان تتطاير حفنة من الرمال فى وجه « لالاّ » فكان لزاما عليها أن تغلق عينيها حتى لاتصاب بالعمى ولكن الريح بالرغم من ذلك نجحت فى استدرار الدمع من عينيها وفى فمها تحدث حبات الرمل صوتا بين أسنانها .
وبعد أن أسكرها الريح والبحر معا هبطت « لالاّ » من مرتفعات الكثبان ثم قبعت لحظة أسفل الكثبان حتى تسترد أنفاسها . فالرياح لم تأت من ناحية الجانب الآخر من الكثبان . انها تمر من فوق وتتجه الى داخل الأرض حتى التلال الزرقاء التى تجرف معها الضباب . لان الرياح لاتنتظر بل تعمل ماتريد . ولهذا كانت « لالاّ » سعيدة عندما تكون هناك حتى ولو ألهبت عينيها وأذنيها أو حتى صدمت وجهها حفنة من رمال . فهى غالبا ماتفكر فيها وفى البحر أيضا عندما تكون فى البيت المظلم فى البلدة حيث تحس بوطأة الهواء وثقله . فهى تفكر دائما فى هذا الهواء الشفاف الذى يتخطى البحر دون توقف . والذى يعبر فى لحظة الصحراء حتى غابات الأرز والتى ترقص هناك فى سفوح الجبال وسط الطيور والأزهار . ان الريح لاينتظر اذ تعبر الجبال وتجتاح أمامها الأتربة والرمال والهشيم فهى تقلب الكرتون وتصل فى بعض الأحيان الى مدينة الألواح والورق المقوى وانها لتلهو حين تنتزع السقوف وبعض الحوائط ولكن كل هذا لابأس منه لان « لالاّ » تجد فيه

fb/mashro3pdf

جمالا وشفافية كالماء وسرعة كالصاعقة . ان الريح قوى جدا حتى انه يستطيع أن يدمر جميع بلدان العالم ان هو أراد وحتى المدن حيث المنازل عالية وبها نوافذ من زجاج .

ان « لالاّ » تعرف إسمها فقد تعلمته وحدها حين كانت طفلة وعندما كانت تسمعه يصل بين ألواح الأخشاب فى المنزل وفى الليل . انه يسمى « ووه » حين يصّفر .

لقد وجدته « لالاّ» حين أوغلت قليلا بين الأشواك المتشابكة وكان يفصل الأعشاب الصفراء ثم نظرت « لالاّ » الى صقر معلق بلا حراك فى الجو فوق السهل العشبى وكانت أجنحته بلون النحاس فأعجبت به لانه يعرف كيف يطير فى الرياح فقد حرّك الصقر ريش ذيله ثم نشر ذيله كمروحة ثم حلق دون أى جهد فسقط ظله على شكل صليب يرتعد فوق الأعشاب الصفراء . ومن وقت لآخر كان يئن ويصيح : كاك كاك و « لالاّ » ترد عليه .

وفى دفعة واحدة قفز نازلاً الى الأرض طاويا جناحيه ماسًّا فى رفق الأعشاب . مثل سمكة تنزلق نحو أعماق المياه حيث تتحرك النباتات المائية . وبهذا اختفى الطائر بين أوراق الأعشاب المتشابكة فتأوهت « لالاّ » وأطلقت صرخة مقلدة الطير : كاك كاك . ولكن الطائر لم يعد . ولكنه ظل طويلا فى عينيها ظلا على هيئة سهم ينساب فوق رؤوس الأعشاب مثل سمك « السيوف » حين يغوص دون أن يحدث ضوضاء بسبب موجة ذعرها .

بقيت « لالاّ » الآن بلا حراك رأسها مائل الى الخلف محدقة بعينيها الواسعتين فى السماء البيضاء لترى الدوائر التى تسبح فى هذا المكان والتى تتقاطع كمن يلقى بحصاة فى حفرة ماء . لاتوجد حشرات ولا طيور أو أى شىء من هذا القبيل ومع ذلك فالانسان يرى آلاف النقط التى تتحرك فى السماء البيضاء ولكنها تتجه فى كل سكان وفى كل اتجاه فى حركة دائبة وبسرعة كمن لايعرف أين يهرب . ربما

fb/mashro3pdf

تكون وجوه كل سكان المدن فى المدن الكبيرة الى الحد الذى لايستطيع الانسان أن يتركها حيث بها أعداد وفيرة من السيارات ومن الناس حتى يصعب أن نرى فيها وجها واحدا مرتين . هذا مايقصه العجوز « نعمان » حين يذكر أيضا الأسماء الغريبة مثل : الجزيرة ــ مدريد ــ مارسيليا ــ ليون ــ باريس وجنيف .
« لالاّ » لاترى هذه الوجوه دائما فليس هناك سوى بعض الأيام حين تهب الرياح فتطرد السحب ناحية الجبال ويصبح الهواء نقيا أبيض يتألق من نور الشمس عند ذلك يمكن أن نرى هذه المخلوقات (حشرات ــ آدميين) تتحرك وتمشى وتجرى وترقص ترى فوق وبالكاد تكون منظورة كالذباب الصغير .

بعد ذلك يناديها البحر من جديد . فتجرى « لالاّ » وسط الأشواك الرمادية . فالكثبان تشبه البقر الراقد على الأرض جباهها الى أسفل منحنية الظهر . كم تحب « لالاّ » اعتلاء ظهورها لتصنع بها طريقا خاصا بها وحدها تحدثه بيديها وأقدامها . ثم تتدحرج الى الجانب الآخر ككرة نحو رمل الشاطىء يهجم المحيط على الشاطىء الصلب محدثا صوت تمزق كبير ثم ينحسر الماء ويذوب الزبد من فعل الشمس . هنا يوجد النور والضوضاء بكثرة حتى ان « لالاّ » اضطرت أن تغلق فمها وعينيها . فملح البحر يلهب جفنيها وشفتيها . والرياح التى تهب بشدة كالزوبعة قد أوقفت تنفسها وحلقها . ولكن « لالا » تحب أن تكون قريبة من البحر . انها تدخل الى الماء وتغمر الأمواج ساقيها وبطنها حتى يلتصق قميصها الأزرق على جسدها . انها لتحس بقدميها وقد غاصتا فى الرمل مثل عامودين . ولكنها لاتغامر بالدخول أبعد من هذا لأن البحر يمسك بالأطفال من وقت لآخر دون أن ينتبهوا الى ذلك ثم يعيدهم بعد يومين على رمال الشاطىء الصلبة وقد انتفخت بطونهم ووجوههم من الماء وأكل سرطان البحر . الفم والشفاه والأنف والأصابع والأعضاء .
سارت « لالاّ » على الرمل على طول بقايا الزبد ورداؤها المبتل حتى الصدر قد جف بسبب الهواء . لقد ضفّر الهواء شعرها الأسود من ناحية واحدة ولفح ضوء

fb/mashro3pdf

الشمس وجهها وصيره نحاسى اللون .
وبعيدا كانت هناك بعض الكائنات البحرية الشفافة وقد تناثرت أجزاؤها على الرمال مثل الشعر . رأت « لالاّ » الحفر التى تتكون فى الرمال بعد أن تنحسر الأمواج . كانت تعدو من خلف بعض سرطانات البحر التى تركض فى الاتجاه المضاد والتى تشبه العناكب حين ترفع من أذنابها فكان هذا يضحك « لالاّ » . ولكنها لم تحاول الامساك بها كما يفعل الأطفال الآخرون فهى تتركها لتهرب فى البحر وتختفى بين طيات الزبد البراق

سارت « لالاّ » على طول الساحل مترنمة بالأغنية ذات الكلمة الواحدة « البحر الأبيض المتوسط » ثم ذهبت لتجلس عند سفح الكثبان أمام الشاطىء تلف ذراعيها حول ركبتيها وتخفى وجهها بين طيات قميصها الأزرق حتى لاتستنشق الرمل الذى ترميها به الرياح . انها تجلس دائما فى نفس المكان حيث يبرز من بين الأمواج عمود عفن من الخشب وحيث تنبت شجرة تين كبيرة بين حبات الحصى فى الكثبان الرملية . انها تنتظر « نعمان » صائد الأسماك .

لم يكن « نعمان » عاديا كسائر البشر فهو طويل نحيل عريض المنكبين بارز عظام الوجه ولون بشرته كلون الطوب الأحمر . انه يسير دائما عارى القدمين . يلبس سروالا من التيل الأزرق وقميصا أبيض فضفاضا تحركة الريح لفرط سعته عليه . ومع كل هذا فان « لالاّ » تعتبره فاتنا وأنيقا جدا . ان قلبها تزداد ضرباته فى عنف حين تعلم أنه سوف يحضر . ان له وجها واضح المعالم جامدا من فعل ريح البحر كما أن جلد جبهته وجلد صدغيه مشدود وداكن من فعل شمس البحر . انه كثيف الشعر ولونه كلون جلده . إن مايميزه خاصة هما عيناه فلونهما غير عادى انه خليط من الأزرق والأخضر والرمادى ولكنهما صافيتان وشفافتان فى وسط وجه أسمر كما لو أنهما احتفظتا بضوء وشفافية البحر . على « لالاّ » أن تنتظر هذا الصياد على الشاطىء وبجوار شجرة التين من أجل رؤية عينية ولترى أيضا ابتسامته حين يقع بصره عليها . انها تنتظره طويلا جالسا على رمل الكثبان

fb/mashro3pdf

الخفيف وفى ظل شجرة التين . انها تترنم واضعة رأسها بين ذراعيها حتى لاتبتلع كثيرا من الرمل . انها تعنى الاسم المحبب لها الذى تفضله والذى هو طويل وجميل والذى تقول فقط : البحر الأبيض المتوسط .

انها تنتظر متطلعة الى البحر الذى استحال الآن هائجا بزرقته الرمادية كالصلب . وهذا النوع من السحب الباهتة التى تخفى خط الأفق . وفى بعض الأحيان يخيل لها أنها ترى نقطة سوداء ترقص بين انعكاسات الأضواء وبين قمم الأمواج فتشرئب واقفة على قدميها ممنية النفس أن تكون قارب « نعمان » الذى سيصل عما قريب . ولكن النقطة السوداء تختفى . فهذا سراب فوق ماء البحر أو لعلها ظهر « درفيل » .

انه « نعمان » الذى حدثها عن الدرفيل . فقد قص عليها كيف أن قطعانا من ذوى الظهور السوداء تقفز فرحة بين الأمواج أمام مقدمة السفن وكأنها تحيى الصيادين ثم تذهب فجأة وتختفى بعيدا فى الأفق .

ان « نعمان » يحب أن يحكى «للالاّ » قصصا عن الدرفيل . وحين كان يتكلم فان نور البحر يلمع أكثر قوة فى عينيه . حتى لقد كانت « لالاّ » تتصور — تحت تأثير حديثه — انها ترى هذه الحيوانات السوداء من خلال حدقة العين . ولكنها تمعن النظر بكل قواها فى البحر فلا ترى الدرفيل . فلا شك أنها لاتحب الاقتراب من الشواطىء .

ويقص « نعمان » عليها قصة درفيل قاد مركب صياد حتى الساحل حين ضل طريقه فى البحر بسبب العواصف . هبطت السحب على البحر فكسته كغلالة . وكسرت الريح العاتية « صارى » المركب ثم حملت العاصفة القارب بعيدا حدا حتى أن الصياد لم يعرف أين يجد الساحل . وظل القارب تتقاذفه الأمواج

fb/mashro3pdf

لمدة يومين مهددة باغراقه . وأيقن الصياد ألّا أمل له فقد ضاع . حتى انه ردد صلواته واذا بدرفيل طويل قد ظهر وسط الأمواج وظل يقفز حول القارب وظل يلهو بين الأمواج كعادة الدرفيل . وكان هذا الدرفيل وحيدا وبدأ فجأة يرشد القارب وكان من العسير فهم ذلك ولكن هذا ماحدث فعلا . فقد عام الدرفيل خلف القارب وأخذ يدفعه الى الأمام ثم كان الدرفيل يبتعد ويختفى بين الأمواج فاعتقد الصياد أنه تخلى عنه . ولكنه يعود ويبدأ فى دفع القارب برأسه وضاربا البحر بذيله القوى وهكذا ظلا يسيران طوال النهار . وفى الظلام وفى انحسار سحابة شاهد الصياد أخيرا ضوء الساحل فصرخ وبكى من فرط سروره فقد أيقن بالنجاة . ولما اقترب القارب من الميناء استدار الدرفيل وعاد الى البحر وأبصره الصياد وهو يرجع بظهره الأسود الضخم والذى كان يتلألأ فى ضوء الشفق .

لقد أحبت « لالاّ » هذه القصة . ولهذا فهى تبحث دائما فى البحر لترى هذا الدرفيل الأسود الكبير . ولكن « نعمان » يخبرها بأن هذا كان من زمن طويل مضى ولعل هذا الدرفيل صار عجوزا الآن .

ظلت « لالاّ » تنتظر كما تفعل فى كل صباح جالسة فى ظل شجرة التين . انها تنظر الى البحر الرمادى والأزرق حيث قمم الأمواج تتدافع نحو الشاطىء فهى تنهمر فى قوة أولا جهة الشرق نحو الرأس الصخرى ثم بعد ذلك الى الغرب من ناحية النهر ثم تنهمر بعد ذلك فى الوسط ثم تقفز الريح لتمسك بحزمة من الزبد وتقفز بها بعيدا نحو الكثبان . فيختلط الزبد بالرمل وبالتراب .

وحين تسطع الشمس فى كبد السماء لاسحاب فيها تعود « لالاّ » الى البلدة دون عجلة ذلك لأنها تعرف أن ثمة عملا ينتظرها فلابد أن تذهب لتحضر الماء من العين فى برميل قديم صدىء تضعه فى توازن على رأسها ثم عليها أن تذهب لتغسل الملابس فى النهر . ان كل هذه الأعمال تعتبر أعمالا طيبة فى نظرها

fb/mashro3pdf

ذلك لانه يمكن الثرثرة مع الآخرين أثناء آدائها أو الاصغاء لما يحكونه من قصص لاتصدق خاصة هذه الفتاة التى تدعى « اكيكر » (وهذا يعنى حمص بلغة البربر) وذلك لان بصدغها ندبة . وهناك شيئان تكرههما « لالاّ » : أن تذهب لتجمع الحطب للنار وطحن القمح ليصير دقيقا . لقد عادت فى بطء شديد تجر قدميها على الطريق الضيقة . فهى لاتغنى هذه المرة ذلك لأن هذا وقت مقابلة الناس على الكثبان أو مقابلة الصبية الذين يذهبون ليرفعوا الفخاخ التى نصبوها للطيور أو مقابلة الرجال الذين يذهبون الى أعمالهم . ففى بعض الأحيان يسخر الصبية من « لالاّ » ذلك لأنها لاتعرف السير عارية القدمين . أو لأنها لاتعرف الشتائم ولكن « لالاّ » تسمعهم قادمين من بعيد فتختبىء خلف شجرة شوك بالقرب من كثيب حتى تطمئن لرحيلهم .

هناك أيضا امرأة تخيف الجميع . انها ليست مُسنة وانما هى قذرة جدا وشعر خليط مشوش من اللون الأسود والأحمر وثيابها مهلهلة وممزقة من فعل الأشواك . فعندما تظهر هذه المرأة على الطريق (طريق الكثبان) فيجب أن يحذرها الناس لأنها سيئة ولاتحب الأطفال لقد سماها الناس « عائشة كونديشا » لكنه ليس اسمها الحقيقى ومع ذلك لاأحد يعرف اسمها . يقولون عنها انها تخطف الأطفال لتنزل الضرر بهم . وعندما تسمع « لالاّ » أن عائشة كونديشه على الطريق فسرعان ماتختبىء وراء شجيرة وتحبس أنفاسها . فتمر عائشة منمنمة بعض عبارات غير مفهومة . ثم تقف لحظة وترفع رأسها لأنها قد أحست بوجود انسان ما . ولكنها تكاد تكون عمياء وعلى هذا لاتستطيع رؤية « لالاّ » ثم تستأنف سيرها وبها العرج ثم تصيح ببعض الشتائم بصوتها البشع .

ففى صباح بعض الأيام كان يوجد فى السماء شىء تحبه « لالاّ » كثيرا . انه السحاب الأبيض الطويل الذى يعبر السماء فى مكان حيث الزرقة التامة . وفى نهاية الخيط الأبيض يرى صليب من الفضة يتقدم فى بطء بالكاد يميزه النظر . تنظر « لالاّ » هذا الصليب الذى يتقدم فى السماء وقد ألقت رأسها الى الخلف .

fb/mashro3pdf

إنها تحب أن ترى كيف يتقدم فى السماء الزرقاء الكبرى دونما ضوضاء ومخلفة وراءها سحابة بيضاء طويله مكونة كرات صغيرة من القطن والتى تمتزج وتتسع كطريق ثم تمر الريح على السحابة وتغسل السماء . لقد ودت « لالاّ » أن تكون هناك فى هذا العلو وفى وسط هذا الصليب الفضى فوق البحر وفوق الجزر وحتى الأراضى البعيدة جدا . لقد بقيت « لالاّ » تنظر طويلا الى السماء بعد أن اختفت الطائرة . تظهر البلدة عند منحنى الطريق حين يبتعد الانسان عن البحر وحين يسير لمدة نصف ساعة فى اتجاه النهر . ان « لالاّ » لاتعرف لماذا سميت بالمدينة ذلك لأنه فى الابتداء لم يكن هذا المكان سوى اثنى عشر كوخا من فروع الأشجار ومن الورق المطلى بالقار وفى الجانب الآخر من النهير توجد مساحات واسعة من الأراضى البور والتى تفصل كل ذلك عن المدينة الحقيقية . ربما يكون قد أعطى هذا الاسم حتى يتناسى الناس انهم كانوا يعيشون مع الكلاب والفئران وسط الأتربة . فى هذا المكان أتت « لالاّ » لتعيش حين ماتت أمها . لقد مضى وقت طويل حتى لم تعد تذكر الوقت بالتحديد الذى وصلت فيه الى هذا المكان . لقد كان الجو حارا جدا لأن ذلك كان فى فصل الصيف وأن الريح تدفع عاليا سحبا من التراب على هذه الأكواخ . لقد سارت مغمضة العينين خلف شبح عمتها حتى وصلتا الى هذا الكوخ الذى لا نوافذ له وحيث يعيش فيه أولاد عمتها — لقد راودتها نفسها فى أن تهرب جريا وترحل على هذا الطريق المؤدى الى الجبال العالية وحتى لاتعود مطلقا .

ففى كل مرة حينما كانت تعود « لالاّ » من الكثبان وترى هذه الأسقف المغطاة بالأوراق أو من الأوراق ينقبض لها قلبها وتذكر يوم أن حضرت الى المدينة للمرة الأولى . ولكن كان هذا قد مضى عليه وقت طويل الآن حتى ليخيل اليها ان كل مامر بها لم يكن حقيقة واقعة وانما كأنها قصة قد سمعتها .

لقد كان مولدها فى جبال الجنوب . وهناك حيث تبدأ الصحراء وكان ذلك

fb/mashro3pdf

فى بعض الأحيان فى الشتاء حينما لايجد الانسان مايعمله فى الخارج وكانت الريح تهب بشدة على سهول الأتربة والملح وتصفر الريح بشدة بين ألواح الخشب السيئة الصنع لبيت « العمة » كانت « لالاّ » تستقر على الأرض وتصغى الى قصة مولدها . فهى قصة طويلة وغريبة وحتى العمة ترويها دائما بطريقة واحدة . كانت تحكيها بصوتها المترنم قليلا وهازة رأسها كمن يريد النوم . قالت العمة :

« عندما جاء اليوم الذى يجب أن تولدى فيه وكان هذا قبل حلول الصيف وقبل الجفاف لقد شعرت « حواء » بمقدمك ولما كان الناس كلهم نياما فقد خرجت من الخيمة دون أن تحدث صوتا . لقد ربطت بطنها فى بساطة بقطعة من القماش وسارت فى الخارج بقدر ماتستطيع حتى جاءت الى مكان توجد به شجرة ونبع ذلك لأنها تعلم جيدا انه اذا طلعت الشمس فستكون فى حاجة الى الظل والماء . فهذه هى العادة هناك . أن يلد الانسان بالقرب من النبع . وعلى ذلك فقد مشت الى هناك ثم تمددت بعد ذلك بالقرب من الشجرة وظلت تنتظر نهاية الليل . لم يعلم أحد بأن أمك فى الخارج فقد كانت تعرف كيف تسير دون أن تحدث صوتا ولاتدع الكلاب تنبح . لقد كنت أنام الى جوارها ولم أسمع مطلقا تأوهاتها كما لم أسمع وقوفها لتخرج من الخيمة » .

وبعد ماذا تم ياعمة ؟

« بعد ذلك جاء اليوم الموعود . فاستيقظت النساء فلم يجدن أمك وقد فِهُم لماذا خرجت . فذهبت أبحث عنها ناحية النبع وحين وصلت وجدتها وقد وقفت مستندة الى الشجرة . يداها ممسكتان بفرع شجرة وهى تئن فى هدوء حتى لاتوقظ الرجال والأطفال »

ثم ماذا حدث بعد ذلك ياعمه ؟

« وعليه فقد ولدت فى التو على الأرض وبين جذور الشجرة وقد نظفت بماء النبع ثم دثرت فى معطف ذلك لان الجو لم يزل باردا فى الليل . وأشرقت الشمس ورجعت أمك الى الخيمة لتنام وانى لأذكر جيدا انهم لم يجدوا ملابس ليلفوك بها

fb/mashro3pdf

وقد نمت فى معطف أمك الأزرق . لقد كانت أمك مسرورة وقانعة لأنك جئت فى سرعة . ولكنها كانت حزينة أيضا بسبب موت أبيك . لقد فكرت فى أنها لاتملك مالا لتربيتك وانها لتخشى أن تضطر أن تعطيك.لشخص آخر ... »

وفى بعض الأحيان كانت « العمة » تروى هذه القصة بطريقة مختلفة كما لو كانت لاتذكر جيدا ماقالته سابقا فمثلا تقول « ان حواء لم تكن معلقة على فرع الشجرة بل انها كانت عالقة بحبل البئر وانها كانت تجذبه وتشده بكل قوتها حتى تقاوم آلامها . أو أن تقول ان راعيا كان يمر هو الذى تسلم الطفل ولفه فى معطفه الصوفى . ولكن كل هذا فى قلب ضباب غير مفهوم وكأن هذا حدث فى عالم آخر من الناحية الأخرى للصحراء حيث توجد سماء أخرى وشمس أخرى .

« وبعد بضعة أيام استطاعت أمك أن تمشى للمرة الأولى الى البئر لتغتسل وتمشط شعرها . وحملتك ملفوفة فى نفس المعطف الأزرق والذى ربطته حول خصرها . لقد سارت فى خطوات وئيدة لأنها لم تقو بعد لتكون كما كانت فى الماضى . ولكنها كانت سعيدة جدا لأنك جئت وحينما كان يسألها عن اسمك سائل فقد كانت تجيب بأنك تتسمين مثلها « لالاّ حواء » لانك ابنة لشريفة » .

« من فضلك حدثينى عمن يسمى بالأزرق ... » .

ولكن العمة تهز رأسها قائلة « ليس الآن . دعى هذا ليوم آخر » .

« من فضلك ياعمه حدثينى عنه ... »

ولكن العمة تهز رأسها دون أن تجيب ثم تقف وتذهب لتضع الخبز على وعاء من طين بالقرب من الباب . هكذا هى العمة لاتحب أن تتحدث طويلا كما أنها لاتريد أن تقول عبارات كثيرة خاصة اذا كان الحديث يتعلق بالرجل الأزرق أو مولاى « أحمد بن محمد الفاضل » « الملقب بماء العينين » .

ان مايبدو عجيبا هنا فى المدينة هو أن كل الناس فقراء ومع هذا فان أحداً

fb/mashro3pdf

لايشكو مطلقا . ان المدينة عبارة عن مجموعة من العشش مصنوعة من ألواح الخشب أو الزنك ذات سقوف من الورق المقوى بالحصى . وحين تهب الرياح بشدة على الوادى تسمع قعقعة الألواح وصلصلة قطع وفرقعة الورق المقوى حين يتمزق فى زوبعة . كل هذا يحدث نوعا من الموسيقى العجيبة تدوى كما لو كان الانسان فى سيارة عامة تسير على طريق غير معبد أو كما لو كانت أعداد من الحيوانات والفئران تعدو فوق أسقف المنازل على طول الطرقات الضيقة .

وكثيرا ماتكون العاصفة شديدة فتمحو فى طريقها كل شيء فيجب بناء المدينة ثانية فى اليوم التالى . وكانوا يقومون بذلك ضاحكين ذلك لأنهم فقراء الى الحد الذى لايخشون معه فقدان مايملكون بل ربما كانوا سعداء راضين أيضا حين يبصرون أن السماء بعد العاصفة أكثر اتساعا من فوقهم وأكثر زرقة والنور أكثر بهجة . وعلى كل فحول المدينة لايوجد سوى الأرض المنبسطة مع الريح المحمل بالتراب والبحر على اتساعه ليعجز عن أن يحوطه بنظره .

ان « لالاّ » تحب كثيرا النظر الى السماء . فهى تذهب دائما من ناحية الكثبان هناك حيث يتجه طريق الرمل فى استقامة أمامها لدرجة أنها تستلقى على ظهرها وسط الرمال وبين الصخور عاقدة الذراعين . وعلى ذلك تتفتح السماء على وجهها الناعم وتضيء كمرآة صافية وهادئة دون سحب ودون طير ودون طائرات.

ان « لالاّ » تشرع عينيها حتى تدخل السماء الى أعماقها فينتابها شعور من يتأرجح على مركب أو أنها تدخن كثيرا فتحس دوارا فى رأسها . كل هذا بسبب الشمس فهى تحرق فى قسوة برغم برودة هواء البحر . انها تحرق بقوة حتى ان حرارتها تسرى داخل جسم الفتاة الصغيرة فتملأ بطنها ورئتيها وأذرعها وأرجلها . ان هذا يضر أيضا فهى تؤذى العينين والرأس . ولكن برغم هذا فان « لالاّ »

fb/mashro3pdf

تبقى ساكنة ذلك لأنها تحب كثيرا الشمس والسماء .
فحينما تكون « لالاّ » هناك ممدة على الرمال وبعيدة عن الأطفال وبعيدة عن المدينة المليئة بالضوضاء وبالروائح . وعندما تكون السماء شديدة الزرقة مثل اليوم فانها تستطيع أن تفكر فى كل ماتحب . انها تفكر فيمن تسميه « السر » هذا الذى نظرته كضوء الشمس الذى يحيط ويحمى .

ان احدا فى المدينة لايعرفه . ولكن عندما تكون السماء صافية وجميلة والنور يسطع فوق البحر وفوق الكثبان فكأن اسم السر يظهر فى كل مكان ويتجاوب صداه حتى يصل الى أعماق « لالاّ » فهى تعتقد أنها تسمع صوته وتسمع وقع خطواته الرقيقة . فهى تحسه يلفح وجهها بنار نظراته التى ترى وتتطلع على كل شىء والتى تنفذ الى كل شىء . انها نظرة تأتى من الجانب الآخر للجبال من ناحية « الذراع » ومن أعماق الصحراء والتى تسطع كنور لايمكن أن يختفى . لا أحد يعرف عنه شيئا . فعندما تحدث « لالاّ » « نعمان » عن « السر » . فان هذا الأخير يهز رأسه لأنه لم يسمع قط عن اسمه كما لم يتحدث عنه فى قصصه . ومع ذلك فلاشك فى أن هذا هو اسمه الحقيقى فهذا ماتظنه « لالاّ » لان هذا هو ماتسمعه . ولكن ربما يكون هذا مجرد حلم . وحتى العمة لاتعرف عنه شيئا . ومع هذا فهو اسم جميل كاسمها هكذا تظن « لالاّ » اسم مريح حين يسمعه الناس .

ومن أجل أن تسمع اسمه وتشاهد النور الذى يشع من نظرته فان « لالاّ » تذهب بعيدا بين الكثبان وهناك حيث لايوجد شىء أكثر من البحر والرمال والسماء . ذلك لأن السر لايمكن أن يسمع اسمه أو يرى شعاع نظره اذا كانت « لالاّ » فى المدينة ذات فروع الأشجار والورق المقوى . فهو انسان لايحب الضوضاء ولا الروائح . فيجب أن يكون وحيدا وسط الرياح وحيدا كطائر معلق فى السماء .

fb/mashro3pdf

ان الناس لايعرفون سبب ذهاب « لالاّ » الى هناك . فربما اعتقدوا انها تذهب الى منازل الرعاة فى الناحية الأخرى من التلال الصخرية . ولذا فانهم لايقولون شيئا .
فالناس هنا فى المدينة ينظرون ولايعملون فى الحقيقة شيئا . فهم يقفون غير بعيد عن شاطىء البحر أو فى أكواخهم المصنوعة من الألواح والزنك لايتحركون واما نيام فى الظل الكثيف . وحينما يطلع النهار على الحصى والتراب يخرجون لحظة وكأن شيئا سوف يحدث . انهم يتحدثون قليلا وتذهب الفتيات الى النبع ويذهب الغلمان ليعملوا فى الحقول أو ليتجولوا فى الطرقات أو على الجانب الآخر من النهير فى المدينة الحقيقية أو يجلسوا على قارعة الطرق ليتسلوا برؤية سيارات البضاعه .

ففى كل صباح تَعْبُر « لالاّ » البلدة فهى تذهب لتملأ جرار الماء من النبع . وفى أثناء سيرها تستمع الى موسيقى كل محطات الاذاعة والتى تبدأ من بيت الى آخر ودائما نفس الأغنية المصرية التى لاتنتهى والتى يتجاوب صداها فى جميع طرقات البلدة الضيقة . ان « لالاّ » تحب أن تصغى الى هذه الموسيقى التى تعلو وتنخفض فى اتساق ممتزجة بوقع أرجل الفتيات وخرير ماء النبع . وحين تصل « لالاّ » النبع فانها تنتظر دورها معلقة جردل الزنك على ذراعيها . انها تشاهد الفتيات فبعضها سوداء كالزنجيات مثل « اكيكر » والبعض الآخر بيض ذوات عيون خضراء مثل « مريم » كما توجد بعض العجائز ملثمات يملأن بعض أوانى سوداء ثم يرحلن فى سكون . أما النبع فهو عباره عن صنبور من معدن خليط من النحاس والزنك مثبت فى أعلى مأسورة من الرصاص . انها تهتز وتزأر حين تفتح أو تقفل . يغسل الفتيات سيقاهن ووجوههن بالماء المثلج . وفى بعض الأحايين ينثرن الماء بالجرادل عليهن صائحات صارخات بحدة . كما توجد دائما الزنابير التى تحوم حول رؤوسهن وتهبط على شعورهن المهوشة .
تضع « لالاّ » الجرة على رأسها وتسير فى استقامة حتى لاتسقط نقطة واحدة من الماء . ففى الصباح تكون السماء صافية وجميلة كأن كل مافى الكون جديد ولكن

fb/mashro3pdf

حينما تقترب الشمس من السماء يرتفع الضباب . قريبا من الأفق كالتراب وتثقل السماء أكثر على الأرض .

fb/mashro3pdf

هناك مكان تحبه « لالاّ » وترتاح للذهاب اليه . عن طريق المسالك الضيقة التى تبعد عن البحر والتى تتجه ناحية الشرق ثم تصعد المجارى الجافة . وحين يشرف الانسان على مشارف التلال الحجرية . يستمر فى السير فوق الصخور الحمراء متتبعا آثار أرجل الماعز . ان الشمس ساطعة فى السماء ولكن الهواء يميل للبرودة ذلك لانه يأتى من أقاليم حيث لا ماء ولا شجر . انه هواء يأتى من أعماق الفضاء . فهنا يعيش ماتسميه « لالاّ » « السر » لان أحدا لايعرف اسمه .

وعلى هذا فانها تصل أمام هضبة الصخور البيضاء والتى تمتد الى نهاية الافق والسماء . النور يلمع والريح الباردة تقطع الشفاه وتدمع العيون . أمعنت « لالاّ » النظر بكل قوتها حتى ان قلبها زادت دقاته فى حلقها وفى صدغيها حتى ان ستارا أحمر قد حجب السماء . فقد سمعت بأذنيها الأصوات غير المعروفة التى تتحدث وتترنم معا .

ثم تقدمت وسط الهضبة الصخرية حيث لايعيش فيها الا العقارب والثعابين . فلم يعد فوق الهضبة طرق ولا يوجد سوى كتل من الصخور المتكسرة

fb/mashro3pdf

ولكن هنا الريح التى تأتى من وسط الفضاء . فهناك يأتى الرجل للقائها فى بعض الأحيان . انها لاتعرف من يكون ولا من أين يأتى . انه مخيف فى بعض الآحايين وناعم وهادىء فى البعض الآخر يغمره جمال سماوى . فهى لاترى منه سوى عينيه ذلك لأن وجهه مغطى بوشاح أزرق مما يلبسه محاربو الصحراء . انه يرتدى معطفا كبيرا أبيض يشع منه النور كما يلمع الماء فى قرص الشمس . تشع عيناه بنار غريبة وداكنة وفى ظل عمامته الزرقاء وتشعر « لالاّ » بحرارة نظرته التى تمر على وجهها وعلى جسدها مثلما يقترب الانسان من موقد .

ولكن السر لايأتى دائما . ورجل الصحراء يأتى فقط حينما تكون « لالاّ » راغبة بشدة فى رؤيته وكلما تكون فى حاجة اليه أو تكون فى حاجة ماسة للتحدث أو للبكاء . ولكن حتى حين لايأتى فانه يوجد منه شىء فوق الهضبة الصخرية ربما نظرته الحارقة والتى تضىء كل المكان الذى يملأ فراغ الأفق من ناحيته . وعندئذ تستطيع « لالاّ » أن تسير وسط هذا الفضاء من الأحجار المتكسرة دون أن تراعى الى أين تذهب ، توجد علامات فوق بعض الصخور . علامات عجيبة لاتفهمها « لالاّ » علامات من صلبان ونقط وبقع من فعل الشمس أو القمر وكذا أسهم محفورة فى الصخر ربما كانت علامات من السحر هذا مايقوله فتيان البلدة ولهذا فهم لايحبون الحضور الى هذه الهضبة البيضاء . ولكن « لالاّ » لاتخاف هذه العلامات كما لاتخيفها الوحدة . انها تعرف أن رجل الصحراء الأزرق يحميها بنظراته كما أنها لاتخشى الصمت ولا فراغ الريح . انه مكان لاأحد فيه . فليس به سوى الرجل الأزرق الذى ينظر اليها دائما دون أن يكلمها . ان « لالاّ » لاتعرف جيدا ماذا يريد ولا مايطلبه . انها فى حاجة اليه لذا فهو يأتى فى هدوء بنظراته المليئة بالقوة . انها سعيدة حينما تكون فوق هضبة الصخور . انها تعلم جيدا أنه لاينبغى أن تتحدث عنه لأحد حتى ولا للعمة . لأن هذا سر من أسرارها . فهو أهم شىء حدث لها . انه سر أيضا لأنها هى الوحيدة التى لاتخشى من الحضور كثيرا الى هضبة الصخور بالرغم من الصمت وفراغ الهواء . ربما كان الراعى « شلوه »

fb/mashro3pdf

والملقب « بحارتانى » هو الذى يحضر أيضا فى بعض الأحيان الى الهضبة ولكن حين تكون احدى الماعز قد ضلت وجرت على طول المجرى . فهو أيضا لايهاب هذه العلامات المنحوتة فى الصخر . ولكن « لالاّ » لم تجرؤ يوما على الحديث معه عن سرها . انه هو الاسم الذى أطلقته « لالاّ » على الرجل الذى يظهر فى بعض الأحيان على الهضبة السر لأنه لاأحد يعرف اسمه . انه لايتكلم . ذلك لأنه لايتكلم نفس لغة الناس . ولكن « لالاّ » تسمع صوته داخل أذنيها . فهو يقول بلغته أشياء جميلة يرتبك لها جسدها فيجعلها ترتعد . ربما يتكلم مع صوت الريح الخفيف الذى يأتى من قلب الفضاء أو مع الهدوء الذى يتخلل هبوب الهواء . وربما يتحدث بكلمات النور أو بالكلمات التى تتفجر عنها مجموعات من الشرر على مسطحات الصخور أو بكلمات الرمال والحصى . التى تتفتت وتطحن الى مسحوق جامد واما بلغة العقارب والثعابين التى تترك آثارها الخفيفة فوق التراب . انه يتكلم بكل هذه اللغات وأن نظرته تقفز من حجر الى آخر مليئة بالحيوية كحيوان ينتقل بحركة واحدة الى نهاية الأفق وتصعد عالية الى السماء وتطير أعلى من كل الطيور .

ان « لالاّ » تحب أن تأتى الى هذا المكان الى هضبة الصخور البيضاء لتصغى الى أحاديثه السرية فهى لاتعرف هذا الذى تسميه السر ولاتعرف كنهه أو من أين يأتى ولكنها تحب ملاقاته فى هذا المكان لانه يحمل معه ومع نظراته بل وفى لغاته حرارة اقليم الكثبان والرمال والجنوب والأراضى الجرداء التى لاشجر فيها ولا ماء .

وحتى لو لم يحضر « السر » فانها تستطيع أن ترى بعينيه . نعم ان ذلك من العسير فهمه ذلك لانه يشبه مافى الأحلام . كما لو أن « لالاّ » لم تعد هى « لالاّ » نفسها بل تكون كمن تدخل فى عالم آخر والذى يشبه عالم الناحية الأخرى من نظرة الرجل الأزرق . وعندئذ تظهر الأشياء الجميلة والغامضة . أشياء لم يسبق لها رؤيتها فتقلقها وتربكها . فترى هذا الاتساع من الرمال بلون الذهب

fb/mashro3pdf

والكهرمان ضخم مثل البحر بأمواجه الراكدة . ففوق هذه المساحة من الرمل لايوجد مخلوق ولاشجر ولاعشب .. لاشيء سوى ظلال الكثبان التى تمتد وتتلامس والتى تكون بحيرات عند الشفق . فهنا يتشابه كل شيء كما لو كانت هنا أو بعيدة عن هنا فى نفس الوقت حيث يقع نظرها فى أى مكان حيثما اتفق ثم أبعد من ذلك قريبا من الحد بين السماء والأرض . ان الكثبان تتحرك تحت نظرها وتفرد أصابعها الرملية وهناك أنهار من الذهب تسيل فى الرمال الى أعماق الأودية الملتهبة . وهناك موجات صلدة منصهرة من حرارة الشمس المرعبة . كما أن هناك شواطيء فسيحة بيضاء فى انثناء كامل لاحركة فيها أمام هذا البحر ذى الرمال الحمراء . والنور ينبعث من كل النواحى وينهمر من كل الجهات من الأرض ومن السماء ومن الشمس . فلانهاية فى السماء . ليس بها سوى الضباب الجاف الذى يتماوج قرب الأفق فى انكسارات ضوئية ومتراقصة كأعشاب من نور . وكذا التراب الوردى الذى يتحرك فى الهواء البارد والذى يصعد الى عنان السماء .

كل هذا عجيب وغريب ولكنه مع ذلك يبدو مألوفا . ان « لالاّ » تنظر أمامها وكأنها تنظر الصحراء الكبرى بعينى انسان آخر . حيث يتجلى النور . انها تحس على جلدها هبوب ريح الجنوب التى تثير حبات الرمل . انها تحس تحت قدميها العاريتين رمل الكثبان المحرق . انها تحس خاصة بعظمة وضخامة السماء الخالية من فوقها سماء لاظلال فيها والتى تتألق فيها الشمس الصافية .
وعلى ذلك بقيت « لالاّ » ولفترة طويلة لاتشعر بنفسها . فقد صارت مخلوقا آخر من عالم بعيد من عالم النسيان فهى ترى أشكالا أخرى وهياكل لأطفال ولرجال ولخيل ولابل ولقطعان من الماعز . انها ترى شكل مدينة وقصر من الحجارة والاردواز وحصون من طين حيث يخرج منها محاربون . انها ترى كل ذلك لأن هذا لم يكن حلما ولكنه ذكرى وعتها ذاكرة أخرى سيطرت عليها دون أن تعرف . فهى تسمع ضوضاء وأصوات الرجال وغناء النساء والموسيقى وربما هى نفسها التى ترقص بالالتفاف حول نفسها وضاربة الأرض بطرف قدميها العاريتين وبكعبيها محدثة رنينا

fb/mashro3pdf

بسوارها وبعقدها الثقيل .

وبعد هذا وفى لحظة خاطفة كهبة ريح تلاشى كل ذلك . انه فى بساطة نظرة « السر » التى زايلتها والتى تحولت عن الهضبة الصخرية البيضاء . وعندئذ عادت « لالاّ » بنظرتها الحقيقية وعاودها من جديد قلبها ورئتاها وجلدها . فشاهدت كل التفاصيل وكل حجر وكل بحر وكل اسم وان كان ضئيلا فى التراب .

لقد رجعت الى الوراء وهبطت الى بطن المجرى الجاف محترسة من الأحجار المستوية وشجيرات الشوك . وحين وصلت الى السفح كانت منهكة جدا من جراء كل هذا الضوء وهذه الرياح التى لم يتوقف هبوبها . وفى بطء سارت على طرق البلدة الرملية حيث الرجال والنساء يتحركون بصفة مستمرة. لقد ذهبت الى ماء النبع ، غسلت وجهها ويديها بعد أن ركعت على ركبتها على الأرض كما لو انها عادت من رحلة طويلة

fb/mashro3pdf

ان أجمل شيء أيضا هو هذه الزنابير . فهى فى كل مكان فى المدينة بأجسامها الطويلة الصفراء ذات الخطوط السوداء وبأجنحتها الشفافة . انها تذهب فى كل مكان طائرة فى تؤدة ودون أن تأبه بالرجال . فهى تبحث عن غذائها . ان « لالاّ » تحبها كثيرا . فغالبا ماتنظر اليها وهى عالقة فى أشعة الشمس وفوق أكوام القاذورات أو حول موائد اللحم فى حانوت الجزار . ففى بعض الأحيان تقترب من « لالاّ » حين تأكل برتقالة فهى تسعى لتهبط على وجهها أو على يديها . وفى بعض الأحيان أيضا يلدغها أحدها فى رقبتها أو فى ذراعها مما تبقى ألم لدغتها لعدة ساعات ولكن هذا لايهم لان « لالاّ » تحبها رغم ذلك .

ان الذباب أقل مرتبة فليس له هذا الجسم الأصفر المخطط بالسواد وليس له هذا الجسد الدقيق . فحين يهبط على حافة مائدة فان الذباب يطير سريعا ثم يهبط فجأة . بعينيه الواسعتين ذات اللون الرمادى الأحمر المفتوحتين عن آخرهما فوق رأسها .

يوجد كثير من الدخان دائما فى البلدة . انه يمر فوق الأكواخ ذات الفروع وفوق الشوارع الطينية غير الممهدة . كما توجد النساء اللائى ينضجن الطعام فوق المواقد كما توجد النيران التى تحرق القاذورات والنيران التى تحمى القطران لطلاء السقوف .

fb/mashro3pdf

وحينما يكون لدى « لالاّ » وقت فإنها تحب أن تقف لترى النيران أو أنها تذهب الى المجارى المائية الجافة لتجمع بعض الأحطاب تحزمها بقطعة من الدوبار وتحضر الحطب الى منزل « العمة » . ان اللهب يقفز فى مرح بين الأغصان وتغلى العصارة واللهب يتراقص فى نسيم الصباح البارد محدثا نغما طيبا . فلو أمعن الانسان النظر داخل اللهب لاستطاع أن يرى « الجن » (هكذا تقول العمة) كما يستطيع الانسان أن يرى مناظر عدة ومدائن ونهيرات وجميع الأشياء الغريبة والتى تظهر وتختفى مثل السحب . ومن ثم تحضر الزنابير لأنها قد أحست برائحة لحم الضأن على وشك النضج فى الأوعية الحديدية . إن الأطفال الآخرين يخشون الزنابير ولذا فهم يطردونها ويسعون لقتلها برجمها بالحجارة . ولكن « لالاّ » تدعها تطير حول شعرها وتحاول تفهم أغنياتها من احتكاك أجنحتها . وحين يحين موعد الطعام تكون الشمس قد تربعت كبد السماء وتحرق فى قسوة حتى أن الأبيض يكون أبيض لدرجة أن الانسان لايقوى على النظر اليه مواجهة . وتبدو الظلال سواء حتى كأنها تظهر كحفر سوداء فى الأرض . وبعد ذلك يحضر أولاد العمة . انهم اثنان أحدهما فى الرابعة عشرة من عمره ويدعى « على » أما الثانى فعمره سبعة عشر ويدعى « البراكى » لأنه قد بورك يوم مولده . انهما من تقدم لهما العمة الطعام . انهما يأكلان فى سرعة ونهم دون أن يتبادلا حديثا . انهما دائما مايطردان الزنابير أثناء تناولهما الطعام بظهر أيديهما . وبعد ذلك يأتى زوج العمة الذى يعمل فى زراعة الطماطم فى الجنوب انه يدعى « سليم » ولكن الناس ينادونه « بالسوسى » ذلك لأنه قدم من اقليم نهر « سوس ». انه قصير ونحيل وله عينان خضراوان جميلتان . ان « لالاّ » تحبه كثيرا برغم مايقال عنه بأنه كسول ولكنه لايقتل الزنابير بل على النقيض فانه يمسكها بين الابهام والسبابة ويتسلى بأن يخرج « زبانها » ومن ثم يضعها فى رفق فوق الأرض ويتركها لتطير .

هناك كثير من الناس يأتون . فتضع « العمة » قطعة من اللحم جانبا من أجلهم . وفى بعض الأحيان يحضر صائد السمك « نعمان » ليأكل فى منزل

fb/mashro3pdf

« العمة » . فقد كان يسعد « لالاّ » أن تعرف أنه سوف يحضر ولان « نعمان » يحبها أيضا كما كان يقص عليها بعض القصص الطريفة . لقد كان يأكل فى بطء وبين الفنية والفنية كان يتحفها بشيء مضحك . لقد كان يناديها باسم « لالاّ » الصغيرة لأنها من سلالة امرأة من الأشراف حقا . وحينما كانت تنظر فى عينيه كانت تحس باحساس من ترى البحر أو بأنها تعبر المحيط أو أن تكون من الجانب الآخر من الأفق فى مدينة كبيرة حيث المنازل البيضاء والحدائق والينابيع . لقد كانت « لالاّ » تحب سماع أسماء هذه المدن . وقد كانت تطلب دائما من « نعمان » أن يذكر لها هذه الأسماء هكذا ولاشيء سوى الأسماء ببطء حتى يكون لديها الوقت الذى ترى الأشياء التى تخفيها : « الجزيرة » — « غرناطة » « أشبيلية » — « مدريد » .

كان أبناء العمة يريدون أن يعرفوا أكثر من ذلك . فهم ينتظرون أن ينتهى الصياد من طعامه فيوجهون اليه كل أنواع الأسئلة عن الحياة هناك فى الجانب الآخر من البحر . إنهم يريدون معرفة أشياء جدية لامجرد أسماء كالحلم . فهم يسألون « نعمان » : كم من النقود يمكن كسبها ؟ وما هو العمل ؟ وكم تساوى الملابس والغذاء ؟ وكم تتكلف السيارة ؟ وعما اذا كانت هناك دور خياله . ان « نعمان » رجل مسن فهو لايعرف مثل هذه الأشياء أو على الأقل قد نسيها . وعلى أية حال فالحياة قد تغيرت منذ أن كان يعيش هناك قبل الحرب . وعلى ذلك كان الأولاد يهزون أكتافهم ولايقولون شيئا لأن « نعمان » له أخ بقى فى مارسيليا ويمكن أن يكون ذا فائدة لهم فى يوم ما . وفى بعض الأحيان يود « نعمان » أن يتحدث عما رأى ولكنه كان يختص بذلك « لالاّ » فقط . ذلك لأنه يفضلها كما أنها لاترهقه بالأسئلة حتى لو كان مايقوله غير حقيقى فان « لالاّ » تحب أن يحكى لها فهى تصغى الى مايقوله فى انتباه شديد خاصة حين يتكلم عن المدن الكبيرة البيضاء التى على شاطىء البحر بطرقاتها التى تحفها أشجار النخيل وبحدائقها التى تمتد الى أعالى التلال والمزدحمة بالأزهار وأشجار البرتقال والرمان

fb/mashro3pdf

وبأبراجها المرتفعة كالجبال وشوارعها الطويلة التى لاتستطيع العين رؤية نهايتها . انها أيضا تحب أن يحدثها عن السيارات السوداء التى تسير فى بطء خاصة فى الليل بمصابيحها المضاءة وكذا عن الأنوار المختلفة الألوان على واجهات المحلات أو البواخر الكبيرة البيضاء التى تصل الى « الجزيرة » فى المساء والتى تنزلق فى بطء على الأرصفة الرطبة فى حين يستقبلها الجمهور بصيحات وبعبارات الترحيب للقادمين عليها أو عن السكك الحديدية التى تتجه الى الشمال من مدينة الى أخرى وتخترق الريف بضبابه والأنهار والجبال والتى تمر داخل الأنفاق الطويلة المظلمة وماتحمل من مسافرين وأمتعتهم حتى المدينة الكبرى « باريس » . تصغى « لالاّ » لكل هذا والقلق يملؤها . وفى الوقت ذاته تود لو تكون فى هذا القطار لتنتقل من مدينة الى أخرى الى الأماكن المجهولة أو نحو هذه البلاد حيث لاوجود للأتربة وللكلاب الجائعة ولا الكواخ التى تدخلها رياح الصحراء . قالت « لالاّ » : « خذنى معك حين ترحل » . ولكن الرجل العجوز يهز رأسه ويجيب : « انى عجوز الآن يالالاّ الصغيرة ولن أذهب إلى هناك أو أموت فى الطريق » . وليطمئنها يضيف قائلا : « أنت .. ستذهبين أنت . ولسوف ترين كل هذه المدن ثم ستعودين الى هنا مثلى » .

انها تكتفى بالنظر فى عينى « نعمان » حتى ترى كل مارآه مثلما ينظر الانسان فى أعماق البحر . انها تفكر طويلا فى أسماء المدن الجميلة وتترنم بها فى رأسها وكأنها كلمات أغنية .

وفى بعض الأحيان تطلب العمة منه أن يتحدث عن هذه البلدان الغريبة . وعلى ذلك فانه يقص مرة أخرى رحلته خلال أسبانيا عن الحدود وعن الطريق الذى يمر بشاطىء البحر وعن مارسيليا الكبيرة . ثم يحكى عن جميع المنازل والشوارع والسلالم وعن الأرصفة التى لانهاية لها . وعن آلات الرفع والمراكب الضخمة التى تحاكى ضخامة المنازل فى المدن الضخمة حيث تفرغ سيارات البضائع ومركبات السكك الحديدية من الأحجار والأسمنت والتى تنزلق فوق المياه السوداء من الميناء معلنة سيرها بواسطة صفاراتها . ان الولدين لايصغيان بانتباه الى هذا لأنهما

fb/mashro3pdf

يصدقان «نعمان». وحين ينصرف « نعمان » فانهما يقولان بأن كل الناس تعرف أنه كان يعمل طاهيا فى مارسيليا . ولكى يسخرا منه فانهما يلقبانه بكلمة « الطيب » لأنه كان يطيب الطعام . ولكن العمة كانت تصغى لما يقوله لأنه لايعنيها أن يكون « نعمان » طباخا هناك وصائدا للسمك هنا . فكانت تسأله فى كل مرة أسئلة حتى تسمع أيضا قصة رحلته والحدود وعن الحياة فى « مارسيليا » . وكان « نعمان » يتحدث أيضا عن المعارك فى الشوارع حين يهاجمون العرب واليهود فى الطرقات المظلمة وأنه من الواجب أن يدافع المرء عن نفسه من أن يطعن بسكين أو يلقى بحجر ويجرى بأسرع مايمكن حتى يتفادى سيارات الشرطة التى تجمع الناس وتذهب بهم الى السجون انه يتحدث أيضا عن الهاربين الذين يعبرون الحدود خلسة عن طريق الجبال سائرين طوال الليل ومختبئين أثناء النهار فى الكهوف والأعشاب . ولكن فى بعض الأحيان تكتشف آثارهم الكلاب البوليسية وتهاجمهم حينما يصلون الى السفوح من الناحية الأخرى للحدود .

يتحدث « نعمان » عن كل ذلك وفى صوته رنة أسى . وان « لالاّ » لتحس بالبرودة التى تسرى فى عينى الرجل العجوز . انه احساس غريب لاتعرف جيدا سببه . ولكنه يخيف ويهدد كما يفعل الموت والبؤس فربما كان هذا هو كل ماحمله العجوز من هناك من هذه المدن التى فى الجانب الآخر من البحر . فعندما لايتحدث عن رحلاته فان الرجل العجوز كان يحكى قصصا سمعها من قبل . انه يقصها فقط لها « للالاّ » وللأطفال الصغار . ذلك لأنهم الوحيدون الذين لايسألون أسئلة .

فى بعض الأيام كان يجلس أمام البحر فى ظل شجرة التين حيث يصلح شباكه . فى هذه اللحظات كان يحكى أحلى قصصه والتى تحدث فى المحيط وعلى السفن وفى العواصف والتى تروى غرق السفن وكيف أن ركابها وصلوا إلى جزر

fb/mashro3pdf

مجهولة « فنعمان » قادر على سرد أية قصة بمناسبة أى شىء وهذا خير مافيه . فمثلا كانت تجلس « لالاّ » الى جانبه فى ظل شجرة التين وهى تنظر اليه حين يصلح شباكه . فيداه السمراوان العريضتان بأظافره المتكسرة تعمل فى سرعة . فهى تعرف جيدا عمل العقد فى خفة . وذات مرة كان هناك قطع كبير فى خيوط شبكته فبالطبع سألت « لالاّ » : « انها سمكة كبيرة تلك التى فعلت هذا ؟ » وبدلا من أن يجيبها فكر نعمان وقال « ألم أقص عليك عن يوم ان اصطدنا قرشا أليس كذلك ؟ » . فهزت « لالاّ » رأسها فبدأ « نعمان » القصة . ومثل غالبية قصصه أنه كانت هناك عاصفة يتخللها البرق يمر بعرض السماء وأمواج عالية كالجبال وقِرَبٌ من المطر كانت الشبكة ثقيلة جدا حتى أننا لم نستطع رفعها وحتى القارب قد مال على جانبه وقد خشى الناس الغرق . وحين اقتربت الشبكة رأى الرجال بداخلها قرشا أزرق هائلا يقاتل ويضرب بذنبه وقد فغر فكه فظهرت أسنانه المخيفة فكان لزاما على الصيادين أن يقاتلوا القرش الذى حاول أن يمضى ومعه الشبكة . فصاروا يضربونه بخطافاتهم وفؤوسهم ولكن القرش عض حافة المركب فمزقها كما لو كان خشبها هشا . وأخيرا نجح القبطان فى قتله بضربة عصا ثقيلة . ثم رفع الحيوان على مقدمة السفينة .

وعلى ذلك فتحنا بطنه لنرى مابداخله فوجدنا خاتما من ذهب عليه حجر ثمين أحمر كان جميلا لدرجة أنه لم يستطع أحد منا أن يرفع نظره عنه . وقد أراد كل منا أن يحصل على الخاتم حتى كان كل منا على استعداد ليقتل زميله ليحصل على هذا الخاتم اللعين ــ فاقترحت عليهم أن نقترع عليه بلعبة « الزهر » ذلك لأن القبطان يملك زوجا من « الزهر » وهو من العظم . فلعبنا لعبة الزهر فوق قنطرة السفينة برغم هبوب العاصفة الهوجاء والتى كانت تهددنا كل لحظة بقلب السفينة . لقد كنا ستة أفراد ولعبنا ست مرات والرابح من يأتى بأكبر عدد من الأرقام المنقوشه على جوانبه . فبعد الدورة الأولى لم يبق سوى القبطان وأنا لأن كلينا حصل على أحد عشر ٥ + ٦ . فتجمع الجميع من حولنا وتزاحموا ليروا من سيربح

fb/mashro3pdf

فقذفت بالزهر وحصلت على اثنى عشر ٦ + ٦ وعلى ذلك حصلت على الخاتم وبقيت لعدة لحظات سعيدا بل فى أسعد لحظات حياتى ولكنى أمعنت النظر فى الخاتم وفى حجره الأحمر الذى يبرق كنار الجحيم فيسطع منه نور مقيت أحمر كالدم ثم نظرت الى رفاقى فوجدت أن نظراتهم تشع بمثل هذا البريق الممقوت فأيقنت أن هذا الخاتم ملعون مثل الذى كان يلبسه وقد أكله القرش وأيقنت أيضا أن من سيحتفظ به سيصير ملعونا بدوره . وبعد أن نظرت اليه طويلا خلعته من أصبعى وقذفت به الى البحر . فامتلأ القبطان ورفاقى بالغضب حتى لقد هموا بأن يقذفوا بى الى البحر أيضا . فسألتهم : « لماذا انتم غاضبون منى فالذى جاء من البحر عاد الى البحر الآن وكأن شيئا لم يحدث » . وفى هذه اللحظة هدأت العاصفة فجأة وسطعت الشمس فاضاءت البحر كما هدأ البحارة بدورهم وحتى القبطان الذى كان تواقا للحصول على الخاتم قد نسيه أيضا فى الحال وقال لى : « لقد أحسنت صنعا بقذفك إياه فى البحر . وفعلنا نفس الشىء بجسم القرش ثم رجعنا الى الميناء لإصلاح الشبكة » .

فسألته « لالاّ » أتعتقد حقا بأن هذا الخاتم ملعون ؟ » .

فقال « نعمان » لاأعرف اذا كان ملعونا ولكن الذى أعرفه أنه اذا لم أقذف به الى البحر فى نفس اليوم فان واحدا من رفاقى كان سيقتلنى ليسرقه وان العالم كله سَيَفْسَدْ بهذه الطريقة حتى آخر إنسان ... » .

هذه هى الحكايات التى تحب « لالاّ » سماعها هكذا وهى جالسة الى جوار الصياد العجوز فى مواجهة البحر وفى ظل شجرة التين حين تهب الريح فتضرب أوراق الشجر وكأنها تسمع صوت البحر وكانت كلمات « نعمان » تثقل أجفانها فتدع النوم ينفذ الى جسمها فتمددت فوق الرمل وأسندت رأسها الى جذع الشجرة فى حين ان الصياد استمر فى اصلاح الشبكة بحبل أحمر وأن الزنابير تطن فوق قطرات الملح .

fb/mashro3pdf

« هالو حارتانى »

بهذا صاحت « لالاّ » فى قوة وفى مهب الريح عندما اقتربت من تلال الحصى وأشجار ملتوية . هنا توجد دائما أنواع من السحالى التى تزحف بين الأحجار كما توجد فى بعض الأحايين الثعابين التى تهرب وهى تفح . ويوجد أيضا أعشاب طويلة قاطعة كالسكاكين وكثير من النخيلات القصيرة التى تصنع منها السلال والحصير . ويسمع صفير الحشرات فى كل مكان ذلك لوجود بعض ينابيع الماء وبين الآبار مختبئة فى التجويفات العميقة حيث تبقى المياه الباردة . كانت « لالاّ » حين تمر تقذف ببعض الحصى فى هذه الحفر وتصغى الى صوتها الذى يرن بعمق فى الظلام « حارتانى » .

وغالبا ماكان يسخر منها بأن يختبىء ممددا على الأرض فى ظل شجيرة ذات أشواك . لقد كان يرتدى دائما رداءه الوبرى الطويل البالى عند الأكمام والذيل وبقطعة من القماش الأبيض يلفها حول رأسه ورقبته . انه طويل ونحيل كنبات متسلق . ان يديه سمراوين جميلتين وأظافره بلون العاج وقدميه جعلا للعَدْو والسباق . ولكن وجهه الذى تحبه « لالاّ » بالذات . ذلك لأنه لايشبه أى انسان ممن يعيشون فى هذه البلدة . فهو وجه رفيع جدا وأملس ذو جبهة عالية وحاجبان مستقيمان وعيناه واسعتان بلون المعدن . شعره قصير يكاد يكون مجعدا لاشارب له ولاذقن . ولكن عليه سيماء القوة والثقة بالنفس . له نظرة ثاقبة تنفذ الى الأعماق دون وجل . يعرف كيف يضحك ضحكة رنانة اذا أراد الضحك تدخل

fb/mashro3pdf

السرور عليك فى الحال .

اليوم تجده « لالاّ » فى سهولة ذلك لأنه غير مختبىء وانما كان يجلس على حجر ضخم ينظر أمامه فى اتجاه قطعان الماعز . انه لايتحرك ويهتز ثوبه الأسمر على جسده من فعل الهواء كما يهتز طرف عمامته البيضاء . سارت اليه « لالاّ » دون أن تناديه ذلك لأنها تعرف انه قد سمعها قادمة فلحارتانى أذنان حادتان فهو يستطيع أن يسمع حركة أرنب فى الناحية الأخرى من التل . كما يشير الى « لالاّ » عن الطائرات فى الجو قبل ظهور ازيز محركها بوقت طويل . وعندما اقتربت منه وقف « حارتانى » والتفت اليها فلمعت الشمس على وجهه الأسود فابتسم ولمعت أسنانه فى الضوء . وبرغم أنه أصغر سنا من « لالاّ » الا أنه فى نفس طولها . انه يمسك بسكين بدون مقبض فى يده اليسرى . فسألته « لالاّ » ماذا تصنع بهذا السكين ؟ » . وبما انها كانت متعبة من الطريق الذى قطعته فقد جلست على الصخرة وظل هو واقفا أمامها متوازنا على ساق واحدة ثم فجأة قفز الى الخلف وبدأ يعدو فوق التل الملىء بالحصى . وبعد لحظات عاد حاملا قبضة من البوص الذى جمعه من المستنقع . وعرضها على « لالاّ » مبتسما . وكان يلهث قليلا كالكلب حين يعدو بسرعه .
قالت « لالاّ » : إنها جميلة . أهى لعزف الموسيقى . فى الحقيقة هى لم تسأله وانما ترجمت الكلمات باشارة من يدها . ففى كل مرة تتحدث فيها « لالاّ » يظل « حارتانى » بلا حراك ناظرا اليها فى انتباه شديد ذلك لأنه يبغى أن يفهم .

ربما كانت « لالاّ » هى الشخص الوحيد الذى يفهمها وهى بدورها تفهمه . وحينما نطقت « لالاّ » بكلمة موسيقى قفز « حارتانى » فى موضعه مادا ذراعيه كمن يريد الرقص ثم صفر من بين أصابعه فى قوة حتى أن الماعز قد أصابها رعدة وهى على سفح التل . ثم أخذ بعصا من الغاب وجمعها فى كفيه ونفخ فيها فأحدث بذلك نغما غريبا من الموسيقى كصرخة الكروان فى الليل . كانت

fb/mashro3pdf

موسيقى حزينة كأغنيات الرعاة .

أخذ « حارتانى » يعزف لحظة دون أن يسترد أنفاسه ثم مد يده بالغاب الى « لالآ » فعزفت بدورها فى حين أن توقف الراعى الشاب عن الحركة وفى نظراته لمعة سرور . انهما يتسليان بأن ينفخا فى قصب بأطوال مختلفة كل بدوره وكأن الموسيقى الحزينة صادرة من منظر ريفى مضاء بنور أو من مغارات تحت الأرض أو من السماء نفسها حيث تتحرك فيها الرياح ببطء .

وفى بعض الأوقات كانا يتوقفان وقد تقطعت أنفاسهما فيقهقه الشاب بضحكته الرنانة المجلجلة كما تضحك « لالآ » بدورها دون أن تعرف سببا لهذا الضحك .

ثم بعد ذلك سارا معا خلال حقول الصخور وقد أمسك الشاب بيد « لالآ » ذلك لأنها تجهل الطريق المملوء بالصخور المدببة وبين الأشواك الكثيفة . فكانا يقفزان فوق قطع الصخور الجافة ويلتويان وفق الشجيران ذات الأشواك . لقد كان « حارتانى » يرشدها عن كل ماهو موجود فى حقول الصخور والتى على سفوح التلال . فهو أدرى من غيره بالمخابىء وبمخابىء الحشرات ذات اللون الذهبى وكذا مخابىء الجراد « فرسة النبى » وجميع الحشرات الورقية . انه يعرف أيضا جميع النباتات ذات الرائحة الطيبة العطره حين تفرك أوراقها بين الأصابع والتى يملأ جذورها الماء أو التى لها مذاق الينسون والفلفل والنعناع والعسل . إنه يعرف الحبوب التى تطحنها الأسنان وبعض الأزاهير التى تصبغ الأصابع والشفاه باللون الأزرق . انه يعرف المخابىء التى يوجد بها الحلزون المتحجر وحبات الرمال التى هى على هيئة النجوم . انه يجر « لالآ » معه بعيدا عن الحوائط الصخرية الجافة وعن الممرات التى لاتعرفها حتى التلال التى عندها تبدأ الصحراء . فحين يصل الى أعالى التل ينبعث من عينيه بريق قوى . كما يلمع جلد وجهه الأسمر وهنا يخبر « لالآ » مشيرا الى الطريق الى الجنوب حيث ولد هناك .

ان « حارتانى » يختلف عن بقية الصبية . فلا أحد يعرف حقيقة من أين أتى ؟ ولكنه ذات يوم وكان هذا فى الماضى البعيد جاء رجل يركب بعيرا وكان

fb/mashro3pdf

يرتدى لباس محاربى الصحراء بمعطفه الفضفاض الأزرق الزاهى اللون وملثم بقناع أزرق . لقد توقف الرجل عند البئر ليسقى بعيره كما شرب هو أيضا حتى ارتوى . لقد شاهدته « ياسمينا » زوجة راعى الماعز عندما ذهبت لتجلب الماء . لقد توقفت حتى تسمح للغريب فى أن يروى ظمأه . وحين رحل على بعيره رأت انه قد ترك على حافة البئر طفلا صغيرا ملفوفا فى قطعة قماش زرقاء . ولما لم يقبله أحد فقد احتفظت به « ياسمينا » وقامت على تربيته فكبر فى عائلتها كولد لها . لقد كان هذا الطفل « حارتانى » وكان هذا هو الاسم الذى أطلق عليه ذلك لأن جلده كان أسمر كعبيد الجنوب .

لقد كبر « حارتانى » فى نفس المكان الذى تركه فيه محارب الصحراء قريبا من حقول الصخور والتلال . هنا حيث تبدأ الصحراء . فهو الذى يحرس ماعز « ياسمينا » . فقد صار كباقى الصبية من الرعاة . يعرف كيف يعنى بالحيوان وكيف يقوده وفق رغبته دون أن يضربها قط ولكن بالصفير بأصابعه ذلك لأن الحيوانات لم تعد تخافه . لقد عرف كيف يكلم مجموعات النحل بأن يصفر لها من بين أسنانه ويوجهها بيديه . ان الناس تخشاه قليلا . فهم يقولون انه مجنون وأن الشياطين تتملكه فتمنحه القوة . فهو يعرف كيف يسيطر على الثعابين والعقارب حتى أنه يأمرها بأن تقتل حيوانات الرعاة الآخرين . ولكن « لالاّ » لاتصدق ذلك فهى لاتخشاه فربما كانت الشخص الوحيد الذى يعرفه جيدا ذلك لأنها تحدثه بلغة غير الآخرين . فهى تنظر اليه وتقرأ كل ما فى عينيه السوداوين وكما تقرأ مابداخله عن طريق عينيه التى بلون العنبر . فهى لاتنظر الى وجهه فحسب وانما تنظر مافى أعماقه وعلى ذلك تفهم كل مايريد قوله لها .

ان « العمة » لاتحب كثيرا أن تذهب « لالاّ » لترى هذا الراعى فى حقوله الصخرية وفى تلاله . فهى تقول لها انه طفل لقيط غريب عن البلدة وانه ليس الفتى الذى يصلح لها . ولكن ما ان تنتهى « لالاّ » من عملها فى بيت العمة

fb/mashro3pdf

حتى تجرى على الطريق المتجه الى التلال وتصفر بين أصابعها كالرعاة ثم تصيح « هالو حارتانى » .

انها تبقى معه هناك فى بعض الأحيان حتى المساء وعندئذ يجمع الصبى حيواناته ليقودها الى أسفل قريبا من بيت « ياسمينا » . وغالبا ولانهما لايتحدثان فقد يبقيان مكانهما جالسين على الصخور أمام التلال الصخرية . انه من الصعب ان يفهم مايصنعان فى هذه اللحظات . ربما امتد بصرهما الى الأمام وكأنهما يريان من خلال التلال ماوراء الأفق . وحتى « لالاّ » نفسها لاتعرف كيف يحدث هذا !! ذلك لأنها تحس الّا وجود للزمن حين تكون جالسة الى جانب « حارتانى » . فالكلام يدور فى حرية تامة فيذهب فى إتجاه « حارتانى » ثم يعود اليها حاملا معانى اخرى كما يحدث فى الأحلام حيث يكون الفرد اثنين فى آن واحد إنه « حارتانى » الذى علّمها ان تبقى هكذا دون حركة ناظرة الى السماء والأحجار والشجيرات . ناظرة كيف تطير الزنابير والذباب وكيف تنصت الى غناء الحشرات المختبئة وكيف تحس فى الظلام بالطيور الجارحة وارتجاف الأرانب فى الجحور .

ان « حارتانى » لا عائلة له مثل « لالاّ » كما أنه لايعرف القراءة والكتابة . فهو لايعرف حتى كيف يصلى ولا كيف يتكلم . ومع هذا فهو يعرف كل هذه الأشياء . ان « لالاّ » تحب وجهه الناعم ويديه الطويلتين وعينيه ذوات لون المعدن الغامق وابتسامته بل انها تحب طريقة مشيته المملوءة بالحيوية والرشاقة . تماما مثل الأرنب البرى . انه يعرف كيف يقفز من صخرة الى أخرى كما يختفى فى لحظة عين خاطفة فى أحد مخابئه .
انه لايأتى مطلقا الى البلدة . ربما كان بسبب خوفه من الصبية الآخرين ذلك لأنه مختلف عنهم . فاذا مارحل فإنما يذهب الى الجنوب فى اتجاه الصحراء هناك حيث يمر الرحُل على ظهور الإبل . انه يذهب هكذا لعدة أيام دون أن يعرف أحد

fb/mashro3pdf

مكانه . ثم يعود ذات صباح فيتخذ مكانه مرة أخرى فى حقول الصخور مع الماعز والجديان وكأنه لم يرحل سوى لحظات قصيرة .

عندما تكون « لالاّ » جالسة هكذا على الصخرة الى جوار « حارتانى » ينظران معا الى هذه المساحات من الصخور فى نور الشمس ومع الرياح التى تهب من آن لآخر ومع الزنابير التى تطن فوق النباتات الصغيرة الرمادية ومع وقع حوافر الماعز على الحصى الذى ينهار من حولها . لم يعد بهما حاجة لشيء ما فى الحقيقة .

ان « لالاّ » تشعر بحرارة داخلها كما لو أن نور السماء كله والصخور قد نفذت الى جسدها . ثم يأخذ « حارتانى » يد « لالاّ » فى يده الطويلة ذات الأصابع الطويلة الوضيعة ويضغط عليها بعنف حتى تتألم من ذلك . ولكن « لالاّ » تحس فى كفها تيارا من الحرارة . انها لاتريد أن تتكلم ولا أن تفكر . فهى راضية عن ذلك حتى أنها تتمنى لو تبقى طول النهار هكذا وحتى يحل المساء الذى ملأ المنخفضات دون حراك . إنها تنظر أمامها . انها ترى كل تفاصيل المنظر الحجرى وكل بقعة ذات عشب . إنها تسمع كل حركة أو صيحة لحشرة . انها تحس بتردد أنفاس الراعى البطيئة فهى قريبة منه حتى انها لترى بعينيه وتحس بجلده . لقد استمر هذا لحظة قصيرة ولكن خيل لها أنها كانت طويلة حتى لقد نسيت ماعداها وماحولها وقد أصابها الدوار . وفجأة وكأنها تخشى شيئا قفز الراعى الشاب واقفا وترك يد « لالاّ » ودون أن ينظر اليها بدأ يعدو فى سرعة كالكلب قافزا فوق الصخور وعبر الحواف الحجرية الجافة و « لالاّ » ترقب خياله الذى إختفى بين شجيرات الأشواك .

« حارتانى ... حارتانى ... عد ... ارجع »

fb/mashro3pdf

بهذا صاحت وهى واقفة فوق الصخرة . صاحت فى صوت مرتعش ذلك لأنها تعلم أن هذا لن يجدى . لقد إختفى « حارتانى » فجأة وكأنه قد ابتلعته فجوة سوداء بين الصخور الجيرية . فهو لن يعود للظهور اليوم . فربما يظهر باكر أو بعد ذلك ؟ عندئذ هبطت « لالاّ » من التل بدورها فى بطء وتعثرت من صخرة الى صخرة وتستدير من حين الى آخر . فى محاولة لرؤية الراعى . تركت « لالاّ » حقول الصخور ورجعت الى أسفل الى بطن الوادى غير بعيد عن البحر . وهناك حيث يعيش الناس فى بيوتهم من العروش وسقوف المعدن والورق المقوى .

fb/mashro3pdf

ان الأيام هى نفسها الأيام فى هذه البلدة . وفى بعض الأحيان لايستطيع الانسان أن يتأكد من اليوم الذى يعيشه هذا لأنه قد أصبح قديما وكأن شيئا غير مكتوب وليس هناك يقين فلا أحد يستطيع مجرد التفكير فى هذا ولا حتى أن يسأل نفسه عمن يكون !؟ ولكن « لالاّ » تستطيع ذلك كما تستطيع أن تفكر فى أغلب الأحيان حين تذهب الى هضبة الصخور حيث يعيش فيها الرجل الأزرق الذى تسميه « السر » .

ربما كان هذا بسبب الزنابير أيضا . ففى المدينة كثير من الزنابير بل أكثر من الناس ، من رجال ونساء . فهى منذ الفجر وحتى الشفق لاتفتأ أن تطن فى الهواء باحثة عن طعامها كما تتراقص فى نور الشمس .

ومع ذلك فان الساعات احيانا لاتتشابه مثل ماتنطق به « العمة » من كلمات ومثل وجوه الفتيات اللائى يتواجدن حول النبع . فهناك ساعات شديدة الحرارة فتحرق الشمس الجلد حتى برغم وجود الثياب . ويغرس الضوء إبره فى العيون ويدمى الشفاه . وعلى هذا فان « لالاّ » تلف نفسها جيدا فى القماش الأزرق وتربط منديلا كبيرا خلف رأسها وتلف رأسها بغلالة أخرى زرقاء تكسوها حتى صدرها . فالهواء الحارق يأتى من الصحراء يحمل فى طياته حبات من الرمال الصلبة . وفى الخارج فى الأزقة بالبلدة لايوجد بشر حتى الكلاب فإنها تختبىء فى جحر من الأرض جانب أسوار المنازل مستندة الى براميل الوقود الخالية .

fb/mashro3pdf

ولكن « لالاّ » تحب أن تخرج فى هذه الأيام ذلك لأنه لايوجد أحد ـــ البتة ـــ كأنما لايوجد شيء على الأرض ولاشيء مطلقا يخص الانسان . وهنا تحس « لالاّ » كأنها أبعد ماتكون عن نفسها وأنه لم تعد أهمية لأى شيء فعلته حتى الآن ولاشيء تذكره .

إنها تذهب الى البحر هناك حيث الكثبان تبدأ . فتجلس على الرمال ملتفحة بغلالتها الزرقاء وتشاهد الأتربة العالقة بالهواء والتى تصعد فوق الأرض وتصعد الى الشمس حيث السماء صافية الزرقة والكثيفة التى هى فى لون الليل . وحين تنظر الى الأفق من فوق خطوط الكثبان فانها ترى هذا اللون الوردى الذى يرى عند الفجر . فى مثل هذه الأيام يتحرر الانسان أيضا من الذباب والزنابير ذلك لأن الرياح تطردها ناحية الصخور لتبقى فى عششها المبنية من الطين الجاف أو فى الأركان المظلمة من المنازل كما لايوجد رجل أو امرأة ، أو طفل ولا كلاب ولا طيور . فليس هناك سوى الريح التى تصفر بين أغصان الشجيرات وبين أوراق شجيرات التين البرى . لايوجد سوى آلاف القطع الصغيرة من فتات الصخور التى تلفح الوجوه والتى تتناثر من حول « لالاّ » مكونة أشرطة وثعابين وغبارا كالدخان . يوجد أيضا صوت الريح وضوضاء البحر وصوت الرمال فتميل « لالاّ » الى الأمام لتتنفس وقناعها الأزرق ملتصق بأنفها وشفتيها .

إن هذا بديع ذلك لأن الانسان كأنه مسافر على مركب تماما مثل « نعمان » الصياد ورفاقه ضائع وسط العاصفة . السماء عارية وحارقة كالعادة وتختفى الأرض أو تكاد . ترى خلال فتحات الرمال ممزقة ومهلهلة بعض البقع السوداء من السلاسل الصخرية فى عرض البحر .

إن « لالاّ » لاتعرف سببا لخروجها فى هذه الأيام . فان ذلك أقوى منها . فهى لاتستطيع ان تظل حبيسة فى منزل « العمة » كما لاتستطيع السير بين أزقة البلدة. إن الريح الحارقة تجفف شفتيها وخياشيمها كما تحس بالنار تتسرب داخلها.

fb/mashro3pdf

ربما تكون نارا أو نور السماء . النار التى تأتى من الشرق والتى تغرسها الرياح فى جسدها حتى صار خفيفا وسريع الحركة . انها تقاوم ناشبة كفيها فى رمال الكثبان وذقنها ملتصق بركبتيها . فهى تتنفس فى صعوبة وعلى فترات قليلة حتى لاتصبح خفيفة جدا .

انها تحاول أن تفكر فيمن أحبت فذلك يمنع أن تحملها الرياح . انها تفكر فى « العمة » وفى « حارتانى » وفى « نعمان » على وجه الخصوص . ولكن فى مثل هذه الأيام فليس هناك حقيقة مايستحق ولا أى شخص ممن تعرفهم . لقد هرب منها التفكير فجأة كما لو أن الرياح قد اقتلعته وحملته على طول الكثبان .

وفجأة أحست بعين رجل الصحراء الأزرق تتركز عليها . انها نفس النظرة التى تعلو فوق الهضبة الصخرية وعلى حدود الصحراء . انها نظرة خاوية ومتسلطة . وتثقل كاهلها بثقل الريح والنور . انها نظرة ذات جفاف مرعب جعلتها تتألم . انها نظرة جامدة كفتات الصخور التى تضرب وجهها وملابسها . فهى لم تفهم مايريد أو عما يسأل . فربما لايريد منها شيئا . وانه فى بساطة يمر باقليم البحر أو على النهر أو بالمدينة . وأنه سوف يذهب ابعد من ذلك ليشعل النار فى المدن والبيوت البيضاء وفى الحدائق والينابيع وفى الشوارع الكبرى للبلاد التى فى الجانب الآخر من البحر .

ذعرت « لالاّ » الآن . انها تريد أن توقف نظرته . ان توقفها عليها حتى لايذهب الى هناك عند الأفق حتى توقف ثأره وناره وعنفه . فهى لاتفهم لماذا تريد عاصفة رجل الصحراء تدمير هذه المدن . لقد أغلقت عينيها حتى لاترى ثعابين الرمل التى تتلوى من حولها وهذا الدخان الخطير وبأذنيها تسمع صوت محارب الصحراء هذا الذى تسميه « السر » . فهى لم تسمعه مطلقا بمثل هذا الوضوح حتى حين ظهر لعينيها فوق الهضبة الصخرية متشحا بمعطفة الأبيض ويغطى وجهه

fb/mashro3pdf

قناعه الأزرق . انه صوت عجيب . ذلك الذى تسمعه داخل رأسها ، والذى يختلط بصوت الريح ، وصوت تفتيت الرمال . انه صوت بعيد يتلفظ كلمات لاتفهمها جيدا ويكرر نفس كلماته الى مالا نهاية . فصاحت « لالاّ » فى صوت عال « اجعل الرياح تقف » ودون ان تفتح عينيها « لاتدمر البلدان . دع الرياح تقف والشمس لاتحرق وأن يبقى كل شىء فى سلام » . ثم بعد ذلك وبالرغم منها سألت « ماذا تريد ؟ لماذا جئت هنا . انى لاشىء بالنسبة لك ، لماذا تكلمنى ، وتكلمنى أنا وحدى ؟ ولكن الصوت استمر تردده وسرت الرعدة فى كيانها . إنه فقط صوت الريح وصوت البحر وصوت الرمل وصوت النور الذى يبهر ويسكر ارادة الانسان . لقد جاء فى نفس الوقت مع النظرة الغريبة فهى تكسر وتقتلع كل مايقاومها على الأرض ثم يستمر بعيدا عن الأفق ثم يتلاشى فوق البحر بين أمواجه القوية وقد حمل السحب والرمال نحو الشواطىء الصخرية للجانب الآخر من البحر نحو أراضى الدلتا الفسيحة حيث تشتعل مداخن مصانع التكرير .

* * *

fb/mashro3pdf

« حدثيني عن الرجل الأزرق » قالت « لالاّ » . ولكن « العمة » كانت على وشك اعداد العجين لعمل الخبز على مسطح الطين . فهزت رأسها وأجابت « ليس الآن » ولكن « لالاّ » أصرت قائلة « بل الآن ياعمة أرجوك » . لقد سردت عليك كل ماأعرفه عنه وكذا عن مايسمونه « ماء العينين » . ثم توقفت « العمة » عن تحريك العجين ثم جلست على الأرض وتكلمت لأنها تحب أن تحكى بعض القصص .

« لقد حدثتك عن ذلك من زمن طويل . فقد حدثتك عن الفترة التى لاأُمك ولا أنا قد عرفناها . فقد كان ذلك وقت طفولة جدتك الكبيرة لأمك . بأن الأزرق الكبير والذى سمى « الرجل الأزرق » قد مات وكان « ماء العينين » لايزال شابا صغيرا فى هذه الآونة ان « لالاّ » تعرف أسماءهم فقد سمعتها كثيرا إبان طفولتها . وكانت فى كل مرة تسمعها تنتابها رعدة يسيرة كأن هذا يحرك شيئا مافى أعماقها .

« ان الأزرق كان ينتمى لقبيلة جدتك لأمك وكان يعيش فى الجنوب فيما وراء « الذراع » وبالقرب من « ساقية الحمراء » . وفى هذا الوقت لم يكن هناك أى غريب فى هذه الناحية فلم يكن من حق المسيحيين الدخول فيها . كما كان فى هذا الوقت بالذات محاربو الصحراء لايغلبون . وكانت جميع الأراضى فى جنوب

fb/mashro3pdf

« الذراع » ملكاً لهم وأبعد من هذا حتى قلب الصحراء وحتى المدينة المقدسة « شنجتى » .

وفى كل مرة تسرد « العمة » قصة « الأزرق » كانت تضيف بعض التفاصيل الجديدة أو جملة جديدة أو تغير شيئا ماوكأنها لاترغب فى ألّا تنتهى قصتها . لقد كان صوتها قويا به ترنيمات غنائية فتتجاوب اصداؤه فى غرابة فى جوانب هذا البيت المظلم مع صوت قعقعة سقفه نتيجة لفعل الشمس أو لطنين الزنابير .

« لقد سمى بالأزرق لأنه قبل أن يكون قديسا كان محاربا من جنود الصحراء . وكان ذلك فى الجنوب فى اقليم « شنجتى » . فقد كان من النبلاء وابنا « للشيخ » . ولكن ذات يوم ناداه الله فصار قديسا . فخلع عنه الملابس الزرقاء الخاصة بالصحراء وارتدى ثوبا من الصوف كالفقراء وسار خلال الإقليم من بلد الى آخر عارى القدمين وممسكا بعصاة كأنه شحاذ . ولكن الله أراد ألا تخلط الناس بينه وبين الشحاذين فبقى جلده ووجهه ويداه بلون أزرق . ولم يفارقه هذا اللون مطلقا برغم كثرة مااغتسل بالماء . فقد ظل اللون الأزرق فى وجهه وفى يديه وحين رأى الناس ذلك برغم أسماله فقد فهموا أنه غير شحاذ ولكنه محارب من محاربى الصحراء الحقيقيين . وأنه أزرق لأن الله قد إصطفاه ولهذا سمى بالرجل الأزرق .

وحينما كانت تتحدث العمة كانت تميل فى توازن بجسمها الى الأمام ثم الى الخلف كما لو كانت تؤلف نغما موسيقيا . أو أنها تصمت لفترة طويلة مائلة على الوعاء الطينى الذى تعجن فيه العجين . ثم تضغطه بقبضتيها المغلقتين . وكانت « لالاّ » تنتظر أن تستمر العمة وبدون أن تقول لها شيئا .

« لاأحد من هذه الفترة ظل حياً « قالت ذلك العمة » وكل مايقال عنه هو كل مانقصّه من أخباره وأسطورته وذكراه . ولكن يوجد الآن بعض الناس لايصدقون

fb/mashro3pdf

ذلك » . بأن يقولوا ان هذا كله أكاذيب » .

ترددت العمة قليلا إذ كان عليها أن تختار فى عناية فائقة ماسوف تحكيه . فقالت « لقد كان الأزرق قديسا . يعرف كيف يشفى المرضى حتى مرضى الأمراض الباطنية أو من فقدوا عقولهم . لقد كان يعيش فى كل مكان فى أكواخ الصيادين أو أعراش أوراق الأشجار التى تبنى تحت الأشجار أو فى الكهف فى قلب الجبل . وكان الناس يأتون من كل مكان ليروه وليسألوه النجدة والمساعدة . وذات يوم حمل رجل عجوز ولده الأعمى وسأله قائلا : اشف ولدى انت .. يامن تلقيت البركة من الله . وسأعطيك كل ماأملك » ثم قدم اليه حقيبة مملوءة ذهبا كان قد أحضرها معه . فرد عليه الرجل الأزرق : ماعساه ينفع هذا الذهب هنا .. وأشار الى الصحراء حيث لا نقطة ماء ولا فاكهة ثم أخذ منه الذهب وألقى به على الأرض فانقلب الذهب الى عقارب وثعابين هربت بعيدا فارتعد العجوز من الخوف . ثم قال الأزرق للعجوز : أتقبل أن تصبح أعمى بدلا من ابنك ؟ فأجابه العجوز قائلا : انى قد كبرت فما جدوى البصر لى . فدع ولدى يرى فأكون راضيا . وفى الحال شفى الشاب واسترد بصره وقد بهره نور الشمس . ولكن حين رأى ان والده صار أعمى فارقه السرور وقال : رد البصر لوالدى ذلك لأن الله هو الذى عاقبنى . فأعطاهما الأزرق معا البصر ذلك لأنه استيقن من طيبة قلبهما . ثم استمر فى سيره تجاه البحر ثم توقف ليعيش فى هذا المكان قريبا من الكثبان وعلى شاطىء البحر .

سكتت العمة قليلا فأخذت « لالاّ » تفكر فى الكثبان حيث عاش الأزرق ثم سمعت صفير الرياح والبحر .
« لقد كان الصيادون يطعمونه كل يوم لأنهم يعرفون أن الرجل الأزرق قديس . كما كانوا يطلبون بركته . فيأتى البعض من مسافات بعيدة جدا من مدن الجنوب الحصينة . فهم يحضرون ليسمعوا كلماته . ولكن الأزرق لايعلم « علم السنة »

fb/mashro3pdf

بالكلام . وحين يحضر اليه شخص ما ويطلب منه « أن يعلمه الطريق أو أن يهديه الطريق والسراط فكان يكتفى فقط بتلاوة بعض الآيات ومسبحا بمسبحة لعدة ساعات ولا يقول شيئا آخر . ثم يقول للزائر : اذهب واجمع حطبا لتوقد النار ثم اذهب واملأ ماء . يأمره بهذا كما لو كان الزائر خادمه ثم يقول له : حرك الهواء أمامى ثم يوجه اليه بعض الكلمات القاسية بأن يصفه بالكسل والكذب كما لو كان عبدا له . »

كانت العمة تتحدث فى بطء فى هذا البيت المظلم . وأما « لالاّ » فقد اعتقدت أنها تسمع صوت الرجل الأزرق « بهذا كان يعلم » « علم السنة » وليس بكلمات . ولكن باشارات أو بصلوات حتى يجبر الزائرين على أن يتواضعوا ويستشعروا المذلة فى قلوبهم . ولكن حين يزوره بعض البسطاء أو الأطفال فانه يصير هادئا ولطيفا معهم ويوجه اليهم ألفاظا رقيقة . ويقص عليهم بعض الأساطير العجيبة . ذلك لأنه يعلم أن لهم قلوبا رقيقة وأنهم قريبون من الله . ومن أجلهم يقدم لهم بعض المعجزات ليساعدهم لأنه لاعائل لهم » .

ثم ترددت العمة قليلا ثم أضافت : « ترى هل قصصت عليك معجزة نبع الماء الذى جعله يتفجر من تحت الصخرة ؟ » ولكن « لالاّ » تقول : نعم ولكن أرجو أن تحكيها مرة أخرى » فهذه هى القصة التى تحبها أكثر من غيرها من القصص . ففى كل مرة تسمعها تحس شيئا غريبا يتحرك داخلها . شىء يكاد يبكيها أو كرعدة الحمى . فهى تفكر كيف حدث هذا من زمن بعيد على مشارف الصحراء فى قرية من طين وعرائش النخل بها ميدان فسيح خالٍ حيث تطن فيه الزنابير وماء النبع يلمع من أشعة الشمس أملس كمرآة حيث تعكس لون السحاب والسماء . لا احد فى ميدان القرية ذلك لأن الشمس حارة وشديدة جدا لهذا يأوى الناس الى المخابىء فى نسيم بيوتهم . وفوق ماء النبع الراكد والمفتوح كعين تنظر الى السماء تمر من وقت لآخر رعدة خفيفة لهواء ساخن الذى يصفع

fb/mashro3pdf

الوجوه بأتربة ناعمة كبقعة بيضاء تتلاشى فى الحال . ان الماء جميل وعميق فهو ذو زرقة خضراء هادىء لايتحرك ثابت فى الأرض الحمراء حيث تترك أقدام السيدات العارية آثارا مثيرة . ليس هناك سوى الزنابير التى تروح وتغدو فوق الماء لامسة فى رفق السطح ثم ترحل ناحية المنازل حيث يتصاعد منها دخان المواقد .
« انها امرأة كانت تذهب الى النبع لتملأ جرتها ماءً . لاأحد يذكر اسمها تماما الآن ذلك لأنه مضى على ذلك وقت طويل . ولكنها سيدة عجوز فقد وهنت قواها . وحينما تصل الى النبع فإنها تبكى وتتألم ذلك لأن أمامها مسافة طويلة حتى تحضر الماء لمنزلها . لقد بقيت هناك منحنية على الأرض تبكى وتتأوه . وفجأة ودون أن تسمعه قادما يقف الأزرق الى جوارها ... »

إن « لالاّ » لتراه الآن فى وضوح . فهو طويل نحيل وملفوف فى معطف بلون الرمل . ويخفى وجهه قناع ولكن عينيه تبرق ببريق عجيب . يهدأ ويقوى كلهب المصباح . إنها تعرفه الآن . فهو الذى يظهر فوق الهضبة الصخرية حيث تبدأ الصحراء . فهو الذى يشمل « لالاّ » بنظراته فى اصرار وقوة والذى يشعرها بالدوار . انه يأتى هكذا فى هدوء كظل . فهو يكون هناك عندما يجب أن يكون .
« استمرت المرأة العجوز فى البكاء وعلى ذلك سألها الأزرق فى عذوبة وحنان « لماذا تبكين ؟ » . لايستطيع المرء ان يخشاه حين يحضر فى هدوء وكأنما انبثق من الصحراء فنظرته مليئة بالطيبة . وصوته هادىء وبطىء ووجهه مضىء . فأخبرته المرأة بحزنها ووحدتها وأن بيتها بعيد جدا عن الماء وأن ليس لديها من القوة أن تعود اليه حاملة جرتها ... » .
إن نظرته وصوته كانا كشىء واحد . لقد كان كمن يعرف من قبل مايجب أن يحدث فى المستقبل وانه ملم بمصير الآدميين . فقال لها الأزرق « لاتبك من أجل هذا . سوف أساعدك فى العودة الى بيتك » . وقادها من ذراعها حتى بيتها وحين وصلا قال لها فى بساطة : إرفعى هذا الحجر الى حافة الطريق فلن تحتاجى مطلقا

fb/mashro3pdf

لماء . ففعلت المرأة ماقال ، فكان تحت الصخرة نبع ماء صافٍ . قد تفجر وانتشر الماء من حولها حتى كون نبعا أكثر جمالا وأكثر عذوبة من أى نبع آخر فى المنطقة كلها . فشكرته المرأة على ذلك . ومن ثَمَّ حضر الناس من جميع الضواحى ليروا هذا النبع وليذوقوا ماءه والجميع يثنون على الأزرق ويمتدحونه لأنه أخذ عن الله هذه القوة » .

فكرت « لالاّ » فى النبع الذى تفجر تحت الصخرة كما فكرت فى الماء الصافى والذى يتلألأ فى ضوء الشمس . لقد فكرت فى ذلك طويلا فى حين أن العمة استمرت فى ضغط عجين الخبز . وتراجع ظل الرجل الأزرق فى صمت مثلما ظهر . ولكن نظراته المليئة بالقوة بقيت معلقة فوقها متلهفة كنِسمة .

سكتت العمة الآن لم تقل شيئا مطلقا . وظلت تضرب وتحرك العجين فى القصعة والذى يهتز تحت وقع هذه الضربات . فربما كانت تفكر هى الأخرى فى النبع الجميل والمياه العميقة التى تفجرت تحت الصخرة فى الطريق كقول الأزرق الحق والطريق الحقيقى .

fb/mashro3pdf

هنا النور جميل كل يوم فوق البلدة . ولم تنتبه « لالاّ » قط لهذا النور حتى علَّمها « الحارتانى » كيف تنعم بالنظر اليه . فهو ضوء صافٍ خاصة فى الصباح قبل طلوع الشمس فهو يضىء الصخور والأراضى الحمراء ويبعث فيها الحياة وتوجد أماكن عديدة ترى هذا النور . لقد قاد « الحارتانى » « لالاّ » ذات صباح الى مكان من هذه الأمكنة . إنه كهف ينفتح على جوف حفرة فى الصخر . ان « الحارتانى » هو الوحيد الذى يعرف هذا المخبأ . فيجب أن يعرف هذا الممر جيدا . لقد أخذ « الحارتانى » بيد « لالاّ » وقادها على طول الطريق الضيق الملتوى والذى ينتهى الى داخل الأرض . وفى الحال يشعر المرء برطوبة الظل وتهدأ الضوضاء تماما كما يغمر الانسان رأسه فى الماء . فهذا الممر يغوص بعيدا تحت الأرض . لقد أحست « لالاّ » ببعض الخوف ذلك لأنها تهبط للمرة الأولى داخل الأرض . ولكن الراعى ضغط على يدها بقوة فأعاد لها الشجاعة .

لقد توقفا فجأة عن السير لأنهما وجدا أن الطريق الضيق يفيض بالنور لأنه ينفتح على السماء . لم تفهم « لالاّ » كيف أن هذا ممكنا مع أنهما لم يتوقفا عن الهبوط ولكن هذه كانت الحقيقة . فالسماء هناك أمامهما كبيرة وخفيفة . لقد بقيت « لالاّ » دون حركة واحتبس تنفسها وجحظت عيناها . فهنا لايوجد سوى السماء صافية لدرجة أن يعتقد المرء أنه طائر على أهبة الطيران .

fb/mashro3pdf

أشار الحارتانى لها أن تقترب من الثغرة ثم جلس فى بطء على الصخور حتى لا يتسبب فى بعض الانهيارات . جلست « لالاّ » خلفه بقليل ترتعد من الدوار فقد شاهدت أسفل هذه الصخور ضباب سهل كبير غير مأهول كما رأت المجارى الجافة . وعند الأفق يوجد بخار كثيف يغطى الفضاء فهنا بداية الصحراء والى هنا يذهب « الحارتانى » فى بعض الأحيان وحيدا دون أن يحمل معه أكثر من قليل من الخبز ملفوف فى منديل إنه الشرق هناك حيث نور الشمس أجمل مايكون . جميل لدرجة أن الانسان يريد أن يعمل مثل « الحارتانى » . كان يجرى عارى القدمين فى الرمال . ويقفز فوق الصخور الناتئة القاطعة وان يذهب بعيدا فى اتجاه الصحراء .

« ان هذا بديع يا « حارتانى » . وغالبا ماتنسى « لالاّ » أن الراعى لايستطيع أن يفهم . فعندما تكلمه يدير وجهه ناحيتها وتلمع عيناه وتحاول شفتاه أن تقلد حركات اللغة ثم ترتسم على وجهه امتعاضة فتضحك « لالاّ » من ذلك .

« آه » إنها تشير بإصبعها نحو نقطة سوداء لاتتحرك وسط هذا الضوء . فينظر « الحارتانى » لحظة فى اتجاه النقطة ثم يصنع بيديه علامة طائر بأن يثنى سبابته ويباعد بثلاثة أصابعه الأخرى كأنها ريش الطائر . تنساب النقطة فى بطء وسط السماء . ثم تدور قليلا حول نفسها ثم تهبط وتقترب . فتميز الآن « لالاّ » جسده جيدا : رأسه وأجنحته بريشها المفرود إنه صقر يبحث عن فريسة فهو ينزلق مع تيارات الرياح فى بطء كأنه ظل .

نظرت اليه « لالاّ » طويلا وقلبها يدق فلم تر فى حياتها طائرا أجمل منه . انه يرسم دوائر بطيئة فى السماء على إرتفاع كبير فوق الأرض الحمراء . انه وحيد وهادىء فى الهواء . أو فى ضوء الشمس أو وهو يهبط فى لحظات نحو الصحراء كأنه يسقط فيها . ازدادت ضربات قلب « لالاّ » ذلك لأن هدوء هذا الطائر الوحشى نفذ الى داخلها فولد الخوف فيها وظل نظرها مركّزا على الصقر لاتستطيع أن تفارقه . فالصمت القاتل لوسط السماء وبرودة الهواء الخالص وخاصة الضوء الحارق كل هذا أدار رأسها فأسندت راحتها على ذراع « الحارتانى » حتى لاتسقط الى الأمام نحو الفضاء . انه بدوره ينظر الى الصقر ولكن كما لو كان

fb/mashro3pdf

الطائر أخا له وأنه لايوجد مايفصل بينهما . فلكليهما نفس النظرة ونفس الشجاعة فهما يتقاسمان الهدوء السماوى الذى لانهاية له وهدوء الهواء وهدوء الصحراء . وعندما رأت « لالاّ » أن « الحارتانى » والصقر متشابهان سرت الرعدة فيها ، ودوارها توقف . السماء فسيحة أمامها والأرض ضباب رمادى يعوم حتى الأفق . وبما أن « الحارتانى » يعرف كل ذلك لم تعد « لالاّ » تخشى أن تدخل فى الصمت . فأغلقت عينيها وتركت نفسها تسبح فى الهواء وسط السماء معلقة فى ذراع الراعى الشاب . وفى بطء رسم كلاهما معا دوائر فوق الأرض بعيدا جدا حتى لاتسمع أية ضوضاء ولاشىء سوى برودة الهواء الخفيفة فى ذيل الطير . لقد كان هذا عاليا حتى لم تعد ترى الصخور وشجيرات الشوك والمنازل المعرشة بفروع الشجر أو بالورق المقوى .

ثم بعد أن طارا معا وقتا طويلا وقد أسكرهما الهواء والضوء وزرقة السماء عادا الى فتحة الكهف أعلى الصخور الحمراء . ثم هبطا فى خفة دون أن يحركا أية صخرة أو أن يحركا حبة من الرمال . هذه هى الأشياء التى يعرفها « الحارتانى » دون أن يتكلم أو يفكر بأى شىء سوى النظر فقط .

انه يعرف جميع الأماكن بأنواعها حيث يستطيع الانسان أن يرى الأنوار ذلك لأنه لايوجد نور واحد فقط . ولكن هناك أنواع مختلفة من الأنوار . فى البداية حين كان يقود « لالاّ » من خلال الصخور أو فى بطون الوادى نحو المجارى الجافة أو فى أعلى صخرة حمراء اعتقدت « لالاّ » أن هذا إنما ليصيد السحالى أو يستولى على أعشاش الطيور كما يفعل باقى الصبية . ولكن « الحارتانى » كان يريها ماداً يده وفى عينيه بريق السرور . وفى نهاية إشارته لم تكن سوى السماء فسيحة بيضاء أو رقصات أشعة الشمس على طول هذه الصخور أو هذه الأقمار التى تصنعها الشمس خلال أوراق الشجيرات . فى بعض الأحيان يشير أيضا الى بعض الذباب المعلق فى الهواء كالفقاقيع بين الأعشاب وكأنه غطاء كبير من نسيج العنكبوت كانت تلك الأشياء أجمل عندما كان ينظر اليها كانت أجدد كما لو لم يكن قد نظر اليها أحد من قبل منذ بدء الخليقة . ان « لالاّ » تحب أن تتبع

fb/mashro3pdf

« الحارتانى » فهى تسير من خلفه على طول الطريق الذى يفتحه . انه ليس طريقا مجهدا بمعنى الكلمة ذلك لأنه لاتوجد عليه آثار . ومع ذلك فحين يتقدم « الحارتانى » فانه يكون هذا هو الطريق وليس غيره . ربما كانت هذه ممرات للماعز وللثعالب ولكنها ليست للآدميين . ولكن « الحارتانى » شبيه بالماعز والثعالب . فهو يعرف أشياء لايعرفها الناس فهو يراها بجسده كله لابعينيه فقط . وهذا أيضا بالنسبة للروائح .

فى بعض الأحيان يسير « الحارتانى » بعيدا فوق سهول الصخور فى اتجاه الشرق . وأشعة الشمس تحرق الأكتاف ووجه « لالآ » وأنها تتبع الراعى بصعوبة . انه لا يأبه لها فى تلك الأحيان فهو يبحث عن شىء معين ودون أن يتوقف وينحنى ناحية الأرض وهو يقفز من صخرة إلى أخرى . وفجأة يقف ويضع وجهه على الأرض ثم ينطرح على بطنه كمن يريد أن يشرب . فتقترب «لالآ » فى هدوء فى حين ينتصب « الحارتانى » قليلا وتبرق عيناه ببريق السرور كمن وجد أعز شىء فى الوجود . فبين الحصى وعلى الأرض المتربة وجد حزمة خضراء ورمادية عبارة عن شجيرة صغيرة ذات أوراق رفيعة مثل مايوجد منها الكثير هنا . ولكن عندما قربت « لالآ » وجهها شمت رائحة العطر ضعيفا فى البداية ولكن شيئا فشيئا شمت رائحة الأزهار ، رائحة النعناع ورائحة حشائش « الشيبا » ورائحة الليمون أيضا ، ثم رائحة البحر والهواء والمراعى فى الصيف . يوجد كل هذا وأكثر منه فى هذه النباتات الصغيرة يبدو هشا وقذرا والذى ينمو بين الحصى وسط هذه الهضبة الصحراوية وفقط « الحارتانى » يعرف هذا . فهو الذى عرَّف « لالآ » كل هذه الروائح لأنه يعرف مخابئها . فروائح مثل الحصى ومثل الحيوانات لكل منها مخابئها . المهم معرفة كيف يجدها تماما مثل ماتفعله الكلاب أثناء هبوب الريح فى تشمم الآثار الصغيرة . ثم القفز والانقضاض على مكامنها .

لقد عرف « الحارتانى » « لالآ » مايجب أن تفعله . فهى فى الماضى لم

fb/mashro3pdf

تكن تعرف شيئا . ففى الماضى كانت تمر بشجرة أو بجذر دون أن تعنى بالنظر اليها مع أن الهواء معبأ بالروائح . انها تتحرك دائما كهبات النسيم فتعلو وتهبط وتتقاطع وتتقابل وتمتزج ثم تنفصل . ومن فوق أثر من آثار أرنب برى تفوح رائحة غريبة للخوف وعلى مسافة بعيدة أشار « الحارتانى » « للالاّ » بأن تقترب . ففى أول الأمر لايوجد شيء على الأرض الحمراء ولكن شيئا فشيئا تتبين الفتاة شيئا صلدا ذا رائحة نفاذة ، إنها رائحة « البول » أو رائحة العرق وفجأة تعرف جيدا الرائحة . انها رائحة كلب ضال جائع يجرى فى أثر أرنب برى. تحب « لالاّ » أن تمضى الأيام مع « الحارتانى » فهى الوحيدة التى يريها كل هذه الأشياء . أما الآخرون فلا يثق فيهم ذلك لأنه ليس لديهم الوقت لينتظروا وليبحثوا عن هذه الروائح أو ليشاهدوا طيران طيور الصحراء . انه لايخشى الناس بل هو الذى يخيفهم . فهم يقولون عنه انه « مجنون » وان الشياطين تتملكه أو أنه ساحر وأن نظرته لها أثر سيىء . انه « الحارتانى » الذى لاأب له ولا أم والذى أتى من مكان غير معلوم . إنه هو الذى تركه محارب الصحراء يوما بالقرب من البئر دون أن يتكلم . إنه الذى لا اسم له ففى بعض الأحيان ترغب « لالاّ » فى معرفة من يكون ؟ أو تريد أن تسأله : من أين أتيت ؟ .

ولكن « الحارتانى » لايعرف لغة القوم فلا يجيب قط على الأسئلة . فابن العمة البكر.يقول ان « الحارتانى » لايعرف الكلام لأنه أصم . ذلك ماقاله يوما ما أستاذ المدرسة إنه يسمى « الأصم الأبكم » . ولكن « لالاّ » تعرف جيدا أن هذا غير صحيح لأنه يسمع خيرا من كل الناس فهو يستطيع أن يسمع صوتا دقيقا جدا وخفيفا جدا لايستطيع غيره أن يسمعه ولو وضع أذنه على الأرض . فهو يسمع الأرنب الذى يقفز من جانب الى آخر من الهضبة الصخرية كما يسمع أى انسان يقترب من المكان حتى ولو كان من الطرف الآخر للوادى . انه قادر على أن يعين المكان الذى يصفر منه الجراد أو مكان عشش طائر الهزار بين الأعشاب العالية . ولكن « الحارتانى » لايريد أن يسمع كلام الناس ذلك لأنه أتى من مكان لاإنس فيه قد خلا الاّ من الرمال والكثبان والسماء .

fb/mashro3pdf

فى بعض الأحيان تكلمه « لالاّ » بأن تقول له مثلا « بلولا » فى بطء شديد تنظر فى أعماق عينيه فيسطع ضياء غريب ينير عينيه السمراوين ويضع يده على شفتيها ويتبع حركاتهما حين تكلمه هكذا . ولكنه بدوره لم ينطق كلاما مطلقا .

وبعد فترة قصيرة يَمَلّ من ذلك فيحول نظره ويذهب ليجلس على صخرة أخرى ولم يكن لهذا أهمية ما ، ذلك لأن « لالاّ » تعرف الآن أن العبارات لاأهمية لها كما لايعتد بها فى الحقيقة وإنما مايهم فقط هو مايريد قوله الانسان من داخله كسر أو صلاة فهذا فقط هو الكلام ذو القيمة . و « الحارتانى » لايتحدث بغير ذلك . فهو يعرف أن يعطى وأن يستقبل مثل هذا الحديث . فكم من الأشياء تمر فى صمت وهذا ما كانت تجهله « لالاّ » قبل مقابلته . أما الآخرون فلا ينتظرون سوى الكلام أو الافعال أو البراهين . ولكنه هو « الحارتانى » فانه يرمق « لالاّ » بنظراته الجميلة المعدنية دون أن يقول شيئا وأنه فى ضوء نظرته يستمع المرء الى مايقوله ويطلب .

فحين يكون قلقا أو العكس مسرورا جدا فانه يقف ويضع كفيه على صدغى « لالاّ » أو يمدهما على كل ناحية من رأس الفتاة دون أن يلمسها ويبقى هكذا لفترة طويلة بوجه يطفح ضياء . فتحس « لالاّ » بحرارة كفيه على صدغها أو على مفرقيها كنار تدفئها . ان هذا الاحساس العجيب يملؤها سرورا بدورها يتسرب الى أعماقها فيريحها ويهدئها من أجل هذا بالذات أحبت « لالاّ » « الحارتانى » لأنه يملك هذه القدرة بين كفيه فربما يكون حقيقة ساحرا .. انها تنظر الى يدى الراعى لتفهم . انهما يدان طويلتان ذات أصابع رفيعة بأظافر لامعة وجلد أسمر ناعم يكاد يكون أسود فى الجزء الأعلى ، صفراء مشربة بحمرة فى الجزء الأسفل تماما مثل أوراق الشجر التى تجمع بين لونين .

fb/mashro3pdf

ان « لالاّ » تحب كثيرا هاتين اليدين . فهما غير أيدى الرجال الآخرين فى البلدة كما أنها تعتقد الاّ مثيل لهما فى كل اقليم . ففيهما حيوية وخفة . انهما قويتان أيضا . كما أنها تعتقد أيضا انهما يدى أحد النبلاء ربما ابن الشيخ أو ربما يكون لمحارب من محاربى الشرق جاء من بغداد .

ان « الحارتانى » يفعل كل شىء بيديه ليس فقط ليقبض بهما على الحصى أو يكسر بهما الخشب ولكنه يصنع أيضا العقد من الياف النخيل أو يصنع الفخاخ ليصيد بها الطيور أو يصفر أو يصدر بهما نغما موسيقيا أيضا أو يقلد صوت طائر الهزار أو الصقر أو الثعلب أو يقلد صوت الرياح العاصفة أو صوت البحر . إن يديه تعرف كيف تتكلم وهذا ماتفضله « لالاّ » . وليتكلم فى بعض الأحيان فان « الحارتانى » يجلس فوق صخرة كبيرة ملساء فى الشمس ويضع قدميه تحت ثوبه الوبرى الواسع . إن ملابسه فاتحة اللون تكاد أن تكون بيضاء فى حين لايرى منه سوى وجهه ويديه التى فى لون الظلال . وبهذا الوضع يعنى أنه سيبدأ فى الكلام . إنها ليست فى واقع الأمر حكايات وقصص يحكيها للفتاه « لالاّ » ولكنها حبارة عن صور ينشئها فى الهواء بالاشارات وبالشفاه أو ببريق عينيه . صور هاربة ترسم بريقا تنير وتنطفىء ولكن « لالاّ » لم تسمع قط أجمل من هذا ولاأكثر وضوحا . وحتى القصص التى يرويها « نعمان » الصياد أو حتى حين تتحدث « العمة » عن الرجل الأزرق أو عن النبع الذى تفجر تحت الصخرة فكل هذا لايضارعها فى الجمال . إن مايقوله بيديه غير مفهوم مثل شخصه تماما . إنه مثل الحلم ذلك لأن كل صورة يظهرها تأتى فى لحظة حيث لايتوقعها الانسان ومع ذلك فانها هى التى ينتظرها الانسان . انه يتحدث هكذا لفترة طويلة انه يظهر الطيور بريشها المفرود والصخور المعلقة كالمقابض . المنازل ـــ الكلاب والعواصف والطائرات والازهار والجبال والريح التى تهب على الوجوه . كل هذا لايعنى شيئا ولكن « لالاّ » حين تنظر الى وجهه وما يأتى بيديه السمراوين من ألعاب فإنها ترى هذه الصور جميلة جدا وجديدة وساطعة النور ومليئة بالحياة

fb/mashro3pdf

كما لو أنها تفجرت حقيقة من بين يديه أو خرجت من بين شفتيه فى شعاع عينيه .

إن أجمل شيء فيما يقول « الحارتانى » خاصة عندما يتحدث بهذه الطريقة هو ألا يعكر الهدوء والصمت فالشمس ترسل أشعتها الحارقة فوق الهضبة الصخرية أو على صخور الساحل الحمراء . وتصل الرياح فى لحظات قليلة البرودة أو كأنه يسمع فى صعوبة خرفشة الرمل الذى ينساب فى عروق الصخور . فبيديه الطويلتين ذات الأصابع الطيعة يظهر « الحارتانى » صورة ثعبان يزحف الى أعماق الهاوية ثم يتوقف رافعا رأسه وكذا بجعة بيضاء هاربة محدثة ضوضاء بجناحيها . وفى السماء يظهر الليل والقمر المستدير وبسبابته يوقد « الحارتانى » النجوم الواحد بعد الآخر . وفى الصيف يبدأ المطر فى الهطول وتجرى المياه فى القنوات ثم تكبر وتكون مستنقعا كبيرا يطير حوله الناموس . وفى كبد السماء الزرقاء يقذف « الحارتانى » بحجر مثلث الشكل فيصعد ويصعد وفجأة ينفتح ويتحول الى شجرة بأوراقها الكثيفة المليئة بالطيور .

وفى بعض الأحيان يستخدم « الحارتانى » وجهه ليقلد الناس أو الحيوان . فهو يعرف جيدا كيف يقلد سلحفاة حين يضغط شفتيه ويدخل رأسه بين أكتافه ويقوس ظهره . هذا كله يضحك دائما « لالاّ » مثلما فى المرة الأولى أو أن يعمل بعيرا بأن يدلى شفتيه الى الأمام ويكشف عن أسنانه الأمامية . كما أنه يقلد باتقان ايضا الأبطال الذى يراهم فى « السينما » كطرزان وماشيست وابطال الرسوم المتحركة . لقد كانت « لالاّ » تحضر له من حين لآخر جرائد مصورة أخذتها من ابن « العمة » البكر او تكون قد ابتاعتها من بعض مدخراتها . كانت هذه الجرائد تشمل بعض القصص مثل قصة « اكيم » و « روش رافال » وبعض نوادر عما يدور فى القمر أو على بعض الكواكب الأخرى أو كتيبات عن « ميكى ماوس » أو « دونالد دك » وهذه الأخيرة مما تفضله « لالاّ » . إنها لاتستطيع القراءة ولكن تدع ابن العمة يقص عليها القصة مرتين أو ثلاث مرات فتحفظها عن ظهر

fb/mashro3pdf

قلب . وعلى أية حال فان « الحارتانى » ليست به رغبة فى الاستماع الى القصة ولكنه يأخذ الكتب الصغيرة وله طريقته فى النظر فيها وذلك بان يضعه بالعرض ويميل برأسه قليلا الى ناحية وبعد أن ينظر الرسومات جيدا يقفز ويقلد « روش رافال » او « اكيم » وهو راكب ظهر الفيل وهنا يمثل الفيل بحجر . ولكن « لالاّ » لاتبقى طويلا مع « الحارتانى » ذلك لأنه توجد لحظات يبدو فيها وجهه وقد أغلق . كما أنه لايفهم جيدا مايدور حينما يكون وجه الراعى الشاب جامدا وثابتا ونظره يمتد بعيدا جدا . مثل سحابة تمر أمام قرص الشمس أو كليل يهبط سريعا على التلال أو فى بطن الأودية . إن هذا فظيع لأن « لالاّ » تريد أن يتوقف الزمن الذى يكون فيه « الحارتانى » سعيدا وأن ابتسامته تكون مثل النور الذى يتلألأ فى عينيه . ولكن هذا مستحيل لأن الحارتانى فى لحظة خاطفة يتوارى كالحيوان . انه يقفز ثم يختفى فى غمضة عين دون أن تستطيع الفتاة رؤية مكان ذهابه . ولكنها لاتسعى أن تبقيه الآن وحتى فى الأيام التى ينتشر فيها الضوء فوق الهضبة الصخرية وحين يتكلم « الحارتانى » بيديه فيخلق اشياء عديدة غير عادية . فإنها تفضل أن تغادر المكان هى أولا . فتقف وتنصرف دون أن تجرى . دون أن تلتفت . تنصرف نحو الطريق المؤدى للمدينة ذات العرائش والورق المقوى . فربما لكثرة رؤيتها « للحارتانى » أصبحت هى الأخرى مثله .

ان القوم لايودون أن تذهب « لالاّ » لملاقاة الحارتانى « ربما لخوفهم ان تصبح هى الأخرى مثله « مجنونة » وان تأخذ الأرواح الشريرة المسيطرة على جسد الراعى . إن الابن البكر للعمة يقول بأن « الحارتانى » لص ذلك لأنه يملك بعضا من الذهب فى حقيبة صغيرة من الجلد والتى يحملها دائما حول عنقه . ولكن « لالاّ » تعرف أن ذلك غير صحيح . لأن هذا الذهب قد وجده « الحارتانى » ذات يوم فى قاع مجرى مائى جاف . لقد أخذها مرة من يدها وقادها الى قاع المجرى حيث الرمل . فرأت « لالاّ » مسحوق الذهب يلمع .. « انه غير جدير بك » . قالت ذلك العمة حين رجعت « لالاّ » من الهضبة الصخرية . إن

fb/mashro3pdf

وجهها الآن أصبح مسوّدا تماما كوجه الحارتانى بسبب الشمس التى تلهب اكثر هناك فى الهضبة . وفى بعض الأحيان تضيف العمة قائلة « انك لن تتزوجى منه ! » فتجيبها « لالاّ » قائلة « ولم لا » ثم تهز كتفها لعدم الاكتراث . فهى لم ترغب فى الزواج كما انها لم تفكر فيه مطلقا . وان مجرد فكرة انها تستطيع الزواج من « الحارتانى » جعلتها تضحك .

ومع ذلك ففى كل مرة حينما تقرر أن تنهى عملها فإنها تخرج من المدينة وتتجه الى التلال حيث الرعاة . إنه فى شرق البلدة حيث تبدأ الأراضى بدون ماء والصخور الساحلية العالية للهضبة الحمراء فإنها تحب أن تسير على الطريق الناصع البياض والذى يتلوى كالثعبان بين التلال مصغية للموسيقى الحادة الناجمة من صفير الجراد وناظرة الى آثار الثعابين فى الرمال . وعلى مبعدة من ذلك فانها تسمع صفير الرعاة الذى يّصدر فى أغلب الأحيان من الشباب . صبية وبنات المتناثرين فى كل مكان بين التلال مع قطعانهم من الضأن والماعز . انهم يصفرون هكذا لينادى بعضهم بعضا أو ليتحدثوا أو ليخيفوا الكلاب الضالة . إن « لالاّ » تحب أن تجوس خلال التلال وهى شبه معلقة العينين بسبب الضوء الأبيض . إن هذا الصفير الذى يتجاذب من جميع الجهات يجعلها ترتعد قليلا برغم الحرارة ويزيد من ضربات قلبها ففى بعض الأحيان تتسلى بالرد عليهم بصفيرها فقد علمها « الحارتانى » كيف تصفر وذلك بأن تضع اصبعيها فى فمها .

وحين يراها الرعاة على الطريق فإنهم يظلون جميعا على مسافة منها بسبب الريبة . إن لهم وجوها ناعمة بلون النحاس المحروق وجباههم عالية ولون شعرهم عجيب يكاد يكون أحمر . إن الشمس والهواء هما اللذان أحرقا جلدهم وشعرهم . انهم فى أسمالهم يرتدون قمصانا طويلة من قماش لم يغسل بعد أو أثوابهم صنعت من زكائب الدقيق . إنهم لم يقتربوا منها لأنهم يتكلمون لهجة « الشلوة » ولايفهمون لغة الناس فى الوادى . ولكن « لالاّ » تحبهم أيضا كما أنهم لايخافونها فهى تحضر لهم فى بعض الأحيان ما يأكلون مما تستطيع أن تخفيه من بيت العمة من خبز وبسكوت وتمر جاف .

fb/mashro3pdf

لايوجد غير « الحارتانى » الذى يستطيع البقاء معهم لأنه راع مثلهم ولأنه لايعيش مع الناس فى المدينة . وحينما تكون « لالاّ » معه بعيدا وسط الهضبة الصخرية فانهم يصلون قافزين من صخرة الى صخرة دون أن يحدثوا صوتا ولكنهم يصفرون من وقت لآخر ليعلنوا عن وجودهم وعندما يصلون فانهم يحيطون « بحارتانى » متحدثين فى سرعة فائقة بلغتهم العجيبة التى تشبه « نقنقة » الطيور . ثم يرحلون بسرعة قافزين بين صخور الهضبة ومصفرين دائما وفى بعض الأحيان يجرى « الحارتانى » معهم وحتى « لالاّ » فتحاول أن تتبعهم ولكنها لاتستطيع القفز فى سرعة كما يفعلون . وكلهم يضحكون فى صوت مسموع حين يرونها تفعل ذلك ثم يستمرون فى العدْو وهم يطلقون ضحكاتهم المرحة . انهم يقتسمون طعامهم فوق الصخور البيضاء ووسط الهضبة وتحت قمصانهم يحملون مربوطا فوق صدورهم قطعة قماش تحوى قليلا من الخبز الأسمر وبعض تمرات وبعضا من التين وقطعة جبن جافة . انهم يعطون قطعة « لحارتانى » وقطعة « للالاّ » وعلى سبيل التبادل تعطيهم هى الأخرى قليلا من خبزها الأبيض . وأغلب الأوقات تحضر تفاحة حمراء تكون قد اشترتها من الجمعية التعاونية وفى الحال يخرج « الحارتانى » سكينا صغيرا لا مقبض لها ويقسم التفاحة الى شرائح حتى ينال كل واحد منهم شريحة .

هذا بديع بعد الظهيرة على الهضبة الصخرية فضوء الشمس لايفتأ ينتقل بين زوايا الحصى فيحيطها بكل ألوان الشرر . والسماء صافية وزرقاء عميقة وليس بها هذا البخار الأبيض الذى يأتى من البحر ومن الأنهار . وحين تهب الريح فى عنف فيجب أن يغوص الإنسان فى حفر بين الصخور ليحتمى من البرد فلا يسمع سوى حفيف الهواء على الأرض وبين الأعشاب . إنها تحدث نفس ضوضاء البحر ولكن فى حركة أبطأ وأكثر طولا . تصغى « لالاّ » إلى صوت الرياح كما تسمع صوت أطفال الرعاة الضعيفة والى « مأمأة » القطيع البعيدة . إن هذه الضوضاء تحبها « لالاّ » اكثر من غيرها فى العالم مع صرخات طيور البحر وتلاطم الأمواج . هذه الضوضاء التى يحدث عنها ضرر للأرض .

fb/mashro3pdf

وذات يوم بعد أن أكلت « لالاّ » الخبز والتمر فقد تبعت « الحارتانى » حتى سفح التلال الحمراء حيث الكهوف . هناك يرقد الراعى فى فصل الجفاف عندما يجب أن ينزح بقطعان الماعز ليجد مراعى جديده . ففى صخور الساحل توجد فجوات سوداء تكاد تكون مختفية وراء شجيرات الشوك . بعض هذه الفجوات لاتكاد تكون أكبر من الجحور . ولكن حين يدخلها الإنسان فإن هذا الكهف يتسع ويصير فسيحا كالبيت ونسيمه عليل . لقد دخلت « لالاّ » زاحفة على بطنها وهى تتبع « الحارتانى » . فى البداية لم تر شيئا وكانت خائفة . وفجأة أخذت تصيح « حارتانى ، حارتانى » فعاد الراعى الى الوراء وأخذها من ذراعها وأخذها ودفعها الى داخل الحفرة . وحين اعتاد بصرها شاهدت صالة فسيحة ذات حوائط عالية جدا لدرجة أن الانسان لايرى نهايتها وبالحوائط بقع رمادية وزرقاء وآثار عنبر ونحاس . كما كان الجو رماديا أيضا وذلك لندرة النور الذى يتسرب من فتحات بين الصخور . ثم سمعت « لالاّ » حفيف أجنحة فالتصقت بالراعى ولكن هذا لم يكن سوى الخفافيش التى انزعجت من نومها فطارت لتحط بعيدا وهى تئز وتزقزق .

جلس الحارتانى على صخرة كبيرة ملساء فى وسط الكهف كما جلست « لالاّ » الى جواره . لقد شاهدا سويا الضوء الباهت الذى ينفذ من فتحة الكهف حيث الظل ورطوبة الليل . ولكن فى الخارج على الهضبة الصخرية فان الضوء يؤذى العينين . ففى هذا المكان كأن الانسان فى بلد آخر وفى عالم أو كأنه فى قاع البحر .

لم تعد « لالاّ » تتحدث ولم تعد لها رغبة فى الحديث مثل « الحارتانى » فقد صارت كقطعة من الليل . وأصبحت نظرتها سوداء كالليل وحتى بشرتها صارت بلون الظل .

fb/mashro3pdf

أحست « لالاّ » بحرارة جسد الراعى القريب منها ونفذت نظرته داخل كيانها فودت لو أنها وصلت اليه وتبقى تحت سيطرته وحكمه وأن تبقى كلية معه حتى تستطيع أن تسمعه فقربت فمها من أذنه فشعرت برائحة شعره وبشرته فنطقت اسمه فى عذوبة تامة لاتكاد تنطقه وأحاطهما ظل الكهف ولفهما ككساء رقيق ولكنه متين . لقد أصبحت « لالاّ » تسمع فى وضوح خرير الماء الذى يسيل فوق حوائط الكهف وأصوات الخفافيش أثناء نومها . وحين تلامس جلداهما سرت موجة من حرارة غريبة فى جسديهما كما أحست بشبه دوار . انها كحرارة الشمس التى تنفذ اليهما كل يوم والتى تفجرت الآن فى موجات طويلة من الحمى . لقد تلاقت أنفاسهما ايضا وامتزجت فلم يعد مجال للكلام وبقى لهما مايحسانه . انها نشوة لم يسبق لها معرفتها أوجدتها ظلال الكهف فى لحظات خاطفة كأن هذه الحوائط الرطبة قد انتظرت مجيئهما من زمن طويل لكى تطلق قوتها . لقد سرى الدوار فى سرعة متزايدة فى جسم الفتاة حتى أنها سمعت نبضات دمها مختلطة بأصوات الكهف من انسياب الماء على الجدران مع صيحات الخفافيش . وكأن جسديهما أصبحا جسدا واحدا مع ما بداخل الكهف . أو أنهما أصبحا سجينين فى جوف مارد .

لقد امتزجت رائحة الضأن والماعز للراعى برائحة الفتاة الشابة . لقد شعرت بحرارة يديه وتصبب العرق من جبهته فالصق شعرها .

وفجأة لم تعد تفهم « لالاّ » ما أصابها . فأصابها الخوف فهزت رأسها وسعت لتهرب من ضمة الراعى الذى اعتمد بذراعيه على الحجر واعتصر بساقيه الطويلتين القويتين ساقيها . فرغبت « لالاّ » فى الصياح ولكن كان ذلك كحلم فلم يقو صوتها على الخروج من حلقها فاعتصرها الظل الرطيب وغطى عينيها ومنعها ثقل جسد الراعى من التنفس واخيرا وبعد فترة تمزق استطاعت ان تصرخ وترددت صرختها كالرعد فى ثنايا الكهف . فاستيقظت الخفافيش من رقادها

fb/mashro3pdf

وبدأت طيرانها وتخبطاتها فى الحوائط بأجنحتها وأزيزها . كان « الحارتانى » واقفا على الخصرة فابتعد قليلا ولوح بذراعيه الطويلتين ليذب اسراب الخفافيش الهائجة والتى تحوم من حوله . لم تر « لالآ » وجهه ذلك لأن ظل الكهف كان كثيفا ولكنها تنبأت بالقلق يعتريه فغمرها حزن عميق . فهى لم تعد تخشى الظل ولا الخفافيش . فهى الآن التى تمسك بيد « الحارتانى » فأحست بالرعدة الكبرى تسرى فيه إنه متأثر بالانفعال . فلم يعد يتحرك . جذعه الى الخلف وذراعه أمام عينيه حتى لايرى الخفافيش . إنه يرتعد بشدة حتى أن أسنانه تصطك . وعلى ذلك قادته « لالآ » الى باب الكهف حتى أنها هى التى جذبته الى الخارج حيث ضوء الشمس يفيض على رأسيهما وأكتافهما . وفى ضوء النهار كان وجه « الفتى » مكفهرا يستدر الشفقة حتى أن الفتاة لم تستطع منع نفسها من الضحك . وأزالت آثار الأرض الرطبة عن ثوبها الممزق ومن على قميص الراعى الطويل ثم هبطا معا السفح نحو الهضبة الصخرية كانت الشمس تسطع بأشعتها فوق الحصى . والأرض بيضاء وحمراء تحت السماء شبه السوداء لقد كان كمن يغمس رأسه للمرة الأولى فى ماء بارد حين يحس بحرارة شديدة . أو من يعوم لمدة طويلة ليغسل جسده كله . ثم انطلقا يجريان فوق الهضبة الصخرية بأقصى مايستطيعان قافزين فوق الصخور إلى أن توقفت « لالآ » متقطعة الأنفاس ومنحنية بسبب ألم فى جنبها . استمر الحارتانى فى قفزه من صخرة الى صخرة كالحيوان ثم رأى أن « لالآ » لم تعد خلفه فاستدار ليرجع الى الوراء . وجلسا سويا فى الشمس فوق الصخرة متماسكين بالأيدى . ومالت الشمس فوق الأفق واصفرت السماء وعلى بعد فى التلال وفى بطن الوادى تجاوبت اصداء صفير الرعاة الذين يتكلمون ويتجاوبون .

* * *

fb/mashro3pdf

تحب « لالاّ » النار . وهنا توجد جميع أنواع النيران فى المدينة . فهناك لهب الصباح حين تنضج النساء والفتيات الصغار الطعام فى الأوانى النحاسية السوداء . والدخان يكسو الأرض ممزوجا بضباب الفجر الخفيف قبل طلوع الشمس مباشرة فوق التلال الحمراء . وهناك نيران الحشائش وفروع الأشجار التى تحترق لوقت طويل تلقائيا شبه مختفية بدون لهب ونيران المواقد قرب نهاية الظهيرة وفى ضوء غروب الشمس البديع وسط أشعتها النحاسية . فالدخان المنخفض ينساب كثعبان طويل ينثنى مستندا من بيت إلى آخر ومرسلا القار الذى تُسَدُّ به الثغرات فى الأسقف والحوائط .

فهنا يحب الناس جميعا النار خاصة الأطفال منهم والعجائز . ففى كل مرة توقد فيها النار فإنهم يذهبون اليها ويلتفون حولها جالسين على كعوبهم وينظرون الى النار وهى تتراقص بعيون خاوية . أو يقذفون فيها من آن لآخر قطعا من الحطب الجاف التى تشتعل فى لحظة خاطفة محدثة فرقعة أو يلقون بقبضات من الحشائش التى تشتعل محدثة دوامات من الدخان الأزرق .

تذهب « لالاّ » لتجلس فى الرمل على شاطىء البحر . هناك حيث يوقد « نعمان » ناره الكبرى من فروع الاشجار ليغلى الصمغ والقار ليصلح به قاربه .

fb/mashro3pdf

وفى المساء يكون الهواء رقيقا هادئا والسماء زرقاء زرقة خفيفة وصافية ليس بها سحاب . وعلى شاطىء البحر توجد دائما هذه الأشجار الصغيرة التى تحرقها الشمس والملح والتى تحمل آلاف الأوراق الإبرية الزرقاء الرمادية . وحين تمر « لالاّ » بجوارها فانها تقطف حفنة من ثمارها الإبرية لتمد بها نار « نعمان » الصياد . ولتضع بعضا منها فى فمها لتمضغها فى أناة أثناء سيرها فطعم الإبر مملح ولكنه يختلط برائحة الدخان فيكون جيدا .

يوقد « نعمان » ناره فى أى مكان . فهو يختار مكانا يجد فيه أفرعا جافة كثيرة ساقطة على الرمال . إنه يكومها على شكل أكوام ويسد الفراغات ببعض النباتات المائية الجافة التى يحملها من الجانب الآخر للكثبان ومن الجراد الميت . هذا عندما تكون الشمس لاتزال عالية فى السماء والعرق يتصبب على جبين وصدغى الرجل العجوز . إن الرمل يحرق كالنار تماما .

ومع ذلك فإنه يوقد ناره بوقادته بشرط أن يجعل اللهب فى جهة ليس فيها هواء . فنعمان يعرف جيدا كيف يوقد النار و « لالاّ » تراقب كل هذه الإشارات بانتباه شديد كى تتعلم . إنه يعرف كيف يختار المكان الملائم فلا هو معرض تماما للهواء ولا هو حبيس فى بطون الكثبان . إن النار لتشتعل وتنطفىء مرتين أو ثلاث مرات ولكن « نعمان » لا يسترعى انتباهه ففى كل مرة يخمد فيها اللهب يسارع فى قلب الحطب ويحركه بيده دون أن يخشى أن تحترق . فهكذا النار تحب من لايخشاها . فيشتعل اللهب مرة أخرى من جديد لادفعة واحدة فى أول الأمر فقد يرى الانسان رأسه تلمع بين الاغصان وفجأة تزكو النار فتضىء جوانب المكان بنور وهاج محدثة فرقعة كبيرة .

وحين تعلو النار فان « نعمان » يمد الحامل المعدنى من معدن الزهر الذى يضع عليه الوعاء الكبير ثم يجلس على الرمل ليراقب النار وهو يدفع اليها من وقت لآخر حطبا فتلتهمه النار فى الحال وعندئذ يحضر الأطفال ليجلسوا مثله لأنهم

fb/mashro3pdf

اشتموا رائحة الدخان لقد جاءوا من بعيد عدوا على طول الساحل . إنهم يصرخون ويصيحون ويتنادون وتتجاوب ضحكاتهم فى الفضاء لأن للنار سحرها . فهى تعطى الناس الرغبة فى أن يجروا ويصيحوا ويضحكوا . فى هذه اللحظة يزداد اللهب علوا وصفاء فتتحرك النيران وتقعقع وترقص فيرى الإنسان كل شيء فى ثناياها . وأن أخص ماتحبه « لالاّ » هو أسفل الموقد حيث قطع الخشب المنصهرة التى يحيط بها اللهب من كل جانب فيظهر لونها المحترق الذى لااسم له . ولكنه يشبه لون الشمس . كما تراقب أيضا الشرر المتطاير والمتصاعد مع الدخان الرمادى . الشرر الذى يتقد ثم ينطفيء ومن ثم يختفى فى السماء الزرقاء . وأثناء الليل يكون الشرر أكثر جمالا فهو يشبه نور بعض الكواكب السيارة . إن ذباب الرمال يأتى بدوره وقد جذبته رائحة النباتات البحرية التى تحترق ورائحة الصمغ الساخن كما تغطيها دوامات الدخان . ان « نعمان » لا ينتبه الى الذباب لانه يراقب النار فقط فمن وقت لآخر يقف ويدخل عصاه فى الوعاء النحاسى للصمغ ليرى عما اذا كان قد سخن بما فيه الكفاية ثم يدير العصا فى السائل الكثيف غامزا بعينيه بسبب الدخان . إن قاربه على بضعة أمتار على الساحل فهيكل القارب فى العراء وجاهز للاصلاح . إن الشمس تغيب فى سرعة الآن وتقترب من التلال الجافة على الجانب الآخر من الكثبان ويزداد الظل ويمتد . والأطفال جلوس على الشاطيء متلاصقين وقد خفت ضحكاتهم قليلا . و « لالاّ » تنظر « نعمان » وتحاول أن ترى النور الصافى فى صفاء لون الماء الذى يلمع فى نظرته . إن « نعمان » يعرفها فأومأ لها باشارة صداقة من يده ثم قال فى التو كأن ذلك شيء طبيعى جدا : « هل حدثتك من قبل عن « بلابيلو » ؟فهزت « لالاّ » رأسها بالنفى . وقد كانت فى قمة السعادة ذلك لأنه الوقت المناسب كى تسمع قصة هكذه على الشاطيء وهى تشاهد النار التى تصهر الصمغ فى القدر النحاسى . لقد هدأ البحر فصار أزرق اللون حين أحس بالهواء الدافيء الذى يطرد الدخان والذباب والزنابير التى تطن وليس بعيدا عن هذا حيث هدير الأمواج التى تصل الى القارب القديم والمقلوب على الرمال .

« آه اذاً فأنا لم أقص عليك أبدا قصة « بلابيلو » ! .

fb/mashro3pdf

قام الرجل العجوز واقفا لينظر الى الصمغ الذى يغلى بقوة . ثم أدار العصا ببطء فى الوعاء وقد ظهر عليه أنه راض عن كل مايحدث ثم ناول « لالاّ » وعاء قديما ذا يد محترقة . وقال « حين ستملأين هذا بالصمغ وتحضرينه الى هناك حين أكون قريبا من القارب » . انه لم ينتظر اجابة بل ذهب ليستقر على الشاطىء بالقرب من قاربه ثم أعد جميع أنواع الفرشاة ووضع قطعا من القماش المبروم فى نهاية الخشب ثم نادى « تعالى »

ملأت « لالاّ » الوعاء وقد تناثر من الصمغ المغلى فقاعات تلسع والدخان يحرق عينيها ولكنها جرت ممسكة بالوعاء المملوء بالصمغ أمامها وتبعها الأطفال ضاحكين وقد جلسوا حول القارب .

« بلابيلو » بهذا ترنم « نعمان العجوز » باسم البلبل كمن يبحث فى ذاكرته عن كل ما كان فى القصة . ثم غمس العصا فى وعاء الصمغ الساخن وبدأ فى دهان هيكل القارب حيث توجد الأوتاد بين الألواح والمفاصل .
« لقد كان ذلك فيما مضى من الزمان « واستطرد « نعمان » حدث هذا فى زمن لم أكن أنا ولا أبى حتى ولا جدى نعرفه . ومع هذا فأنا اذكر ماحدث . ففى هذا الوقت لم يكن الناس مثل الناس الآن ولم يكن الرومان معروفين ايضا ولكن كل من اتى من البلدان الأخرى . ولهذا كان هناك « الجن » فى هذا الزمان لأن احدا لم يكن قد طردهم بعد . ففى هذا الوقت كان هناك أمير قوى فى بلدة كبيرة من مدن الشرق . كان هذا الأمير لا ولد له سوى بنت وحيدة تدعى « ليلى » كان الأمير يحب ابنته كأغلى شيء فى العالم كما كانت الفتاة أجمل فتاة فى المملكة كلها واكثر رقة واكثر عقلا . وقد وعدت بكل سعادة الدنيا ... »

حل المساء فى بطء فى السماء وصارت زرقة البحر أعمق وظهر زبد الأمواج أكثر بياضا . فغمس « نعمان » فرشاته بانتظام فى الوعاء ومررها على طول أنواح

fb/mashro3pdf

القارب . فتسرب السائل الساخن من الفتحات نقطة نقطة فوق رمال الشاطىء .
تابع الأطفال « لالاّ » يد نعمان وهى تعمل .

« وبعد ذلك حدث شيء مخيف فى هذه المملكة » استمر « نعمان » فى حديثه « لقد حدث جفاف كبير كنقمة من الله على المملكة بأسرها . فلم يعد بها ماء فى الأنهار ولا فى الخزانات ومات الناس من شدة العطش . كما ماتت الأشجار والنباتات أولا ثم قطعان الحيوان كالخراف والخيول والإبل والطيور ثم الرجال الذين ماتوا فى الحقول من العطش وعلى قارعة الطريق . فقد كان منظرا مرعبا لذلك ظل يذكره الناس » .

جاء الذباب و « حط » على شفاه الأطفال وظل يطن فى آذانهم . ذلك لأن رائحة الصمغ هى التى أهاجته كما ان سحائب الدخان جاست خلال الكثبان .
وتوجد أيضا الزنابير ولكن لاأحد يطردها لأنه حين يروى « نعمان » قصة فكأن هذه الزنابير تصير مسحورة كأنها نوع من الجن .

« حزن الأمير فاستدعى الحكماء ليطلب نصحهم ولكن لم يعرف أحد كيف يوقف هذا الجفاف وذات يوم جاء مسافر غريب الى المملكة . وكان مصريا ملمّا بالسحر . فاستدعاه الأمير أيضا وطلب اليه أن يوقف هذه اللعنة . فنظر المصرى فى بقعة من حبر فظهر عليه الرعب فجأة واخذ يرتعد وقد رفض ان يتكلم فقال له الأمير :

تكلم وسأجعل منك أغنى رجل فى المملكة ولكنه رفض أن يتكلم وقال وهو يركع على ركبتيه : مولاى دعنى أرحل ولا تطلب منى أن أكشف عن هذا السر .
وعندما سكت نعمان عن الكلام ليغمس فرشاته فى القدر لم يجرؤ الأطفال و « لالاّ » حتى على التنفس فقد اصغوا الى فرقعة النار وفوران الصمغ الذى يغلى فى القدر .

« غضب الأمير وقال للمصرى : تكلم والا فالويل لك . واحاط به الجلادون واستلوا سيوفهم ليقطعوا رأسه فصاح بهم الغريب : توقفوا سأقول لكم سر هذه اللعنة . ولكن إعلم انك ملعون ... » .

fb/mashro3pdf

إن للعجوز نعمان طريقة خاصة فى النطق ببطء لكلمة « ملعون » ملعون من الله حتى ارتعد الأطفال ثم توقف لحظة أخرى حتى يدهن ماتبقى من صمغ فى الوعاء ثم ناولها « للالاً » دون ان ينطق بكلمة فعليها ان تذهب عدوا حتى القار لتملأ الوعاء بالصمغ ولحسن الحظ ان انتظرها حتى تعود ليكمل لها القصة .

وعلى ذلك قال المصرى للأمير « ألم تعاقب مرة فى الماضى رجلا لأنه سرق ذهبا من أحد التجار ؟ » فأجاب الأمير « بلى فعلت ذلك لأنه كان لصا . فقال المصرى : فاعلم انه كان بريئا وقد عوقب بطريق الخطأ فلعنك وهو الذى ارسل عليكم هذا الجفاف . ذلك لأنه حليف للشياطين والأرواح .... » .

ولما يحل الليل هكذا على الشاطىء وحين يسمع صوت « نعمان » الرصين فان هذا يعنى كأن الزمن ما يعدله وجود أو كأنه يرجع الى الوراء الى زمن آخر اكثر طولا واكثر عذوبة وان « لالاً » لتود الا تنتهى حكاية نعمان ابدا . حتى لو استمرت بعض أيام بلياليها وانها هى والأطفال ينامون وحين يستيقظون فانهم سيبقون هكذا فى مكانهم حتى يسمعوا صوت نعمان .

« ماالذى يجب عمله حتى توقف هذه اللعنة » بهذا سأل الأمير . فصوب اليه المصرى بصره مباشرة فى عينيه وقال « أعلم أنه لايوجد غير علاج واحد ولسوف أقوله لك مادمت قد طلبت ذلك وأن أكشف عن السر » . « يجب أن تضحى بابنتك الوحيدة التى تحبها اكثر من العالم » . « اذهب وقدمها طعاما للوحوش فى الغابة » . « فسيوقف الجفاف الذى أصاب مملكتك » . فأخذ الأمير ينتحب ويصرخ من شدة الألم والغضب ولكن بما انه طيب القلب ومحب للخير فقد ترك المصرى يرحل فى سلام . وحين علم الناس بالخبر بكوا أيضا لأنهم كانوا يحبون « ليلى » كثيرا إبنة ملكهم ولكن كان لزاما ان تتم هذه التضحية وقرر الأمير ان يصحب الأمير ابنته للغابة ليعطيها طعاما للوحوش . وكان هناك شاب يحب « ليلى » اكثر من الآخرين فصمم على ؟ فقد ورث عن قريب له وكان ساحرا . ورث حلقة تعطى من يحملها القدرة على التحول الى حيوان على ألا يعود مرة أخرى سيرته الأولى . وحياته تصبح من الخالدين . وجاءت ليلة التضحية ورحل

fb/mashro3pdf

الأمير الى الغابة مصطحبا ابنته ... » .

إن الهواء رقيق ونقى والأفق يمتد كخط لا نهاية له . فنظرت « لالاّ » بعيدا الى أقصى ماتستطيع كما لو كانت قد تحولت الى طائر بحر وكأنها تطير الى الأمام فوق البحر . « وصل الأمير الى قلب الغابة وانزل ابنته من فوق فرسها وربطها الى شجرة ثم تركها باكيا من شدة حزنه ذلك لأنه قد سمع صحيات الوحوش تقترب من فريستها ... » . كان صوت تلاطم الأمواج بالشاطىء واضحا حتى ليخيل للإنسان أن البحر قادم ولكنها كانت الريح ، هى التى تهب . فحين تدور الرياح بين الكثبان فإنها تثير وتفجر سحبا من الرمال التى تختلط بالدخان .
« ففى الغابة ارتعدت « ليلى » المربوطة الى الشجرة . ارتعدت خوفا فنادت والدها لينقذها ذلك لأنها لم تكن لديها الشجاعة لتموت بهذه الطريقة بأن تلتهمها الحيوانات المفترسة فقد كان ذئب طويل جدا قد اقترب منها وقد رأت عينيه تقدحان شررا أثناء الليل . وفجأة دوّت الغابة بالموسيقى . كانت موسيقى جميلة وصافية حتى أذهبت عن « ليلى » الخوف كما وقفت جميع الحيوانات المفترسة تنصت لها .. »

تناول « نعمان العجوز » فرشاته الواحدة بعد الأخرى وجعلها تنزلق على طول هيكل السفينة وتابع الأطفال و « لالاّ » الفرشاة بنظراتهم وكأنها تقص عليهم قصة .

« تجاوبت أرجاء الغابة بهذه الموسيقى السماوية وبالاصغاء لها رقدت الوحوش على الأرض وصارت وديعة كالحمل فقد قلبها وغيرها هذا الغناء الصادر . فقلبت نفوسها أنصتت ليلى بدورها الى هذه الموسيقى فى انتشاء وقد حلت قيودها تلقائيا وأخذت تسير « ليلى » فى الغابة وأينما ذهبت كان هذا الموسيقىّ الخفى فوقها مختبئا بين أوراق الشجر وكانت الحيوانات المفترسة راقدة على طول

fb/mashro3pdf

الطريق وتلثم يدى الأميرة دون أن تؤذيها أو تضرها ... » .

لقد كان الهواء أكثر شفافية والضوء أكثر عذوبة حتى ليظن الإنسان أنه فى عالم آخر . « وعلى ذلك عادت « ليلى » ذات صباح الى منزل والدها بعد أن سارت طوال الليل وقد صاحبتها الموسيقى حتى أبواب القصر . وحين رأى الناس ذلك أحسوا بالسعادة لأنهم يحبون الأميرة كثيرا . ولم يلتفت أحد لطائر صغير كان يطير بهدوء من غصن إلى غصن . وفى نفس هذا الصباح هطل المطر على الأرض ... » .

توقف « نعمان » عن الدهان لحظة . فنظر الأطفال والفتاة الى وجه الرجل النحاسى حيث تلمع عيناه الخضراوان ولكن أحدا منهم لم يوجه اليه أى سؤال ولا كلمة ليعرف ماتم « وتحت المطر كان يغرد دائما الطائر الصغير « بلابيلو » ذلك لانه هو الذى أعاد الحياة للأميرة التى أحبها . وبما أنه لايستطيع أن يرجع الى شكله الأول فقد كان يأتى كل ليلة ويقف على فرع شجرة قريب من نافذة « ليلى » وكان يصدح لها بأغنيته الجميلة . ويقال أنه بعد موتها تبدلت الأميرة الى طائر هى الأخرى فاستطاعت أن تلحق ببلابيلو وتغرد معه فى الغابات والحدائق ... » .

وعندما انتهت القصة لم يقل « نعمان » شيئا بل استمر فى عنايته بقاربه مارا بفرشاته على طول هيكل القارب . بدأ الضوء يخبو لأن الشمس انزلقت الى الجانب الآخر من الأفق . وصار لون السماء أصفر مشربا بخضرة وظهرت التلال وكأنها قطع من الورق المقوى وكان دخان المواقد دقيقا وخفيفا . وقد كان يشاهد كأنه دخان ينبعث من سيجارة .

غادر الأطفال المكان الواحد إثر الآخر وبقيت « لالاّ » وحدها مع « نعمان » العجوز لقد انهى الرجل عمله دون أن يتكلم ثم ذهب هو الآخر سائرا

fb/mashro3pdf

فى بطء على طول الشاطىء وحاملا فرشاته ووعاء الصمغ ولم يبق من شىء الى جوار « لالآ » سوى النار التى كانت تخبو وكسا الظل قبة السماء فصارت الزرقة الداكنة للنهار سوادا فى الليل . هذا البحر فى هذه اللحظة بالذات ولأحد يعرف لذلك سببا فسقطت الأمواج طرية فوق رمال الشاطىء ناشرة غطاءها من الزبد البنفسجى . وبدأت الخفافيش المبكرة فى الطيران فى تعرجات فوق البحر للبحث عن حشرات . ويوجد بعض الناموس وبعض الفراش الضال الرمادى . كانت « لالآ » تصغى من بعد الى صرخات الطائر العميقة . وفى الموقد كانت بعض الجمرات مشتعلة بدون لهب أو دخان كحيوانات نابضة ومختفية بين الرماد . وعندما خمدت آخر جمرة بعد أن برقت لعدة ثوان كنجم يحتضر . قامت « لالآ » وغادرت المكان .

fb/mashro3pdf

توجد آثار فى كل مكان تقريبا فى تراب الطرق القديمة . وتتسلى « لالاّ » فى تتبعها فى بعض الأحيان هذه الآثار لاتؤدى الى أى مكان . خاصة حين تكون آثار طيور أو آثار حشرات وأحيانا أخرى تقودك هذه الآثار الى حفرة فى الأرض أو الى باب منزل . إنه « الحارتانى » الذى علّمها كيف تتابع هذه الآثار دون أن تحيد عن الطريق بما هو كائن حولها من أعشاب وأزهار أو حصى يتلألأ . فعندما يتبع « الحارتانى » أثرا فإنه يشبه تماما كلب الصيد . بارق العينين منتفخ الخياشيم ومائلا بجسمه الى الأمام . وفى أوقات أخرى يرقد على الأرض حتى يشم الطريق .

إن « لالاّ » تحب كثيرا الممرات القريبة من الكثبان . انها لتذكر الأيام الأولى بعد وصولها للبلدة بعد أن ماتت أمها من الحمى . انها تذكر رحلتها فى عربة نقل مغطاه وشقيقة والدها التى تسمى « العمة » وكانت ملفوفة فى معطف صوفى رمادى ووجهها مغطى بسبب تراب الصحراء . لقد استغرقت الرحلة عدة أيام . وفى كل يوم كانت « لالاّ » تجلس فى مؤخرة عربة النقل على القماش المكوم بين زكائب وأحمال معفرة بالتراب . وذات يوم ومن فتحة هذا القماش رأت البحر بزرقته الشديدة على طول الشاطىء المحدد بالزّبد فأخذت تبكى دون أن تعرف أهى دموع الفرح أم دموع التعب .

وفى كل مرة تمشى فيها « لالاّ » فوق الطريق على شاطىء البحر كانت تفكر فى

fb/mashro3pdf

البحر بزرقته الشديدة وسط هذه الأتربة التى تثيرها عربة النقل وكذا هذه الأمواج الصامتة التى تتقدم بعيدا على طول الشاطىء . كانت تفكر فى كل مارأته هكذا دفعة واحدة من خلال فتحة الغطاء ثم أحست بالدموع فى عينيها لأنها شعرت وكأن نظرة أمها مركزة عليها وتشملها فارتعدت لذلك . إن هذا ماتبحث عنه على طول طريق الكثبان فيدق قلبها وقد مدت جسمها الى الأمام مثل « الحارتانى » حين يتابع أثراً ما . إنها تبحث عن الأماكن التى سبق أن زارتها . بعد تلك الأيام وقد مضى على ذلك وقت طويل فلم تعد تذكر شيئا حتى ولاتذكر نفسها .

كانت تقول فى بعض الأحيان « أمى » فى صوت بطىء وعذب وفى تمتمة. وأحيانا أخرى تتكلم معها فى صوت خفيض وهى تنظر الى البحر الشديد الزرقة بين الكثبان . إنها لاتعرف ماالذى يجب أن تقوله بالضبط ذلك لأنه قد مضى على ذلك وقت طويل حتى أنها نسيت كيف كانت أمها . فربما قد نسيت حتى رنة صوتها والكلمات التى كانت تحب سماعها حينذاك .. » إلى أين ذهبت يا أمى . « أريد أن تحضرى هنا لترانى . إنى أود ذلك حقا » .

جلست « لالاّ » فى الرمل ووجهها للبحر . وكانت تراقب حركة الأمواج البطيئة . ولكن لم يكن هذا مثل اليوم الذى شاهدت فيه البحر للمرة الأولى . وبعد التراب الكثيف الذى اثارته عربة النقل فوق الطرق الحمراء التى تأتى من الصحراء . « أمى ألا تريدين العودة لترانى . إنك لتعلمين أنى لم أنساك » .

لقد بحثت « لالاّ » فى ذاكرتها آثار الكلمات التى قالتها أمها فى الماضى . أو الألفاظ التى عنتها . ولكن من الصعب أن تستعيدها . يجب أن تغلق عينيها لأنه لم يعد هناك شىء فى ذاكرتها . فقامت وسارت على الشاطىء وهى ناظرة الى الماء الذى يمد الزبد فوق الرمال . لقد احرقت أشعة الشمس كتفيها وقفاها والضوء يبهرها . إن « لالاّ » تحب كل ذلك . إنها تحب الملح أيضا الذى تضعه الرياح على شفتيها . إنها تشاهد القواقع التى تترك فوق الرمال وكذا الأصداف الوردية والقش الأصفر والسنجابات الميتة وأشرطة النباتات البحرية ذات اللون الأخضر

fb/mashro3pdf

الغامق أو الرمادى والأحمر وهى تحاذر من وضع قدمها على الأجسام اللزجة أو على الرتسة فقد يوجد من وقت لآخر بعض الهرج والمرح على الرمال أو حين تنحسر المياه حيث تبقى بعض الأسماك على الشاطىء . لقد مشت « لالاّ » بعيدا على طول الساحل البحر يجذبها صوت تلاطم الأمواج . ومن وقت لآخر تقف وتبقى ساكنة لترى ظلها وقد إنساب تحت قدميها أو ضياء الزبد .

« أمى » نادت « لالاّ » ثانية « أمى الا تريدين العودة ولو لحظة قصيرة ؟ » إنى أذوب شوقا لرؤيتك لأنى وحيدة . فعندما مت وجاءت « العمة » لتأخذنى لم اكن راغبة فى الذهاب معها ذلك لأنى أعلم جيدا أنى لن أستطيع رؤيتك . فعودى لحظة واحدة عودى ... »

وحين أغلقت عينيها نصف اغلاقة وحين كانت ترى الضوء يتذبذب فوق الرمل الأبيض كان فى مقدور « لالاّ » أن ترى حقول الرمال الواسعة والموجودة فى كل مكان هناك . فى بلد أمى حول المنزل انتابتها رعدة فجائية ذلك لأنها اعتقدت أنها رأت الشجرة الجافة . فسارعت ضربات قلبها وأخذت تعدو نحو الكثبان هناك حيث تهدأ رياح البحر . فسقطت مكبة على وجهها فوق الرمال الساخنة فمزقت النباتات الشوكية ملابسها وغرست فى بطنها وفخذيها أشواكها الإبرية ولكنها لم تأبه لذلك فهناك حزن طاغ فى داخلها حتى لقد أحست بأنها ستغيب عن الوعى . فغاصت يداها فى الرمال وتوقف تنفسها وتخشب جسدها فأصبح كقطعة من خشب وأخيرا استطاعت أن تفتح عينيها فى بطء شديد كما لو كانت حقيقة سوف ترى هيكل الشجرة الجافة التى تنتظرها . لم يكن هناك شىء فالسماء فسيحة وشديدة الزرقة وأنها لتسمع صوت تلاطم الأمواج خلف الكثبان .

« أمى آه ... أمى » نطقت بها للمرة الثانية ولكن فى تأوه .

ولكنها ترى الآن بوضوح . فأمامها حقل فسيح من الصخور الحمراء والأتربة هنا أمام الشجرة الجافة حقل من الاتساع حتى أنه ممتد الى نهاية الأرض والحقل خال

fb/mashro3pdf

والفتاة الصغيرة تجرى والتراب فى اتجاه الشجرة الجافة . انها صغيرة جدا حتى انها ضاعت فجأة وسط هذا الحقل بالقرب من الشجرة السوداء ودون أن ترى الى أين تذهب . فصاحت بأعلى صوتها ولكن صوتها ارتد اليها من خلال الصخور الحمراء وتبعثر فى ضوء الشمس فصاحت ولكن السكون من حولها رهيب . سكون يقبض الصدور ويؤلم النفس . فسارت الفتاة الصغيرة الضالة الى الأمام فكانت تسقط تارة وتنتصب تارة وتسلخت قدماها العاريتان من رؤوس الصخور وتقطع صوتها بنشيجها فانحبس تنفسها .

« أمى ... أمى ... » بهذه الكلمات كانت تصرخ حتى استمعت الى صوتها المبحوح الذى لايتعدى حقل الصخور والتراب . والذى يرتد اليها ويختنق ولكن تلك الكلمات نفسها كانت تسمع من الطرف الآخر للزمن والذى كانت تؤلمها لأن ذلك يعنى أن « أمى » لن تعود . ولكن فجأة وأمام الفتاة الصغيرة الضالة . وفى وسط هذا الحقل من الصخور والتراب . كانت ... هناك تلك الشجرة الجافة . انها الشجرة التى ماتت من العطش والعجز أو قتلتها صاعقة لم تكن الشجرة كبيرة ولكنها غير عادية ذلك لأنها ملتوية فى جميع الجهات وبها بعض الفروع القديمة منتصبة كعظام الأسماك وذات جذع أسود . ولها براعم نائتة . وجذورها السوداء ضاربة من حول الصخر . فمشت الفتاة الى الشجرة ببطء دون أن تعرف لماذا واقتربت من الجذع المتحجر ولمسته بيديها وفى لحظة تملكها الرعب ببرودته فقد رأت فى أعلى الشجرة ثعبانا يتلوى هابطا فوق فروع الشجرة بلا نهاية وقشور جلده تحدث صوتا وهو ينساب فوق الخشب الجاف والميت كأنه صوت المعدن . هبط الثعبان فى غير عجلة وتقدم بجسده الرمادى الأزرق نحو وجه الفتاة الصغيرة . نظرت اليه دون أن تطرف عيناها ولم تتحرك وحبست أنفاسها ولم تقو على الصراخ فقد احتبس صوتها فى حلقها . وفجأة توقف الثعبان ونظر اليها قفزت حينذاك الى الخلف وأسرعت تجرى بأقصى سرعة وحيدة فى هذا الحقل الحجرى جرت كمن يريد أن يعبر الأرض. حلقها جاف يعمى الضوء بصرها متقطعة

fb/mashro3pdf

الأنفاس . لقد جرت نحو منزل ما نحو ظل « أمى » الذى يحتضنها فى قوة ويداعب وجهها . لقد اشتمت رائحة شعر الأم الرقيق واستمعت الى حديثها العذب . ولكن فى هذا اليوم لايوجد أى شخص لا أحد فى نهاية هذا الامتداد اللانهائى من الرمل الأبيض والسماء أكثر اتساعا وخالية . فجلست « لالاّ » فى جوف الكثيب وانثنت على نفسها ورأسها بين ركبتيها . فقد أحست حرارة الشمس المحرقة فوق قفاها حيث ينقسم شعرها على كتفيها ومن خلال فتحات ثوبها . إنها تفكر فى « السر » الذى قابلته من قبل فوق الهضبة الصخرية فى اتجاه الصحراء . ربما كان يود ان يخبرها بشىء أو لتقول انها ليست وحيدة أو لتسأله ان يرشدها إلى طريق « أمى » وربما كانت نظرته هى التى تلسع اكتافها ومفرقها الآن .

ولكن حين أبصرت للمرة الثانية لايوجد أحد فوق الشاطىء . وذهب عنها خوفها وقد اختفى نهائيا كل من الشجرة الجافة والثعبان والساحة الفسيحة من الصخور الحمراء ومن التراب وكأنها لم توجد من قبل . فعادت « لالاّ » للبحر . فقد كان البحر جميلا مثل يوم رأته الفتاة لأول مرة من خلال فتحة عربة النقل وشرعت فى البكاء . لقد نظفت الشمس الهواء فوق البحر وكان هناك بعض الشرر الذى يتراقص فوق الأمواج ولفافات من الزبد . والرياح دافئة محملة بروائح الأعماق وبالأعشاب البحرية والقواقع والملح والزبد . عاودت « لالاّ » المشى فى بطء على طول الساحل وأحست بنشوة تسرى فى أعماقها كما لو كانت هناك نظرة حقيقية تأتى من ناحية البحر أو من نور السماء إنها لاتعلم بالضبط ما هو . ولكنها تعلم تماما أنه يوجد مخلوق فى كل مكان يرقبها ويضىء لها الطريق بنظرته . ان هذا قد يبعث القلق فى نفسها قليلا ولكنه فى الوقت نفسه يملؤها بالحرارة . إنها موجة تشع داخلها تسرى من منتصف بطنها حتى نهاية أعضائها . لقد توقفت ثم نظرت من حولها . لاأحد ولا أى شكل إنسانى . لايوجد سوى الكثبان الكبيرة المستقرة متناثر فيها النبات الشوكى التى تتلاحق الواحدة بعد الأخرى نحو الشاطىء . ربما كان هو البحر. هو الذى ينظر هكذا بدون توقف نظرة عميقة من

fb/mashro3pdf

أمواج الماء . نظرة مضيئة من الأمواج ومن الكثبان ومن الرمال ومن الملح إن نعمان الصياد يقول ان البحر مثل امرأة ولكنه لايشرح مطلقا هذا . ان النظرة تأتى من جميع الجهات دفعة واحدة وفى وقت واحد .

فى هذه اللحظة كان هناك سرب كبير من طيور البحر وهى تمر على طول الشاطىء مغطية الشاطىء كله بالظلال . وقفت « لالاّ » وقد غاصت ساقاها فى الرمال الممزوجة بالماء ورأسها الى الخلف وهى تنظر مرور طيور البحر .

إنها تمر دائما بطيئة صاعدة تيار الهواء شارعة أجنحتها كأنما تحرك الهواء . رؤوسها ممدودة جانبا وفاغرة منقارها فتخرج منها تأوهات وانات .

وسط هذا السرب يوجد طائر بحرى تعرفه « لالاّ » جيدا ذلك لأن لونه ناصع البياض وليس به نقطة واحدة سوداء . انه يمر بطيئا فوق رأس الفتاة ضاربا بأجنحته ضد الريح منتفخا ريش الجناحين وفاغراً فاه وحين يمر فوقها هكذا فإنه ينظر إلى « لالاّ » خافضا رأسه الصغير ناحية الشاطىء وعينه المستديرة تلمع كأنها قطرة ماء .

« من أنت ؟ والى أين تذهب ؟ » بهذا تسأل « لالاّ » فينظر اليها الطائر الأبيض دون أن يجيب ثم يذهب ليلحق بالآخرين . انه يطير طويلا على طول الشاطىء باحثا عما يأكله . تظن « لالاّ » أن هذا الطائر البحرى يعرفها ولكنه لايجرؤ على الاقتراب منها . ذلك لأن طيور البحر لاتعيش مع الآدميين .

إن نعمان العجوز يقول فى بعض الأحيان : ان طيور البحر ماهى إلا أرواح لرجال ماتوا فى البحر أثناء عاصفة و « لالاّ » تظن أن هذا الطائر الأبيض هو روح لصياد طويل ورفيع أبيض البشرة ولون شعره كالنور وأن عينيه تلمعان

fb/mashro3pdf

كاللهب . فربما يكون أميرا من أمراء البحر . وعندئذ جلست على الشاطىء بين الكثبان وأخذت تراقب مجموعات الطيور البحرية التى تطير على طول الساحل . إنها تطير فى سهولة تامة ودون أن تبذل جهدا كبيرا وترتكز بأجنحتها الطويلة على الهواء طارحة رأسها الى جانب . إنها تبحث عما تأكله ذلك لأنه غير بعيد من هذا المكان يوجد مكان التفريغ بالمدينة هناك تأتى سيارات البضائع . إنها تصرخ دائما محدثة أنينها المستمر حيث تنفجر فجأة وبدون سبب صيحات حادة وصرخات وضحكات .

ثم بعد ذلك كان الطائر البحرى الأبيض الذى هو كأمير بحر يطير من وقت لآخر بالقرب من « لالاّ » وكان يقوم برسم دوائر فوق الكثبان كمن يعرفها من قبل . وكانت « لالاّ » تشير له بذراعيها وكأنها تحاول نداءه . وكانت تجرب جميع الأسماء على أمل أن تصل إلى الاسم الحقيقى الذى ربما يعيد اليه شكله الأصلى كأمير للبحر فيظهر بين الزبد والأمواج بشعره المضىء وبعينيه اللتان تشعان لهبا . كانت تقول مثلا « سليمان » ــ « مؤمن » دانيال ــ ولكن الطائر الكبير الأبيض ظل يدور فى السماء نحو البحر لامسا فى رفق الأمواج بطرف جناحه وعينه القاسية مثبتة على الفتاة دون أن يجيب نداءها . وفى بعض الأحيان كانت « لالاّ » حانقة ومغيظة فانها كانت تعدو خلف الطائر ملوحة بذراعيها وكانت تصرخ بأسماء حيثما اتفق لتغيظ هذا الذى كان أميرا من أمراء البحر كأن تقول مثلا : « يادجاج » ياقُبَّر ياصغير . أو تقول أيضا « ياصقر ــ يارخ » ذلك لأن هذا الطائر هذه الأنواع من الطيور . ولكن هذا الطائر الأبيض الذى لااسم له استمر فى طيرانه فى بطء وفى غير مبالاة . فكان يبتعد على طول الشاطىء ثم ينساب فى ريح الشرق فكانت « لالاّ » تجرى فى سرعة فوق الرمال الصلدة للشاطىء ولكنها لم توفق فى اللحاق به لقد ذهب الآن واندمج مع الطيور الأخرى على طول خط الزبد . لقد ذهب وعما قريب تكون هذه الطيور ليست أكثر من نقطة غير منظورة وتذوب فى زرقة السماء والبحر .

fb/mashro3pdf

ان الماء له جماله أيضا . حين تبدأ السماء فى المطر فى منتصف فصل الصيف . فإن الماء ينهمر ويسيل فوق الأسطح المعدنية أو المصنوعة من الورق المقوى . فإن له نغمة عذبة فى « الفناطيس » الكبيرة تحت الميازيت . إن المطر ينهمر حين يأتى الليل وأن « لالاّ » لتسمع صوت الرعد الذى يرعد ويعلو صوته على الوادى أو فوق البحر . فمن خلال الفتحات التى بين ألواح الخشب فانها ترى الضوء الأبيض الجميل الذى يضىء ثم ينطفىء دون توقف والذى يهز فى قوة الأشياء داخل المنزل . إن « العمة » لاتتحرك من فراشها بل تستمر نائمة وقد دسّت رأسها تحت الغطاء دون أن تسمع صوت العاصفة . ولكن فى الطرف الآخر من الغرفة كان الصبيان متيقظين وكانت « لالاّ » تستمع الى حديثهما الخافت كما كان يضحكان دون أن يحدثا ضوضاء لقد جلسا على حاشيتهما ويجادلان بدورهما رؤية ما فى الخارج من خلال فتحات الألواح .

قامت « لالاّ » ومشت دون أن تحدث صوتا حتى الباب لترى مايرسمه البرق ولكن الهواء بدأ فى الهبوب وتساقطت قطرات الماء الكثيفة والباردة على الأرض . محدثة ضوضاء فوق السقف وعندئذ ذهبت « لالاّ » لتنام بين الأغطية ذلك لأنها فى هذا الوضع تحب سماع صوت المطر مفتوحة العينين فى الظلام فترى أحيانا السقف يبرق كما تسمع صوت وقوع القطرات على الأرض وألواح السقف

fb/mashro3pdf

فى عنف وكأنها قطع من الأحجار تنزل من السماء .

وبعد لحظة قصيرة إستمعت « لالاّ » الى إندفاع الماء من الميازيب واصطدامه « ببراميل » الغاز الفارغة إنها تحس بالسعادة وكأنها هى التى تشرب الماء . فى البداية هذا يحدث فرقعة ثم بعد ذلك شيئا فشيئا تمتلىء البراميل ويصبح الصوت اكثر عمقا ويسيل الماء من كل الجهات فى نفس الوقت فوق الأرض . وفى برك المياه وفى الأوعية القديمة النحاسية المهملة فى خارج المنزل . إن تراب الشتاء الجاف ليتصاعد فى الجو حين يهبط المطر على الأرض فيحدث رائحة غريبة من الأرض المبتلة ومن القش والدخان الذى يفيد فى الاستنشاق . يوجد بعض الأطفال التى تجرى أثناء الليل فقد خلعوا ملابسهم ويجرون عرايا تحت المطر فى الشوارع صائحين ضاحكين . تود « لالاّ » لو تفعل مثلهم ولكنها كبرت الآن كثيرا وان الفتيات اللائى فى عمرها لايستطعن الذهاب عاريات . وعلى ذلك فانها تحاول النوم دون ان تتوقف عن الاستماع الى صوت الماء فوق ألواح السقف ودون ان تفكر أيضا فى النبعين الجميلين اللذين يتفجر الماء منهما من كل جانب للسقف والذى يفيض من براميل الكيروسين بالماء الصافى .

إن الجميل فى هذا وحين يسقط الماء من السماء هكذا لعدة أيام وليالٍ . الجميل هو أن الانسان يستطيع أن يأخذ حماما بالماء الساخن فى مؤسسات الحمامات فى الناحية الأخرى من النهر فى المدينة .

لقد قررت « العمة » أن تصحب « لالاّ » الى الحمامات العامة . كان ذلك فى نهاية فترة بعد الظهر حين تميل الشمس قليلا ناحية الغروب وتبدأ السحب الكثيفة البيضاء فى التراكم فى السماء .
إنه يوم مخصص للسيدات للاستحمام والجميع يتجهن نحو المؤسسة متتبعين الطريق الضيق الذى يتجه الى النهر . وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة كيلومترات على

fb/mashro3pdf

الأكثر توجد قنطرة لمرور سيارات النقل . ولكن قبل ان تصل اليها يوجد مكان ضحل فى النهر بحيث تستطيع النسوة عبور النهر منه .

كانت العمة تسير فى المقدمة مع « زبيدة » وابنة عمها التى تسمى « زهرة » وكثيرات أخريات مما تعرفهن « لالاّ » بالرؤية فقط والتى نسيت أسماءهن . إنهن يحسرن ثيابهن ليعبرن النهر . فهن يتكلمن ويضحكن بأصوات عالية . وكانت « لالاّ » تسير من ورائهن وكانت فى غاية الرضا . ذلك لان فى هذه الآونة من بعد الظهر لايوجد عمل تؤديه فى المنزل كما لاتذهب لتجلب الحطب للوقود . وقبل كل ذلك فهى تحب جدا هذه السحب الكثيفة البيضاء القريبة من الأرض وكذا لون الحشائش الخضراء التى تظهر على حافة النهر . إن ماء النهر مثلج وفى لون الأرض . انه يتحرك بين ساق « لالاّ » حين تعبر النهر . وحين تصل عند القناة فى وسط النهر توجد درجة « سلم وهنا تسقط لالاّ » فى الماء حتى بطنها فتسرع بالخروج ويلتصق ثوبها ببطنها وفخذيها . وعلى الشاطىء الآخر يقف الشبان ليشاهدوا النساء حين يرفعن أثوابهن كى يعبرن النهر وتقذفن النساء بوابل من الحصى .

إن دار الحمام العام عبارة عن عنبر فسيح من الطوب الأحمر مبنى الى جوار النهر مباشرة وهناك صحبت العمة « لالاّ » حين وصلت الى البلدة للمرة الأولى حتى ان « لالاّ » لم تر من قبل مثيلا لهذا البناء . فليس به سوى صالة كبيرة بها أحواض الاستحمام للماء الساخن وأفران حيث تحمى الأحجار . هناك يوم خاص بالسيدات وآخر للرجال . إن « لالاّ » تحب كثيرا هذه الصالة لأنها مضاءة تماما بالنور الذى يدخل اليها من العديد من النوافذ التى فى أعلى الحائط وتحت السقف المتموج . ان هذا الحمام لايعمل الا فى فصل الصيف فقط ذلك لندرة المياه هنا . فالماء يأتى من خزان كبير مبنى فى مكان عال . ويجرى هذا الماء فى قنوات فى العراء حتى دار الحمام حيث تصب على هيئة شلال فى حوض

fb/mashro3pdf

ضخم من الأسمنت يشبه حوض الغسيل . وفى هذا المكان تستحم كل من العمة « ولالاّ » معا بعد ان تكونا قد اخذتا حماما من الماء الساخن فيسكبان على جسديهما جرادل من الماء البارد وهما يصرخان قليلا لأن ذلك يجعلهما ترتعدان .

ان هناك شيئا آخر تحبه « لالاّ » . انه البخار الذى يملأ الصالة كضباب أبيض والذى يغطى المكان بغطاء حتى السقف والذى يتسرب من النوافذ هازا النور . وعندما يدخل المرء الصالة يشعر بالاختناق لفترة قصيرة بسبب وجود البخار . ثم يخلع المرء ملابسه ويضعها مثنية فوق كرسى فى آخر العنبر . ففى المرات الأولى كانت « لالاّ » تحس بالخجل اذ كانت لاتريد ان تبدو عارية امام النساء الأخريات ولانها لم تعتد الحمامات . فهى تعتقد ان الغير ينظر ويتهكم عليها ذلك لأنها لاثدى لها . وان بشرتها بيضاء جدا ولكن العمة أنبّتها وأجبرتها على خلع ملابسها كلية ثم تعقص شعرها الطويل وتربطه بقطعة من قماش . وبعد ذلك أصبح لديها سيان أن تتجرد من ملابسها وأصبحت لاتأبه بالأخريات ففى أول الأمر كانت تعتبر ذلك مخيفا لوجود بعض السيدات الدميمات والعجائز ذوات البشرة المتجعدة كالشجرة الميتة أو فيهن البدينات المترهلات والأثداء المدلاة كالجراب أو البعض مريضات أو من بأرجلهن عيب أو جرح أو قرح أو تمدد فى الشرايين . اما الآن فلم تعد « لالاّ » تنظر اليهن بهذه الطريقة فقد أصبحت تشفق على الدميمات أو المريضات ولم تعد تخشاهن وعلاوة على ذلك فان الماء جميل جدا ونقى جدا . هذا الماء الذى يتساقط مباشرة من المساء فى الحوض الكبير . فهو جديد لدرجة انه يشفى اللائى هن فى حاجة الى ذلك . وهكذا صارت « لالاّ » عندما تدخل فى ماء الحوض للمرة الأولى بعد أشهر الجفاف الطوال تغلف جسدها بالماء دفعة واحدة وتضغط جلدها بشدة وتضع الماء على ساقيها وعلى بطنها وصدرها ثم تقف برهة لتسترد أنفاسها . إن الماء ساخن جدا قاس . انه يبعث الدم حارا فى جسدها فهو يفتح المسام ويبعث بموجات الحرارة فى داخلها فتصير كمن يملك قوة السماء والشمس . انزلقت « لالاّ » فى حوض

fb/mashro3pdf

الاستحمام حتى تجاوزت المياه الساخنة ذقنها ولمست شفتيها وتوقف الماء اسفل أنفها وبقيت لحظة طويلة هكذا دون ان تتحرك وهى تنظر الى السقف المتموج والذى يبدو وكأنه يتقدم تحت سحابة البخار .

ثم جاءت العمة بقبضة من الصابون ودلكت به ظهر الفتاة لتزيل العرق والتراب عن ظهرها واكتافها وساقيها . تركتها « لالاّ » تفعل ذلك لانها تعلم ان العمة تعرف جيدا كيف تضع الصابون وتدلك الجلد وبعد ذلك ذهبت الى المغطس وغاصت فى الماء البارد الذى جعل مسام جسدها تنكمش فصار أملس وأرخى أعصابها وعضلاتها هذا هو الحمام الذى تأخذه مع الأخريات من النساء وهى تصغى الى تساقط شلال الماء . فهذا هو الماء الذى تفضله « لالاّ » فهو نقى كماء النبع فى الجبال . إنه خفيف وينساب على جلدها النظيف كما لو انه يجتاح صخرة قديمة ثم تقفز مرة أخرى فى النور فى آلاف من القطرات . وتحت مياه النبع تغسل النساء شعورهن الطويلة السوداء الثقيلة . وحتى الأجسام الاكثر قبحا تصبح جميلة من خلال الماء الصافى النقى كالبللور . كما أن البرد يوقظ الأصوات ويردد أصداء الضحكات الحادة . لقد قذفت العمة وجه « لالاّ » بالماء الذى استطاعت ذراعاها أن تحتويه . وقد لمعت أسنانها البيضاء الناصعة فى وجهها النحاسى . انسابت قطرات الماء بطيئة على ثدييها الداكنين وعلى بطنها وفخذيها بالماء يجلو وينظف البشر ويجعل الكفين ناعمتين . وقد أصبح الجو باردا برغم أن البخار يملأ العنبر .

لفّت العمة « لالاّ » فى فوطة كبيرة كما لفت نفسها فى نوع من القماش الذى عقدته فوق صدرها وسارتا معا الى آخر العنبر حيث توجد ملابسهما مطوية فوق الكرسى . لقد جلستا ثم بدأت العمة فى تمشيط شعر الفتاة الطويل خصلة بعد خصلة بأن تقبض عليها بين أصابع يدها اليسرى بعد تخليصها من بيض القمل .

fb/mashro3pdf

يحدث كل هذا كما لو أنه حلم. ذلك لأن « لالاّ » تنظر أمامها دون أن تفكر فى شىء . فهى متعبة من كل هذه المياه ويغلب عليها النعاس من ثقل وطأة البخار الذى يتصاعد فى ثقل الى النوافذ حيث ترتعش أشعة الشمس انها شاردة من الضوضاء التى تحدثها أصوات وضحكات النساء وانفجار الماء أو حشرجة النار فى الموقد التى تصهر الأحجار . لقد جلست « لالاّ » على كرسى من معدن واضعة قدميها على طبقة الأسمنت الحديث وهى ترتعد تحت « فوطتها » الكبيرة المبتلة . ويدا العمة الماهرتان تمشطان فى غير ملل شعرها تفرده وتنعمه فى حين أن القطرات الأخيرة من الماء تسيل على صدغيها وعلى طول ظهرها .

وعندما ينتهى كل شىء وبعد أن يلبس النساء ملابسهن تذهب كلتاهما والجميع الى الخارج حيث يجلسن فى الشمس الغاربة ويشربن النعناع فى أكواب صغيرة مزركشة برسومات مذهبة دون أن يتحدثن كمن عاد من رحلة شاقة وطويلة راضيات بما شاهدن من عجائب إن طريق العودة طويل الى المدينة ذات العرائش والورق المقوى فى الجانب الآخر من النهير وقد بدأت زرقة الليل السوداء والنجوم تلمع من بين السحب حين وصلتا الى الدار .

fb/mashro3pdf

إن الأيام ليست كلها متشابهة فتوجد أيام غير أيام . فيوم العيد مثلا يوم يعيش من أجله الانسان ينتظره ويأمل فيه . فحين يقترب هذا اليوم لايتحدث القوم إلا عنه فى شوارع المدينة وفى المنازل والى جوار النبع . فكل الناس فى شوق اليه وفى قلق ويرجون أن يحل هذا اليوم سريعا . ففى بعض الأحيان تستيقظ « لالاّ » فى الصباح فتحس ضربات قلبها وتخدير عجيب فى ذراعيها وساقيها ذلك لأنها تعتقد أن اليوم هو يوم العيد . فقامت فى سرعة حتى دون أن تمر بأصابعها بين خصلات شعرها وخرجت الى الشارع تجرى فى هواء الصباح العليل قبل بزوغ الشمس حيث أن كل شيء هادىء ورمادى فى الخارج عدا بعض الطيور . ولكن ... بما أن أحدا لم يتحرك فى المدينة فقد فهمت أن هذا اليوم لم يأت بعد . وليس عليها إلا أن تعود الى فراشها تحت الأغطية الا اذا قررت أن تغتنم هذه الفرصة لتذهب وتجلس فى الكثبان حتى ترى أشعة الشمس الأولى على رؤوس الأمواج .

إن مايشعر بطول وببطء القلق فى جسم الانسان من ذكر وأنثى هو الصوم . ذلك لأن جميع الأيام التى تسبق العيد يأكل الانسان فيها قليلا فقط قبل وبعد الشمس كما أنه لايشرب أيضا . وعليه فكلما مَرَّ الوقت فكأن فراغا يكبر فى داخل الجسد فيحترق ويدوى فى الآذان . ومع ذلك فان « لالاّ » تحب الصوم

fb/mashro3pdf

ذلك لانه عندما لا يأكل الانسان ولايشرب بضع ساعات أو بعض أيام فان ذلك يطهر الجسم من الداخل . فتبدو الساعات أطول وأكثر امتلاء ذلك لان الانسان يتنبه لأتفه الأشياء . فلا يذهب الأطفال الى مدارسهم ولا تعمل النساء فى الحقول ولا يذهب الصبية الى المدينة . فالجميع يظلون جالسين فى ظلال الأكواخ والأشجار يتكلمون قليلا وينظرون الى الظلال التى تتحرك مع الشمس .

وحينما لا يأكل الانسان لبضعة أيام تبدو السماء أكثر صفاء وأكثر زرقة وهادئة فوق الأرض البيضاء وترن الأصوات أكثر وتمتد كما لو كان الانسان داخل كهف ويبدو النور أكثر نقاء وأكثر جمالا وحتى الأيام تبدو اكثر طولا وهذا من العسير تفسيره . ولكن منذ لحظة الشروق حتى الغروب يبدو أن النهار كشهر بأكمله .

وهكذا تحب « لالاّ » الصيام خاصة حين ترسل الشمس حرارتها الحارقة ويكتسح الجفاف كل شيء ويترك التراب الرمادى فى الفم طعم الصخور كما يجب أن يمص الانسان من وقت لآخر الأعشاب القصيرة ذات رائحة الليمون أو الأوراق المرة المذاق لنبات « الشيبا » مع الحرص على بصق عصيرها مع اللعاب .

وحينما يكون الوقت وقت الصيام فان « لالاّ » تذهب كل يوم لرؤية « الحارتانى » فى تلال الصخور . فهو أيضا يبقى بلا طعام وشراب طول اليوم . ولكن هذا لايغير طريقته كما يبقى وجهه بلون المحروق وتبرق عيناه بشدة فى ظل وجهه كما تظهر أسنانه حين يبتسم . الفارق الوحيد أن يلتف كلية فى معطفه الوبرى حتى لايفقد ماء جسمه بالبخر . فهو يبقى هكذا بلا حراك فى الشمس واقفا على ساق واحدة أما قدمه الثانية فتستند على منتصف الساق تحت الركبة . انه ينظر بعيدا نحو إنعكاسات الهواء التى تتراقص أو ناحية قطيع الخراف والماعز .
جلست « لالاّ » الى جواره فوق صخرة ملساء فهى تصغى الى كل الضوضاء

fb/mashro3pdf

التىَ تأتى من جميع الجهات فى الجبل من صرخات الحشرات أو صفير الرعاة أو صوت تفتيت الصخور بفعل الحرارة أو لمرور الريح . انها تملك كل وقتها الآن ذلك لانه اثناء فترة الصيام لا حاجة لها لكى تذهب لتحضر الماء أو لتجمع الخشب الجاف لكى تطبخ .

جميل أن يكون المرء هكذا وسط الجفاف أثناء الصوم . ذلك لانه نوع الألم الحاد الذى يأتى من جميع الجهات مثل نظرة لاتنتهى . فى الليل يظهر القمر على حافة التلال الصخرية بدرا كاملا . وعلى ذلك تقدم العمة حساء الحمص والخبز . فيأكل الجميع فى سرعة فائقة حتى « سليم » زوج العمة الملقب « بالسوسى » فإنه يسرع فى أكله دون أن يضع زيت الزيتون فوق الخبز كالمعتاد . لاأحد يتكلم . كما لو أنه ليست هناك قصص تروى . إن « لالاّ » ترغب فى الكلام فعندها الكثير لتقوله ولكنها تعرف جيدا أن هذا غير ممكن لأنه لايجب أن تعكر صمت الصيام فيحين يصوم المرء فانه يصوم أيضا عن الكلام وعن التفكير . كما انه يسير ببطء جاراً قدميه كما لايشير بأصبعه إلى شىء أو شخص كما لايصفر بفمه .

إن الأطفال تنسى من وقت لآخر أنه وقت الصوم . ذلك لأنه من العسير السيطرة على النفس أو التركيز طوال الوقت . فانهم ينفجرون فى الضحك تارة أو يمرون عدوا فى الشوارع مثيرين سحبا من التراب خلفهم أو يهيجون الكلاب لتنبح . ولكن النساء العجائز يصحن فيهم أو يرمونهم بالحصى . فيتوقفون عن الجرى بعد لحظة أو لأنهم قد فقدوا القوة بسبب الصيام .

هذا يستمر وقتا طويلا حتى أن « لالاّ » لاتذكر مطلقا كيفَ كان الحال قبل أن يبدأ الصيام وتذهب العمة الى التلال لتشترى خروفا والكل يعرف أن اليوم يقترب . لقد ذهبت وحيدة لأنها تعلم أن « سليم » لاقدرة له على أن يشترى شيئا مفيدا مهما كان . لقد ذهبت على الطريق الضيق الذى يتلوى نحو التلال الصخرية هناك حيث يعيش الرعاة فتتبعها « لالاّ » والأطفال من بعد وحين وصلت الى التلال نظرت « لالاّ » باحثة عن « الحارتانى » فربما يكون هناك . ولكنها كانت تعرف أن هذا لاطائل تحته فالراعى لايحب الناس وأنه يبتعد عندما

fb/mashro3pdf

يأتى سكان المدينة ليشتروا الخراف . إن والدى « الحارتانى » اللذين قاما على تربيته هم من يبيعون الخراف فقد أقاما حظيرة من القش ومن فروع الشجر وغرساها فى الأرض وهما ينتظران جالسين فى الظل . هناك غيرهم من تجار الخراف كما أن هناك رعاة أيضا . وتوجد هناك رائحة الشحم والبول المنتشرة على الأرض الجافة كما تسمع صرخات الحيوانات الحادة الحبيسة . يأتى الكثير من سكان البلدة وفى بعض الأحيان من سكان المدينة فيتركون سياراتهم فى مدخل البلدة حيث ينتهى بهم الطريق ثم يمشون راجلين على الطريق الضيق . إنهم من الشمال ذوى البشرة الصفراء . إنهم سادة يلبسون الملابس الكاملة من « جاكتة » أو من سكان الجنوب من السوسيين أو الفاسيين أو أناس من « موجادور » . فهم يعرفون أن الرعاة كثيرون هنا وأنهم يعرفون بعض الأقارب أو الأصدقاء ويأملون فى ان يجدوا حيوانا طيبا بسعر رخيص . وعلى ذلك فهم يقفون أمام الحظائر المغلقة ليناقشوا الأسعار ويقومون بعمل تحركات عديدة أوينحنون ليروا الخراف .

عبرت العمة السوق دون إسراع ولم تتوقف ولكنها دارت فقط حول الحظائر وألقت نظرة سريعة ولكنها رأت فى الحال كم تساوى الحيوانات وحين ألقت نظرة على الحظائر فما من شك فى أنها إختارت الخروف الذى ترغب فى شرائه فذهبت لتقابل التاجر وسألته عن ثمنه . وبما أنها تريد هذا الخروف بالذات ولاشىء غيره فلم تفاصل فى السعر بل أعطت ماأراده التاجر . وقد حرصت على أن تحضر معها حبلا فربط أحد الرعاة الحبل حول رقبة الخروف وتم كل شىء ولم يبق سوى أن تأخذ الخروف الى البيت وكان شقيق العمة الأكبر المسمى « بريكى » هو الذى كان له شرف إحضار الخروف للمنزل . لقد كان خروفا كبيرا وقويا ذا صوف أصفر قذراً يفوح منه رائحة البول . ومع ذلك فقد اشفقت عليه « لالآ » حين مر أمامها مطأطأ الرأس وتنطق نظراته بالخوف لأن الصبى كان يجره بكل قوته من الحبل الذى كاد يخنقه . وبعد ذلك ربط الخروف خلف المنزل فى مخزن للألواح القديمة والذى خصص له . وكان يقدم له الطعام والشراب وكل مايريد طيلة

fb/mashro3pdf

الأيام المتبقية له فى حياته وذات صباح عندما استيقظت « لالاّ » فقد عرفت فى الحال ان هذا اليوم هو يوم العيد . لقد عرفت ذلك دون أن يخطرها أحد . فقط عندما فتحت عينيها ورأت ضوء النهار . فقفزت واقفة فى ثبات فى الشارع مع باق الأطفال وكان جو العيد قد بدأ يسرى فى الهواء وتصاعد فوق المنازل المعرشة بالأفرع وبالورق المقوى صوت تماما كزقزقة الطيور .

جرت « لالاّ » فوق الأرض التى مازالت باردة فى سرعة بكل ماتستطيع واخترقت الحقول على طول الطريق الضيق الذى ينتهى الى البحر . وحين وصلت الى أعالى الكثبان صدمتها ريح البحر صدمة شديدة حتى أنها سدت أنفها كما جعلتها تترنح الى الخلف كان البحر مظلما وعنيفا ولكن السماء مازالت رمادية وهادئة وخفيفة حتى أن « لالاّ » لم تعد تشعر بالخوف . فخلعت ملابسها فى سرعة وقفزت برأسها فغطتها الموجة الآتية وارتطمت بجفنيها ووجنتيها ودخلت فى أنفها وملأ الماء المالح فمها وسال الى حلقها ولكن الفتاة لم تخش البحر فى هذا اليوم فقد شربت من الماء المالح كميات كبيرة ثم خرجت من الموجة تترنح كأنها سكرى وقد أعماها الملح وبعد ذلك عادت الى الموج وسبحت مسافة طويلة فى محازاة الشاطىء وقد حكت ركبتاها الرمال حين ينحسر البحر ثم حملت الى أعلى الموجة التى يتزايد حجمها من حولها .

ومر الطائر الأبيض الصغير الذى تحبه « لالاّ » . مر فى بطء فوق رأسها صائحا قليلا فأشارت اليه وصاحت بأسماء حيثما اتفق لتجلبه نحوها قائلة : هيه — كالا اللا — زيمزار — حورية — حبيب — شرارة — هائم . وحين صرخت بآخر اسم أحنى الطائر الصغير رأسه ونظر اليها وجعل يدور فوق رأس الفتاة . فراحت تصرخ بالاسم : « هائم ياهائم .. تعالى أرجوك » ولكن الطائر الصغير إستدار ورسم دائرة ثم ذهب واختفى فى الهواء على طول الشاطىء نحو المكان الذى تتجمع فيه الطيور من فصيلته فى كل صباح قبل أن يطيروا الى مصانع المدينة . ارتعدت « لالاّ » قليلا لانها بدأت تستشعر برودة البحر والهواء مع أن الشمس لم

fb/mashro3pdf

تكن بعيدة الآن . فان النور الوردى والأصفر على وشك الظهور خلف التلال الصخرية حيث يعيش « الحارتانى » . وعلى بشرة « لالاّ » لمعت قطرات مياه البحر بفعل الضوء حيث أنه قد أصابتها قشعريرة . هبت الريح فى قوة وقد غطى الرمل أو كاد ثوب الفتاة الأزرق . ودون أن تنتظر حتى تجف فقد إرتدت ملابسها وسارت مسرعة بين العدو والسير نحو البلدة .

مُكبَّة أمام باب منزلها كانت تقلى قطع « الزلابيه » فى الوعاء النحاسى الكبير المملوء زيتا يغلى . وكان للموقد ضوء أحمر فى الظل الذى كان لايزال يحيط بالمنزل . هذه لحظة العيد التى تفضلها « لالاّ » . فقد جلست أمام الموقد المتقد لانها مازالت تشعر برعدة من نسيم البحر . جلست تأكل « الزلابية » متلذذة بطعمها اللذيذ ورائحة ماء البحر العفنة المتبقية فى حلقها . رأت العمة شعرها المبتل فأنبّتها على ذلك ولكن فى رفق ذلك لأنه يوم العيد . وجاء أولاد العمة وجلسوا بدورهم الى جوار الموقد ومازال أثر النعاس فى أعينهم المنتفخة ثم جاء « سليم السوسى » هو أيضا . لقد طعموا « الزلابية » دون أن يتكلموا وقد أتوا على مافى الطبق الكبير الملىء بقطع الزلابية التى فى لون العنبر . لقد أكل زو ج العمة فى بطء شديد وكان يحرك شدقيه وكأنه يجتر . وكان من وقت لآخر يتوقف عن الأكل ليلعق قطرات الزيت التى تسيل على يديه وكان يتحدث قليلا مع ذلك عن أشياء قليلة الأهمية حتى أن أحدا لايستمع له .

فى هذا اليوم يفوح فيه طعم الدم . لأنه اليوم الذى يجب ذبح الخروف فيه . وان هذا اليوم يعطى أثرا عجيبا فهو ذكرى لحلم مرعب يؤثر فى القلوب . فالرجال والنساء يحسون المرح وكل الناس مسرورون لأن ذلك اليوم هو آخر أيام الصيام وأن الانسان يستطيع أن يأكل دون أن يتوقف وحتى يحس بالشبع . ولكن « لالاّ » لم تكن مسرورة ولا راضية بسبب الخروف نفسه . انه من الصعب تفسير ذلك فقد أحست فى داخلها برغبة للهرب فهى تفكر فى ذلك خاصة فى أيام العيد . ربما تكون كالحارتانى وان العيد لم يخلق لها يحضر الجزار ليذبح الخروف وغالبا مايكون « نعمان الصياد » ذلك لأنه يهودى ويستطيع ذبح الخروف دون أن يحس بقلة

fb/mashro3pdf

الشرف . أو يأتى رجل من قبيلة « أسأوا » له ذراعان مفتولان ووجه شرس . إن « لالاّ » لتكرهه . ولكن الأمر يختلف مع « نعمان » فهو يقوم بهذه العملية فقط حين يطلب منه ذلك كخدمة يؤديها ولا يطلب لذلك من ثمن سوى شريحة من اللحم المشوى . أما الجزار فهو رجل فظ ولايذبح قبل أن يتسلم الأجر . فالرجل يحمل الذبيحة . يجذبها من الحبل وعليه تهرب « لالاّ » الى البحر حتى لاتسمع صرخات الخروف الحادة أثناء جذبه الى المكان الذى لايبعد كثيرا عن النافورة وحتى لاترى الدم الذى يتفجر حين ينحر الجزار رقبة الحيوان بسكينه الطويلة الحادة والدم الأسود الذى يملأ الأوعية الصاجية ولكن « لالاّ » لاتلبث أن تعود لانها تحس داخلها هذه الرغبة الرنانة وهذا الجوع . وحينما ترجع قريبا من منزل العمة فانها تسمع صوت النار الواضح كما تحس رائحة اللحم المشوى الرائعة . ولأجل أن تشوى خير القطع من الخروف فان العمة لاترغب فى أن يساعدها أحد . فهى تفضل البقاء وحيدة مائلة على النار وتنقل بنفسها أسياخ الحديد التى أدخل فيها اللحم . وحين تنضج قطع الفخذ والضلوع فانها تسحبها من النار وتضعها فى وعاء كبير من الطين تضعه على النار أيضا ثم بعد ذلك تنادى « لالاّ » ذلك لأنها لحظة تدخين اللحم . ان هذه اللحظة من لحظات العيد التى تفضلها الفتاة لأنها تجلس بالقرب من النار وليس بعيدا عن العمة لأنها تشاهد وجهها من خلال اللهب والدخان . ومن وقت لآخر تنبعث دوائر كثيفة من الدخان الأسود وذلك حين تضع العمة قبضة جديدة من الأعشاب الرطبة أو من الخشب الأخضر .

إن العمة تتحدث قليلا أحيانا وتصغى « لالاّ » لها فى نفس الوقت الذى يسمع فيه فرقعة النار وصياح الأطفال وهم يلعبون من حولهم وكذا صوت الرجال . إنها تشعر بالرائحة الساخنة والقوية التى تلفح وجهها وشعرها وملابسها . وتقطع الفتاة اللحم بسكين الى شرائح وتضعها على « صانية » من الخشب الأخضر وتعلقها فوق النار فى المكان الذى ينفصل فيه الدخان عن اللهب . وفى تلك اللحظات بالذات تتحدث العمة عن الأيام الماضية والحياة فى أراضى الجنوب من

fb/mashro3pdf

الناحية الأخرى من الجبل حيث تبدو رمال الصحراء وحبات مياه الينابيع زرقاء كزرقة السماء .

« حدثيني عن « حواء » لو تفضلت ياعمه طلبت « لالاّ »

وبما ان النهار طويل ولايوجد شيء آخر يعمل سوى النظر الى شرائح اللحم التى تجف وسط دوامات الدخان حين تقلب بين الفينة والفينة بالعصا الخشبية أو بمص الأصابع حتى لاتحترق . ثم بدأت العمة فى الكلام . كان صوتها بطيئا ومتلعثما فى أول الأمر وكانت تبذل جهدا فى التذكر . ثم بدأ الحديث يتحسن من حرارة الشمس التى تتقدم شيئا فشيئا فى السماء الزرقاء مع فرقعة اللهب مع رائحة اللحم والدخان .

« لالاّ » حواء (بهذا تحب العمة ان تسميها) كانت أكبر منى سنا ولكننى أذكر جيدا المرة الأولى التى دخلت فيها البيت وذلك حين جاء معها أبوك . لقد كانت من الجنوب من الصحراء الكبرى حيث تعرف عليها ولأن قبيلتها من الجنوب فى « الساقية الحمراء » قريبة من المدينة المقدسة « سماره » كما أن قبيلتها من عائلة « ماء العينين الكبير » . وكان لزاما على قبيلتها ان تغادر هذه الأراضى لان جنود المسيحيين قد طردوهم منها رجالا ونساء وأطفالا . ولهذا ساروا أياما واشهرا فى الصحراء . هذا ماقصته علينا أمك بعد ذلك لقد كنا فقراء فى هذا الحين فى « السوس » ولكننا كنا سعداء أيضا . ذلك لأن أباك كان يحب « لالاّ » حواء كثيرا . لقد كانت تعرف كيف تضحك وكيف تغنى وكانت تعزف أيضا على « الجيتار » لقد كانت تغنى بعض الأغنيات وهى جالسة أمام بيتنا كما كانت تشدو بأغنيات ... »

« ماذا كانت تغنى ياعمة » ؟

« كانت تغنى أغنيات الجنوب بعضها بلغة « الشلوه » وبعضها بلغة « الاساكا » وبلغة « الجولومين » و « التان تان » ولكننى لاأستطيع أن أغنيها مثلها .

« هذا لايهم ياعمه غنى حتى أسمعك » .

fb/mashro3pdf

وعلى ذلك غنت العمة بصوت خفيض وسط صوت اللهب الذى يزرغد . فحبست « لالآ » أنفاسها حتى تسمع جيدا أغنية أمها . « فى يوم حين يصبح الغراب أبيض فسيجف البحر وسنجد العسل فى زهرة الصبار وسيعمل سريرا من فروع نبات الشوك الوردى . فى يوم ما لن يوجد سم فى فم الثعبان ولن تحمل رصاصات البنادق الموت . ولكن سيكون اليوم الذى سأترك فيه حبى ... » .
تصغى « لالآ » الى الصوت الذى يتمتم فى النار دون أن ترى وجه العمة كما لو أنه صوت أمها الذى يصل اليها .
« فى ذات يوم لن تهب الرياح مطلقا فى الصحراء وستصبح حبات الرمال ناعمة كالسكر وسيكون تحت كل حجر أبيض نبع سينتظرنى ذات يوم ستتغنى لى النحلة أغنية لأنه فى هذا اليوم سيضيع منى حبى ... » .
ولكن صوت العمة قد تغير الآن فأصبح أقوى وأخف وتصاعد عاليا الناى وله رنين كرنين الأجراس النحاسية فلم يعد صوتها الآن . إذا أصبح صوتا جديدا . صوت امرأة شابة مجهولة تغنى من خلال ستار من الدخان واللهب تغنى « للفتاة » ولها وحدها فقط .
« ذات يوم ستظهر الشمس فى الليل وسيترك القمر بركة فى الصحراء . حين تنخفض السماء حتى أستطيع لمس النجوم . ذات يوم سأرى ظلى يرقص أمامى وسيكون اليوم الذى سيضيع فيه حبى ... » .

لقد كان يأتى الصوت البعيد الى « لالآ » كرعدة لفتها واضطربت نظرتها فى حين كانت تشاهد اللهب يتراقص فى ضوء الشمس . امتد الهدوء الذى أعقب الفاظ الأغنية واستطاعت « لالآ » أن تسمع من بعيد صوت الموسيقى ودقات طبول العيد . انها وحيدة كما لو كانت العمة قد رحلت . فقد تركتها مع الصوت الغريب الذى كانت يتغنى بالأغنية . « فى يوم ما سأرى المرأة وسأرى وجهك وسأصغى لنغم صوتك فى أعماق البئر . وسأعرف أثر خطواتك فى الرمال . فى يوم ما سأعرف يوم مماتى لأنه سيأتى اليوم الذى سأفقد فيه حبى ... » .

fb/mashro3pdf

أصبح الصوت أكثر عمقا ورخامة مثل تنهيدة . انه يرتعش قليلا فى اللهب الذى يتذبذب فقد ضاع فى ثنايا سحب الدخان الأزرق .

« ذات يوم ستصير الشمس مظلمة وستنفتح الأرض حتى باطنها وسيغطى البحر الصحراء . وفى يوم ما لن ترى عينى النور ولن يستطيع فمى أن ينطق اسمك وسيتوقف قلبى عن تحمل الألم فسيكون اليوم الذى سأترك فيه حبى ... » .

وخفت الصوت الغريب فى تمتمة واختفى فى النار والدخان الأزرق . واضطرت « لالاّ » أن تنتظر وقتا طويلا دون أن تتحرك قبل ان تفهم ان الصوت لم يرجع أبدا . فامتلأت عيناها بالدمع وآلمها قلبها ولكنها لم تقل شيئا فى حين أن العمة بدأت فى تقطيع شرائح اللحم ووضعتها فوق الصينية الخشبية وسط الدخان .

« حدثينى ثانية عنها ياعمه »

« انها تعرف أغنيات عديدة فقد كان لها صوت جميل مثلك تماما وكانت تعزف على « الجيتار » و « الناى » كما تعرف كيف ترقص . وبعد ذلك حين أصيب أبوك بهذه الحادثة فقد تغيرت فجأة فلم تغنى بعد ذلك قط كما لم تعزف على الجيتار حتى عندما ولدت لم تعد تغنى الا لك فقط عندما كنت تبكين أثناء الليل لتدلّلك حتى تنامين »

جاءت الزنابير الآن فقد جذبتها رائحة اللحم المشوى . جاءت بالمئات . فقد كانت تطن حول المنازل كى تهبط فوق شرائح اللحم . ولكن الدخان يطردها ويخنقها فتعبر النار سكرى . فكان بعضها يسقط فى الموقد فيحترق فى شكل لهب ضعيف أصفر والبعض الآخر يسقط على الأرض من أثر صدمة عنيفة يسقط نصف محترق . ياللزنابير التعسة . لقد جاءت حتى تأخذ نصيبها من اللحم ولكنها لاتعرف كيف تحصل عليه . فقد خدرها الدخان وأهاجها لانها لاتستطيع

fb/mashro3pdf

الوصول إلى الصينية الخشبية . وعلى ذلك فانها تتجه مباشرة الى الأمام عمياء وفى غباء فراش الليل فتموت . قذفت « لالاّ » قطعة من اللحم لتهدىء من غائلة جوعها وحتى تبعدها عن النار . ولكن أحدها صدم « لالاّ » ولدغها فى رقبتها « آه » صرخت « لالاّ » التى أمسكت به وقذفت به بعيدا بسبب الألم ولكنها امتلأت شفقة عليها لأنها تحب الزنابير . أما العمة فلم تلق بالا للزنابير فكانت تهشها بقطعة من القماش واستمرت فى تحريك شرائح اللحم كما كانت تتحدث .

« كانت لاتحب البقاء فى المنزل » قالت العمة وقد اختنقَ صوتها كما لو أنها تحكى حلما قديما جدا . « كانت تسافر غالبا معك وأنت معلقة على ظهرها بواسطة وشاح وكانت تذهب بعيدا بعيدا ولأحد يعرف أين تذهب ! ؟

فقد كانت تركب السيارة العامة وتذهب حتى البحر أو الى القرى المجاورة . كانت تذهب الى الأسواق قريبا من النافورة وهناك حيث يوجد أناس لاتعرفهم وتجلس على صخرة وتشاهدهم وكان البعض منهم يظنون انها متسولة . ولكنها لم ترغب مطلقا فى أن تعمل فى المنزل لأن عائلتى كانت قاسية معها ولكنى كنت أحبها كثيرا وكأنها أختى ... » .

« حدثينى أيضا عن موتها ياعمه »

« ليس من الصواب التحدث عن ذلك فى يوم كهذا فهو يوم العيد » أجابت العمة .

« لابأس من ذلك ياعمه ومع ذلك حدثينى عن يوم موتها » .

وكانت النيران تفرق بينهما فلم تكن العمة و « لالاّ » تريان بعضهما جيدا . ولكن كأن هناك عينا أخرى تلمس أجسامهما من الداخل الذى فيه يحسان بالألم .

إن سحب الدخان الرمادى والزرقاء تتراقص . تنفتح ثم تغلق مثل السحب . ومن فوق الصينية الخشب الخضراء صارت شرائح اللحم سمراء كجلد قديم . كما أن هناك الشمس تميل فى هدوء والمد الذى يزداد مع الرياح وصوت الجراد وصياح

fb/mashro3pdf

الأطفال الذين يجرون فى شوارع المدينة وكذا صوت الرجال والموسيقى . ولكن « لالاّ » لم تعد تسمع ذلك لأنها بكل كيانها مع الصوت الهامس الذى يحكى لها موت أمها منذ زمن بعيد .

« لم يعرف المرء ماعساه يحدث . لا احد يعرف ذلك . وذات يوم رقدت « لالاّ حواء » لأنها كانت تشعر بالتعب وكان بجسدها برد شديد وبقيت على هذا الحال عدة أيام ودون أن تأكل شيئا وبقيت بلا حراك أيضا ولكنها لم تشكُ مطلقا وحين كانت تسأل عما بها كانت تقول : لاشيء كل مافى الأمر أنى متعبة . وأنا التى عنيت بك فقد كنت أطعمك ذلك لأنها لم تعد لديها القدرة حتى على مغادرة الفراش . ولم يكن هناك طبيب فى القرية وحتى المستوصف كان بعيدا فلا أحد يعرف مايجب عمله . وفى يوم وكان السادس لمرضها على مااعتقد نادتنى وكان صوتها ضعيفا خافتا وأشارت إلى حتى اقتربت منها وقالت « إنى سوف أموت » كان هذا كل ماقالته وكان صوتها غريبا ووجهها رمادى وعيناها تقدحان . وعندئذ اعترانى خوف فغادرت المنزل عدوا وحملتك بعيدا بل إلى أبعد مما استطعت وسط الريف حتى أتيت تلا وبقيت هناك طول النهار جالسة تحت شجرة وأنت تلعبين الى جوارى . وحين عدت الى المنزل وكنت انت نائمة ولكنى استمعت إلى صوت أمى وشقيقاتى يبكين وقابلت والدى أمام المنزل فأخبرنى أن « لالا حواء » قد ماتت .

أصغت « لالاّ » بكل جوارحها مثبتة العينين على اللهب الذى يتراقص ويتقد أمام دوامات الدخان المتصاعد الى السماء الزرقاء . واستمرت الزنابير فى طيرانها وقد عبرت اللهب كالقذائف فتسقط على الأرض بأجنحة محترقة . أصغت « لالاّ » لموسيقى طنينها . الموسيقى الوحيدة للبلدة ذات العروش والورق المقوى . « لم يعرف أحد ان هذا كان يجب أن يحدث » . قالت العمة . ولكن حين حدث بكى الجميع أما أنا فأحسست ببرودة كأنى سوف أموت أنا الأخرى . كما حزن الجميع من أجلك لأنك كنت صغيرة جدا حتى تدركى ماحدث . وأخيرا

fb/mashro3pdf

حملتك حين مات أبى وحين وجب على أن أحضر هنا فى البلدة لأعيش مع « السوسى » .

لايزال هناك وقت طويل حتى ينتهى دخان قطع اللحم لهذا استمرت العمة فى الحديث ولكنها لم تعد تتحدث قط عن « لالا حواء » فقد تحدثت عن « الأزرق » الذى يستطيع أن يسيطر على الريح والمطر والذى يخضع جميع الاشياء لأوامره حتى الحصى والشجر لقد تحدثت عن الكوخ ذى العرائش من فروع النخيل الذى كان منزله وكان الوحيد وسط هذه الصحراء الكبرى . لقد قالت انه فوق الرجل الأزرق تعج السماء بالطيور من جميع الأنواع والتى تغرد بأغنيات سماوية حتى تتوحد مع صلاته . ولكن الرجال فقط الذين قلوبهم كانت نقية يعرفون جيدا كيف يجدون منزل الرجل الأزرق . أما الآخرون فيضلون فى الصحراء . سألت « لالاّ » « أيستطيع أن يتحدث مع الزنابير ؟ »

« يستطيع التحدث الى الزنابير وإلى النحل البرى لانه سيدهم جميعا . إنه يعرف اللغة التى بها يستأنسهم كما أنه يعرف الغناء الذى به يبعث أسراب الزنابير والنحل والذباب على الأعداء كما أنه كان فى استطاعته تدمير مدينة بأكملها إذا أراد ذلك ولكنه عادل ولايستخدم قوته الا من أجل فعل الخير » .

تحدثت العمة أيضا عن الصحراء التى توجد فى الجنوب « جنوب جوليمين » فى الشرق « تاردوان » من وادى « الذراع » . هناك فى الصحراء ولدت « لالا » عند جذع شجرة (كما روت العمة) . هناك فى اقليم الصحراء الكبرى . السماء فسيحة والأفق لانهاية له فليس هناك مايُحد البصر . فالصحراء كالبحر بأمواج الريح فوق الرمال الجامدة مع زبد الأشواك الملتفة على الصخور وبقع الطفح وطبقات الملح والظل الأسود الذى يعمق حفرة حين تقترب الشمس من الأرض . تحدثت العمة طويلا عن الصحراء وفى أثناء حديثها خبت النار شيئا فشيئا كما خف الدخان حتى أصبح شفافا وغطيت الجمرات بأتربة مضيئة ترتجف .

fb/mashro3pdf

« هناك فى الصحراء الكبرى يستطيع الرجال السير لعدة أيام دون أن يقابلهم منزل واحد أو يروا بئرا . فالصحراء شاسعة لايعرفها أحد بأكملها . فالناس تسير فى الصحراء كأنهم سفن فى البحر . لأأحد يعرف متى تعود . وفى بعض الأحيان تهب العواصف وهى ليست كعواصفنا هنا . إنها عواصف رهيبة والهواء ينتزع الرجال ويقذف بهم الى السماء فيضيع الناس ويضلوا فيموتوا غارقين فى الرمال كما تغرق العواصف السفن فى البحر ولكن الرمل يبقى على أجسادهم . إن كل شىء مختلف تماما فى هذا الاقليم فشمسه ليست نفس الشمس فهى أشد حرارة وأشد احراقا . وهناك أناس يعودون وقد عميت أبصارهم واحترقت وجوههم . وفى الليل تصرخ الناس الضالة ألما من البرد فهو يهشم عظامهم . وحتى الناس ليسوا كالناس هنا . فهم قساة . انهم يتربصون لفريستهم كالثعالب ثم يقتربون منها فى خطوات متلصصة وفى هدوء . انهم سود « كالحارتانى » يرتدون ملابس زرقاء ويخفون وجوههم بقناع . انهم ليسوا إنسا بل من الجان وأبناء للشياطين . انهم يتعاملون مع الشياطين فهم كالسحرة .

حينئذ فكرت « لالآ » فى الرجل الأزرق سيد الصحراء والذى يعرف كيف يفجر الماء من تحت صخور الصحراء . لقد فكرت العمة أيضا فيه ثم قالت : « لقد كان الرجل الأزرق مثل بقية رجال الصحراء ولكنه تلقى البركة من الله . فهجر قبيلته وعائلته ليعيش وحيدا ولكنه كان يعرف كل مايعرفه سكان الصحراء . فقد تلقى القدرة على ان يشفى بيديه . وقد كانت كذلك « لالا حواء » فكانت لها نفس القدرة كما كانت تفسر الأحلام وتنبىء عن المستقبل وتحضر الأشياء المفقودة وحين عرف أناس أنها من سلالة الأزرق فقد كانوا يحضرون اليها ليسألوها النصح وفى بعض الأحايين كانت تجيبهم الى أسئلتهم وفى أحيان أخرى لاتريد الاجابة ... » .

نظرت « لالآ » ليديها وحاولت أن تفهم مابها . فيداها كانتا قويتين وكبيرتين كأيدى الصبية ولكن جلدها كان ناعما وأصابعها رقيقة وطويلة .

« أعندى أنا أيضا هذه القدرة وهذه القوة ياعمة ؟ »

fb/mashro3pdf

فضحكت العمة ثم قامت وتمطت ثم قالت « لاتفكرى فى ذلك . الآن لقد أعد اللحم . ويجب وضعه فى الطبق ... » .

وعندما ذهبت العمة . جَرَّت « لالاّ » الصينية وفردت الشرائح على الطبق الكبير وهى تقضم قطعة من هنا وقطعة من هناك منذ أن هدأت النار فعادت الزنابير فى أعداد كبيرة وأخذت تطن فى صوت عال وأخذت ترقص بين يدى « لالا » وتعلق فى شعرها . إن « لالاّ » لاتخشاها فقد كانت تبعدها فى رفق وتقذف لها بقطعة من اللحم لأن هذا اليوم بالنسبة لها أيضا يوم غير عادى . وبعد ذلك اتجهت الى البحر وتبعت الطريق الذى يقود إلى الكثبان . ولكنها لم تذهب حتى الماء فقد بقيت فى الجانب الآخر من الكثبان ولتحتمى من الريح فقد بحثت عن منخفض فى الرمال حتى تتمدد . وحينما وجدت ركنا لايوجد به كثير من الجراد ولا من النمل تمددت على ظهرها ووضعت ذراعيها على طول جسدها . وبقيت مفتوحة العينين نحو السماء . لقد كانت تدور فى السماء سحب بيضاء . وكان صوت البحر الذى ينحت الرمل من الشاطىء هادئا بطيئا . وكان جميلا أن تسمعه دون أن تراه كما كانت صيحات الطيور التى تنساب فوق الريح فتحجب نور الشمس لفترات . كما توجد الأصوات التى تحدث من الشجيرات الجافة وورق الشوك وابر النباتات الشوكية كما يوجد أيضا بعض الزنابير التى تطن حول يدى « لالاّ » لأن بها رائحة اللحم . ثم حاولت « لالاّ » من جديد أن تستمع الى الصوت العجيب الذى يغنى بعيدا جدا وكأنه آت من اقليم آخر . الصوت الذى يعلو وينخفض فى سلاسة ووضوح يشبه تماما صوت النافورات والذى يشبه ضوء الشمس . والسماء من أمامها بدأت تحتجب شيئا فشيئا ولكن الليل ظل وقتا طويلا حتى حل ذلك لأنه نهاية الشتاء وابتداء فصل النور . بدأ الشفق فى أول الأمر بلونه الرمادى ثم أخذ يتغير الى اللون الأحمر تصاحبه صحب كقمم اللهب . ظلت « لالاّ » مستلقية فى منخفض الرمال بين الكثبان دون أن تغيب السماء والسحب عن ناظريها . لقد سمعت حقيقة من داخل ضوضاء البحر

fb/mashro3pdf

والرياح بين صيحات طيور البحر الحادة التى تبحث عن شاطئها لليل . لقد سمعت الصوت العذب الذى يردد شكواه الصوت الواضح الذى يرتعش قليلا كما لو كان يعرف مسبقا أن الموت سيأتى ليخمده . الصوت النقى مثل الماء حين يشربه الانسان فلا يرتوى منه بعد الأيام الطوال من الحرارة إنها موسيقى صادرة من السماء والسحب والتى ترن فى رمال الكثبان التى تمتد فى كل اتجاه والتى تتذبذب بين الأوراق الجافة لنبات الصبار . إنه يغنى من أجل « لالاّ » ولها وحدها . إنه يلفها ويغمرها بمائه العذب . لقد ربت بيديه على شعرها وعلى جبهتها وشفتيها . لقد هبط عليها ووهبها بركته . فاستدارت « لالاّ » واخفت وجهها فى الرمل لان شيئا ما قد تحطم داخلها فسالت دموعها فى سكون ولم تجد أحدا يخفف عنها بان يمس كتفيها بيديه ويقول لها : لم تبكين يا لالا الصغيرة ؟ ولكن الصوت الغريب أسال دمعها الساخن وحرك داخلها بعض الصور التى ظلت ساكنة من سنين طويلة . فجرت الدموع على الرمال مكونة بقعة تحت ذقنها والصقت الرمل بوجنتيها وشفتيها . وفجأة لم يعد هناك شىء . فقد انقطع صوت السماء وحل الليل الآن . ليل جميل بثوبه الناعم الأزرق حيث تتلألأ النجوم من بين السحب الفسفورية . ارتعدت الفتاة كمن هاجمتها الحمى . فصارت تسير حيثما اتفق على طول الكثبان بين ومضات الأجسام المنيرة . وبما أنها تخشى الثعابين فقد عادت الى الطريق الضيق حيث وجدت آثار أقدامها واتجهت فى بطء الى البلدة حيث يستمر العيد .

fb/mashro3pdf

ان « لالاّ » تنتظر شيئا ولكنها لاتعرف كنهه ومع ذلك فهى تنتظر . ان الأيام طويلة فى البلدة أيام المطر وأيام الريح وأيام الصيف . فى بعض الأحيان تظن « لالاّ » انها تنتظر فقط أن تجىء الأيام . ولكن حين تأتى فانها تلاحظ أنها ليست الأيام التى تنتنظرها . ولكنها تنتظر فهذا مايعنيها . إن كثيرا من الصبر عند الناس وربما ظلوا ينتظرون طوال حياتهم شيئا ما ومع ذلك فلن يتحقق ذلك مطلقا . كثيرا مايظل الناس جالسين فوق حجر من الأحجار فى الشمس ورؤوسهم مغطاة بجزء من معطفه أو بمنشفة . إنهم ينظرون أمامهم فماذا ينظرون ؟ الأفق المُتْرَب الطرق حيث يمر عليها عربات البضاعة التى تشبه الجعارين ذات الألوان المختلفة وأطياف التلال الصخرية والسحب البيضاء التى تمر بالسماء . هذا كل مايشاهدونه ولايريدون شيئا أكثر من هذا . والنساء ينتظرن أيضا أمام النافورة دون أن يتحدثن ملثمات بالسواد وأقدامهن العارية موضوعة على الأرض .

وحتى الأطفال فهم يعرفون كيف ينتظرون . إنهم جلوس أمام دار البقال . إنهم ينتظرون هكذا دون أن يلعبوا ودون صخب . ومن وقت لآخر يقف أحدهم ويذهب لاستبدال قطع نقوده بزجاجة ماء غازى « فانتا » أو بحفنة من قطع الحلوى برائحة النعناع « بون بون » والآخرون ينظرون اليه دون أن ينطقوا .

توجد أيام لايعرف المرء الى أين يذهب كما أنه لايعرف ماذا سيحدث . كل

fb/mashro3pdf

الناس تترقب فى الشوارع أو على حافة الطريق . فالصغار فى أسمالهم ينتظرون وصول السيارات العامة الزرقاء أو مرور سيارات البضاعة التى تجلب الوقود والخشب والأسمنت . إن « لالاّ » تعرف جيدا صوت سيارات البضائع . ففى بعض الأحيان تجلس الفتاة مع الأطفال الآخرين على الصخور الجديدة للطريق المنحدر فى أول البلدة . فعندما تصل سيارة بضاعة يستدير الأطفال نحو نهاية الطريق بعيدا فقد سمع صوت المحرك منذ زمن قبل ظهور السيارة . فهو دَوِىّ حاد يكاد يكون صفيرا . وبين الفينة والفينة يسمع صوت « النفير » الذى يرن فتردد أصداؤه حوائط المنازل . ثم ترى سحابة من تراب . سحابة صفراء يختلط بها دخان المحرك الأزرق . تصل سيارة البضاعة الحمراء فى أقصى سرعة على الطريق « الأسفلت » . وفى أعلى مقصورة القيادة توجد مدخنة يخرج منها بخار أزرق وتلمع الشمس بشدة فوق زجاج السيارة أو على الأجزاء المعدنية . وتنهب الاطارات الطريق الممهد وتنثنى فى غير استقامة تبعا للريح وفى كل مرة تحك اطارات المقطورة جوانب الطريق فانها تثير الغبار الذى يتصاعد الى السماء ثم تمر السيارة من أمام الأطفال محذرة « بنفيرها » فى عنف فتهتز الأرض تحت وطأة عجلاتها الأربع عشرة السوداء . فيهب على الأطفال ريح من التراب وكذا رائحة الوقود المحترق مثل أنفاس ساخنة .

وبعد فترة طويلة يظل الأطفال يتحدثون عن السيارة الحمراء ويحكون قصصا عن السيارات بمختلف ألوانها منها الأحمر والأبيض والأصفر التى بها الخطافات .

وعلى هذا النحو ينتظر الانسان . فيذهب المرء ليرى الطرق والقناطر والبحر حتى يتسنى له رؤية هؤلاء الذين لايبقون والذين يرحلون .

فى بعض الأحيان تطول أيام أكثر من غيرها لأن الانسان يكون فيها جائعا . إن « لالاّ » تعرف جيدا هذه الأيام حين لاتوجد نقود على الاطلاق فى

fb/mashro3pdf

المنزل وحين لاتجد العمة عملا فى المدينة وحتى « سليم السوسى » زوج العمة لايعرف قط أين يبحث عن النقود . فيصبح كل الناس مسودى الوجوه يملأهم الحزن وربما يظهر بغير مظهر الطيبة عندئذ تبقى « لالاّ » خارج المنزل طيلة النهار . فهى تذهب الى أبعد ماتستطيع فوق الهضبة الصخرية هناك حيث يعيش الرعاة لتبحث عن « الحارتانى » . انها دائما كذلك حين تكون راغبة فى رؤيته . انه يظهر فى تجويف أو يجلس على صخرة ورأسه ملفوفة فى قماش أبيض ليراقب خرافه وماعزه . وجهه أسود ويداه نحيلتان وقويتان مثل يد عجوز . انه يقتسم خبزه الأسود وبليحاته مع « لالاّ » كما أنه يعطى أيضا بعض قطع منها للرعاة الذين يقتربون منه . انه يفعل ذلك لا عن كبر أو تعالٍ بل انه يعطى كما لو كان الذى يعطيه لاأهمية له .

إن « لالاّ » تراقبه من وقت لآخر فهى تحب وجهه الساكن الذى يشبه وجه النسر وكذا الضياء المنبعث من قاع عينيه السوداوين . ان الحارتانى ينتظر أيضا شيئا ما . ولكنه ربما كان الوحيد الذى يعرف ماينتظر ولكنه لايتحدث عنه مادام لايعرف كيف يتكلم لغة القوم . ولكن من نظرته يمكن للانسان أن يتكهن عما ينتظر أو عما يتحدث أو عما يبحث . فهو كمن يبحث عن جزء من كيانه يبقى هناك فى المكان الذى ولد فيه فيما وراء التلال الصخرية والجبال المتوجة بالجليد فى الفضاء الشاسع للصحراء والذى يجب عليه يوما ما أن يعثر على هذا الجزء من كيانه حتى يكتمل .

لقد بقيت « لالاّ » مع الراعى طوال اليوم ولكنها لم تقترب منه كثيرا . لقد جلست على حجر ليس بعيدا عنه وأخذت تنظر الى الأمام وترقب النسيم الذى يرقص ولا يستقر فوق الوادى الذى أصابه الجفاف والنور الأبيض الذى يتطاير منه الشرر وممرات الخراف والماعز الضيقة وسط الصخور البيضاء .

fb/mashro3pdf

ولما كانت هذه هى أيام الحزن والقلق فليس هناك سوى « الحارتانى » الذى فى استطاعته أن يكون هناك والذى ليس فى حاجة الى الكلام . فان النظرة تكفى . كما أنه يعرف كيف يعطى الخبز والبلح دون أن ينتظر لهما مقابلا . انه يفضل أن يبقى الانسان منه على خطوات كما تفعل الخراف والماعز والتى لاتخص مطلقا شخصا بعينه .

طوال اليوم تستمع « لالاّ » لصيحات الرعاة والصفير الذى يخترق هذا السكون الأبيض . وحينما ترجع الى البلدة ذات المنازل المعرشة فانها تحس بأنها أكثر حرية حتى لو انبتها العمة لأنها لم تحضر معها مايؤكل .

وذات يوم من تلك الأيام صحبت العمة « لالاّ » عند تاجرة الأبسطة فى الطرف الآخر من النهير وفى حى فقير من أحياء المدينة . والمحل عبارة عن منزل كبير أبيض له نوافذ ضيقة يتخللها قضبان حديدية . وحين دخلتا الصالة التى تستعمل كمصنع استمعت « لالاّ » الى الضوضاء المنبعثة من ماكينات النسيج . يوجد بالصالة عشرون ماكينة وربما اكثر مصطف بعضها خلف بعض فى شبه الظل الضبابى للبهو الكبير حيث تضاء فيه ثلاث لمبات من نور « النيون » وأمام الماكينات انحنت بعض فتيات صغيرات أو جلسن فوق كراسى لاظهور لها . إنهن يعملن فى سرعة . إنهن يدفعن المخروط الخشبى (الماكوك) بين الخيوط ثم يقبضن على مقصات الصلب يقطعن الزوائد وينسجن الصوف على المنسج (النول) وأكبرهن سنا يمكن ان تكون فى الرابعة عشرة من عمرها وأصغرهن لايتجاوز عمرها الثامنة .. انهن لايتكلمن كما أنهن لايلتفتن حتى إلى « لالاّ » التى دخلت المشغل مع العمة والتاجرة وصاحبة المصنع وتدعى « زهرة » انها سيدة طويلة ترتدى ثوبا أسود وتقبض بيدها ذات الشحم دائما على سوط لين به سيقان واكتاف الفتيات الصغيرات اللائى يشتغلن بسرعة كافية أو من يتحدثن الى جاراتهن .

fb/mashro3pdf

« هل سبق لها أن اشتغلت ؟ سألت السيدة دون أن تلتفت الى « لالاّ » فقالت العمة إنه سبق أن أرتها كيف تنسج الأقمشة . فهزت « زهرة » رأسها . لقد كانت تبدو شاحبة اللون ربما بسبب ردائها الأسود أو لأنها لاتغادر مطلقا الدار . ثم سارت ببطء نحو ماكينة لاتعمل ويوجد عليها بساط كبير أحمر داكن وبه نقاط بيضاء . ثم قالت « سوف تنهى هذا البساط » . جلست « لالاّ » وبدأت العمل . استمرت تعمل لعدة ساعات فى البهو الكبير المظلم وهى تقوم بحركات ميكانيكية بيديها . فى بادىء الأمر كانت تضطر للتوقف لأن أصابعها قد تعبت . ولكنها كانت تحس بنظرات السيدة الطويلة الشاحبة تتركز عليها فتغادر العمل فورا . إنها تعلم أن السيدة الباهتة اللون لن تضربها بالسوط لأنها أكبر سنا من الأخريات اللائى يعملن . وعندما كانت تتلاقى عيونهما فان ذلك كان يسبب لها صدمة داخلها كما كانت عينى « لالاّ » تطلقان شررا ولكن المرأة البدينة المتشحة بالسواد كانت تثأر من الصغيرات النحيلات والخائفات كالكلاب . انهن فتيات المتسولين والفتيات اللقطاء اللائى يعشن طول العام فى منزل « زهرة » واللائى لامال عندهن . وما ان يبطئن فى عملهن أو يتبادلن بعض الهمسات حتى تسرع المرأة البدينة الشاحبة نحوهن فى خفة مدهشة وتلهب ظهورهن بسوطها . ولكن الفتيات لايبكين مطلقا ولايسمع سوى أزيز السوط والضربات الصماء فوق ظهورهن . فتضغط « لالاّ » على أسنانها وتميل برأسها نحو الأرض حتى لاترى ولاتسمع ذلك لأنها تود لو تصيح أو تضرب بدورها « زهرة » ولكنها لاتقول شيئا وذلك بسبب مايجب أن تحمله من نقود لبيت العمة . ولكن لكى تنتقم فإنها تعقد بين عقد بالمقلوب فى نسيج البساط الأحمر

وفى اليوم التالى لم تستطع « لالاّ » صبرا على ذلك . وما ان بدأت المرأة البدينة الشاحبة فى ضرب « مينه » البالغة عشر سنوات تقريبا بالعصا وهى فتاة نحيلة وضعيفة لأنها كسرت « الماكوك » حتى قامت « لالاّ » وقالت فى برود : « لاتضربيها .!! فنظرت « زهرة » لحظة دون أن تفهم وقد أخذ وجهها المتشحم

fb/mashro3pdf

والشاحب طابع عدم الفهم والغباء حتى أن « لالاّ » اعادت قولها مرة أخرى : لاتضربيها ...

فامتقع وجه « زهرة » وتغير من فعل الغضب وصوبت الى وجه « لالاّ » ضربة من العصا . ولكن السوط لم يمس سوى كتفها اليسرى لانها عرفت كيف تتفادى الضربة . « سترين كيف سأضربك بهذا صرخت زهره وقد أحمر وتلون وجهها . « جبانه !. امرأة كريهه » ثم قبضت « لالاّ » على العصا ثم كسرتها على ركبتها . وهنا اكفهر وجه المرأة البدينة من الرعب وتقهقرت وهى تولول : « اخرجى ... اخرجى فى الحال اخرجى . ولكن « لالاّ » كانت قد جرت من قبل وعبرت البهو الكبير وقفزت الى الخارج حيث نور الشمس . ولم تتوقف عن الجرى حتى وصلت الى بيت العمة . كم أن الحرية بديعة وجميلة . فأصبح من السهل رؤية السحب من جديد التى تنساب فى الاتجاه العكسى وكذا الزنابير التى تهبط وتحوم حول أكوام القمامة والسحالى والحرباء والأعشاب التى ترتعش فى الهواء . جلست « لالاّ » أمام المنزل فى ظل الحائط وبقيت تتسمع بينهم جميع الأصوات الخافتة . ولما عادت العمة فى المساء قالت لها « لالاّ » فى بساطة « لن أذهب لأعمل عند زهره مطلقا » فنظرت اليها العمة لحظة ولم تحر جوابا .

وابتداء من هذا اليوم تغير كل شىء فى الحقيقة فى البلدة بالنسبة « للالاّ » كما لو أنها كبرت فجأة وأن الناس بدأوا ينظرون لها . حتى ابناء العمة لم يصبحوا كما كانوا سابقا جامدين ومحتقرين . فأسفت فى بعض الأحيان على الزمن الذى كانت فيه صغيرة حقا وحين وصلت توا الى البلدة وأن أحدا لم يكن يعرف اسمها . وانها كانت تستطيع الاختباء خلف شجرة أو فى دلو (جردل) أو فى صندوق من الكارتون . فقد كانت تحب دائما أن تكون كظل وتروح وتغدو دون أن يراها أحد ودون أن يكلمها أحد .

لم يكن سوى « نعمان » العجوز و « الحارتانى » اللذين لم يتغيرا . فنعمان

fb/mashro3pdf

مازال يقص عليها الحكايات غير المعقولة حين يصلح من شباكه على الشاطىء . أو حين كان يأتى ليأكل فطائر الذرة عند العمة . لم يعد يصطاد السمك . ومع ذلك كان يحبه الناس واستمروا يدعونه فى منازلهم . فعيناه الصافيتان شفافتان كالماء ووجهه بتجاعيده العميقة كآثار جروح قديمه .

كانت العمة تصغى اليه حين يتحدث عن أسبانيا ومرسيليا وعن باريس . وعن كل المدن التى رآها والتى سار فيها والتى عرف فيها أسماء الشوارع وأسماء الناس . وكانت العمة تسأله عما اذا كان شقيقه يمكن أن يساعده هناك فى ايجاد عمل له . فيهز نعمان رأسه ويقول « لم لا » كانت هذه اجابته على كل شىء ولكنه كان يعد بأنه سيكتب لأخيه . كان السفر صعبا وغير ميسر فلابد من وجود المال والأوراق . وبقيت العمة تفكر وقد ثبتت عينيها بعيدا تحلم بالمدن البيضاء الغاصة بالشوارع وبالمنازل والسيارات ربما كان هذا ماتنتظره هى . لم تفكر « لالآ » فى ذلك كثيرا فسيان لديها . انها تراقب عينى نعمان كما لو كانت قد عرفت هذه البحار وهذه البلاد وهذه المنازل .

كما أن « الحارتانى » لايفكر فى ذلك أيضا . لقد ظل دائما كطفل برغم طوله وقوته كشاب فان جسمه نحيل ووجهه ناعم ونقى كقطعة من الأبنوس . ربما لأنه لايعرف التحدث بلغة الآخرين . إنه يجلس دائما فوق صخرة وقد ثبت عينيه بعيدا . ويرتدى ثوبه الوبرى وقد غطى وجهه بالقماش الأبيض ومن حوله يوجد الرعاة السود مثله غير المستأنسين فى أسمائهم والذين يقفزون من صخرة الى صخرة وهم يصفرون . إن « لالآ » تحب أن تحضر عندهم فى المكان الملىء بالنور الأبيض حيث الزمن لايمضى وحيث لايستطيع المرء أن يكبر .

fb/mashro3pdf

وذات صباح فى أوائل الصيف دخل رجل منزل العمة . إنه رجل من اهل المدينة يرتدى بدلة كاملة مكونة من جاكتة رمادية اللون ذات انعكاسات خضراء وحذاء من جلد أسود يلمع كالمرآة . لقد حضر ومعه بعض الهدايا للعمة ولأبنائها ومرآة كهربائية محفورة فى اطار من البلاستيك الأبيض . وجهاز راديو ترانزستور صغير لا يزيد حجمه على علبة كبريت . وبعض أقلام حبر رؤوسها مذهبة وكيس مملوء بالسكر وعلب محفوظة . وعندما دخل المنزل مر بالفتاة « لالا » عند الباب وبالكاد نظر اليها . لقد وضع كل هذه الهدايا على الأرض . وطلبت اليه العمة أن يجلس وقد بحث عن مقعد ولكنه لم يجد سوى حشيات وصندوق من خشب كان يخص « لالا حواء « والذى أحضرته العمة من الجنوب مع « لالا » . جلس الرجل فوق الصندوق بعد أن نظفه بكفه . وانتظر الرجل ان يقدموا له الشاى وبعض الفطائر المسكرة .

وعندما علمت « لالا » بعد ذلك أن الرجل حضر ليطلب يدها للزواج . ذعرت لذلك فقد فعل برأسها دوار شديد وزادت ضربات قلبها . ليست العمة التى حدثتها عن ذلك ولكنه « البريكى » الإبن الأكبر للعمة . « لقد قررت أمنا أن تزوجك من هذا الرجل لأنه ثرى جدا . « و » لكنى لا ارغب فى الزواج صاحت « لالا » . ليس لك أن تقولى شيئا . يجب أن تطيعى عمتك . قال الباركى .

fb/mashro3pdf

« أبدا ... أبدا مطلقا » قالت ذلك وهى تغادر المكان صارخة وقد ملأت عينيها دموع الغضب ثم عادت الى بيت العمة بعد رحيل الرجل ذى الرداء الكامل . ولكن الهدايا ظلت مكانها . كان « على » أصغر أولاد العمة يصغى الى الموسيقى من جهاز الراديو الصغير . وقد الصقه على أذنه . وحين دخلت « لالا » رمقها بنظرة ماكرة . ثم تحدثت « لالا » فى خشونة مع العمة : « لماذا احتفظت بهدايا هذا الرجل لن اتزوج منه ابدا » . فقال ابن العمة وهو يضحك ساخرا « ربما تريد الزواج من الحارتانى » فقالت العمة « اخرج من هنا » . فانصرف الولد ومعه جهاز الراديو قالت « لالا » « لن ترغمينى على الزواج من هذا الرجل » . فقالت العمة « سيكون زوجا صالحا لك » فهو لم يعد شابا ولكنه ثرى ويملك منزلا كبيرا فى المدينة وله معارف كثيرون من ذوى النفوذ . يجب أن تتزوجيه .. » . « لن ارغب فى الزواج مطلقا » .

ظلت العمة ساكنة مدة كافية وحين تكلمت من جديد رق صوتها ولكن « لالا » ظلت على رأيها ثابتة . « لقد ربيتك كابنتى . إنى أحبك وأنت اليوم تريدين اهانتى » . نظرت « لالا » إلى العمة غاضبة ذلك انها اكتشفت للمرة الاولى ما بداخل العمة من كذب . « إن كل ذلك يتساوى عندى . لن اتزوج من هذا الرجل كما انى لا اريد هداياه المضحكة » . ثم أشارت الى المرآة الكهربائية الموضوعة على المائدة الصغيرة والموضوعة على الأرض . « ليس عندك تيار كهربائى » ثم بعد ذلك وفجأة فاض بها فخرجت من منزل العمة وذهبت الى البحر . ولكن فى هذه المرة لم تجر على الطريق الضيق . فقد كانت تسير الهوينا . فاليوم لم يعد كل شيء مثلما كان . فكأن الأشياء قد فقدت بهاءها وقد استهلكت من كثرة ما نظر اليها .

صاحت « لالا » لنفسها بصوت عال « يجب على الان أن ارحل » ولكنها فكرت فى الحال بأنها لا تعرف إلى أين تذهب . وعليه فقد عبرت الى الجانب

fb/mashro3pdf

الآخر من الكثبان . ثم سارت على الشاطىء الكبير لتبحث عن « نعمان العجوز » إنها تريد أن يكون هناك كعادته جالسا على جذع شجرة التين منهمكا فى اصلاح شبكته حتى توجه اليه كل انواع الأسئلة عن المدن الأسبانية ذات الأسماء الساحرة : الجزيرة ـــ غرناطه ـــ ترويل ـــ سرقاطه . وعن موانيها تلك الموانى التى تسافر منها السفن الضخمة كالمدن وعن الطرق التى تسير عليها السيارات إلى الشمال . وقطارات السكك الحديدية والطائرات . فهى ترغب فى أن تصغى اليه يتحدث لعدة ساعات عن هذه الجبال المتَوَّجَةَ بالجليد وانفاقها وأنهارها الواسعة الكبيرة كالبحر وكذا السهول المغطاة بالقمح والغابات الفسيحة وخاصة فى المدن المعطرة حيث القصور البيضاء والكنائس والنافورات والحوانيت المضيئة بالأنوار : باريس ـــ مرسيليا وشوارعها ومنازلها العالية جدا حتى لا يرى الانسان السماء إلا بصعوبة والحدائق والمقاهى والفنادق والميادين حيث يقابل المرء الناس القادمين من جميع الجهات فى الأرض ولكن « لالا » لم تجد الصياد العجوز فلم تجد العصفور الصغير الأبيض الذى يطير حثيثا ودائرا فصاحت به : أيها الأمير . فراح الطائر يمر عدة مرات فوق الفتاة ثم ذهب مسرعا تحمله الرياح فى اتجاه النهر . فبقيت « لالا » على الشاطىء طويلا لا شىء معها سوى صوت الرياح وصوت البحر فى أذنيها .

وفى الأيام التالية لم يتحدث أحد عن أى شىء فى منزل العمة والرجل ذى الزى الكامل لم يرجع كما تحطم جهاز الراديو الصغير وكما أكلت جميع العلب المحفوظة . ولم يبق فى موضعها الا المرآة . فقد ظلت فى مكانها على الأرض قريبة من الباب .

لم تنم الفتاة جيدا طوال الليالى بل كانت تفزع لأقل صوت . إنها لتتذكر بعض الحكايات التى كانت تروى عن فتيات يختطفن بالقوة أثناء الليل لأنهن لا يرغبن فى الزواج . ففى كل صباح عند بزوغ الشمس تخرج « لالا » قبل أن

fb/mashro3pdf

يصحوا لتغتسل ولتحمل الماء من النبع وبهذا كانت تستطيع مراقبة مدخل المدينة .

ثم كانت ريح الشقاء التى هبت على البلاد لعدة ايام متتالية . فريح الشقاء هذه هى ريح غريبة . لم تأت هنا إلا مرة أو مرتين فى السنة فى نهاية الشتاء أو فى الخريف . وأغرب ما فيها أن الانسان لا يشعر بها فى البداية فهى لا تهب فى عنف وفى بعض الأوقات تهدأ كلية حتى لينساها الإنسان فهى ليست ريحا باردة كريح العواصف التى تهب فى وسط الشتاء حين ترتفع أمواج البحر فى شراسة . كما أنها ليست ريحا حارة قوية وحارقة مثل التى تأتى من الصحراء والتى توقد نارا حمراء داخل المنازل والتى تثير الرمال فتغطى سقوف المنازل . لا ... فإن ريح الشقاء هى هادئة حلوة ولكنها تضطرب وتدور فتقذف بدفعات ومخلفات فتثقل على أسقف المنازل كما تثقل على كواهل وصدور الرجال . حينما تأتى هذه الريح البطيئة الهادئة يمرض الناس بسببها فى كل مكان خاصة الأطفال والمسنون ويموتون ومن أجل هذا سميت ريح الشقاء .

وعندما بدأت فى الهبوب هذا العام على المدينة عرفتها « لالا » فى التو واللحظة . فقد شاهدت سحب الأتربة التى تتقدم نحو السهل فيتهيج البحر ويسد مصب النهر . وعندئذ لا يخرج الناس الا اذا التفوا فى معاطفهم برغم الحرارة الشديدة . لا أثر للزنابير كما تختبىء الكلاب وتدفن أنوفها فى الرمل أو فى فجوات أسفل المنازل . ان « لالا » حزينة من أجل من تميتهم هذه الريح . وحين سمعتهم يقولون أن « نعمان » العجوز مريض انقبض قلبها وانحبس تنفسها لحظة . فلم تحس بهذا الاحساس من قبل حتى اضطرت للجلوس مخافة أن تسقط .

سارت ثم جرت حتى منزل الصياد . لقد ظنت أنها ستجد عنده من يعوده من الناس حتى يساعدوه أو يعنوا به ولكن نعمان كان وحيدا ممددا فى حصير من القش يتكىء برأسه على ذراعيه وينتفض فى عنف شديد حتى

fb/mashro3pdf

اصطكت لذلك اسنانه وحتى أنه لم يستطع رفع نفسه على مرفقيه حين دخلت الفتاة منزله . لقد افتر ثغره عن ابتسامة ولمعت عيناه فى قوة حين عرفها . فعيناها دائما فى لون البحر ولكن وجهها النحيل صار أبيض رماديا يبعث الخوف جلست « لالا » الى جواره وحدثته فى همس . وقد كان من عادته أنه هو الذى يتحدث ويحكى القصص وهى التى تسمع له ولكن اليوم . فقد تغير كل شىء فقد راحت الفتاة تحدثه حيثما اتفق حتى تهدىء من شجنه وتمده بالحرارة . فقد حكت له بعضا من قصصه التى سبق أن رواها من قبل عن سفرياته ورحلاته فى مدن أسبانيا وفرنسا . لقد حدثته عن ذلك كله كما لو أنها هى التى رأت المدن وكما لو أنها هى التى قامت بتلك الرحلات الطويلة . فقد حدثته عن شوارع « الجزيرة » وكم كانت هذه الشوارع القريبة من الميناء ضيقة ومتعرجة حيث يشم الانسان ريح البحر ورائحة الأسماك ثم عن المحطة ذات الأرصفة المغطاة بالحصى الأزرق وعن القناطر الخاصة بالسكة الحديد التى تعبر الممرات المائية والنهيرات . لقد حدثته عن شوارع قادش وحدائقها الغناء وعن ألوان أزهارها المختلفة والعديدة وعن النخيل أمام القصور البيضاء وعن جميع الشوارع التى يروح فيها الناس ويجيئون بسياراتهم السوداء وسياراتهم العامة وسط انعكاسات المرايا بأضوائها . أو أمام العمائر العالية وكأنها حواجز من مرمر . لقد تحدثت عن الشوارع فى جميع المدن كما لو كانت قد سارت فيها : عن أشبيلية قرطبة ــ غرناطه ــ طليطلة أو أرتخويز. وعن البلدة الكبيرة جدا حتى أن الانسان ليضل فيها لعدة أيام « مدريد » حيث يأتيها الناس من كل أنحاء الارض .

ظل نعمان العجوز ينصت اليها دون أن يتكلم ودون أن يتحرك ولكن بريق عينيه يزداد قوة . إن « لالا » تعرف جيدا أنه يجب سماع هذه القصص . وحين توقفت عن الكلام سمعت جسم العجوز يرتعد وتنفسه مضطربا حتى صار صفيرا فأسرعت فى الاستمرار فى السرد حتى لا تسمع هذه الأصوات المرعبة .

fb/mashro3pdf

إنها الآن تتحدث عن المدينة الكبيرة « مارسليا » فى فرنسا . الميناء ذو الأرصفة الضخمة حيث ترسو عليها السفن الكبيرة من جميع أنحاء العالم من شاحنات بضاعة كالقلاع بمقصوراتها العالية وصواريها التى تفوق الأشجار ضخامة وعلوا وسفن الركوب البيضاء وبنوافذها العديدة والتى تحمل أسماء عجيبة . وبعضها يحمل أسماء مدن مثل : اوديسا ريجا بيرحين ـــ ليماسول . أما ما فى شوارع مارسيليا فالناس فى عجلة من أمرهم . فهم يتزاحمون فمن داخل ومن خارج الى الحوانيت العملاقة دون توقف ويتدافعون الى المقاهى والمطاعم ودور السينما وفى السيارات العامة السوداء التى تسير فى الشوارع الواسعة والتى لا يعرف الانسان لها نهاية .

أما القطارات فهى تطير فوق الأسطح عندما تمر فوق الكبارى المعلقة . والطائرات تئز وتدور فى بطء فى السماء الرمادية اللون فوق العمائر والأراضى الفضاء وحين يحل وقت الظهيرة تقرع اجراس الكنائس فتتجاوب أصداؤها فى الشوارع وفى الانفاق تحت الأرض أما فى الليل فالمدينة مضاءة . فالفنارات تكسو البحر بأنوارها . كما أن أضواء السيارات ترسل شعاعها بعيدا . اما الشوارع الضيقة فهى هادئة صامتة فتقدم العصابات المسلحة بالسكاكين الأمريكية متربصين فى زوايا الأبواب ليعتدوا على المارة المتأخرين فى عودتهم وفى بعض الأحيان تنشأ معارك فى الأراضى الفضاء أو على الأرصفة فى ظل ناقلات البضائع الراسية . لقد تحدثت « لالا » طويلا وكان صوتها عذبا جدا حتى غلب النعاس على العجوز . وحين نام توقف جسده عن الارتعاد وانتظم تنفسه . وعلى ذلك أمكنها أن تغادر بيت الصياد وقد آلم ضوء النهار فى الخارج عينيها .

كثير من الناس يتألمون بسبب ريح الشقاء خاصة الفقراء والأطفال الصغار . فعندما كانت « لالا » تمر ببابهم كانت تسمع انينهم وشكواهم وتأوهات النساء وبكاء الأطفال فتعرف أنه هنا سيموت إنسان ما فتحزن وتود لو

fb/mashro3pdf

تبعد او تكون فى الجانب الآخر للبحر او فى المدن التى تخيلتها وحدثت عنها « نعمان العجوز » .

ولكن ... لقد عاد الرجل ذو الزى الرمادى الكامل . ولعله لا يدرى بالتأكيد أن ريح الشقاء تهب الآن على البلدة ذات العروش والورق المقوى . ولكن هذا لن يعنيه فى شيء فالأمر لديه سيان . فريح الشقاء لا تصيب أمثاله فهو مع ذلك غريب عن البؤس وعن هذا الفقر .

لقد عاد الى منزل العمة وقد قابل « لالا » على الباب . وحين رأته تولاها الفزع فأطلقت صرخة قصيرة ذلك لأنها كانت على يقين من عودته وكانت تخشى هذه اللحظة . فحدجها الرجل ذو البدلة الرمادية بنظرة عجيبة . فعيناه ثابتتان قاسيتان مثل المسيطر ومن تعود أن يأمر . ان بشرته بيضاء خشنة تكسو ذقنه وصدغيه لحية زرقاء . إنه يحمل حقيبة بها بعض الهدايا . حادت « لالا » عن طريقه حين مر من أمامها . وقد نظرت الى اللفافات فأخطأ الرجل فهم نظرتها . وخطا نحوها ماداً لها بالهدايا . ولكنها قفزت بأقصى ما تستطيع وذهبت عدوا دون ان تلتفت حتى شعرت بالرمل تحت قدميها. بالرمل الذى يؤدى الى التلال الصخرية .

لم تعرف إلى أين يتوقف هذا الطريق الضيق . لقد أمتلأت عيناها بالدموع وانقبض صدرها وكانت تمشى بأسرع ما تستطيع . فهنا بدا لهب الشمس كأنما الانسان قريب من السماء . ولكن الريح الثقيلة لا تهب على التلال ذات اللون « الطوبى » الأحمر والطباشيرى فالصخور صلدة وتتفتت الى قطع صغيرة ناتئة . والشجيرات السوداء مغطاة بالأشواك والعالق بها هنا وهناك بعض وبر صوف الخراف وحتى فروع الحشائش قاطعة كالسكاكين سارت « لالا » شوطا كبيرا خلال التلال بعضها عال وحاد كصخور منحدرة نحو البحار . والبعض الآخر

fb/mashro3pdf

قصير كأكوام من الحصى مثل التى يبنيها الأطفال .

وفى كل مرة تصل الفتاة الى هذا الاقليم فإنها تشعر وكأنها لا تمت الى نفس العالم . وكان الوقت والفضاء اكثر اتساعا كما لو ان ضوء السماء الحار قد دخل رئتيها فمددها وكأن كل جسدها قد تحول الى عملاقة سوف تعيش طويلا جدا وببطء شديد . وفى غير عجلة صعدت « لالا » الآن على طول المجرى المائى الجاف فى اتجاه الهضبة الصخرية حيث يسكن ما تسميه « السر » .

انها لم تعلم جيدا لم اختارت هذا الاتجاه . وكأنها الآن صارت فتاتين تحملان اسما واحدا « لالا » احداهما لا تعرف . فقد اعماها حزنها وغضبها وهربت من ريح الشقاء أما الأخرى فهى التى تعرف فقد وجهت ساقيها إلى حيث يقطن « السر » وعلى هذا صعدت نحو الهضبة الصخرية خالية الذهن وبغير فهم . لقد وجدت قدماها العاريتان الآثار القديمة التى لم تطمسها الرياح والشمس .

وببطء صعدت الى الهضبة الصخرية فلفحت الشمس وجهها واكتافها ولسعت ساقيها ويديها ولكنها لم تكد تشعر بذلك . فهو الضوء الذى يحرر ويمحو الذاكرة ويجعل المرء نقيا كحجر أبيض . إن الضوء يغسل ريح الشقاء ويحرق الأمراض واللعنات .

تقدمت « لالا » وتكاد تكون مغمضة العينين من كثرة تموج الضوء وقد الصق العرق رداءها على بطنها وصدرها وظهرها . فلم يكن الضوء أقوى منه الآن على الأرض وكما أن الفتاة لم تحس بعطش مماثل لهذا الضوء كما تحسه الآن وكأنها قد عادت من واد أسود حيث يسيطرالموت والظلام . إن الهواء هنا ساكن لا حركة فيه فهو يرتعش فى مكانه . ويظن المرء إنه يستمع الى صوت موجات النور فهى

fb/mashro3pdf

تصدر موسيقى غريبة تشبه طنين النحل . وعندما وصلت إلى أعلى الهضبة الفسيحة العارية هبت الريح من جديد عليها فجعلها تهتز . إنها ريح باردة جافة تهب دون توقف وتستند عليها فتجعلها ترتعد فى ثيابها هذه المبتلة من العرق . الضوء ساحق ينفجر فى الهواء وهو يفتح نجوما فوق الصخور . هنا لا توجد أعشاب ولا أشجار ولا ماء وانما يوجد فقط الضوء والريح منذ مئات االسنين . ليست هناك طرق ولا أثر للانسان . سارت « لالا » حيثما اتفق الى وسط الهضبة حيث لا يعيش سوى العقارب . إنه مكان لا تطأه قدم انسان ولا حتى رعاة الصحراء وحتى حين تضل احدى دوابهم فانهم يقفزون مصفرين ويجعلوها تجرى الى الخلف حاصبينها بقطع من الحجارة . سارت « لالا » حثيثا مغمضة العينين أو تكاد واضعة طرف قدميها العاريتين فوق الصخور الملتهبة وكأنها فى عالم آخر قريبا من الشمس فى توازن تكاد تسقط . انها تتقدم ولكنها غائبة القلب أو تكاد تشعر بكيانها وقد سبقتها من خلال نظرتها وحواسها المتينة ولكن جسدها هو المتأخر وما زال مترددا عند الصخور ذات الصخور القاطعة . إنها تنتظر فى نفاد صبر هذا الذى يجب أن يأتى الآن . إنها تعرفه . يجب أن يأتى . وما أن جرت حتى تهرب من هذا الرجل ذى الزى الكامل الرمادى الأخضر اللون . وتهرب أيضا من موت نعمان العجوز . إنها كانت تعلم أن هناك من ينتظرها فوق هضبة الصخور حيث لا يوجد أحد . إن محارب الصحراء الملثم بالأزرق والتى لا تعرف إلا نظرته الحادة كالسيف . فقد فحصها من أعالى التلال الجرداء وامتد بصره حتى وصل اليها فلمسها وجذبها الى هنا دون مواربة . إنها بلا حراك الآن فوق الهضبة الكبرى الصخرية ولا يوجد من حولها شىء ما وانما توجدفقط أكوام الحصى وهذا الضوء والريح الباردة الجافة وهذه السماء الواسعة التى لا سحاب ولا بخاربها .

بقيت « لالا » بدون حركة وواقفة فوق قطعة من الحجر مائلة لم يهذبها الماء وتسلطت عليها أشعة الشمس ويبقى على وجهها وعلى صدرها وبطنها . هذا الضوء الذى هو عبارة عن نظرته .

fb/mashro3pdf

إن المحارب الأزرق سيأتى حتما الآن . فهو لن يتأخر . ظنت « لالا » أنها تسمع وقع أقدامه فى التراب . فدق قلبها فى شدة وموجات الضوء الأبيض تغلفها وتلتف بلهبها حول ساقيها . واختلط بشعرها وقد شعرت بألسنة اللهب التى تحرق شفتيها وجفونها لقد سالت على وجنتيها دموع مالحة ونفذت الى فمها والعرق المالح سال قطرة قطرة من ابطيها فلسع جبينها وقد نزل كمجرى على طول رقبتها بين عظمتى اللوح فى ظهرها . يجب أن يأتى محارب الصحراء الأزرق الآن . فنظرته ستحرق تماما مثل ضوء الشمس .

ولكن « لالا » بقيت وحيدة وسط هذه الهضبة الصخرية . فقد ظلّت واقفة على الصخرة المائلة قليلا . فأحرقتها الرياح الباردة.الرياح العاتية التى لا تحب حياة الانسان . إن الرياح التى تهب هنا لا تحب سوى العقارب والحشرات الأخرى والسحالى والثعابين حتى الثعالب ذوى الفراء المحترق . ولكن « لالا » لا تخشاها لأنها تعرف أنه فى مكان ما بين الصخور أو فى السماء توجد نظرة الرجل الأزرق الذى تسميه هى « السر » لأنه يختبىء إنه هو الذى يأتى بالتأكيد وسينفذ بصره مباشرة داخلها وسيمدها بالقوة حتى تقاتل هذا الرجل ذو الرداء الكامل . والموت القريب الآن من نعمان العجوز سيحولها الى طائر وستصعد طائرة فى الفضاء وربما تستطيع أن تلتقى بالطائر الأبيض الصغير « الأمير » فتطير فوق البحر دون تعب .

وحين تصل النظرة عندها . فإنها تجعل رأسها يدور كموجة من الضياء تنفرد . إن نظرة « السر » أكثر ضياء من النار . فنورها أزرق حارق ولكنها فى نفس الوقت كنور الشهب والنجوم .

حبست « لالا » أنفاسها لحظة كما إتسعت حدقتاها . إنحنت نحو التراب مغلقة العينين وطرحت رأسها الى الوراء ذلك لأن عبئاً ثقيلا قد نفذ اليها فجعلها

fb/mashro3pdf

ثقيلة كالصخرة . لقد وصل مرة اخرى دون ضجة مسلّا فوق الحصى الناتىء ويرتدى ملابس محاربى الصحراء القدامى يتدثر بمعطفه الفضفاض من الصوف الأبيض وملثما بقماش أزرق فى لون الليل . رأته « لالا » بكل قواها رأته يتقدم من خلال حلمها . لقد رأت يديه المصطبغتين بالحناء ورأت الضياء الذى يشع من نظرته الداكنة . انه لا يتكلم أبداً فبنظرته يمكنه التعبير لأنه يعيش فى عالم لا يحتاج فيه للكلام مع الناس . وحول معطفه الأبيض الكبير دوامات من نور ذهبى كما لو أن الرياح أثارت عاصفة من الرمال . ولكن « لالّا » لم تسمع سوى دقات قلبه الذى يبرق بطيئا وبعيدا .

إن « لالا » ليست فى حاجة للكلام كما أنها ليست فى حاجة الى أن تسأل أو حتى تفكر ولكنها تشعر بنظرات الرجل الأزرق مركزة عليها وهى مغمضة العينين ومنحنية فى الرمال إنها تحس بنظراته وبالحرارة تنفذ الى داخلها وتسرى فى أضلاعها . إن هذا شىء غير عادى حقا . فحرارة نظرته تسرى فى كل ركن من جسدها طاردة الآلام والحمى وكل ما يسبب لها ألما .

إن السر واقف الآن أمامها لا يتحرك فى حين أن موجات النور تدور وتنزلق من حول معطفه . ماذا يفعل ؟ لم تعد « لالّا » تشعر بخوف بل شعرت بالحرارة تتضاعف فى جسدها كما لو أن الأشعة تمر على وجهها فتضىء كل جسدها .

لقد رأت ما فى داخل نظرات الرجل الأزرق ومن حولها وفى اللانهائية فى الصحراء التى تلمع وتتموج وحبات الشرر وأمواج رمال الكثبان البطيئة التى تتقدم نحو المجهول . فهناك البلدان والمدن الكبيرة البيضاء ذات الأبراج الدقيقة كجذوع النخيل والقصور الحمراء المزينة بالنباتات وزهور النبات المتسلقة العملاقة . وتوجد بحيرات الماء الكبرى ذات اللون الأزرق كالسماء . مياه جميلة ونقية لا مثيل لها فى

fb/mashro3pdf

مكان آخر . لقد حلمت بذلك كله « لالّا » وهى مغمضة العينين ورأسها إلى الوراء فى نور الشمس وقد ضمت ركبتيها بذراعيها . إنه حلم أتى من بعيد وكان موجودا هنا فوق الهضبة قبلها من زمن بعيد . انه حلم فيه تدخل الآن كما لو أنها نائمة ويمتد شاطئه امامها .

الى أين الطريق ؟ إن « لالّا » لا تعرف الى أين تذهب فهى تسير فى غير هدى . تُرى أتتبع ريح الصحراء التى تارة تلهب شفتيها وأجفانها فى قسوة وتارة باردة بطيئة تلك الريح التى يحتاجها الناس وتلقى بالصخور الى أسفل الحواجز البحرية . إنها الريح التى تتجه الى اللانهائية فيما وراء الأفق أو إلى السماء حتى مجموعات الكواكب المتجمدة أو إلى مجموعات النجوم أو الشمس . فان الرياح تحملها فى طريق لا نهاية له الى الهضبة الصخرية حيث يضطرب الضوء . إن الصحراء تفرش حقولها المجدبة أو فى لون الرمل المليئة بالفجوات والمتجمدة مثل الجلود الميتة . إن نظرة الرجل الأزرق فى كل مكان حتى فى أقصى الصحراء . ومن خلال نظرته الآن تبصر « لالا » النور . إنها تستشعر على جلدها حروقا من نظراته . والريح والجفاف وكان لشفتيها طعم الملح . انها ترى شكل الكثبان وكأنها حيوانات ضخمة نائمة والحوائط العالية السوداء لهضبة « الحمادا » والوادى الفسيح الجاف من الأرض الحمراء . إنها الاقليم الذى لا وجود للانسان فيه ولا المدن . لا شيء يتوقف أو يسكن . فليس هناك سوى الصخور والرمل والهواء . ولكن « لالا » تشعر بالسعادة لأنها تعرف كل شيء كما تعرف تفاصيل المشهد وكل شجرة متفحمة فى هذا الوادى الكبير وكأنها قد سبق أن سارت فيه من قبل بقدميها العاريتين والمحترقتين من الأرض . وعيناها مثبتتان على الأفق . عندئذ دق قلبها بأسرع ما يمكن وبأقصى قوة . لقد شاهدت أمامها العلامات والآثار المفقودة وافرع الشجر المتهشمة وأعشابا ترتعش فى الرياح . إنها تنتظر فهى على يقين من مجيئه عما قريب وانه قريب جدا الآن . إن نظرة الرجل الأزرق ترشدها من خلال الفجوات والنهيرات والمجارى المائية الجافة . وعلى حين غره سمعت هذه الأغنية

fb/mashro3pdf

الغريبة التى تتردد وترتعش بعيدا جدا وكانها تخرج من الرمال ممتزجة برجعة مستمرة من الرياح فوق الصخور . لقد ملأت هذه الأغنية كيان « لالّا » فهى تعرفها جيدا . إنها أغنية « لالّا حواء » والتى ترددها العمة والتى كلماتها :

اليوم آه اليوم سيصير الغراب أبيض وسيجف البحر وسنجد العسل فى زهرة الصبار وسنصنع سريرا من اوراق النبات الشائك ... ولكن « لالّا » لم تفهم جيدا الفاظ الأغنية الآن لأن إنسانا ما هو الذى يغنيها بعيدا وفى لغة قبيلة « الشلوة » لقد نفذت الأغنية إلى أعماق قلبها وامتلأت عيناها بالدموع برغم أنها قد استمرت فى إغلاق جفونها بكل قوتها .

استمرت الموسيقى وقتا طويلا واستمرت تهدهد طويلا حتى ان الحصى امتد على رمال الصحراء . وعليه فقد شاهدت « لالّا » أيضا المدينة الحمراء التى فى نهاية الوادى الكبير إنها ليست فى الحقيقة مدينة كالتى تعرفها الفتاة بشوارعها ومنازلها . فهى مدينة من طين عفاها الزمن واستهلكتها الرياح مثل أعشاش الزنابير وبيوت النمل الأبيض . إن النور جميل فوق المدينة الحمراء فهو يشكل فيه من العذوبة صافية ونقية كصفاء السماء فى الفجر الدائم . وتتجمع المنازل بالقرب من فتحة البئر كما توجد بعض الأشجار ساكنة وأشجار الصبار الأبيض كأنها تماثيل . ولكن ما رأته « لالّا » بالذات هى مقبرة بيضاء بسيطة كقشرة بيض وموضوعة فوق الأرض الحمراء . يبدو كأن نور النظرة يأتى منها ففهمت الفتاة أن هنا مسكن الرجل الأزرق .

إنه شىء مريع إلا أنه فى ذات الوقت نفسه جميل هذا الذى وصل الى الفتاة إنه كشىء فى أعماقها قد تمزق وتكسر وسمح بمرور الموت والمجهول . كما انتشرت فى كيانها حرارة الصحراء ونفذت الى شرايينها وامتزجت بأحشائها . ان نظرة « السر » مربعة فهى تؤلم لأنها هى المعاناة الآتية من الصحراء مثل الجوع

fb/mashro3pdf

والخوف والموت . إن النور الجميل الذهبى والمدينة الحمراء والمقبرة البيضاء والحقيقة التى ينبعث منها الضياء السحرى فإنها تحمل بين طياتها أيضا البؤس والهجر والحزن . إنها نظرة أسى طويلة تأتى لأن الأرض قاسية والسماء لا ترغب فى الانسان .

بقيت « لالّا » ساكنة لا حراك بها منطوية على نفسها راكعة بركبتيها على الحصى . وتحرق الشمس كتفيها وقفاها . لم تفتح عينيها وسالت الدموع فى مجريين يرسمان خطوطا فى التراب الأحمر الملتصق بوجنتيها .

وحين رفعت رأسها وفتحت عينيها اضطر نظرها وكان لزاما عليها أن تبذل جهدا حتى تعتاد الضوء فظهر الهيكل الناتىء للتلال ثم الفضاء الصحراوى للهضبة حيث لا عشب ولا شجر ولكن يوجد الضوء والريح فقط . وعندئذ بدأت الفتاة فى السير مترنحة ثم هبطت فى بطء المجرى المائى الذى يقود إلى الوادى وإلى البحر ونحو البلدة ذات الأعراش والورق المقوى . ان الظلال طويلة الآن . والشمس قريبة من الأفق . لقد شعرت « لالّا » بأن وجهها قد انتفخ بفعل حرارة الصحراء فهى تظن أن أحدا لا يستطيع أن يتعرف عليها حاليا وأنها أصبحت كالحارتانى .

وحين هبطت إلى أسفل خليج النهير كان الليل قد ساد البلدة وكانت المصابيح الكهربائية كنقط صفراء وعلى الأرض كانت سيارات البضاعة تتقدم مرسلة أمامها الشعاع الأبيض لمصابيحها بغباء .

كانت « لالّا » تسير تارة عدوا وتارة بطيئة تكاد تقف وتود لو استدارت وهربت . كأن هناك بعض أجهزة الراديو تذيع أغانيها بطريقة آلية اثناء الليل . وقد انطفأت نيران المواقد تلقائيا . وفى المنازل ذات الألواح غير المتراصة جيدا .

fb/mashro3pdf

كان الأطفال والنساء قد التفوا فى أغطيتهم بسبب رطوبة الليل . ومن وقت لآخر كانت الريح الضعيفة تدفع صندوقا من الورق الفارغ أو يحدث صوت فى السقف المعدنى . اختبأت الكلاب . ومن فوق البلدة امتلأت السماء السوداء بالنجوم .

سارت « لالّا » دون ان تحدث صوتا فى الممرات كما اعتقدت أنه لا حاجة لأحد بها هنا وأن كل شيء على ما يرام بدونها كما لو أنها رحلت منذ سنين أو كأنها لم تكن موجودة أصلا . وبدلا من أن تقصد « لالّا » بيت العمة فقد سارت فى بطء الى الناحية الأخرى من البلدة هناك حيث يعيش « نعمان » العجوز » اقشعر بدنها لأن هواء الليل كان رطبا جدا واصطكت ركبتاها لأنها لم تأكل شيئا منذ ليلة أمس . لقد كان النهار طويلا جدا هناك فى أعلى الهضبة الصخرية حتى أنها أحست كأنها رحلت عدة أيام أو ربما شهور . فصارت الآن وكأنها بالكاد تعرف شوارع البلدة وأكواخ الخص وأصوات الاذاعات وبكاء الأطفال ورائحة البول والتراب . وفجأة ظنت وكأن شهورا قد انقضت حقا فوق الهضبة الصخرية . وعلى ذلك فكرت فى نعمان العجوز فانقبض صدرها وبالرغم من ضعفها بدأت تعدو فى شوارع البلدة الخالية . لقد سمعتها الكلاب تجرى فزمجرت ونبحت قليلا . وحين وصلت أمام منزل نعمان دق قلبها فى ضربات سريعة وكانت تتنفس فى صعوبة . فقد كان الباب غير مغلق باحكام ولا نور فى الداخل .

كان نعمان ممددا فوق حصيرته كما تركته وكان لا يزال يتنفس فى بطء محدثا صفيرا . مفتوح العينين فى سواد الليل فمالت « لالّا » نحو وجهه ولكنه لم يتعرف عليها . كان فمه مفتوحا وكان يجاهد ليتنفس . ولم يعد يقوى على الابتسام .

تمتمت « لالا » « نعمان ... نعمان » . لم تعد لدى نعمان أية قوة . لقد أصابته ريح الشقاء بالحمى التى تثقل على الجسم والرأس وتحرمه من الطعام . ربما

fb/mashro3pdf

ستحمله الريح . وفى قلق مالت نحو وجه الصياد وقالت له « لن تذهب الآن » .. كم تمنت أن تسمع صوت نعمان يحدثها ويقص عليها مرة ثانية قصة الطائر الأبيض الذى كان أميرا فى البحر أو قصة الحجر الذى أعطاه الملاك جبريل الى الناس والذى أسود بخطاياهم . ولكن نعمان العجوز لا يستطيع الآن أن يحكى قصصا فلم يكن لديه من قوة سوى أن يرفع بها صدره حتى يتنفس كما لو أن اثقالا غير مرئية ترتكز عليه . إن العرق الكريه والبول يغمران جسده النحيل المتفتت على الأرض . ان « لالا » متعبة الآن كى تقص عليه قصصا أخرى أو لتقول له عما يجرى هناك فى الطرف الآخر من البحر وعن مدن أسبانيا وفرنسا .

لقد جلست إلى جوار الرجل العجوز وكانت تشاهد من فرجة الباب نور الليل . كانت تنصت الى تنفسه الذى يحاكى الصفير كما كانت تسمع الضوضاء السيئة للرياح فى الخارج والتى تدفع علب المأكولات المحفوظة وضربات السقوف المعدنية . ثم غفت وهى جالسة ورأسها مسند الى ركبتها . ومن وقت لآخر كان تنفس نعمان المتقطع يوقظها فتطلب منه قائلة : « هل انت هنا ... أما زلت هنا .. ؟ » ولكنه لا يرد عليها كما أنه لا ينام . وجهه الرمادى مستدير ناحية الباب ولكن عينيه البراقتين يبدو أنهما لا يبصران كأنه يستطلع ما وراء الحياة .

حاولت « لالا » أن تغالب النوم ذلك لأنها تخشى ما عساه يحدث اذا هى نامت . هذا ما يحدث دائما للصيادين الضالين فى البحر والذين لا يرون شيئا . تتقاذفهم الأمواج وقد أحاطت بهم العاصفة فيجب ألا يغفلوا أو يناموا أبدا لأن البحر سيجرفهم ويلقى بهم فى أعماقه ويبتلعهم .

أرادت « لالا » المقاومة ولكن جفونها أغلقت برغمها وشعرت وكأنها تسقط الى الخلف . لقد عامت مدة طويلة دون أن تعرف الى اين تذهب فهى محمولة بالصوت البطىء لتنفس نعمان العجوز .

fb/mashro3pdf

ثم بعد ذلك وقبل أن يبزغ نور النهار استيقظت فزعة ونظرت للرجل العجوز المُسجى على الأرض وقد وضع وجهه الهادىء فوق ذراعه . لم يعد يصدر عنه صوت الآن لأنه توقف عن التنفس . وفى الخارج توقفت الريح عن الهبوب . ولم يبق هناك من خطر . وأصبح كل شيء هادئا كما لو لم يكن هناك موت فى أى مكان .

fb/mashro3pdf

وحين قررت « لالا » الرحيل لم تقل شيئا لأحد . لقد صممت على الرحيل لأن الرجل ذا الرداء الكامل قد عاد عدة مرات الى بيت « العمة » وفى كل مرة يرمق « لالا » بعينيه البراقتين الجامدتين كالحصى الأسود . ثم جلس على صندوق « لالا حواء » ليشرب كوبا من الشاى بالنعناع . لم تعد تخشاه ولكنها كانت تعرف اذا لم ترحل فانه ذات يوم سوف يقودها بالقوة الى بيته ليتزوجها ذلك لأنه قوى وغنى ولأنه لا يحب أن يقاومه أحد .

غادرت الفتاة هذا الصباح قبل شروق الشمس . فهى لم تر طيف العمة داخل البيت فهى نائمة ملتفة فى أغطيتها . لقد أخذت فقط قطعة من قماش أزرق وصنعت فيه بعضا من الخبز المقدد وبعضا من التمر واسورة من ذهب كانت تخص أمها .

لقد خرجت دون أن تحدث صوتا ودون أن توقظ الكلاب . لقد سارت عارية القدمين فوق الأرض الباردة بين صفوف المنازل الهاجعة . وكانت السماء أمامها شاحبة لأن النهار سيبزغ والضباب آت من ناحية البحر فيعمل سحابة كبيرة رقيقة وتفيض على طول النهير فاردة ذراعيها كطائر عملاق ذى جناحين رماديين .

fb/mashro3pdf

وفى لحظة رغبت « لالّا » فى ان تذهب حتى منزل « نعمان » الصياد لترى الدار للمرة الأخيرة ذلك لأنه كان الشخص الوحيد الذى فقدته وحزنت عليه حزنا كبيرا . ولكنها خشيت أن تتأخر فابتعدت عن البلدة على الطريق المعد للماعز والذى ينتهى الى التلال . وحين بدأت فى تسلق الصخور بدأت تشعر ببرودة الهواء داخلها . هنا لا وجود لبشر فالرعاة ما زالوا نائمين فى أكواخهم بجوار الحظائر . وهذه المرة الأولى التى تدخل فيها « لالا » منطقة التلال دون ان تسمع صفيرهم الحاد . فذعرت لذلك قليلا . كما لو أن الرياح قد أحالت الأرض الى صحراء . ولكن ضوء الشمس ظهر شيئا فشيئا من الناحية الأخرى للتلال . نقطة حمراء وصفراء امتزجت باللون الرمادى لليل . فرحت « لالا » لمرآها وقد عرفت الآن إلى أين ستذهب فيما بعد إلى المكان الذى فيه السماء والأرض ستمتلئان بخيوط النور الأولى .

اختلطت الأفكار فى رأسها اثناء السير فوق الصخور ذلك لأنها تعلم أنها لن تعود الى البلدة وانها لن ترى ما تحب هناك من سهل فسيح مجدب والشاطىء الأبيض الواسع حيث تسقط فيه الأمواج الواحدة اثر الأخرى . إنها حزينة لأنها تفكر فى الكثبان الثابتة التى اعتادت الجلوس عليها لتشاهد السحب تتقدم فى السماء . إنها لن ترى الطائر الأبيض الذى كان أميرا للبحر ولا طيف « نعمان » وهو جالس فى ظل شجرة التين بالقرب من قاربه المقلوب . وعندئذ أبطأت فى سيرها وأحست برغبة فى النظر الى الوراء . ولكن كانت أمامها التلال الصامتة والصخور الناتئة حيث يبدأ النور الخفيف الذى تحمله الرياح معها .

لقد سارت دون أن تلتفت وقد ضمت إلى صدرها اللفافة التى تحوى الخبز والتمر . وحين انتهى الممر الضيق . فهذا يعنى انه لا يوجد بشر فى هذه الناحية . بدا الحصى الحاد يخرج من الأرض فيجب القفز من صخرة إلى أخرى لتصعد حتى أعلى التل . فهنا ينتظرها « الحارتانى » ولكنها لم تشاهده بعد . فربما يكون

fb/mashro3pdf

مختفيا فى مغارة بالقرب من الحاجز الصخرى ومن المكان الذى منه يستطيع ان يرقب كل الوادى حتى البحر . أو أن يكون قريبا جدا خلف شجرة محترقة غاطسا حتى رقبته فى حفرة من صخر كالثعبان .

إنه دائما فى موقع الحراسة كالكلاب المتوحشة مستعد للقفز أو للهرب . ربما كان اليوم لا يريد مغادرة المكان . ومع ذلك فقد قالت له « لالا » بالأمس بأنها ستحضر وقد عينت له المكان البعيد والحاجز الطباشيرى والذى يظهر كأنه يحمل السماء هنا حيث تبدأ الصحراء لقد برقت عيناه بقوة ذلك لأن هذه الفكرة عنده منذ أن كان صغيرا ولم يتوقف قط عن التفكير فيها لحظة واحدة. وهذا واضح فى الطريقة التى ينظر بها للأفق بعينيه الثابتتين فى وجهه المشدود. إنه لايجلس مطلقا فهو يظل واقفا على كعبيه ليقفز . فهو الذى أرشد « لالا » على طريق الصحراء . الطريق الذى يضل فيه الانسان والذى لا يرجع منه المرء أبدا . والسماء هناك صافية جدا وجميلة جدا .

لقد أشرقت الشمس الآن . فقد ظهرت كقرص كبير من نار أمام « لالا » يأخذ بالابصار إنها تصعد بطيئة وهى تنتفخ فوق هذه الفوضى من الصخور التى لم تظهر بهذا الجمال من قبل . وبرغم الألم والدموع التى تنساب من عينيها وتسيل على صدغيها فإن « لالا » نظرت اليها مجابهة دون أن تطرف وكما قال العجوز « نعمان » هذا ما يصبغه أمراء البحر لقد نفذ النور إلى أعماقها ولمس كل ما هو مختف فى جسدها وخاصة القلب .

والآن ولم يعدهنا أى أثر على أى ممر فعلى « لالا » أن تبحث عن طريقها خلال الصخور فكانت تقفز من صخرة إلى أخرى من فوق المجارى المائية الجافة وتدور حول حوائط الحاجز البحرى . والشمس التى أشرقت الآن قد كونت نقطة بيضاء كبيرة على حدقتيها . وعلى هذا كانت تتقدم حيثما اتفق مائلة بجسمها الى

fb/mashro3pdf

الأمام حتى لا تسقط فقد عبرت التلال تلو التلال ثم سارت وسط حقل واسع من الصخور لم تصادف بشرا وعلى أقصى ما تصل رؤيتها لم تجد سوى المساحات الشاسعة من الصخور الجافة وبعض تجمعات النباتات كالصبار . فهى الشمس التى أجدبت الأرض فقد أحرقتها واستهلكتها حتى لم يبق سوى هذه الصخور البيضاء والأعشاب الجافة . لم تواجه « لالا » الشمس الآن فقد بلغت أقصى السماء وستحترق حدقتاها فى ثانية لو أنها فعلت مثل الصاعقة . إن السماء مشتعلة زرقاء ولكنها تحرق كلهب كبير ويجب على « لالا » تضيق عليها جدا حتى تنظر أمامها وبقدر ما تعلو الشمس فى السماء تظهر الأشياء على أرض منتفخة ومتشعبة بالضوء . إن السكون شامل فلا ضوضاء البته ولكن تسمع فى بعض الأحيان فرقعة بعض الحصى الذى يتمدد .

لقد سارت مدة طويلة ولكن كم من الوقت مضى عليها ؟ إنها ساعات دون شك ولكن لا تعرف إلى أين تذهب ولكنها كانت فى بساطة تسير فى الاتجاه العكسى لظلها ناحية الطرف الآخر من الأفق . وهناك توجد الجبال الحمراء العالية التى تبدو وكأنها معلقة فى السماء كما توجد قرى وربما نهير وبحيرات ذات ماء فى لون السماء .

وفجأة ودون أن تعرف من أين أتى ظهر « الحارتانى » واقفا أمامها . إنه يتحرك ويرتدى كعادته دائما رداءه الوبرى وعلى رأسه قطعة قماش بيضاء ووجهه أسود غير أن الابتسامة أضاءته حين أبصر « لالا » تقترب منه .

« آه حارتانى ... آه حارتانى » والتصقت به الفتاة وقد عرفت رائحة عرق من ثيابه المعفرة لقد أحضر هو أيضا بعضا من الخبز والتمر فى قطعة قماش مبتلة ومعلقة فى حزامه .

fb/mashro3pdf

فتحت « لالا » لفافتها واقتسمت معه قليلا من الخبز . فأكلا فى سرعة دون أن يجلسا لأنه قد مضى عليهما وقت طويل وهما جوعى . نظر الراعى الشاب حوله وقد فحصت عيناه جميع أركان المكان وقد كان كالطير الجارح الذى لا يطرف له جفن ثم اشار الى بقعة بعيدة فى الأفق من ناحية الجبال الحمراء وقد وضع راحته على شفتيه ليقول إن هناك ماء . وبدا سيرهما « الحارتانى » فى المقدمة وكان يقفز فوق الصخور . وقد حاولت « لالا » ان تضع قدميها على آثار اقدامه . وكانت تشاهد دائما أمامها طيفه خفيفا وكان كأنه يرقص فوق الصخور البيضاء . إنها تنظر اليه كأنه لهب وكأن قدميها تسيرها من تلقاء نفسها حسب وقع أقدام « الحارتانى » .

إن الشمس قاسية الآن فكانت تضغط على رأسها وأكتافها وقد آلمتها داخل جسدها وكان الضوء الذى نفذ الى داخلها فى الصباح قد بدأ الاحتراق والفيضان . وقد شعرت بموجات طويلة مؤلمة تصعد فى ساقيها وذراعيها وتسكن فى تجويف رأسها، إن حريق الضوء جاف كالمسحوق فلم يكن بها نقطة من عرق وكان ثوبها الأزرق يحتك ببطنها وفخذيها محدثا تيارا كهربيا . لقد جفت الدموع فى مآقيها وتبلورت طبقات الملح على هيئة حبات من الرمل فى ركن جفنيها . لقد جف فمها وتيبس فمرت بأصابعها فوق شفتيها حتى لقد ظنت أن فمها سيصبح شبيها بفم الإبل . وانها ستستطيع قريبا أن تأكل الصبار والنباتات الشوكية دون أن تشعر بشيء .

استمر « الحارتانى » فى قفزه فوق الصخور دون أن يلتفت إلى الوراء وقد ابتعد طيفه الأبيض فكان كحيوان يهرب دون أن يلتفت . ان ظله الأبيض الرشيق أصبح أبعد وكان كحيوان هارب لا يتوقف ولا يلتفت . ودت « لالا » اللحاق به ولكن لم تعد عندها القوة وكانت تترنح بين الصخور المتناثرة وعلى غير وعى ناظرة أمامها . وقد دميت قدماها وقد جرحت ركبتاها عندما سقطت . ولكنها كانت

fb/mashro3pdf

لا تشعر بالألم غير أنها لم تشعر إلا بوطأة الضوء المتحرك من جميع الجهات فكان ذلك أشبه باعداد هائلة من الحيوانات نقفز من حولها على الصخور كالكلاب المتوحشة والخيول والجرذان والماعز التى تقفز قفزات واسعة . كما يوجد أيضا طيور بيضاء تضرب بأجنحتها الهواء كأنها تريد التحليق وقد بدأت فى رقصة لا نهاية لها نقد أحست « لالّا » بخفيف أجنحتها فى شعرها . وعلى هذا أدارت رأسها ونظرت الى الخلف لترى كل هذه الطيور وكل هذه الحيوانات وحتى الأسود التى شاهدتها من طرف عينيها . ولكن أمعنت النظر فيها . ذابت كلها فى الحال واختفت كالسراب لتتشكل مرة أخرى .

لقد أصبح « الحارتانى » يرى فى صعوبة وكان خياله الرشيق يتراقص فوق الحصى الأبيض كخيال انفصل عن الأرض . فلم تعد تحاول الفتاة متابعته الآن . فهى لم تعد ترى حتى الجبال الحمراء الثابتة فى السماء فى الطرف الآخر من السهل . ربما لم تكن تتقدم فقد انغرست قدماها العاريتان فوق الحصى . وجرحت وانزلقت فى الحفر . وكأن الطريق يتحلل بلا انقطاع خلفها وكان ماء النهر ينساب من بين ساقيها . إن الضوء الذى يمر الآن . إنه يهبط فوق السهل الكبير الخالى . فيمر مع الهواء ويكنس الفضاء . وصار للضوء صوت كصوت الماء وقد سمعت « لالّا » صوته دون أن تستطيع الشرب . ان الضوء يأتى من وسط السماء ويحرق كل ما على الأرض من جبس وأحجار بركانية . ومن وقت لآخر وفى وسط التراب وبين الحصى الأبيض توجد صخرة من نار ولونها كاللهب حادة كالناب . لقد سارت « لالّا » وهى تحدق النظر فى الشرر كما لو أن هناك كتلة من حجر بركانى تشبه الذهب . تشبه انعكاس ضيائه على عش الحشرات حتى انه خيل للفتاة انها قد سمعت طنينها ولكن فى بعض الأحيان وفوق الأرض المتربة توجد حصاة مستديرة رماديه خاصة من حصى البحر الأملس فتنظر اليها « لالّا » بكل قواها وتأخذها وتضمها لكى تنقذ نفسها . إن الحصاة حارقة وبها خطوط بيضاء وهى ترسم طريقا فى وسطها حيث تتجزأ إلى طرق كثيرة ودقيقة كشعر الأطفال . وحين

fb/mashro3pdf

احتوتها فى قبضتها مشت « لالّا » الى الأمام قُدما . وكانت الشمس قد نزلت ناحية الطرف الآخر من السهل الأبيض . وقد أثارت ريح المساء للحظات بعض دوامات من التراب حتى أخفت الجبل الأحمر الكبير على سفح السماء وصاحت « لالّا » « حارتانى ... حارتانى » ثم سقطت على ركبتيها فوق الحصى لأن ساقيها لم تَقْوَ على السير وكانت السماء من فوقها خالية واكثر اتساعا وخلوا . ولم يكن هناك صدى لأى صوت .

كان كل شيء هادئا واضحا ونقيا حتى لقد استطاعت الفتاة رؤية أصغر الشجيرات وامتد ذلك حتى الأفق . لا أحد يتحرك فقد رغبت فى رؤية الزنابير . وأحبت أن تراها وهى تعمل العقد الخفية فى الهواء حول شعور الأطفال . كما أرادت أن ترى طائرا حتى ولو كان غرابا وحتى لو كان عقّابا ولكن لا وجود لشيء أو لبشر . ليس هناك سوى ظلها الأسود الممدد خلفها كحفرة فى أرض بيضاء ناصعة . فرقدت على الأرض وظنت أنها ستموت عما قريب وذلك لأن قواها قد خارت وأن نار الضوء تحرق رئتيها وقلبها . وفى بطء تضاءل الضوء وتغطت السماء بغلاف . ولكن ربما ما كان بها من ضعف هو الذى أطفأ الشمس .

وفجأة حضر « الحارتانى » من جديد ووقف أمامها على رِجْلٍ واحدة وفى توازن كالطير . قَدِم اليها ومال بجسمه نحوها . فأمسكت به الفتاة من ثوبه الوبرى وضغطت بكل قوتها على القماش ولم تشأ أن تتركه حتى كادت أن توقعه . أما هو فقد انحنى ناحيتها ووجهه داكن ولكن برقت عيناه فى شدة فى تعبير وفير وتحسس وجهها وجبهتها ثم عينيها كما مر بأصابعه على شفتيها المشققتين . ثم أشار إلى بقعة فوق السهل الصخرى فى اتجاه غروب الشمس . فهناك حيث توجد شجرة بالقرب من صخرة : الماء أهو قريب أم بعيد ؟ . كان الهواء نقيا جدا لدرجة لا تسمح بمعرفة ذلك . بذلت الفتاة جهدا لكى ترفع نفسها ولكن جسدها لم يطعها .

fb/mashro3pdf

« حارتانى » لا قدرة لى على ذلك « تمتمت « لالّا » مشيرة الى ساقيها الجريحتين اللتين انثنتا تحتها . « إذهب أنت واتركنى ... إذهب انت » . تردد الراعى قليلا وما زال جاثيا بالقرب منها . ترى أيذهب ؟ نظرت اليه « لالّا » دون أن تتكلم فقد كانت ترغب فى النوم او تختفى . ولكن « الحارتانى » لف ذراعيه حول جسمها ثم رفعها فى بطء . لقد شعرت الفتاة بارتعاش عضلات ساقى الشاب بسبب ثقلها والمجهود الذى بذله . فطوقت رقبته بذراعيها وحاولت أن تمزج وزنها بوزنه .

سار (الحارتانى) فوق الحصى وهو يقفز فى سرعة فوق الصخور كانه وحده وقد جرى بساقيه الطويلتين المرتعشتين وعبر المجرى والحفر . لقد أوقفت الشمس والريح المتربة هبوبها فوق السهل الصخرى . ولكن بقيت حركات بطيئة آتية من الأفق الأحمر والتى ترسل شرارها فوق الأحجار الصغيرة وكأنه قمع كبير ملىء بالنور . هنا حيث تسقط الشمس نحو الأرض . لقد استمعت « لالّا » لضربات قلب الفتى والتى تدق فى شرايين رقبته كما استمعت الى تنفسه المتقطع .

وقبل المساء وصلا عند الحجر والشجرة حيث عين الماء . إنها حفرة بسيطة بين الحصى وضع الحارتانى الفتاة فى رفق على حافة الماء ثم أعطاها لتشرب فى راحتيه . كان الماء باردا به بعض المرارة ثم انحنى الراعى وشرب بدوره طويلا ورأسه الى جوار الماء .

لقد انتظرا الليل فهو يحل سريعا فى هذه المنطقة وكأنه ستار يسدل دون دخان ودون سحب ودون مناظر . إنه لا يوجد به بالكاد هواء أو ماء ولكن يوجد ضياء الشمس الذى تطفئه الجبال .

رقدت الفتاة على الأرض مستندة الى « حارتانى » ولم تتحرك . فقد تمزقت

fb/mashro3pdf

ساقاها وتجمد الدم فى قدميها مكونا طبقة كأنها نعل أسود تحت قدميها . وفى بعض الأحيان تسرى آلام من قدميها عبر العظام والعضلات حتى الحوض . إنها تئن قليلا ولكنها تصطك بأسنانها حتى لا تصرخ وتعصر فى عنف بيديها ذراعى الشاب . أما هو فلا ينظر اليها وإنما ينظر أمامه نحو الأفق ناحية الجبال السوداء أو ناحية سماء الليل الفسيحة . لقد امتقع وجهه فصار داكنا جدا بسبب الظل . ترى أيفكر فى شيء ؟ تود « لالا » لو أنها نفذت إلى سويدائه لتعرف ما عساه يريد أو إلى أين يذهب ... ؟ فهى تتكلم من أجلها أكثر من أن تتكلم من أجله . فهى تتحدث والشاب يصغى على طريقة الكلاب التى ترفع الرأس وتتابع مقاطع الكلمات .

لقد حدثته عن الرجل ذى الزى الكامل الرمادى الأخضر وعن عينيه القاسيتين السوداوين واللتين تشبهان المعدن . كما حدثته عن الليلة التى قضتها الى جوار « نعمان العجوز » حين هبت ريح الشقاء على البلدة . « والآن انك من اخترت لتكون زوجا لى ولا أحد غيرك يستطيع أن يخطفنى ويحملنى بالقوة أمام القاضى ليزوجنا ... الآن سنعيش معا وسيكون لنا طفل . لا أحد غيرك يريد أن يتزوجنى أفهمت ياحارتانى وحتى لو لحقوا بنا وأمسكونا فسأقول انك زوجى وأننا سوف نرزق طفلا وبهذا لن يستطيعوا أن يحولوا دون ذلك وسيتركوننا نرحل ويمكننا أن نعيش فى اقليم الجنوب بعيدا فى الصحراء .

لم تعد الفتاة تحس تعبا ولا ألما ولكنها شعرت بنشوى الحرية بين هذه الحقول الصخرية وفى هدأة الليل . فقد ضمت اليها فى قوة جسد الشاب حتى امتزجت واختلطت رائحتهما وأنفاسهما تماما . وفى رقة نفذ اليها الشاب وامتلكها وقد استمعت صوت قلبه اللاهث على صدرها .

أدارت الفتاة وجهها ناحية قلب السماء ورمقتها بكل قوتها . الليل بارد

fb/mashro3pdf

وجميل وقد لفهما وضمهما فى زرقته العميقة . لم تر الفتاة ليلة تماثلها جمالا . هناك فى البلدة أو على شواطىء البحر فقد كان يوجد شىء ما يفصل الليل كبخار مثلا أو تراب . لقد كان يوجد دائما ستار يحجب دائما ذلك لأن الناس كانوا هناك حولهم بنيرانهم وأطعمتهم وأنفاسهم . ولكن هنا ... فكان شىء نقيا وحارتانى يرقد الآن إلى جوارها فيصيبهما دوار كبير يمر فيهما ويوسع من حدقتيهما .

إن وجه الشاب مشدود كما أن لون جلد جبهته وجلد صدغيه صار كقطعة حجر أملس وفى بطء من فوقهما عَمُر الفضاء بالنجوم وبالآلاف منها لقد بَعَثَتْ بلألائها البيضاء ورسمت وجها هو وجهها . راقبها الهاربان وقد حبسا انفاسهما وفتحا أعينهما بأقصى ما يستطيعان . لقد شعرا على وجهيهما رسم مجموعات الكواكب وكأنهما غير كائنين إلا بنظراتهما فقط أو كأنهما يشربان سويا نور الليل الهادىء . لم يعودا يفكران فى شىء لا فى طريق الصحراء ولا فى عذاب الغد ولا الأيام الأخرى . لم يعودا يشعران بجراحهما ولا بالعطش وبالجوع ولا بشىء مطلقا على سطح الأرض . فقد نسيا تماما كل شىء حتى حرارة الشمس المحرقة وما احدثته فيهما مع صبغ بشرتهما وجسديهما بالسواد وأنها التهمت داخل عيونهما . لقد سقطت عليهما اضواء الكواكب فى عذوبة كالمطر ولم تحدث صوتا ولم تثر ترابا ولا اهاجت رياحا . إنها تضىء الآن حقل الصخور . وبالقرب من فتحة البئر صارت الشجرة المتفحمة خفيفة وضعيفة كالدخان . ولم تصبح الأرض مستوية بل صارت ممتدة كمقدمة سفينة تتقدم فى هدوء وتنزلق صاعدة هابطة وتسير فى بطء وسط النجوم الجميلة فى حين أن الطفلين ملتصقين بجسديهما الرشيقين يرشفان الحب .

وفى كل لحظة يلمع نجم جديد ضئيل لا يكاد يرى وسط هذا الظلام وتتشابك خيوط نوره مع غيرها من خيوط وهناك غابة من الأنوار : رمادى ـــ

fb/mashro3pdf

أحمر وأبيض تمتزج بزرقة الليل العميقة وتتجمد كفقاعات .

وأخيرا وحين كان « الحارتانى » نائما فى هدوء ووجهه مستندا على « لالّا » نظرت الفتاة كل هذه العلامات وكل هذه الأنوار منها ما يصطدم أو يرتعش أو يظل دون حراك وكأنها عيون وفى أعلى وفوقها بالتحديد يوجد الطريق الأبيض الشاهى الطريق التى رسمتها دماء حَمَل « جبريل » كما تحدث عنه نعمان العجوز .

لقد شربت الفتاة النور الباهت الذى يأتى من تجمعات النجوم وفجأة خيل اليها أنها قريبة جدا كما جاء فى الأغنية التى كانت « لالا حواء » تترنم بها حتى لقد كان يكفيها أن تمديدها لتنال قبضته من هذا النور المتلألىء . ولكنها لم تتحرك وكانت يدها مستندة على رقبة « الحارتانى » تستمع الى سريان الدماء فى عروقه وسير تنفسه الهادىء . لقد أطفأ الليل حمى لهيب الشمس والجفاف . وقد هدأ العطش والجوع والفزع بفضل نور مجموعة الكواكب الشمسية وعلى جلدها يوجد مثل قطرات وهى علامة لكل نجم فى السماء .

الآن لم يعد الطفلان يريان الأرض فقد التصق الواحد منهما بالآخر مسافرين فى قلب السماء .

fb/mashro3pdf

كان كل يوم يضيف أرضا جديدة . لقد قسمت القافلة الى ثلاثة صفوف بين كل صف وآخر مسافة ساعتين او ثلاث ساعات سير . الصف الأول وعلى رأسه « لارهداف » وكان فى المسيرة بالقرب من سلسلة جبال « هاوا » فى اتجاه سيدى الهاج . أما الصف الثانى وعلى رأسه « سعدبو » الابن الثانى للشيخ الكبير فى أقصى الميمنة صاعدا الى السرير الجاف « لجانج ساكوم » فى وسط وادى « الساقية الحمراء » . وفى الوسط بينهما وفى المؤخرة يتقدم « ماء العينين » بمحاربيه يركبون الإبل ومن بعدهم قافلة الرجال والنساء والأطفال يدفعون أمامهم دوابهم والذين يتبعون السحابة الكبرى من الأتربة الحمراء والتى تتصاعد من أمامهم الى السماء .

فى كل يوم يمشون فى قلب الوادى الكبير فى حين أن الشمس من فوقهم تسير فى الاتجاه العكسى . ان ذلك فى نهاية الشقاء وحتى الأمطار لم تستطع بعد تهدئة حرارة الأرض . فقلب ولدى « الساقية الحمراء » مُقَددٌ وصلب كالجلد القديم وحتى لونه الأحمر يحرق العينين وجلد الوجه .

fb/mashro3pdf

ففى الصباح وقبل شروق الشمس يتجاوب الفضاء بالنداء للصلاة الأولى (صلاة الفجر) ومن بعد ذلك تسمع أصوات الدواب ويملأ دخان المواقد الوادى . وعلى مبعدة تسمع ترنيمات صلاة جنود « لارهداف » يرد عليها جنود « سعديو » ولكن رجال الشيخ ذوى الملابس الزرقاء فإنهم يصلون فى صمت . وحين تصعد الأتربة الحمراء الأولى فى الجو يبدأ حراس القطعان فى السير وكل يستعيد حمله ويبدأ فى السير على أرض لا تزال رطبة وباردة . وفى بطء يظهر النور فى الأفق فوق هضبة « الحمادا » ويبدأ القوم فى مراقبة قرص الشمس الآخذ فى الازدهار والذى يضيء الوادى . كما أنهم يغمضون أعينهم قليلا ويحنون رؤوسهم كما لو كانوا يريدون النضال ضد ثقل وألم الضياء على جباههم واكتافهم .

وفى بعض الأحيان كانت تقترب قوات « لارهداف » من قوات « سعديو » حتى كانت تسمع وقع حوافر الخيل وزمجرة الإبل كما كانت تتحد سحب التراب الثلاثة فى السماء فتحجب الشمس أو تكاد .

وحين تصل الشمس الى السمت تهب الرياح وتجتاح الفضاء طاردة حوائط من التراب الأحمر فيوقف الرجال قطعانهم فى نصف دائرة يخيمون خلف الإبل الباركة على الأرض أو خلف شجيرات الأشواك . وتبدو الأرض فسيحة كالسماء وخالية ومضيئة .

وخلف جنود الشيخ الكبير يسير « نور » حاملا قوته فى

fb/mashro3pdf

لفة من القماش معقودة على صدره وفى كل يوم منذ طلوع الفجر حتى الغروب كان يسير على آثار أقدام الناس وحوافر الخيل دون أن يعرف الى أين . بل ودون أن يرى والده وأمه وأخواته . لقد كان يراهم فى بعض الأحيان فى المساء حين يوقد المسافرون نيرانهم لعمل الشاى أو الحساء . انه لا يتكلم مع أحد كما أن أحدا لا يحدثه . فقد كان كمن أحرق التعب والجفاف الكلمات فى حلقه .

وحين يجن الليل وتحفر الدواب حفرا لتنام يستطيع « نور » أن يرى ما حوله يرى الوادى الفسيح الخالى من الناس . وعندما كان يبتعد قليلا عن المعسكر ويظل واقفا فوق السهل الجاف كان يداخله احساس بأنه طويل كشجرة ويبدو له الوادى بأنه لا نهاية له ولا حدود . فهى مساحات لا نهاية لها من الصخور ومن الرمل الأحمر لم يتغير منذ بدء الزمان وبين الفينة والفينة كانت هناك هياكل لأشجار مُتَكَلِّسة من الصبار ومن النخيل القزم . هناك حيث تضع الرطوبة فى الوادى نقطا سوداء . وفى ظلال الليل تأخذ الأرض شكل الأملاح المعدنية . انتظر « نور » واقفا وبلا حراك أن يعم الظلام الوادى . ببطء مثل ماء لا تمسك به .

بعد ذلك جاء بعض البدو الرحل وانضموا الى جنود « ماء العينين » . لقد تفاوضوا مع رؤساء القبائل ليسألوا إلى أين يذهبون وتبعوا نفس الطريق . إنهم بضعة آلاف الآن الذين يمشون فى الوادى نحو آبار « الهوسا » و « الفونات » و « يورف » .

fb/mashro3pdf

إن نور لا يدرى منذ كم من الأيام بدأ الرحيل . فربما يكون يوما لا نهاية له قد مر بهم فى حين أن الشمس تشرق وتغرب فى السماء الملتهبة وأن سحابة التراب تدور حول نفسها وتكتسح كالموج .

كان الرجال ابناء « ماء العينين » بعيدين فى المقدمة وكان لابد انهم وصلوا الى قلب « الساقية الحمراء » حيث مقبرة « رايم محمد مبارك » . هناك حيث ينفتح الوادى القمرى « مصور » فى هضبة « الحمادا » وربما تكون قد تسلقت الآن سفوح التلال الصخرية وقد رأوا خلفها الوادى الكبير « للساقية الحمراء » حيث تموج سحب من الناس والقطعان الخاصة بماء العينين .

هنا أبطأ الرجال والنساء فى سيرهم فى الصف الأخير . وكان « نور » من وقت لآحر يقف لينظر المجموعة التى فيها أمه وشقيقاته . كان يجلس على الصخور الملتهبة مغطيا رأسه بطرف معطفه ويشاهد القطيع الذى يتقدم فى بطء على الطريق .

إن المحاربين المشاة يسيرون منحنين الى الأمام تطحنهم أحمالهم التى يحملونها على أكتافهم . بعضهم كان يتكىء على بنادقهم الطويلة أو على حرابهم . وجوههم سوداء ومن خلال وقع اقدامهم على الرمال كان يستمع « نور » لانفاسهم المتقطعة واللاهثة من الألم .

fb/mashro3pdf

وإلى الخلف كان الأطفال والرعاة الذين يلاحقون القطعان من الخراف والماعز ويهشونها امامهم وذلك بحصبهم بالحجارة . إن دوامات التراب تلفهم وكأنها ضباب أحمر . ويتطلع « نور » الى هياكلهم العجيبة وكأنها ترقص فى التراب . إن النساء يمشين الى جانب الإبل وبعضهن يحملن أطفالهن داخل معاطفهن سائرات ببطء عاريات الأقدام فوق الأرض الملتهبة . إن « نور » يسمع جيدا أصوات عقودهن الذهبية أو النحاسية وخلاخيلهن فهن يسرن مترنمات بأغنية لا تنتهى ولكنها حزينة وتماوج ذهابا وإيابا كالرياح .

وفى نهاية المؤخرة يأتى الذين لا يستطيعون السير . المسنون والأطفال والجرحى ثم الشابات اللاتى مات ازواجهن وذويهن من الرجال ولم يعد لهن من يساعدهن على العثور على الطعام أو الشراب . انهم كثيرون فى العدد ومتناثرون على طول الطريق فى وادى « الساقية » ويستمرون فى الحضور لعدة ساعات بعد أن مر جنود الشيخ . هؤلاء هم من يتطلع اليهم « نور » فى اشفاق .

انه يراهم يسيرون فى بطء رافعين فى مشقة أرجلهم التى اثقلها التعب . ووجوههم النحيلة الداكنة الرمادية وبريق الحمى فى عيونهم . شفاههم دامية وعلى أيديهم وصدورهم آثار الجراح حيث امتزجت الماء المتجلطة بلون التراب الأصفر . إن الشمس تتسلط عليهم كما تتسلط على صخور الطريق الحمراء . وكان ينالهم ضربات خفيفة منها . ليس للنساء أحذية بأقدامهن العارية تحرقها الرمال وتأكلها الاملاح ، ولكن الذى هو أقسى فى

fb/mashro3pdf

آلامهم وما يولد القلق والشفقة هو صمتهم التام . فلا أحد منهم ينطق بكلمة أو يتغنى . لا أحد يبكى أو يتأوه . فكلهم من رجال ونساء وأطفال يتقدمون فى صمت وقد دميت أقدامهم وكأنهم مهزومون لا ينطقون ببنت شفه . فلا يسمع سوى وقع أقدامهم على الرمال وحشرجة تنفسهم . ثم يبتعدون فى بطء يقلبون أحمالهم على كواهلهم يشبهون فى ذلك بعض الحشرات العجيبة بعد العاصفة .

بقى « نور » على حافة الطريق واقفا وحمله الى جوار قدميه . ومن وقت لآخر حين تقترب منه إمرأة عجوز أو جندى جريح فإنه يحاول محادثتهم بعد أن يقترب منهم قائلا :

« السلام عليكم . ألست متعبا جدا ؟ أتريد أن أساعدك فى حمل ما تحمل ؟ » ولكنهم يظلون فى صمتهم وحتى لا يلتفتون اليه . وجوههم صارمة كالصخر فى الوادى ويعتصرهم الألم والضوء .

لقد وصلت فصيلة من رجال الصحراء ومن محاربى « شنجى » بمعاطفهم الفضفاضة الزرقاء الفاتحة المهلهلة . وقد عصبوا سيقانهم وأرجلهم بأربطة عليها آثار دماء . إنهم لا يحملون شيئا ولا حتى زكيبة أرز ولا قدر ماء . لا يملكون سوى بنادقهم وحرابهم . أنهم يسيرون بطريقة مؤلمة كالعجائز والأطفال .

أحدهم كان كفيف البصر ويسير معتمدا على الآخرين .

fb/mashro3pdf

وذلك بأن يمسك بطرف المعطف يتخبط فوق الصخور ويتعثر فى جذوع الأشجار القصيرة .

وحين مر بجوار « نور » استمع الى صوت الشاب الذى يحييهم فقد ترك ثوب رفيقه وتوقف عن السير قائلا :

« ترى هل وصلنا ؟ » أما الآخرون فقد واصلوا سيرهم دون أن يلتفتوا . كان لهذا المحارب الصحراوى وجه ما زال شابا ولكن أضناه التعب وقطعه من قماش قذر قد حجبت عينيه المحترقتين .

أعطاه « نور » ماء ليشرب ثم وضع حمل الرجل على كتفيه ثم وضع يد المحارب على معطفه وقال « تعالى فسوف أقودك الآن » .

ثم بدأ الإثنان السير على الطريق وأمام سحابة التراب الأحمر نحو نهاية الوادى . لم يتكلم الرجل وبقيت يده ممسكة بكتف « نور » كان يقبض فى شدة حتى آلم « نور » . وفى المساء حين توقفوا عند بئر « يورف » كان الشاب خائر القوى . إنهم الآن عند سفح الحاجز الصخرى الأحمر حيث تبدأ مصاطب « هوا » والوادى الذى يتجه الى الشمال .

هنا تجمعت كل القوافل : قوافل « لارهداف » و « سعدبو » ورجال الشيخ ذوى الملابس الزرقاء . وفى نور الشفق شاهد « نور » آلاف الرجال جالسين على الأرض الجافة

fb/mashro3pdf

حول البقعة السوداء للبئر . وقد تساقط الغبار الأحمر شيئا فشيئا وتصاعد دخان المواقد فى السماء .

وحين استراح « نور » جمع حمله دون أن يربطه الى صدره وأخذ بيد المحارب الأعمى وسارا حتى البئر . لقد شرب الجميع من قبل . الرجال والنساء على الناحية الشرقية من البئر . أما الحيوانات فإلى جهة الغرب من البئر . لقد تعكرت المياه واختلطت بالطين الأحمر الموجود بالحافتين ومع كل هذا فقد وجدها الرجال أجمل ماء . وتلمع السماء الصافية والتى لا سحب فيها على سطحها الأسود فتبدو كمرآة من المعدن .

مال « نور » نحو الماء وقد شرب جرعات طويلة دون أن يسترد أنفاسه . وركع المحارب الأعمى على ركبتيه على حافة البئر وشرب فى شراهة دون أن يأخذ الماء فى كفيه وحين ارتوى جلس على حافة البئر . بوجهه الأسمر ينساب الماء من لحيته .

ثم رجعا بعد ذلك الى الوراء ناحية المجاميع والقطعان . وكان هذا تنفيذا لأوامر الشيخ الكبير التى لا يجب أن يبقى أى فرد قرب البئر حتى لا يعكر الماء .

إن الليل يحل سريعا بالقرب من هضبة « الحمادا » . لقد نفذ الظل الى أعماق الوادى تاركا قمم الصخور الحمراء فى لهب الشمس .

بحث « نور » عن والده ووالدته لفترة ولكنه لم يجدهما. فربما

fb/mashro3pdf

رحلا نحو مدخل الطريق الى الشمال مع جنود « لارهداف » اختار « نور » المكان الذى سيقضى فيه الليل بالقرب من القطعان . فقد وضع حمله ثم اقتسم مع المحارب الأعمى قطعة من الخبز وبعض التمرات . أكل الرجل فى سرعة ثم تمدد على الأرض واضعا يديه تحت رأسه . عندئذ تكلم معه « نور » ليعلم منه عمن يكون . فقص عليه الرجل فى بطء شديد وفى صوت مبحوح من كثرة ما ظل صامتا كل ما حدث هناك بعيدا جدا فى « شنجتى » بجوار بحيرة «سنشاق» المالحة وكيف ان الجنود المسيحيين هاجموا القوافل وكيف أنهم أحرقوا القرى واختطفوا الأطفال الى معسكراتهم . فعندما جاء الجنود المسيحيون من الغرب من شواطىء البحر أو من الجنوب جاء محاربون يرتدون ملابس بيضاء ويركبون الإبل ومعهم رجال من النيجر . واضطر رجال الصحراء أن يهربوا الى الشمال . وفى غمار المعركة أصيب برصاصة من بندقية وفقد على اثرها البصر . فنقله رفاقه نحو الشمال الى المدينة المقدسة « سماره » لأنهم قالوا . إن الشيخ الكبير يشفى كل الجراح التى أحدثها الجنود المسيحيون . وإن لديه المقدرة لإعادة البصر . وأثناء حديثه سال الدمع من جفنيه المغلقتين ذلك لأنه تذكر الآن ما فقده .

« أتعرف أين نحن الآن ؟ » بهذا كان يسأل دائما « نور » لأنه كان يخشى دائما أن يترك فى الصحراء « أتعرف أين نحن الآن » ؟

« ترى هل نحن بعيدون عن المكان الذى يجب أن نتوقف

fb/mashro3pdf

فيه » ؟ قال « نور » كلا فسوف نصل عما قريب للأراضى التى وعد بها الشيخ . وهناك لن ينقصنا شى فستكون هناك مملكة الله .. »

ولكن فهو لا يعرف عن ذلك شيئا ولكنه فى أعماقه يعتقد أنهم لن يصلوا مطلقا الى هذا الاقليم مهما عبروا الصحراء والجبال وحتى البحر . الى المكان الذى تولد فيه الشمس فى الأفق .

استمر المحارب الأعمى فى حديثه الآن ولكنه لم يعد يتحدث عن الحرب . لقد حكى فى صوت خفيض قصة طفولته فى « شنجتى » طريق الملح مع والده واخوته . لقد ذكر أيام تعليمه فى جامع « شنجتى » ثم رحيل القوافل الضخمة خلال الصحراء الشاسعة نحو « الأدرار وأكثر بعدا فى الشرق نحو جبال « هانك » نحو بئر « عبد الملك » . هناك حيث توجد مقبرة المعجزات . لقد تحدث عن هذا فى عذوبة وفى تنغيم ممددا على الأرض مع الليل الذى غطى بالسواد وجهه وعينيه المحترقتين .

رقد « نور » الى جواره ملتفا فى معطفه الصوفى ومسندا رأسه الى حمله ونام وهو مفتوح العينين وناظرا الى السماء ومصغيا الى صوت الرجل الذى يحدث نفسه .

إن ليالى الصحراء باردة ولكن لسان وشفتى « نور » استمرت ملتهبة . وقد خيل اليه أن قطعا محماة قد وضعت على

fb/mashro3pdf

جفنيه . الرياح تمر على الصخور وتهب على الكثبان فتبعث رعدة الحمى فى أسمال الرجال . وفى مكان ما ووسط المحاربين النائمين كان الشيخ العجوز فى معطفه الأبيض يرقب الليل دون أن ينام مثلما فعل ذلك منذ عدة شهور . فنظرته تنفذ الى فوضى النجوم التى تغمر الأرض بنورها . وفى بضع لحظات سار قليلا وسط الناس النيام ثم يعود ليجلس فى مكانه ثم شرب الشاى فى بطء مصغيا الى فرقعة الفحم فى الموقد .

مرت الايام على هذا النحو محرقة ومتعبة فى حين أن القطيع من الناس أو الحيوان صعدوا الوادى ناحية الشمال . لقد تبعوا الآن الطريق الى « تندوف » من خلال هضبة « الحمادا » . إن أبناء « ماء العينين » مع الرجال الأكثر شجاعة على ظهور الخيل يستكشفون طريق الوديان الضيقة لجبال « اواركزيز » ولكنه طريق خشن بالنسبة للنساء والأطفال واختار الشيخ الشرق .

وفى مؤخرة القافلة سار « نور » مع يد المحارب التى تقبض على كتفيه . وفى كل يوم كان حمل الطعام يخف وزنه وكان « نور » يعلم مقدما انه لن يبقى به ما يكفيه حتى نهاية الرحلة .

والآن وقد سارا على الهضبة الكبيرة من الصخور قريبا من السماء . لقد عبرا فى بعض الأحايين الحفرة تلك الجروح السوداء الكبيرة فى الصخرة البيضاء وانهيارات الحصى التى تشبه السكاكين . لقد قبض المحارب الأعمى على كتف

fb/mashro3pdf

« نور » وذراعه حتى لا يسقط لقد أذاب الرجال أحذيتهم المصنوعة من جلد الماعز وكثير منهم قد عصبوا أرجلهم ببقايا ملابسهم حتى يوقفوا الدم الذى سال . لقد سارت النساء بأقدام عارية لأنهن اعتدن ذلك منذ طفولتهن . ولكن فى بعض الأحيان تجرح حصاة حادة جلودهن فيصدر عنهن أنين وهن سائرات .

لم يتحدث المحارب الأعمى مطلقا طوال اليوم . وقد اختفى وجهه الأسمر خلف معطفه الأزرق والعصابة التى تغطى عينيه مثل عرف طير جارح . لقد سار دون ان يشكو ومنذ أن كان « نور » يقوده لم يعد يخشى من الضياع . وفقط حين شعر بحلول المساء وكان رجال « لارهداف » و « سعدبو » بعيدين فى مقدمة الوديان يصيحون بأصواتهم علامة التوقف يسأل المحارب الأعمى بنفس القلق : « هل هنا . هل وصلنا قل لى هل وصلنا الى المكان الذى يجب أن نتوقف فيه إلى الأبد ؟

نظر نور حوله فلم ير سوى المساحات التى لا نهاية لها من الصخور ومن التراب . ان الأرض على عهدها دائما تحت السماء . لقد حط رحاله ثم قال فى بساطة : « كلا ليس بعد المكان » .

وككل مساء يشرب المحارب جرعة ماء ويأكل بعض تمرات وكسرة خبز ثم يتمدد على الأرض ثم يستمر فى الحديث عن أشياء تخص بلده وعن المدينة الكبرى المقدسة « شنجتى » القريبة من بحيرة « شنساق » لقد تحدث عن الواحة ذات الماء

fb/mashro3pdf

الأخضر والتى فيها النخيل العملاق وثمارها فى حلاوة الشهد وظلالها مليئة بالطيور المغردة ويرن فيها ضحكات الفتيات اللائى يذهبن ليملأن الماء . إنه يحكى كل هذا فى صوت منغم وكأنه يهدهد نفسه حتى يخفف من آلامه . فى بعض الأحيان يحضر رفقاؤه ليجلسوا الى جواره ويقتسموا مع « نور » الخبز والتمر او يصنعون الشاى من اعشاب « الشيبا » . إنهم يصغون إلى « مونولوج » المحارب الأعمى ثم يتحدثون هم أيضا عن ديارهم وعن آبار الجنوب مثل « عطار » و « أوجيفت » و « تمشاكات » و « عبد البلدة الكبرى أولاتا » .

إنهم يتحدثون لغة غريبة وعذبة كلغة الصلاة ولون وجوههم النحيلة كلون المعدن وحين تقترب الشمس من الأفق وتلمع الهضبة بالضياء يركعون ليؤدوا فريضة الصلاة وجباههم فى التراب . لقد ساعد « نور » المحارب الأعمى على أن يركع فى اتجاه الشرق ثم ينام ملتفا بمعطفه وقد استمع الى صوت الرجال حتى يغلبه النعاس . بمثل هذا عبروا جبال « اواركزيز » متتبعين بطون المجارى الجافة . وانتشرت القافلة على الهضبة كلها من أولها إلى آخرها فى الافق . وتصعد السحابة الكبرى من الغبار الأحمر كل يوم الى السماء الزرقاء وتميل فى الهواء . إن قطعان الماعز والخراف والإبل تمشى وسط الرجال فتعميهم بترابها . ومن خلفهم على بُعْد يسير العجائز والنساء المريضات والأُطفال المتخلى عنهم والمحاربون الجرحى يمشون وسط آلام الضوء مائلة رؤوسهم يجرون سيقانهم الضعيفة تاركين احيانا قطرات من دماء فوق آثارهم .

fb/mashro3pdf

المرة الأولى التى يشاهد فيها « نور » انسانا يسقط على قارعة الطريق دون صراخ كان يود التوقف ولكن المحاربين ذوى الملابس الزرقاء والذين يمشون معه كانوا يدفعونه إلى الأمام دون أن يتكلموا لأنه لم يعد هناك ما يمكن عمله . الآن لم يتوقف قط . وفى بعض الأوقات يوجد هيكل جسد فى التراب يداه ورجلاه منثنية كأنه نائم . إنه رجل مسن أو امرأة أضناها التعب فأوقفه على ناحية من الطريق كما لو كان ضرب على مؤخرة رأسه بمطرقة وقد جف جسده وسوف تهب الريح لتغمره الرمال ولسوف تغطيه عما قريب دون أن يعنى الانسان بحفر قبر له .

•

لقد تذكر « نور » الآن المرأة العجوز التى قدمت له الشاى هناك فى معسكر « سمارة » فربما تكون هى أيضا التى سقطت يوما ما بضربة من الشمس أو أن رمل الصحراء قد غمرها وأخفاها . إنه لم يفكر فيها طويلا ذلك لأن كل خطوة يخطوها كانت بمثابة الموت لانسان ما قد محت ذكرياته كما لو أن عبور الصحراء يجب أن يحطم كل شىء ويحرق كل شىء فى ذاكرته ويصنع منه فتى آخر . لقد دفعته يد المحارب الأعمى إلى الأمام حين تباطأت ساقاه عن السير بسبب التعب ولربما أن هذه اليد الموضوعة على كتفه هى التى حالت دون سقوطه هو أيضا وذراعاها وساقاه منثنية على حافة الطريق .

دائما أبدا توجد جبال جديدة عند الأفق . تبدو الهضبة الصخرية والرمال لا نهاية لها مثل البحر تماما .

fb/mashro3pdf

وفى كل مساء كان المحارب الأعمى يقول لنور حين يسمع الصياح بالوقوف : « أهو هنا ... ترى هل وصلنا ؟ » ثم يتابع قوله : « قل لى ما الذى تراه ؟ » ولكن « نور » يرد فى بساطة : كلا ليس هنا . فلا غير الصحراء ويجب أن نتابع السير لأبعد من ذلك » .

والآن تملك اليأس من الرجال وحتى من محاربى الصحراء ورجال « ماء العينين » ذوى الملابس الزرقاء الذين لا يقهرون . فقد تعب الجميع وظهر فى نظراتهم عدم الايمان . لقد جلسوا فى مجموعات صغيرة وبنادقهم فوق أيديهم دون أن يتكلموا . وعندما ذهب « نور » ليرى والديه ليسألهم بعض الماء كان صمتهم هو الذى أقلقه وأدخل الرعب فى قلبه فقد كان كل شىء يهددهم بالموت ولم تعد لديهم قوة ليتحابوا .

كانت أكثرية القافلة من النساء والأطفال قد ركعوا على الأرض منتظرين أن تغرب الشمس فى الأفق . فلم تعد لديهم القوة لتأدية الصلاة برغم نداء المؤذن الذى يرن فى جوانب الهضبة . تمدد « نور » على الأرض وقد وضع رأسه على حِمْله الذى يكاد يكون فارغا . وقد رفع نظره الى السماء التى لا آخر لها والتى تغير لونها وقد كان يصغى الى صوت الأعمى مترنما .

لقد كان يخيل اليه فى بعض الأحيان أنه فى حلم مرعب ولا نهاية له . حلم يدع عينيه مفتوحتين ويجره فوق الأرض الملساء الصلبة كأنها حجر مصقول فكأن العذاب عبارة عن رماح ممددة . وأنه يتقدم دون أن يفهم ما يمزقه . لقد كان كمن

fb/mashro3pdf

خرج من جلده وترك جسمه على الأرض الملتهبة . هذا الجسد الذى لا حراك به فوق الصحراء المليئة بالصخور والرمال مثل بقعة أو كومة خرقة بالية ألقيت على الأرض بين الأكوام الأخرى المهملة . وأما روحه فتجتاز وتعلو فى السماء الباردة وسط النجوم وتقطع فى ومضة عين كل الفضاء الذى لن تكفى حياته لمعرفته . لقد شاهد ايضا كالذى يظهر بغتة فى السراب .

شاهد المدن غير العادية بقصورها من الحجر الأبيض وأبراجها وقبابها وحدائقها ذات الماء الجارى النقى والأشجار المليئة بالفواكه وخميلات الأزهار والنافورات التى يتجمع من حولها الفتيات الشابات بضحكاتهن المجلجلة . لقد رأى ذلك بوضوح وهو ينزلق فى الماء المنعش وشرب من الشلالات وذاق من كل فاكهة وشم كل عبير . ولكن الشىء الذى كان أكثر غرابة هو ما سمع من موسيقى حين خرج جسده فلم يسمع طول حياته مثيلا لها . فقد كان صوت امرأة تغنى بلغة « الشلوة » أغنية عذبة تنساب فى الهواء وتتحرك وكانت تردد طول الوقت القول الآتى :

« فى يوم ما آه فى يوم سيصبح الغراب أبيض وسيجف البحر وسنجد العسل فى زهرة الصبار وسنصنع مضجعا من فروع الشجر آه فى يوم لن تبقى السموم فى أفواه الثعابين ولن يحمل رصاص البنادق الموت . ذلك لأنه سيكون اليوم الذى أترك فيه حبى » .

من أين أتى هذا الصوت الصافى العذب ؟ . لقد شعر

fb/mashro3pdf

« نور » بروحه تنساب أبعد من ذلك على هذه الأرض ومن هذه السماء وتنساب ناحية بلد توجد فيه هذه السحب السوداء المحملة بالمطر وحيث النهيرات العميقة الفسيحة حيث لا يبطل للماء جريان . « وفى يوم آه يوم لن تهب فيه الرياح على الأرض . وستكون حبات الرمال ناعمة كالسكر وتحت كل صخرة فى الطريق سيوجد نبع ينتظرنى . فى يوم آه . فى يوم سيغنى النحل لى وحدى . ذلك لأنه سيكون اليوم الذى سأترك فيه حبى ... » .

هنا تزمجر أصوات العاصفة السريعة . هنا يسيطر البرد والموت .

« فى يوم آه فى يوم ستكون الشمس فى الليل وسيتناثر ماء القمر على الأرض وستغطى السماء ذهب النجوم . فى يوم آه فى يوم سأرى ظلى يرقص لى . ذلك لأنه سيكون اليوم الذى أترك فيه حبى ... » .

انه من هنا سيأتى الأمر الجديد الذى تطرد رجال الصحراء ذوو الملابس الزرقاء والذى سيولد فيه الخوف من كل مكان .

« فى يوم آه . فى يوم ستسود الشمس وتنشق الأرض حتى مركزها وسيغطى البحر الرمال . فى يوم آه فى يوم لن ترى عيناى الضوء وكما لن يستطيع فمى أن ينطق حتى باسمه وستتوقف ضربات قلبى ذلك لأنه سيكون اليوم الذى أترك فيه حبى ... » .

fb/mashro3pdf

لقد ابتعد الصوت الغريب وهو يهمس . وسمع « نور » من جديد الغناء الحزين للمحارب الأعمى الذى كان يتحدث وحده وقد أدار وجهه ناحية السماء التى لا يستطيع رؤيتها .

لقد وصلت قافلة « ماء العينين » ذات مساء الى شاطىء نهر « الذراع » فى الجانب الآخر من الجبال . وهنا شاهدوا أثناء هبوطهم ناحية الغرب شاهدوا دخان معسكرات « لارهداف » و « سعدبو » وحين اجتمع القوم تجدد أملهم . وجاء والد « نور » للقائه وساعده على حمل حمله .

سأل المحارب الأعمى « أين نحن الآن ؟ هل هنا المكان ؟ . فشرح له « نور » بأنهم قد عبروا الصحراء وأنهم غير بعيدين عن هدفهم .

لقد كان هذا المساء كعيد . فلقد سمع للمرة الأولى منذ وقت طويل صوت الجيتار والطبول وصوت الناى العذب .

لقد كان الليل أكثر لطفا فى الوادى فهناك الحشائش للحيوانات . وقد أكل « نور » الخبز والتمر مع أبيه وأمه ومع المحارب الأعمى الذى نال هو أيضا نصيبه . لقد حدثهم عن الطريق الذى قطعه من الساقية الحمراء حتى ضريح سيدى محمد الكنتى . ثم معا سارا ، وهم يقودون المحارب الأعمى بين الصخور حتى المجرى الجاف لنهر « الذراع »

لقد كان هناك جمع كبير جدا من الرجال والدواب لأنه

fb/mashro3pdf

بالاضافة الى رجال وقطعان قافلة الشيخ الكبير قد انضم اليهم بدو الذراع . وكذا بدو « ابار تاسوف » ورجال « مساييد » ورجال « تكارت » و « الجابا » و « سيدى ابراهيم الاعتامى » ، وجميع الذين طردهم وتهديد هجوم الفرنسيين من الاقليم الساحلية والذين علموا بمقدم « ماء العينين » وأنه فى الطريق لخوض غمار حرب مقدسة ليطرد جميع الأجانب من أرض المؤمنين .

وعلى ذلك لم ير أحد الحفر التى حفرها الموت فى صفوف الرجال والنساء كما لم ير أن غالبية الرجال كانوا جرحى أو مرضى ولا الأطفال الصغار الذين يموتون ببطء على أذرع أمهاتهم وقد عصرتهم الحمى والجفاف . فلم يكن يرى فى كل مكان وفوق المجرى الأسود الجاف سوى الهياكل التى تسير فى بطء وهذه القطعان من الماعز والخراف وكذا الرجال الذى يركبون الإبل أو الخيول والذين يذهبون الى مكان ما الى قدرهم .

ولعدة أيام فقد صعدوا الى الوادى الكبير لنهر « الذراع » فوق المساحات الشاسعة من الرمال الملتهبة والمقددة كالفخار الخارج من النار على الوادى الأسود وللنهر كقطع الجمر وحيث تحرق الشمس كاللهب اذا وصلت الى سمت السماء .

وعلى الجانب الآخر من الوادى فان رجال « لارهداف » و « سعدبو » قد سرجوا جيادهم على الطريق الضيق للمجرى المائى الجارى وأن الرجال والنساء والقطعان قد تبعوا الطريق

fb/mashro3pdf

الذى شقه الجنود . والآن فإن محاربى « ماء العينين » هم الذين يسيرون فى المؤخرة ممتطين إبلهم و « نور » يسير معهم يقود دائما المحارب الأعمى . إن غالبية رجال « ماء العينين » يسيرون على أقدامهم تساعدهم بنادقهم وحرابهم فى تسلق المرتفعات .

وفى نفس المساء وصلت القافلة الى بئر عميقة تسمى « عين راحترا » ليست بعيدة عن « ثور كوز » فى سفح الجبال . وككل مساء ذهب « نور » ليحضر الماء للمحارب الأعمى ليتوضأ وليصليان . وبعد ذلك استقر (نور) فى المساء غير بعيد عن محاربى الشيخ . لم يقم « ماء العينين » خيمته . فقد نام فى العراء كما يفعل رجال الصحراء ملتفا فى معطفه الأبيض ومنحنيا فوق بساط سرجه . يحل الليل سريعا ذلك لأن الجبال العالية قريبة . البرد جعل الرجال يرتعدون . والى جوار « نور » لم يعد المحارب الأعمى يغنى . ربما لأنه لا يجرؤ لوجود الشيخ أو لأنه فى غاية التعب حتى أنه لا يستطيع الكلام .

وحينما تناول « ماء العينين » عشاءه مع محاربيه فقد احضر بعض الطعام « لنور » ورفيقه . إن الشاى بالذات يصلح من أمرهم ولقد شعر « نور » بانه لم يتذوق فى حياته أحلى من هذا الشاى . لقد فعلت الأطعمة والماء القراح للبدء بأجسامهم ما يفعله « النور » فقد ردت لهم قواهم . أكل نور خبزه وهو ينظر للظل الجالس لهذا الرجل الشيخ وهو متدثر فى معطفه الأبيض .

fb/mashro3pdf

ومن وقت لآخر يأتى الناس للشيخ ليسألونه البركة فيستقبلهم الشيخ ويدعون للجلوس الى جواره ويقدم لهم جزءا من خبزه ثم يحادثهم . إنهم ينصرفون بعد أن يقبلوا طرف معطفه . إن بعضا من البدو من « الذراع » وبعض الرعاة فى أسمالهم البالية أو بعض النساء الزرق اللائى يحملن أطفالهن وقد تدثرن بمعاطفهن يردن رؤية الشيخ . ليمنحهم بعضا من القوة أو شيئا من أمل أو ليأسو جراح أجسادهم .

وفى وقت متأخر من الليل استيقظ « نور » من نومه فزعا فقد رأى المحارب الأعمى وقد انحنى فوقه . فقد اضاء نور النجوم وجهه الممتلىء أسى وألما . وما أن تقهقر « نور » شبه فزع حتى قال الرجل فى صوت خفيض : « ترى أيرد لى بصرى ؟ » « وهل ياترى سأرى ثانية ؟ » « لا أدرى » فتأوه المحارب الأعمى وارتمى على الأرض ورأسه فى التراب .

نظر نور من حوله . لم يكن فى أعماق الوادى أو على سفوح الجبال أية حركة أو صوت . ففى كل مكان كان القوم ينامون وقد تدثروا فى أغطيتهم ليتقوا البرد ويقاوموه . وحده جالسا فوق بساط سرجه كما لو أن التعب لا وجود له بالنسبة اليه .

كان « ماء العينين » ساكنا لا يتحرك وعيناه مثبتتان فى هذا المنظر الليلى .

بعد ذلك رقد « نور » على جنبه معتمدا صدغه بذراعه .

fb/mashro3pdf

ونظر طويلا لهذا الشيخ العجوز وهو يصلى وكان كما لو أنه رحل مرة أخرى فى حلم لا نهاية له . حلم أكبر منه يقوده الى عالم آخر .

فى كل صباح عندما تشرق الشمس يقوم الرجال . ويأخذون امتعتهم دون أن يتكلموا . وتلف النساء الأطفال على ظهورهن . وتقوم الحيوانات ايضا ويدوسون الأرض مثيرين الموجة الأولى للأتربة والتى تصعد إلى السماء لأن هذه أوامر الشيخ الذى يمر فيهم والتى تصعد مع حرارة الشمس ونشوة الهواء .

إنهم يستمرون فى سيرهم نحو الشمال من خلال جبال « تاييسه » المنقطعة وعلى طول الممرات المتتابعة الملتهبة التى تشبه جوانب البركان .

وفى بعض الأمسيات حين يحضرون امام البئر يخرج والرجال والنساء الزرق من الصحراء يجرون نحوهم ويقدمون لهم التمر واللبن والخبز . فيمنحهم الشيخ الكبير بركته . لأنهم يأتون بأولادهم الصغار المرضى ببطونهم أو بعيونهم فيضع عليهم « ماء العينين » بلسما من الأرض الممزوجة بريقه ثم يضع يده على جباهم ومن ثم تبتعد النساء ويعدن إلى الصحراء الحمراء مثلما جئن وأحيانا أخرى يأتى رجال ببنادقهم وحرابهم لينضموا الى الجنود . إنهم فلاحون ذوو وجوه صارمة وشعرهم أصفر أو أحمر وعيونهم خضراء غريبة .

ومن الجانب الآخر من الجبال تصل القافلة الى نخيلات

fb/mashro3pdf

« تايدالت » هناك حيث يبدا نهر « نون » وطريق « جوليمين » . ظن « نور » أنهم فى مقدورهم أن يستريحوا ويشربوا . ولكن مكان النخيل صغير جدا ومهدد بالفناء بسبب الجفاف وريح الصحراء . فالكثبان الرملية أفنت الواحات وأصبح الماء بلون الطين . لا أحد تقريبا يعيش فى هذه النخيلات ولكن هناك بعض المسنين أرهقهم الجوع وعلى هذا رحل رجال « ماء العينين » فى اليوم التالى على طول الطريق المتجه الى « جوليمين » .

وقبل وصولهم المدينة تقدمت فرق أولاد « ماء العينين » الى الأمام وقد عادوا بعد يومين يحملون شيئا . إن جنود المسيحيين قد نزلوا على شاطىء « سيدى افنى » واتجهوا هم أيضا إلى الشمال . أراد « لارهداف » أن يذهب مع ذلك الى « جوليمين » حتى يقاتل الفرنسيين والأسبان ولكن الشيخ أشار اليه عن الرجال الذين عسكروا فى السهل وقد سأله فقط « هل هم جنودك ؟ » وهنا طأطأ « لارهداف » رأسه . وقد أعطى الشيخ الكبير الأمر بالرحيل إلى الجميع الى « جوليمين » فى اتجاه نخيلات « آية يوخا » ومن ثم خلال الجبال حتى طريق « بوازكارن » فى الشرق .

وبالرغم من التعب فقد سار الرجال والنساء لعدة أسابيع بين الجبال الحمراء . وفى ممرات المجارى المائية الجافة . إن الرجال ذوى الملابس الزرقاء والنساء والرعاة بقطعانهم وابل الزاد والفرسان كان من واجبهم جميعا أن يجوسوا خلال الكتل الصخرية وأن يجدوا ممرا لهم بين الانهيارات . وبهذا فانهم وصلوا

fb/mashro3pdf

الى المدينة المقدسة « سيد أحمد أبو موسى » حامى لاعبى الأكروبات . واستقرت القافلة فى السهل القحط . فقط الشيخ وأبناؤه ورجال « الجودفيا » فقد بقوا حول الضريح فى حين أن النبلاء قدموا عليه يبايعونه ويعاهدونه .

وفى هذه الليلة أقيمت صلاة جامعة تحت قبة السماء المضاءة بالنجوم . كما تجمع الرجال والنساء حول ضريح القديس . وبالقرب من النيران المشتعلة لم يقطع هذا السكون الشامل سوى فرقعة وتكسر الغصون الجافة . ولقد شاهد « نور » طيف الشيخ ساجدا على الأرض على أهبة القاء نصوص « الذكر » فى صوت خفيض . ولكن هذه الليلة كانت صلاة لا صياح فيها ولا موسيقى ذلك لان الموت قريب جدا كما أن التعب قد أنهك الحناجر ولم يكن هناك سوى الصوت الشديد العذوبة والخفيف كالدخان الذى يتغنى وسط السكون . تطلع « نور » من حوله فرأى آلاف الرجال يلبسون معاطفهم الصوفية وجالسين على الأرض وتضيء النيران من بعيد . لقد ظلوا ساكنين وصامتين . فهذه أعمق أنواع الصلاة والصلاة الأكثر حزنا التى سمعها « نور » . لا أحد يتحرك عدا أن ترضع إمرأة طفلها من وقت لآخر كى ينام أو يصدر عن عجوز « سِعْلَة » . ففى الوادى ذى الأسوار العالية ليس هناك نسمة هواء ولهذا تشتعل النيران عمودية وقوية . كان المساء جميلا وباردا وقد امتلأ بالنجوم وبزغ ضوء القمر من الأفق فوق الحواجز الصخرية السوداء . وقد ظهر قرص النور فى كماله مستديرا يصعد ساعة بعد ساعة نحو كبد السماء .

fb/mashro3pdf

لقد صلى الشيخ طوال الليل فى حين بدأت النيران تخمد وتنطفىء على التوالى وقد نام الرجال وقد انهكهم التعب فى أمكنة نومهم . لم يبتعد « نور » سوى مرتين او ثلاث مرات ليتبول خلف الأعشاب . فى وسط الوادى . فهو لم يستطع النوم كما لو أن الحمى قد صهرت جسده . وقريبا منه نام أبوه وأمه وشقيقاته متدثرين فى معاطفهم وحتى المحارب الأعمى فقد نام أيضا ورأسه فوق الأرض الباردة .

استمر « نور » فى النظر الى الشيخ الجالس على مقربة من الضريح الأبيض وهو يغنى فى هدوء وسط سكون الليل كما لو كان يهدهد طفلا .

وعند بزوغ النهار رحلت القافلة من جديد يصحبها بعض الرجال من « آية أو موسى » وبعض الجبليين الذين وفدوا من « الره » و « تافرميت » و « ايدا جوجمار » و « افران » و « ترهمى » . وكل هؤلاء أرادوا أن يتبعوا « ماء العينين » فى حربه من أجل مملكة الله .

لقد بقيت عدة أيام ليعبروا خلالها الجبال القاحلة والمجارى الجافة . وفى كل يوم تزداد حرارة الشمس الملتهبة ويبدأ العطش وتزداد حدة السماء البيضاء ، وأمامهم الصخور الحمراء والتراب الذى يخنق الدواب والرجال . لم يعد « نور » يذكر كيف كانت الأرض حين يظل الانسان واقفا بلا حراك . كما لم يعد يذكر الآبار حين كانت تذهب اليها النساء لتجلب الماء فى قدورهن وكيف كن يتحدثن كالطيور . لم يعد يذكر غناء الرعاة

fb/mashro3pdf

التى تترك القطيع وكذا العاب الأطفال فى رمال الكثبان . فقد بدا كما لو كان يمشى منذ بدء الخليقة . انه يرى بصفة مستمرة المجارى المائية والصخور الحمراء . وكانت تمر به لحظات يود فيها لو جلس على صخرة أية صخرة على حافة الطريق ليشاهد مرور القافلة الطويلة وأطياف الرجال السوداء والإبل وهى تتمايل فى الهواء كأن هذا كله سراب على وشك الاختفاء والذوبان . ولكن يد المحارب الأعمى لا تترك أبدا كتفه بل وتدفعه الى الأمام فيضطر للسير .

وحين وصلوا وكانت على مرمى بصرهم قرية . توقفوا . وقد جرى اسم القرى من رجل الى رجل ويتردد على كل الشفاه « ترهمى أينزى » « آساكا » « السير سيف » . إنهم يحاذون الآن مجرى نهير حقيقى حيث يسيل فيه خيط من ماء . وأن شاطئيه آهلة بالصبار الأبيض . ثم بعد ذلك ساروا فوق سهل فسيح من الرمال بيضاء كالملح حيث تعمى أشعة الشمس العيون بانعكاسها .

وذات مساء حين استقرت القافلة استعدادا لليل وصلت فصيلة من المحاربين من الشمال فى صحبة رجل يركب حصانا ويرتدى معطفا أبيض فضفاضا . كان هذا الشيخ الكبير هو « الحسين » الذى جاء يحمل المساعدة للمحاربين ويوزع الأطعمة على المسافرين . وعندئذ فهم الرجال أن الرحلة توشك على نهايتها فلقد وصلوا الى وادى النهر الكبير « سوس » حيث يجدون الماء والمراعى للحيوانات وأرضا لجميع الناس .

fb/mashro3pdf

وحينما انتشر الخبر بين المسافرين أحس « نور » ثانية بشعور الفراغ وبالموت مثلما شعر قبل مغادرة « سماره » .

راح الناس يجرون ذهابا وايابا فى الأتربة وصرخوا وصاحوا منادين بعضهم : « لقد وصلنا .. فاعتصر المحارب الأعمى كتف « نور » وصاح بدوره « لقد وصلنا ... »

ولكنه كان فى اليوم التالى حين وصلوا الى الوادى الكبير للنهر أمام مدينة « تاردانت » خلال ساعات صعدوا مجرى النهير سائرين فى خيوط رفيعة من الماء الذى يسيل فوق الحصى المتفتت الأحمر وبرغم وجود الماء فإن الشاطئين كانا جافين وعاريين والأرض صلبة بتاثير الشمس والهواء .

سار « نور » على الحصى الناعم للنهير يجر وراءه المحارب الأعمى . وبرغم حرارة الشمس الحارقة كان الماء مثلجا كما أن بعض الشجيرات قد نمت وسط مجرى النهير فوق جزر صغيرة من الحصى المتفتت . كما كانت توجد أيضا بعض جذوع الشجر التى دفعتها الفيضانات من الجبال .

لقد نسى « نور » الشعور بالموت وأصبح سعيدا هو الآخر لأنه أيقن أيضا أن هذا هو نهاية الرحلة . وأن هذه الأرض التى وعد بها « ماء العينين » قبل أن يتركوا « سمارة »

ان الهواء الساخن محمل بكثير من الروائح ذلك لأن الوقت بداية الربيع . لقد اشتم « نور » هذه الرائحة للمرة الأولى . كما

fb/mashro3pdf

ترقص بعض الحشرات فوق سطح الماء مثل الزنابير والذباب . لقد مضى وقت طويل على « نور » ليرى فيه مثل هذه الحيوانات ولهذا فهو سعيد أن يرى الزنابير والذباب . حتى حين لدغته ذبابه كبيرة من خلال ملابسه لم يغضب واكتفى بأن طردها بيده .

وفى الناحية الأخرى من نهر « سوس » المجاور للجبل الأحمر كانت هناك المدينة الكبيرة ذات المنازل المصنوعة من الطين والتى ترى وكأنها رؤية من السماء معلقة فى نور الشمس . وتبدو المدينة وكأنها تنتظر رجال الصحراء لتأويهم . لم ير « نور » مدينة جميلة كهذه . فالأسوار العالية المبنية من الحجر الأحمر والطين والتى لا نوافذ لها تزهو فى ضوء الغروب . إن هالة من التراب تهب على المدينة كأنها حبوب الأزاهير تحيط المدينة بسحابة سحرية .

لقد توقف المسافرون فى الوادى فى المستوى المنخفض من المدينة وقد نظروا اليها طويلا يتقاسمهم الحب والخوف معا .

والآن وللمرة الأولى منذ بداية الرحلة شعروا بأنهم متعبون وأن ملابسهم مهلهلة وأقدامهم مغطاة بقطع وخرق دامية وأن شفاههم وجفونهم قد ألهبتها حرارة شمس الصحراء . لقد جلسوا على حصى النهر الناعم . وأقام بعضهم الخيام وآخرون بنوا مأوى لهم من فروع وأوراق الشجر . وكمن يحس خوف الجماهير فقد استقر « ماء العينين » وأولاده وجنوده على شاطىء النهر .

fb/mashro3pdf

ولقد أقام شيوخ القبائل الآن خيامهم وأنزلوا زادهم من فوق ظهور الإبل . لقد حل الليل على أسوار المدينة . وانطفأ نور السماء وأصبحت الأرض الحمراء سوداء . ولكن بقيت فقط قمم « الأطلس » وجبل « تشكا » وجبل « ترجويت » ظلت هذه مغطاة بطبقة من الجليد تبرق فى ضوء الشمس حين يكون الوادى قد حل به الظلام.لقد كان يسمع صوت المؤذن لصلاة العشاء فى المدينة . صوت كان يتردد صداه كأنه شكوى . لقد ركع وسجد المسافرون فوق حصباء النهر دون أن يرفعوا أصواتهم التى صاحبت جريان الماء العذب .

وفى الصباح أحس « نور » اعجابا شديدا فقد نام نوما عميقا حتى أنه لم يشعر بالحصى الذى أدمى جبينه ولا ببرد ورطوبة النهير . وحين استيقظ رأى الضباب الذى هبط على طول الوادى كأنه نور الصباح يطارده . لقد مشت السيدات وسط النهر بين الرجال النائمين ليجلبن الماء أو ليجمعن بعض عيدان الوقود . أما الأطفال فكانوا يبحثون عن « الجنبرى » تحت الصخور المسطحة . ولكن « نور » انبهر وهو ينظر الى المدينة . وبهوائها النقى عند الفجر فى سفح الجبل . فان مدينة « تارودانت » وقد أقامت قلعتها وأسوارها من الحجر الأحمر وشرفاتها وأبراجها الواضحة لتبدو وكأنها نحتت فى الصخر نفسه للجبل . إن الضباب الأبيض ليمر فى فترات بين مجرى النهير والمدينة يكاد يخفيها وكأن القلعة تعوم فوق الوادى الفسيح أو كسفينة من الأرض والصخر تنساب فى هدوء أمام جزر من جبال الثلج .

fb/mashro3pdf

شاهد « نور » كل ذلك دون أن يستطيع أن يحول نظره عنه . فالأسوار العالية التى لا نوافذ لها قد سحرت عينيه .

لقد كان هناك شيء جاف ومهدد فى هذه الأسوار . كأن من يعيش فيها ليسوا أناسا ولكنهم أرواح غير طبيعية . وشيئا فشيئا ظهر النور فى السماء ورديا فى لون العنبر ظل كذلك حتى سطعت الزرقة فى كل مكان . فزحفت الأضواء على الحوائط الطينية وعلى الشرفات وعلى حدائق البرتقال وعلى أعالى النخيل . والى أسفل كانت الأرض القاحلة التى تخترقها السواقى ذات لون أحمر بنفسجى .

لقد شاهد « نور » المدينة الساحرة وهى تستيقظ . وهو واقف لاحراك به على الشاطىء بين رجال الصحراء ووسط الهدوء لقد تصاعد الدخان الخفيف فى الهواء وقد سمعت الضوضاء المعتادة للحياة من أصوات وضحكات الأطفال وغناء فتاة شابة وكأنها أصوات غير حقيقية .

بالنسبة لرجال الصحراء الواقفين بلا حركة على مجرى النهير فإن هذا الدخان وهذه الضوضاء وكأنها أشياء غير مادية كما لو أنهم يحلمون بهذه المدينة المحصنة فى سفح الجبل بهذه الحقول بهذه النخيلات وأشجار البرتقال .

والآن وقد علت الشمس فى السماء تلهب حصى مجرى النهير سرت رائحة عجيبة حتى وصلت معسكرات البدو . وفى صعوبة عرفها « نور » أنها ليست أيام الهرب والخوف الباردة

fb/mashro3pdf

الكريهة . تلك الرائحة التى شمها وتنفس بها منذ أمد بعيد فى الصحراء .

إنها رائحة المسك والزيت النفاذة القوية المسكرة انها رائحة المواقد حيث يحترق الفحم النباتى ورائحة « الكسبرة والفلفل والبصل » .

لقد استنشق « نور » هذه الرائحة دون أن يجرؤ على الحركة حتى لا يفقدها وكذا فعل المحارب الأعمى . فهو أيضا أحس بهذه السعادة . بقى جميع الرجال دون حركة واتسعت حدقاتهم وهم ينظرون دون أن يحركوا أهدابهم لحد التألم وهم ينظرون السور العالى الأحمر للمدينة . إنهم يرون المدينة قريبة وبعيدة فى وقت واحد . المدينة التى ربما ستفتح أبوابها فخفقت قلوبهم وأسرعت ضرباتها ومن حولهم الشواطىء والحصباء فى النهير ترتعد مسبقا فى حرارة النهار . لقد شاهدوا دون أن يتحركوا المدينة الساحرة . وعندما ارتفعت الشمس فى السماء الزرقاء غطى كل منهم الواحد بعد الآخر رأسه بطرف معطفه .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

نظرت « لالّا » وهى متكئة على حاجز السفينة . نظرت الى شريط الأرض الضيق الذى ظهر فى الأفق كجزيرة . وبرغم التعب فقد نظرت الأرض بكل قواها . وقد حاولت أن تميز البيوت والطرق وحتى هياكل الناس . والى جانبها تجمع المسافرون حول الحاجز . إنهم يصيحون ويشيرون بإشارات ثم يتحدثون فى حرارة ثم ينادى بعضهم بعضا بمختلف اللغات من جانب إلى جانب فوق القنطرة الخلفية . فهم فى انتظار هذه اللحظة من سنوات طويلة . يوجد كثير من الأطفال والمراهقين . إنهم يحملون نفس اللافتة المعلقة على ملابسهم وعليها اسم كل واحد وتاريخ ميلاده واسم وعنوان الشخص الذى ينتظرهم فى « مرسيليا » وفى أسفل اللافتة امضاء وخاتم وصليب أحمر فى دائرة سوداء . إن « لالّا » لا تحب هذا الصليب الصغير الأحمر . فهى تحس شعورا وكأنه يحرق جلدها من خلال قميصها فيترك علامة شيئا فشيئا فوق صدرها .

إن الريح الباردة تهب كموجات فوق القنطرة وقد هزت الأمواج الثقيلة مقدمة المركب . إن « لالّا » تحس ألماً فى قلبها لانه فى اثناء الليل فبدلا من ان يناموا وزع الأطفال أنابيب اللبن المكثف والذى يوزعه مندوبو الصليب الأحمر قبل المركب ولما لم توجد « كراسى » مستطيلة كافية فقد اضطرت « لالا » ان تنام على الأرضية فى الحرارة القاتلة لبطن السفينة بين رائحة المازوت والشحم والهزات العنيفة

fb/mashro3pdf

الصادرة من المحرك . والآن وقد بدأت طيور البحر تحوم طائرة حول مؤخر السفينة . فقد كانت تصرخ كما لو أنها غاضبة من وصول السفينة . فهى لا تشبه البتة أمراء البحر . فهى رمادية اللون قذرة وبمنقار أصفر وبعين تلمع فى قسوة .

لم تر « لالّا » مطلع الفجر بل نامت وقد أنهكها التعب فوق قطعة من أغطية البضائع فى قاع السفينة وقد أسندت رأسها على قطعة من الكرتون . وحين استيقظت كان كل الناس فوق سطح السفينة وعيونهم منصبة على شريط الأرض . ولم يبق فى قاع المركب سوى إمرأة شابة شديدة الشحوب بين ذراعيها طفل صغير . فقد كان الطفل مريضا . لقد تقيأ على الأرض وكان يئن بصوت منخفض . وعندما اقتربت « لالا » لتسأل ما به نظرت اليها المرأة دون أن تجيب وفى نظرتها فراغ .

الآن أصبحت الأرض قريبة جدا . فالسفينة تطفو على بحر أخضر طافح بالقاذورات بدأ المطر يهطل على سطح السفينة ولكن أحداً لم يتحرك ليحتمى منه فقد سال الماء البارد على شعر الأطفال المجعد وصار ينزل قطرات على أنوفهم . إنهم يرتدون كما يرتدى الفقراء بقمصانهم القصيرة الخفيفة وسراويلهم من الكتان الأزرق أو رمادية اللون . وفى بعض الأحيان يرتدون رداءهم القومى المصنوع من الوبر . إن اقدامهم عارية فى احذية من جلد أسود واسعة جدا عليهم . أما الرجال البالغون فيلبسون معاطف قديمة مهلهلة وسراويل قصيرة ويضعون فوق رؤوسهم اغطية المتزحلقين على الثلوج المصنوعة من الصوف . شاهدت « لالّا » الأطفال والنساء والرجال حولها على محياهم الحزن والخوف مصفرة وقد انتفخت من التعب وجلد أرجلهم وأذرعهم قد أصابته القشعريرة إن رائحة البحر قد اختلطت برائحة التعب والقلق . وبعيدا ظهرت الأرض كبقعة فى البحر الأخضر . ظهرت ولكنها مجهدة متعبة وقد غطت السحب أعالى التلال . وبالرغم من أن « لالّا » أمعنت

fb/mashro3pdf

النظر فلم تستطع رؤية المدينة البيضاء التى حدثها عنها « نعمان الصياد » كما لم تر القصور ولا أبراج الكنائس . والآن لايوجد سوى أرصفة لا نهاية لها لونها كالأحجار والأسمنت ارصفة تفتح على أرصفة أخرى . والسفينة المحملة بالمسافرين تجرى فى هدوء وبطء على الماء الاسود للاحواض . وعلى الأرصفة وقف بعض الرجال ينظرون إلى السفينة تمر دون اهتمام . ومع ذلك يصيح الأطفال بكل قواهم وملوحين بأياديهم ولكن لا من مجيب . استمر المطر فى الهطول دقيقا باردا . نظرت « لالّا » الى ماء الحوض . الأسود الملوث بالشحم حيث تطفو فوقه بقايا اشياء حتى طيور البحر لاترغبها . ربما لم توجد مدينة أصلا ! لقد شاهدت « لالّا » الأرصفة المبتلة وهياكل سفن البضاعة الراسية والرافعات وعلى مبعدة توجد أيضا النباتات البيضاء التى تكون حائطا داخل الميناء . وشيئا فشيئا بدأت مقدمة سفينة الصليب الأحمر الدولى فى الهبوط . وهناك صيحات أخرى ولكنها لم تستمر طويلا . وبدأ الضباط والمرافقات فى السير فوق السطح يصدرون الأوامر التى لم يفهمها أحد . ولكنهم نجحوا فى تجميع الأطفال ثم بدأوا فى نداء الأسماء ولكن صوتهم ضاع فى غمار ضوضاء المحرك وضوضاء الناس .

« ماكل ـــ سيفار » « كوديكى » « حمال » « لاوجور » .

كان هذا لا يعنى شيئا فلابد من مجيب . ثم بدأت مكبرات الصوت فى الكلام ينصب كالنباح فوق رؤوس المسافرين . وقد كان هناك نوع من الفزع فبعضهم كان يجرى الى المقدمة وآخرون يحاولون تسلق السلالم نحو السطح العلوى حيث يحتجزهم الضباط وأخيرا هدأ كل شىء ذلك لأن السفينة بدأت توقف آلاتها كى ترسو على الرصيف . وعلى الرصيف كان هناك كشك بغيض من الاسمنت ونوافذ مضيئة فانحنى الأطفال والنساء والرجال على حاجز السفينة ليحاولوا رؤية وجه مألوف لهم بين الناس الذين يراهم الانسان هناك فى الطرف الآخر من البناء والذين يبدون كالحشرات .

fb/mashro3pdf

بدأت عملية الانزال ومعنى هذا أنه لمدة عدة ساعات بقى الركاب فوق سفينة الصليب الأحمر الدولى حتى تعطى اشارة ما . ومضى الوقت على هذا المنوال مما أفقد الأطفال أعصابهم والذين تجمعوا فوق السطح وقد بكى الأطفال فى أنين متواصل مثير للأعصاب ولا يصلح الأمور كما صاحت السيدات وكذا الرجال . فجلست « لالّا » على كومة من الحبال ومعها حقيبتها إلى جانبها محتمية فى الفاصل عند قنطرة الضباط وبقيت تنتظر وهى تشاهد الطيور البحرية الرمادية التى تطير فى السماء الرمادية .

وأخيرا حلت لحظة النزول الى الأرض . فقد كان الركاب على درجة كبيرة من التعب انهم ينتظرون لحظة طويلة قبل أن يتحركوا . لقد تبعت « لالّا » مجموعات القوم حتى المبنى القديم الرمادى . وهناك يوجد ثلاثة من رجال الشرطة ومعهم بعض المترجمين الذين يوجهون بعض الأسئلة للذين وصلوا . لقد كان ذلك سهلا وسريعا مع الأطفال لأن رجال الشرطة اكتفوا بأن قرأوا ماكتب على اللافتات ونقلوها على استمارات خاصة بهم وحينما نظر الرجل الى « لالّا » وسألها قائلا « ألَدَيْكِ النية أن تعملى فى فرنسا ؟ » أجابت « نعم » وأى نوع من العمل « أجابت » لا أدرى . « خادم فى منزل » قال ذلك الشرطى وَدوَّن ذلك على ورقتها . فحملت « لالّا » حقيبتها وراحت تنتظر مع الآخرين فى الصالة العامة ذات الحوائط الرمادية والمضاءة بالكهرباء . ليس بالصالة مقاعد للجلوس وبرغم برودة المطر فى الخارج فجو الصالة حار خانق . لقد نام الأطفال على أذرع أمهاتهم أو على الأرض يتوسدون الملابس . إنهم الأطفال الأكبر سنا فهم الذين يشكون الآن . عطشت « لالّا » وجف حلقها وبرقت عيناها من شدة الحمى . فقد كانت فى حالة من التعب انستها أن تفكر فى أى شىء . لقد ظلت تنتظر وهى مسندة ظهرها الى الحائط وواقفة على ساق واحدة تبدّلها بالأخرى من آن لآخر . وفى الجانب الآخر من الصالة وأمام حاجز الشرطة كانت هناك المرأة الشابة الشديدة الشحوب والتى تحمل طفلها الرضيع بين ذراعيها . لقد كانت

fb/mashro3pdf

واقفة أمام مائدة المفتش زائغة البصر ودون أن تنطق بكلمة . لقد تكلم معها الشرطى طويلا وقد عرض على المترجم أوراق الصليب الأحمر الدولى فهناك أمر غير مقبول . فسأل الشرطى عدة أسئلة قام بترجمتها المترجم للمرأة الشابة ولكنها نظرت اليهما ولم يظهر عليها أنها فهمت . لم يريدا لها المرور . فنظرت « لالا » إلى المرأة الشابة الشاحبة التى تحمل طفلها فوجدتها تحتضنه بقوة حتى أنه استيقظ وبكى ولكنه كف عن البكاء حين أسرعت الأم باخراج ثديها وناولته إياه ليرضع . لقد أُحرِجَ الشرطى فقد استدارَ وحَوَّل نظره فيما حوله . فتلاقت نظراته مع نظرات « لالا » التى اقتربت منه فأشار لها الشرطى لتتقدم نحوه وسألها « أتتكلمين لغتها ؟ » فأجابت « لالا » لا أدرى ثم نطقت « لالا » بعض كلمات من لغة « الشلوة » فرمقتها المرأة لحظة ثم ردت عليها « قولى لها ان هذه الأوراق ليست قانونية اذ ينقصها التصديق على الطفل » .

حاولت « لالا » ترجمة الجملة واعتقدت أن المرأة لم تفهم وفجأة انخرطت الأخيرة فى البكاء . فنطق الشرطى ببضعة ألفاظ على اثرها رفع مترجم الصليب الأحمر الدولى المرأة بقدر ما استطاع وصحبها إلى الصالة حيث يوجد اثنان او ثلاثة مقاعد من الجلد الصناعى .

حزنت « لالا » لأنها فهمت ان المرأة يجب أن تأخذ السفينة مرة ثانية ولكن الى الاتجاه العكسى ومعها طفلها المريض . وقد كانت هى نفسها متعبة حتى أنها لا تستطيع أن تفكر فى هذا الأمر فعادت لتتكىء على الحائط الى جوار حقيبتها . يوجد فى أعلى الحائط فى نهاية الصالة « بندول » به بعض ارقام مكتوبة على الواح خشبية بعد كل دقيقة يدور لوح من هذه ويحدث صوتا . إن الناس لا يتكلمون الآن . إنهم ينظرون وهم جلوس على الأرض أو واقفون ملتصقون بالحائط ووجوههم مشدودة وأنظارهم معلقة بالباب ينتظرون مع كل صوت من لوح يخيل لهم أن الباب سوف يفتح وسيسمح لهم بالرحيل .

fb/mashro3pdf

وأخيرا وبعد مضى وقت طويل جدا حتى انقطع الأمل عند الناس عبر رجال الصليب الأحمر الدولى الصالة الكبرى وفتحوا الباب الداخلى وبدأوا فى مناداة الأطفال . تجددت همهمة الأصوات وتجمع الناس عند باب الخروج فمدت « لالّا » رقبتها لترى من فوق الناس وهى ممسكة بحقيبتها المصنوعة من الكرتون فى يدها . انها تنتظر فى نفاد صبر أن ينادى اسمها حتى أن ساقيها قد ارتعشتا . وعندما نطق اسمها رجل الصليب الأحمر كأنه نباح فلم تفهم « لالا » النداء فعاد يكرر فى صياح .

« حواء ... حواء بن حواء » جرت « لالا » وحقيبتها تتأرجح فى ذراعها وتخطت الناس ثم وقفت أمام الباب . بينما يفحص الرجل ويتحقق من لافتتها ثم خرجت فى قفزة واحدة كما لو أن أحدا قد دفعها من ظهرها . كان الضوء كبيرا جدا فى الخارج بعد هذه الساعات الطوال التى امضوها فى الصالة الكبرى الرمادية اللون حتى ان « لالّا » ترنحت وأصابها الدوار . لقد تقدمت بين صفوف من الرجال والنساء دون أن تراهم . فقد كانت تسير قدما وفى استقامة ولكن كيفما اتفق إلى أن شعرت بأن أحدا قد أخذها من ذراعها واحتضنها ثم قبلها . لقد جذبتها العمة نحو باب الخروج من الأرصفة نحو المدينة . كانت العمة تسكن بمفردها فى شقة فى المدينة بالقرب من الميناء فى آخر طابق فى منزل آيل للسقوط . إن الشقة مكونة من حجرة بها أريكة وحجرة نوم مظلمة بها فراش ينثنى ومطبخ . إن نوافذ الشقة تطل على فناء داخلى ولكن منها يمكن أن ترى السماء من فوق الأسطح الإردوازية . ومن الصباح حتى الظهيرة تدخل الشمس من نافذتى الحجرة التى بها الأريكة . لقد قالت العمة للفتاة بأنها كانت محظوظة جدا اذ عثرت على هذه الشقة كما انها كانت اوفر حظا اذا وجدت عملا كطاهية فى مقصف المستشفى . فعندما وصلت إلى مرسيليا منذ عشرة شهور فإنها سكنت أولا فى حجرة مفروشة فى الضواحى حيث كانت تسكن كل خمس نسوة فى حجرة واحدة وكانت

fb/mashro3pdf

الشرطة تزورهن كل صباح وكان العراك فى الشوارع . وقد حدث أن تضارب شخصان بالمدى حتى أن العمة رأت من واجبها الهرب تاركة حقيبتها ذلك لأنها خافت من أن يأخذوها الى مركز البوليس فتطرد من البلد بعد ذلك . لقد سرت العمة كثيرا حين رأت « لالا » بعد كل هذا الوقت . فلم تسألها عما حدث لها يوم أن هربت إلى الصحراء مع « الحارتانى » ويوم أن قادوها الى مستشفى المدينة يوم أن كانت على وشك الموت من العطش والحمى . أما « الحارتانى » فقد استمر وحده نحو الجنوب . نحو القوافل . لأن هذا ماكان يجب أن يفعله طوال حياته . لقد هرمت العمة كثيرا خلال هذه الشهور فأصبح وجهها نحيلا ومتعبا وبشرتها رمادية اللون وأحاطت عينيها هالة سوداء . ففى المساء حين تعود من عملها وأثناء تناولها قليلا من « البسكويت » وكوبا من الشاى المخلوط بالنعناع . كانت تقضى رحلتها فى السيارة عبر أسبانيا مع نساء أخريات وبعض الرجال الذين يبحثون عن عمل .

وبعد بضعة أيام سارت بهم السيارة على الطريق فاخترقوا مدنا كثيرة وتخطوا جبالا وأنهارا . وذات يوم أشار لهم سائق العربة إلى مدينة بها كثير من البيوت المبنية من الطوب الأحمر . وكل هذه البيوت متشابهة سقوفها سوداء فأشار لهم وقال ها قد وصلنا . فنزلت العمة مع الأخريات . ولما كانت الرحلة مدفوع ثمنها مقدما فقد حملن حاجياتهن وبدأن السير فى شوارع المدينة وعندما أظهرت العمة المظروف الذى عليه اسم وعنوان شقيق « نعمان » ضحك الناس منها وأخبروها أن هذه المدينة ليست مرسيليا . ولكن هذه المدينة هى « باريس » فكان لزاما عليها أن تأخذ القطار وتسافر طول الليل قبل أن تصل .

وحينما استمعت « لالا » لهذه القصة ضحكت كثيرا لأنها تخيلت ركاب السيارة سائرين وسط شوارع باريس ظنا منهم أنها « مرسيليا » .

fb/mashro3pdf

إن هذه المدينة كبيرة جدا فلم يخطر ببال « لالا » أن مثل هذا العدد من الناس يعيشون فى مكان واحد . فمنذ وصولها جعلت كل همها أن تجوب المدينة وشوارعها من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . إنها لا تعرف أسماء الشوارع كما لاتعرف الى أين تذهب . فتارة تتبع الأرصفة ناظرة إلى هياكل سفن البضاعة وتارة أخرى تذرع الشوارع الرئيسية إلى قلب المدينة . أو أنها تجتاز الحارات فى المدينة القديمة أو تصعد السلالم وتذهب من مكان إلى مكان ومن كنسية إلى أخرى حتى إلى القصر الحصين فوق البحر أو تذهب لتجلس فى الحدائق لتشاهد الحمام الذى يسير فوق الممرات المتربة . فهناك فى شوارع كثيرة ومنازل عديدة وحوانيت ونوافذ وسيارات مما يدير الرأس والضوضاء ورائحة الوقود المحترق تسكر وتصيب الرأس بالألم . إن « لالا » لا تتحدث إلى الناس فهى تجلس فى بعض الأحيان على درجات الكنائس مختفية فى معطفها الصوفى الكستنائى اللون وهى تشاهد المارة . فبعض الرجال ينظرون اليها ثم يقفون فى ركن من أركان الشارع ويتظاهرون بالتدخين فى حين أنهم يراقبونها . ولكن « لالا » تعرف جيدا كيف تختفى فقد تعلمت ذلك من « الحارتانى » إنها تعبر شارعين أو ثلاثة أو تمر بحانوت وانها تجوس بين السيارات الواقفة ولا يستطيع أحد أن يتبعها .

ودت « العمة أن تعمل « لالا » معها فى المستشفى ولكن « لالا » مازالت حديثة السن فيجب أن تكون بالغة الرشد ، هذا بالاضافة الى أنه من العسير الحصول على عمل ما .

وبعد مضى بضعة أيام على وصولها ذهبت لتقابل شقيق نعمان العجوز المسمى « عساف » ولكن القوم هنا يسمونه « جوزيف » . انه يملك حانوت بقال فى شارع « شابليه » غير بعيد عن مقر الشرطة . لقد سره كثيرا أن يرى « لالا » وقد قبلها حين حدثته عن شقيقه ولكن « لالا » أحسبت نحوه بعدم

fb/mashro3pdf

الثقة . فهو لا يشبه نعمان أبدا . فهو قصير وأصلع الرأس أو يكاد ذو عينين رماديتين خضراوين جاحظتين وابتسامته لا تبشر بخير . وحين علم أن « لالا » تبحث عن عمل برقت عيناه وصار عصبيا . فقد قال لها انه فى حاجة إلى فتاة لتساعده فى الحانوت : من ترتيب أو تنظيف وربما لتعمل على الخزينة . وكان طيلة حديثه معها ينظر الى بطنها وإلى ثدييها بعينيه الخبيثتين وعلى هذا قالت له بأنها ستمر عليه غدا ورحلت لتوها . وساءه أنها لم تعد مرة أخرى فقد جاء هو ذات أمسية عند العمة . ولكن « لالا » غادرت المكان ساعة أن رأته . وراحت فى نزهة طويلة فى حارات المدينة القديمة وقررت الا تظهر الا بعد ان تطمئن وتتأكد من أن البقال قد عاد الى منزله .

إن هذا البل عجيب جدا وهذه المدينة بكل سكانها عجيبة أيضا . ذلك لأنهم لا ينتبهون اليك اذا لم تظهر أمامهم .

لقد تعلمت « لالا » أن تتسلل فى هدوء الى جوار حائط أو فى السلالم فهى تعرف جميع الأماكن التى من خلالها تستطيع أن تشاهد دون أن ترى . فالمخابىء خلف الأشجار أو فى أماكن انتظار السيارات والعربات أو فى زوايا الأبواب وفى الأراضى الفضاء وحتى فى وسط الشوارع الرئيسية المستقيمة حيث جموع وتيارات الناس والعربات المستمرة . والخلاصة أنها تعرف كيف تختفى . فى البداية كانت ذات علامة مميزة لأن شمس الصحراء قد أحرقت بشرتها وكذا بشعرها الطويل الأسود المجعد الملىء بشرارات الشمس . وكان الناس ينظرون اليها فى دهشة فكأنها قادمة من كوكب آخر ولكن الآن بعد أن مرت الشهور تغيرت « لالا » فقد قصت شعرها وقد انطفأ بريقه ولمعانه وأصبح شبه رمادى . وفى ظلال الحارات وفى البرد الرطب للشقة عند العمة انطفأت أيضا نعومة بشرتها وصارت شاحبة ورمادية . كما يوجد أيضا هذا المعطف الكستنائى والذى وجدته عند تاجر يهودى قريب من الكاتدرائية . كان المعطف طويلا حتى أنه وصل الى كعب

fb/mashro3pdf

قدمها كما ان اكمامه طويلة واكتافه متهدلة وأخص شيء فيه أنه مصنوع من نوع من البساط الصوفى بَلِيَ من فعل الزمن . وحين ترتديه فإنها تحس بأنها غير مرئية .

والآن وقد عرفت أسماء الشوارع من أفواه الناس . انها أسماء غريبة جدا حتى انها كانت تعيدها على نفسها فى صوت مسموع خاصة حين كانت تمر خلال المنازل . « شارع لاماجور » وشارع « لانوريت » و « ميدان النش » و « شارع البئر الصغير » وميدان « فيفو » وميدان « سادى كارنو » وشارع « تاراسك » وحارة « النور » وشارع « الحصان » و « طريق وفناء بلزونس » .

يوجد كثير من الشوارع بأسماء كثيرة ففى كل يوم تخرج « لالا » قبل أن تستيقظ العمة فتضع قطعة من خبز فى جيب معطفها الكستنائى وتبدأ فى السير وتستمر فيه فى بادىء الأمر تدور فى حلقات حول « السلة » حتى تصل الى البحر عن طريق شارع السجن حيث تضيء الشمس حوائط دار البلدية . جلست الفتاة لحظة لتشاهد السيارات وهى تمر . لم تجلس طويلا لأن رجال الشرطة يحضرون ويسألونها عما تفعله هنا .

استمرت فى سيرها نحو الشمال فاخترقت الشوارع الرئيسية المليئة بالضوضاء مثل « الكابنير » و « شارع دوحمير » و « شارع اثينا » ففيها أناس من جميع الجنسيات ومن جميع الأقطار والذين يتحدثون جميع اللغات .

وبعض أناس سود يعيونهم الضيقة ويرتدون سراويل طويلة بيضاء وينتعلون نوعا من الأحذية المكشوفة « البلغ » من البلاستيك وهناك أناس من الشمال بشعرهم وعيونهم الساحبة وبعض الجنود وبعض البحارة وكذا رجال أعمال منتفخو البطون ويمشون مسرعين ويحملون بعض الحقائب السوداء الغريبة الشكل .

fb/mashro3pdf

وهناك أيضا تحب « لالا » ان تجلس فى زوايا الأبواب لتشاهد كل هؤلاء الناس الذين يروحون ويغدون والذين يسيرون ويجرون . وعندما يكون هناك كثير من الناس فإن أحدا لا يلتفت اليها . فربما ظنوا أنها مثلهم وأنها تنتظر أحدا أو أى شيء وأنهم يأخذونها على أنها متسولة .

ففى هذه الأحياء حيث يوجد كثير من الناس وكثير من الفقراء وهؤلاء على وجه الخصوص من تريد « لالا » مشاهدتهم . إنها ترى نساء فى أسمال بالية باهتى الوجوه برغم وجود الشمس وهن ممسكات أطفالهن الصغار جدا بأيديهن . كما ترى رجالا يرتدون ملابس ممزقة كما رأت بعض السكارى بعيونهم القلقة وبعض الشحاذين وبعض الغرباء الجائعين . والذين يحملون بعض الحقائب من الكرتون وبعض زكائب فارغة للمؤن . إنها ترى بعض الأطفال الذين لا عائل لهم تعلو وجوههم القذارة وشعرهم مهوش ويلبسون ملابس قديمة واسعة جدا لنحالة اجسامهم . إنهم يسيرون مسرعين وكأنهم يقصدون مكانا ما . زائغى الأبصار كنظرات الكلاب الضالة . ومن مخبئها خلف السيارات الواقفة أو من ظل أحد الأبواب كانت الفتاة تشاهد جميع هؤلاء الناس الذين على محياهم الضياع والذين يسيرون وكأنهم نصف نيام فتلمع عيونها ببريق غريب حين تراهم . وفى هذه اللحظة ربما يكون هناك بعض من ضوء . ضوء الصحراء الكبير يقع عليهم . ولكنهم بالكاد يحسونه دون أن يعرفوا مصدره . وربما شعروا بقشعريرة خاطفة ولكنهم يرحلون سريعا فيندمجون مع الناس ويذوبون فيهم .

وفى بعض الأحيان تذهب بعيدا وتسير وقتا طويلا فى الشوارع حتى تتعب ساقاها . حتى انها لتجلس على حافة الإفريز لتستريح . انها تذهب الى ناحية الشرق على طول شارع رئيسى تحفه الأشجار من الجانبين حيث تسير كثير من السيارات وعربات البضاعة ثم مرت خلال التلال فى قلب الوادى . إنها أحياء يوجد بها كثير من أراضي فضاء وبعض النباتات الكبيرة كأحجار الحواجز

fb/mashro3pdf

البحرية . هذه النباتات بيضاء اللون وبها آلاف من النوافذ الصغيرة المتشابهة . وعلى مبعدة اكثر تجد « فيلات » محاطة بأشجار الغار والبرتقال يحرسها كلب شرس يجرى على طول السور الحديدى ينبح بكل قوته . كما توجد الكثير من القطط الضالة النحيلة والتى تسكن أعالى الحوائط وتحت السيارات الواقفة .

تسير « لالا » أيضا حيثما اتفق متبعة بعض الطرق . فهى تعبر الأحياء البعيدة حيث تخترقها بعض قنوات متعرجة مليئة بالناموس . كما انها تدخل مكان المقابر الفسيح وكأنه مدينة ذات صفوف من الأحجار الرمادية وصلبان صدئة . إنها لتصعد إلى أعالى التلال البعيدة جدا حتى أن المرء ليرى البحر فى صعوبة وكأنه نقطة زرقاء قذرة بين مكعبات النباتات وهناك ضباب غريب يمر فوق المدينة . وسحابة كبيرة رمادية ووردية وصفراء حيث يضعف الضوء . إن الشمس لتهبط من ناحية الغرب وقد شعرت الفتاة بالتعب الذى اجتاح جسدها وكذا بالنعاس . إنها لتنظر من بعيد الى المدينة التى تلمع . كما تنصت الى ضوضاء المحركات والقطارات التى تمر والتى تخترق الأنفاق المظلمة . انها لا تستشعر الخوف وأنها لتحس وكأن شيئا يتقلب داخلها كأنه دوار لعلها ريح « الشرق » وهى ريح الصحراء التى تصل إلى هنا والتى تعبر البحر وتخترق الجبال والمدن والطرق حتى تصل الى هنا ؟

من العسير ان تعرف . توجد قوى هائلة هنا . كما توجد ايضا ضوضاء هائلة وحركة ربما ضاعت الريح فى الشوارع أو السلالم أو فوق الأراضى الخالية .

لقد شاهدت « لالا » طائرة تصعد فى بطء الى السماء السابحة فى ضوضاء كالرعد . تدور فوق المدينة . إنها تمر أمام الشمس فتحجبها لمدة ثانية ثم تتجه الى البحر فيصفر حجمها شيئا فشيئا . تنظر اليها الفتاة بكل قوتها حتى

fb/mashro3pdf

تصير نقطة لا ترى . ربما كانت تطير فوق الصحراء هناك حيث مساحات الرمال الفسيحة والصخور هناك حيث يسير « الحارتانى » عندئذ ترحل الفتاة هى الأخرى فتهبط نحو المدينة بسيقانها الواهية .

هناك شيء محبب لنفس « لالا » لتفعله . وهو ان تذهب لتجلس على درجات السلم أمام محطة السكة الحديد لتشاهد المسافرين الذين يصعدون أو ينزلون . فهناك من يصل لاهث الأنفاس ويبدو التعب فى عيونهم وشعرهم أشعث غير ممشط ثم يهبطون الدرجات مترنحين من الضوء . وهنا من يذهب ويسرع خوفا من أن يفوتهم القطار فهم يصعدون الدرجات درجتين درجتين وتتخبط حقائبهم وزكائبهم فى أرجلهم . وعيونهم شاخصة الى مدخل المحطة ثم يتعثرون فى آخر درجات السلم ثم ينادون على بعضهم مخافة أن يضيعوا

تحب « لالا » أن تبقى قريبة من المحطة . « فهناك تحس بأن المدينة الكبيرة لم تفرغ بعد . فكان هذه الفتحة الكبيرة الفخمة والتى منها يستمر الناس فى الوصول وفى الرحيل وغالبا ما تفكر فى أنها ترغب لو أنها صعدت مرة الى القطار المتجه الى الشمال مع جميع هذه الأسماء للأقطار التى تجذب وتخيف فى نفس الوقت مثل : « ايرون » و « بردو » و « امستردام » و « ليون » و « ديجون » و « باريس » و « كاليه » .

وعندما تحصل على بعض النقود فانها تدخل « لالا » المحطة وتشترى زجاجة « كوكاكولا » من المقصف وتذكرة رصيف . ثم تدخل صالة المسافرين الكبرى تتنزه على كل الأرصفة أمام القطارات التى وصلت لتوها أو التى سترحل عما قريب . وفى بعض الأحيان كانت تصعد الى عربة وتجلس لحظة فوق الأريكة الجلدية الخضراء . ثم يصل الناس كل وراء الآخر ثم يحتلون أماكنهم فى المقصورات وكان بعضهم يسأل : هل هذا المقعد خال ؟ فتهز « لالا » رأسها ولكن عندما

fb/mashro3pdf

يعلن فى « مكبر الصوت » عن ان القطار سيرحل تسرع الفتاة فى النزول من العربة وتقفز على الرصيف .

إن المحطة هى أيضا من الأماكن التى فيها المرء يرى دون أن يُرى لأنها مليئة بالحركة والحيوية وبالسرعة لدرجة ألّا أحد يلاحظه الآخرون . فهناك أناس من جميع الأنواع فمنهم أناس سوء أو عصبيون والبعض يصيح بأعلى صوته والبعض الآخر محزونون وهناك الفقراء جدا وهناك العجائز التائهون الذين يبحثون عن رصيف قطارهم المسافر وهناك النساء اللائى معهن العديد من الأطفال الذين يجرون أرجلهم جرا وهم يحملون متاعهم على طول العربات العالية . كما يوجد جميع الذين قادهم الفقر الى هنا من السود الذين غادروا السفن فى طريقهم الى البلاد الباردة يلبسون القمصان القصار المتعددة الألوان ويحملون كل متاعهم فى حقيبة بحر . فسكان شمال افريقيا ذوو الوجوه المغلقة والذين يرتدون « الجاكتات » القديمة ويغطون رؤوسهم بأغطية الرأس الجبلية والكاسكتات التى تغطى الآذان . وبعض الأتراك والأسبان واليونانيين ولكنهم قلقون ومتعبون ويمشون على غير هدى على الأرصفة فى الهواء يصطدمون ببعضهم وسط الزحام زحام المسافرين اللامبالين والعسكريين المقطبين .

إن « لالّا » تشاهدهم وتكاد تكون مختفية بين مقصورة « التليفون » ولوحة الاعلانات انها غائصة فى الظل بوجهها النحاسى اللون والذى تخفيه بياقة معطفها . ويدق قلبها فى سرعة فى بعض الأحيان وتبرق عيناها ببريق كانعكاسات الشمس على الصخور فى الصحراء .

إنها تشاهد كل هؤلاء يذهبون الى مدن أخرى نحو الجوع والبرد والبؤس ، هؤلاء الذين سيستذلون والذين سيعيشون فى الوحدة . إنهم يمرون محنى الظهور وفى نظراتهم فراغ وملابسهم قد استهلكت من عدد الليالى التى ناموا فيها على

fb/mashro3pdf

الأرض كجنود مهزومين . انهم يتجهون الى المدن السوداء والى السماء المنخفضة نحو الدخان نحو البرد نحو المرض الذى يمزق الصدور . انهم يذهبون الى تجمعات فى الأراضى الطينية وفى المستوى المنخفض للطرق الرئيسية ونحو الحجرات المحفورة فى الأرض الشبيهة بالمقابر تحيطها اسوار عالية وحديدية . وربما لن يعودوا ابدا هؤلاء الرجال وهذه النساء والذين يمرون كأشباح يجرون أمتعتهم الثقيلة وأطفالهم . وربما سيموتون فى هذه البلاد التى لا يعرفونها بعيدين عن قراهم وعن عائلاتهم . إنهم يذهبون إلى هذه المدن الأجنبية التى ستأخذ منهم الحياة وتطحنهم وتلتهمهم .

ظلت « لالّا » دون حراك فى ركنها المظلم . تعكرت نظرتها اذ هذا ما تفكر فيه . وكانت تود كثيرا فى ان تذهب فتسير خلال شوارع المدينة حتى تصل الى مكان تنتهى فيه المساكن وحيث لا توجد حدائق ولا طرق زراعيه ولا شواطىء ولكن يبقى الطريق الضيق تماما كالماضى الذى ينتهى الى الصحراء .

يحل الليل على المدينة وتسطع الأنوار فى الشوارع وحول المحطة والأعمدة الحديدية وكذا الشارات الحمراء والبيضاء والخضراء أعلى المقاهى ودور الخيالة . وفى الشوارع المظلمة تسير « الفتاة » دون أن تحدث صوتا فهى تسير الى جوار الحائط . تبدو وجوه الرجال مخيفة حين يجن الليل وتكون نصف منيرة عن طريق مصابيح الشوارع . فتبرق عيونهم فى قسوة وتسمع وقع خطواتهم فى الممرات وتحت الأبواب الواسعة .

والآن تسير « لالّا » مسرعة كما لو أنها تحاول الهرب . وأحيانا يلاحقها رجل ويجد فى السير حتى يقترب منها وأن يمسك بذراعها ولكن « لالّا » تختبىء خلف سيارة ثم تختفى ثم تبدأ السير كالظل ثم تدور فى شوارع المدينة القديمة حتى شارع « السلة » حيث تقيم « العمة » فتصعد الدرج فى الظلام حتى لا يراها أحد أين تدخل ثم تتعثر فى الباب . وحينما تسمع صوت عمتها تناديها باسمها فى ارتياح .

fb/mashro3pdf

هكذا تقضى « لالا » الأيام فى المدينة الكبيرة « مرسيليا » تذرع شوارعها بما فيها من رجال ومن نساء والذين لن تعرفهم أبدا .

fb/mashro3pdf

لقد أدهش « لالا » فى أيامها الأولى عند وصولها كثرة الشحاذين . ولكنها الآن قد اعتادت ذلك . ولكنها لم تنس مطلقا أن تشاهدهم مثل اغلبية باقى الناس فى البلدة الذين يدورون دورة صغيرة حتى لا تطأهم أقدامهم أو الذين يعبرون من فوق أقدامهم إذا كانوا فى عجلة من أمرهم .

إن « رادكس » هو احد هؤلاء الشحاذين . على هذا عرفته « لالا » أثناء سيرها فى الشوارع الرئيسية بالقرب من المحطة . وذات يوم خرجت مبكرة من شارع « السلة » وما زال الوقت ليلا لأنه كان فصل الشتاء . ولم تكن الشوارع عامرة بالمارة أو فى السلالم بالمدينة القديمة والشارع الرئيسى إلى أسفل المستوصف كان خاليا وكان هناك فقط سيارات البضاعة تسير وقد أشعلت مصابيحها وهناك بعض من الرجال وبعض من النساء فوق دراجاتهم البخارية ملتفين بمعاطفهم .

هكذا رأت « لالا » « رادكس » . فقد كان جالسا متكوما فى ركن باب . فقد كان يحتمى بقدر ما يستطيع من الهواء ومن المطر الخفيف . وكان يبدو عليه أنه يعانى من البرد . وحينما اقتربت منه الفتاة نظر اليها نظرة غريبة لا كنظرات الصبية المعتادة حين يرون فتاة . فقد نظر اليها دون أن يخفض عينيه ولم يكن ليستطيع إنسان أن يقرأ ما فى نظرته مثلما ينظر الانسان فى عينى حيوان .

fb/mashro3pdf

وقفت « لالّا » أمامه وسألته « ما عساك تفعل هنا » « ألا تحس بالبرد ؟ » فهز الصبى رأسه دون أن يبتسم ثم مد اليها يده قائلا : « إعطنى أى شيء » . لم يكن معها سوى قطعة خبز وبرتقالة . هذا كل ما حملته لإفطارها . فأعطتها للصبى فاختطف البرتقالة فى سرعة ولم يقل لها كلمة شكر وبدأ فورا فى أكلها . وبهذا تعرفت « لالّا » عليه ومن بعد ذلك كانت تراه كثيرا فى الشوارع بالقرب من المحطة أو على السلم الكبير حين كان يسمح الوقت بذلك . فهو يبقى جالسا لعدة ساعات ينظر دائما إلى الأمام دون أن يلتفت للناس ولكنه قد أحب « لالّا » ربما بسبب البرتقالة فقد أخبرها أن اسمه « رادكس » حتى أنه كتب اسمه بغصن صغير على الأرض . ولكنه دهش حين أخبرته الفتاة أنها لا تعرف القراءة . لقد كان ذا شعر جميل اسود مجعداً . وبشرة نحاسية . عيناه خضراوان وله شارب صغير يظلل شفتيه . وعلى الأخص كانت له ابتسامة جميلة فى بعض الأحيان تظهر من ورائها أسنانه البيضاء . ويحمل فى أذنه اليسرى حلقة صغيرة ويدعى أنها من ذهب ولكن ملبسه كان يدل على فقر مدقع . فسرواله قديم ملىء بالبقع وممزقة وكومة من بلوفرات مهلهلة الخيوط ومن فوقها « جاكتة » لرجل فضفاضة جدا عليه . عارى القدمين فى حذاء من جلد أسود .

كانت « لالّا » تحب أن تراه بالصدفة فى الشارع وأنه فى كل مرة يبدو مختلفا . وفى بعض الأيام كانت عيناه تشعان حزنا كمن قد ضاع فى حلم ولن يستطيع انتشاله أحد منه . وفى يوم آخر يبدو مرحا وتلمع عيناه . إنه يحكى جميع أنواع القصص غير المعقولة والتى يخترعها فى الحال . ثم يبدأ فى الضحك لمدة طويلة دون قهقهة ولم يكن أمام الفتاة إلا أن تفعل مثله .

كم أحبت « لالا » أن يحضر ليراها فى منزل عمتها ولكنها لم تجرؤ لأن « رادكس » كان من الغجر . وهذا لا يرضى مطلقا « العمة » . كما أنه لا يسكن فى شارع « السلة » ولا حتى قريبا منه . فهو يسكن بعيدا جدا فى مكان ما فى

fb/mashro3pdf

الغرب الى جوار الخط الحديدى هناك حيث الأراضى الفضاء وصفائح الوقود والمداخن المتقدة ليلا ونهارا . إنه هو الذى أخبرها بذلك ولكنه لم يتحدث طويلا عن منزله ولا عن عائلته . وإنما قال فى بساطة إنه يسكن بعيدا جدا حتى يحضر إلى هذه المنطقة كل يوم وأنه عندما يحضر ينام فى الخارج بدلا من أن يرجع الى بيته فالأمر لديه سيان . ثم أخبرها بأنه يعرف مخابىء جيدة حيث لا برد بها ولا يشعر الانسان فيها بالهواء وأن لا أحد يستطيع أن يجده .

فمثلا هناك ما تحت السلالم أو فى مبانى الجمرك المتهدمة حيث توجد هناك حفرة ارتفاعها ارتفاع طفل ينزلق فيها الانسان ثم يسد المدخل بقطعة من الكرتون أو هناك بعض الأكواخ التى توضع فيها أدوات أو بعض عربات النقل التالفة والمهملة . إن « رادكس » يعرف كل هذه المخابىء . وفى أغلب الأحيان يتواجد حول المحطة . وعندما يكون الجو لطيفا والشمس دافئة فانه يجلس على الدرجات الكبرى فتأتى « لالا » لتجلس إلى جواره . إنهما يشاهدان المارة معا . وحين يكتشف « رادكس » شخصا معينا فانه يلتفت إلى « لالا » قائلا : « سوف ترين » ثم يتجه مباشرة الى هذا المسافر الذى يغادر المحطة تعلوه الدهشة بسبب الأنوار ويطلب منه أن يمنحه قطعة من النقود . وبما أن ابتسامته مغرية وأن نظراته بها حزن ظاهر فإن المسافر يتوقف ويبحث فى جيوبه ليعطيه . إن أغلب من يعطى « رادكس » هم الرجال فى الثلاثين من أعمارهم وأصحاب الملابس النظيفة الغالية والذين لا يحملون كثيرا من الأمتعة . أما النساء فالأمر ليس بهذه السهولة ذلك لأنهن يردن أن يسألن أسئلة كثيرة ورادكس لا يحب ذلك . كما أنه حين يرى إمرأة شابة ومظهرها حسن فإنه يدفع « لالّا » نحوها قائلا : إذهبى إليها واسأليها منحة » .

ولكن « لالا » لا تجرؤ على أن تطلب نقودا . فهى تخجل من ذلك ولكن فى بعض الأحيان تود لو يكون معها بعض النقود حتى تأكل كعكة أو تذهب إلى « السينما » .

fb/mashro3pdf

« ستكون هذه آخر سنة لأفعل ذلك » قال « رادكس » ثم اردف « فى العام القادم سأرحل سأذهب لأعمل فى باريس « فسألته « لالا » لماذا ؟ فأجابها : « فى العام القادم سأكون قد كبرت كثيرا والناس لا تعطى الكبار شيئا فهم يقولون ما عليك الا أن تعمل » . ثم نظر إلى الفتاة مليا ثم سألها : « هل تعملين ؟ » فهزت رأسها نفيا . ثم أشار الفتى إلى شخص ما يمر هناك من جانب السيارات العامة وقال : « إنه يعمل أيضا معى فرئيسه نفس رئيسى » لقد كان زنجيا نحيلا جدا . إنه يتوجه إلى المسافرين ويحاول حمل حقائبهم ويبدو أن هذه عملية غير مربحة ثم هز « رادكس » كتفيه . « إنه لا يعرف كيف يتصرف . إنه يدعى « باكى » ولا أدرى ماذا يعنى هذا الاسم ولكن مجرد ذكر الاسم يثير الضحك بين الزنوج الآخرين . إنه لا يجلب كثيرا من النقود للرئيس . « فرمقته الفتاة فى دهشة وعلى ذلك قال « نعم إنك لا تعرفين » « الرئيس » إنه غجرى مثلى إنه يدعى « لينو » وهناك حيث يعيش الجميع نسميه « الفندق » فهو منزل كبير مملوء بالأطفال الذين يعملون جميعا لحساب « لينو » . إنه يعرف جميع الشحاذين فى المدينة بأسمائهم كما أنه يعرف أين يسكنون ومع من يعملون أو حتى هؤلاء الذين لا مأوى لهم والذين يعيشون بمفردهم . وهناك أطفال يعملون كعائلات مع أخوتهم وشقيقاتهم والذين يسرقون أيضا هذه الحوانيت الكبيرة ومحلات السوبر ماركت الكبيرة . فالصغار منهم يتعلمون كيف يراقبون أو كيف يموهون ويشغلون التجار أو يستخدمون فى بعض الأحيان كبديلين . وهناك خاصة النساء الغجريات اللائى يلبسن أرديتهن المشجرة ووجوههن مغطاة بأغطية سوداء ولا يرى منها سوى العينين فقط البراقتين السوداوين مثل عيون الطيور .

وهناك بعد ذلك العجائز من الرجال والنساء والبؤساء والجائعون الذين يتشبثون بملابس الرجال والنساء من السادة ولا يتركونهم وهم يرددون بعض الأدعية إلا بعد أن يعطوهم قطعة من نقود .

fb/mashro3pdf

لقد انقبض صدر « لالّا » عندما رأتهم أو حين قابلت امرأة شابة دميمه وطفلها يرضع صدرها وهى تشحذ فى ركن من أركان الشارع الرئيسى . إنها لم تكن تعرف معنى الخوف فهناك يعيش « الحارتانى » وحيث لا يوجد سوى الثعابين والعقارب أو على الأكثر الأرواح الشريرة التى تأتى باشارات مخيفة فى الظلام . أما هنا فالخوف هو خوف الفراغ والبؤس والجوع . والخوف الذى لا إسم له والروائح الكريهة التى تتصاعد من الأقبية المظلمة وتنفذ الى الغرف الباردة الرطبة كالمقابر أو تهب كريح كريهة على هذه الشوارع حيث يسير الرجال دون توقف . يسيرون ويروحون بلا توقف ليلا ونهارا لمدة شهور لمدة سنوات حيث تسمع ضوضاء أحذيتهم فتتصاعد أحاديثهم متثاقلة فى الهواء وكذا ضوضاء المحرك ممتزج باللهثات .

وفى أحيان تدور رأسها بشدة فيتحتم الجلوس فى الحال . إن « لالا » تبحث عن نقطة ارتكاز وينصبغ وجهها وينطفىء بريق عينها ثم تسقط على الأرض فى تثاقل وكأنها تسقط إلى أعماق بئر كبيرة دون أى أمل فى أن ينتشلها أحد .

« مابك ياآنسة ؟ » « سوف تتحسنين » صاح بها صوت من مكان ما ولكنه بعيد عن أذنها . لقد شمت رائحة « الثوم » قبل أن تسترد بصرها . لقد تكومت أسفل حائط وقد أمسك رجل يدها ومال عليها « ستتحسنين » ستشعرين بالتحسن ؟ » ثم استطاعت الكلام فى بطء شديد . أم تراها تفكر فقط فى تلك الكلمات . ساعدها الرجل على السير ثم حملها الى الشرفة فى مقهى والناس الذين تجمعوا ابتعدوا الآن . ولكن « لالّا » سمعت مع ذلك صوت امرأة قالت فى وضوح « إنها حامل هذا كل ما فى الأمر » . أجلسها الرجل الى مائدة واستمر منحنيا عليها . لقد كان قصيرا وممتلئا له وجه مستطيل جدا وشارب وشبه أصلع . « ستشربين شيئا فتشعرين بتحسن » . فقالت « لالا » « إنى جائعة » إنها غير مبالية بأى شيء . فلقد ظنت بأنها ستموت ثم أردفت قائلة مرة أخرى

fb/mashro3pdf

ولكن فى بطء شديد « إنى جائعة » فجن جنون الرجل ووقف ثم جرى الى الخزينة وجاء بشطيرة وبسلة من الفطائر . لم تصغ « لالّا » له بل التهمت الشطيرة بسرعة أولا ثم أتت على الفطائر الواحدة بعد الأخرى . فتأملها الرجل وهى تأكل وعلى وجهه إمارات التأثر ثم تحدث ثم توقف مخافة أن يتعبها . « حين رأيتك تسقطين هكذا أمامى تأثرت لذلك . هل هذه أول مرة يحدث لك هذا ؟ أريد أن أقول إن هذا فظيع وسط هذه الجموع فى الشارع فقد كان خلفك اناس كثيرون وربما وطأوك ولم يتوقفوا . ان اسمى « بول » « بول استيف » وأنت من أنت ؟ « أتتكلمين الفرنسية ؟ أنك لست من هنا أليس كذلك ؟ ترى أأكلت ما فيه الكفاية ؟ أتريدين أن أذهب وأحضر لك مرة أخرى شطيرة ؟ » لقد كان فى تنفسه رائحة الثوم ورائحة السجائر ورائحة النبيذ . أما « لالّا » فكانت راضية بأنه هنا فى هذا المكان ثم انها وجدته لطيفا ورقيقا . وقد برقت عيناها قليلا . لقد لاحظ الرجل ذلك فبدأ يتكلم حيثما اتفق فقد كان يلقى بالسؤال ثم بالجواب فى نفس الوقت . « أظنك الآن غير جائعة ؟ » « أتشربين شيئا ؟ » قليل من الكونياك لا فيحسن أن تشربى شيئا به سكر فهذا أفضل عندما يكون الانسان ضعيفا . كوكا كولا أو عصير فاكهة ؟ لعلى لا أضايقك كثيرا . هل تعرفين ان هذه أول مرة أرى فيها إنسانا يغمى عليه أمامى هكذا على الأرض . لقد أصابنى هذا بصدمة حقيقية . إنى أعمل . إنى موظف فى البريد . وهكذا فلست معتادا وأخيرا أريد أن أقول ربما يجب أن تذهبى لمقابلة طبيب أترغبين أن أذهب وأتصل تليفونيا ؟ » .

وكان قد وقف ولكن « لالا » هزت رأسها نفيا ثم اعتدلت فى جلستها . وبعد قليل شربت قليلا من الشاى الساخن فانقشع عنها التعب واصطبغ وجهها ثانية بلون النحاس وبرقت عليناها بالنور ثم وقفت وصحبها الرجل حتى الشارع .

« أمتأكدة أنت الآن أن كل شىء على ما يرام . وأنك تستطعين السير ؟

fb/mashro3pdf

« فقالت » نعم نعم شكراً . وقبل أن ترحل كتب بول استيف اسمه وعنوانه على قصاصة ورق « اذا احتجت لأى شىء ... » ثم شد على يدها . لقد كان بالكاد أطول منها قليلا وعيناه الزرقاوان تنطقان بالتأثر والانفعال .

« إلى الملتقى » قالت « لالّا » ذلك ثم سارت مسرعة بقدر ما تستطيع دون أن تلتفت إليه .

fb/mashro3pdf

توجد كلاب كثيرة فى كل مكان ولكنها ليست كالمتسولين . فهى تفضل المعيشة فى شارع « السلة » وبين ميدان « انشن » وشارع « المأوى » . تشاهدها « لالا » حين تمر . إنها تغنى لها . فلها شعر خشن وهى نحيلة جدا ولكنها لا تشبه الكلاب البرية التى كانت تسرق الدجاج والخراف فى الماضى فى البلدة . فهى أضخم وأكثر قوة كما يوجد فيها شىء خطير وميئس فى مظهرها . إنها تتوجه الى أكوام القمامات لتأكل فهى (تفترس) العظام القديمة ورؤوس الأسماك وبقايا ما يلقيه الجزارون . من بينها كلب أثير لدى « لالا » تعرفه جيدا فهى تراه دائما فى مكان معين تحت السلالم ناحية الشارع الذى ينتهى الى الكنيسة الكبيرة « المخططة » إنه أسود وحول رقبته شعر أبيض ينزل حتى صدره يسمى « ديب » « أوهب » فهى غير متأكدة ولكن الاسم لا أهمية له ما دام ليس له صاحب . فقد سمعت « لالا » صبيا يناديه بهذا الاسم فى الشارع . وكان حين يرى « لالا » يحس بشىء من الرضا فيهز ذيله ولكنه لا يقترب منها كما انه لا يسمح لأى شخص من الاقتراب منه . ولكن « لالا » كانت تداعبه فى بساطه ببعض الألفاظ وكانت تسأله عن حاله دون أن تتوقف وتستمر فى سيرها واذا كان معها أى شىء يؤكل فإنها تلقى اليه بقطعة منه .

إن القوم هنا فى شارع « السلة » أى الكل يعرف بعضهم بعضا تقريبا .

fb/mashro3pdf

وهذا مغاير لما فى باق المدينة حتى تسير أفواج من الرجال والنساء فى الشوارع محدثين ضوضاء مزعجة من صوت المحركات ووقع الأحذية . فهنا فى منطقة « شارع السلة » فإن الشوارع قصيرة وبها انثناءات كما أنها تصب فى شوارع أخرى وفى بعض حارات وبعض ممرات بها سلالم وهذا يشبه الى حد كبير شقة كبيرة بها ممرات وحجرات متداخل بعضها فى بعض . بالرغم من ذلك ففيما عدا الكلب الأسود . « ديب أو هيب » وبعض الأطفال الذين لا تعرف أسماءهم فان غالبية الناس لا يبدو أنهم حتى يرونها فهى تسير دون أن تحدث ضوضاء فهى تذهب من شارع الى آخر تابعة فى ذلك مسار الشمس والنور .

ربما كان القوم هنا خائفين ولكن ما الذى يخافونه ؟ من الصعب التكهن . إنهم يشعرون وكأنهم مراقبون وانه يجب عليهم ان ينتبهوا لكل شىء من قول أو فعل . مع انه فى الحقيقة لا أحد يراقبهم . وربما كان سبب هذا أنهم يتحدثون لغات متباينة . فهناك الافريقيون الشماليون والمغاربة والمراكشيون والجزائريون والتونسيون وهناك أيضا أُناس من افريقيا من السنغاليين والماليين والدهوميين ثم بعد ذلك اليهود الذين يأتون من جميع الجهات ولكنهم مع ذلك لا يتكلمون لغة بلادهم . كما يوجد البرتغاليون والأسبان والايطاليون وآخرون غرباء يشبهون الآخرين اليوغسلافيون والاتراك والارمنيون واللتوانيون . إن « لالا » تعرف ما تعنى كل هذه الأسماء ومع ذلك فإنهم يسمون كذلك هنا . أما العمة فتعرف هذه الأسماء جميعا كما يوجد على وجه الخصوص الغجر الذين يعيشون فى المنزل المجاور . إنهم كثيرون حتى إن الانسان لا يعرف مطلقا إن كان شاهدهم من قبل أو أنهم جاءوا من وقت قريب . إنهم لا يحبون العرب ولا الأسبان ولا اليوغسلاف . إنهم لا يحبون أحدا ذلك لأنهم لم يعتادوا أو يعيشوا فى مكان كمنطقة « السلة » . وعلى هذا فهم على استعداد دائما للعراك بعضهم مع البعض حتى الصبية الصغار وحتى النساء اللائى حسب قول « العمة » يحملن موسى حلاقة داخل أفواههن . ففى بعض الأحيان وأثناء الليل يستيقظ الانسان على ضوضاء معركة فى الشوارع

fb/mashro3pdf

الضيقة . فتهبط « لالا » الدرج حتى الشارع لتشاهد على نور اللمبات الضئيل رجلا يزحف على الأرض وقد غاصت سكين فى صدره . وفى الصباح يوجد مجرى من مادة لزجة على الأرض حيث يطن من حولها الذباب .

وفى بعض الأحيان يحضر رجال الشرطة ويوقفون سياراتهم الضخمة السوداء عند أسفل السلالم ثم يدخلون داخل المنازل خاصة التى يعيش فيها العرب والغجر . إن بعض رجال الشرطة يلبسون الزى الرسمى بقبعاتهم المألوفة ولكن هؤلاء لا يكونون الخطر الأكبر ولكنهم الآخرون منهم ومن يلبس الملابس المدنية فانهم يدقون الأبواب فى عنف لأن الواجب أن يفتح لهم فى الحال . ويدخلون الى الشقق دون أن يتكلموا ليروا من يسكن هناك . فقد حدث عند العمة ذات مساء أن جلس الشرطى على الأريكة التى تستعملها « لالا » كفراش فظننت أنه سيخرقها من ثقله حين تنام هذا المساء . جلس الشرطى وأخذ يسأل : ما الاسم ؟ وما اللقب ؟ واسم القبيلة ؟ وتصريح الاقامة ؟ وتصريح العمل ؟ واسم صاحب العمل ؟ ورقم التأمين الاجتماعى ؟ وعقد الايجار ؟ ووصل دفع الايجار ؟ .

إنه لم ينظر فى هذه الأوراق التى قدمتها له العمة الواحدة تلو الأخرى ولكنه كان يجلس على الأريكة يدخن سيجارته وعليه سيماء الملل . ثم نظر الى « لالا » الواقفة أمام باب العمة وهى على أهبة الاستعداد . ثم سأل الشرطى العمة « أهى ابنتك ؟ » « لا إنها إبنة شقيقى » أجابت العمة . أخذ الشرطى جميع الأوراق وفحصها ثم سأل « أين أهلها ؟ » لقد ماتوا « آه » قال الشرطى ثم نظر فى الأوراق كما لو كان يفكر « هل تعمل » ؟ « لا ليس بعد ياسيدى » أجابت العمة ثم إنها تقول سيدى عندما تكون خائفة . هل ستعمل هنا ؟ « نعم ياسيدى اذا وجدت عملا . فليس هذا سهلا أن نجد عملا لفتاة صغيرة » .

« أعندها سبعة عشر عاما ؟ » « نعم ياسيدى » يجب أن تنتبهى جيدا

fb/mashro3pdf

فهناك خطر كبير هنا لفتاة صغيرة عمرها سبعة عشر عاماً » . لم ترد العمة بشيء فاعتقد الشرطى أنها لم تفهم فأصر وتكلم ببطء ضاغطا على كل كلمة . وقد برقت عيناه كأنما قد راقه ذلك . « انتبهى حتى لا تنتهى ابنتك الى شارع » موازين الدقيق فهناك كثيرات مثلها هل تفهمين ؟ « نعم ياسيدى » أجابت العمة فهى لم تقو على تكرار أن « لالا » ليست ابنتها .

ولكن الشرطى شعر بنظرة « لالا » القاسية مصوبة اليه وهذا ما أقلقه فلم يقل شيئا لبضع ثوان وأصبح الصمت غير محتمل ثم انفجر الرجل البدين وقال فى صوت غاضب وعيناه تشعان غضبا « نعم انى افهم هكذا يقال ثم بعد يوم تكون ابنتك على الافريز عاهرة تتقاضى عشرة فرنكات ويجب الا تأتى عندئذ تبكين ثم تقولين إنك لا تعرفين لأنى كنت قد أنذرتك من قبل » .

كان يصيح وهو يتكلم حتى انتفخت أوداجه . فبقيت العمة دون حراك مشلولة ولكن « لالا » لم تخش الرجل البدين فحدجته فى قسوة ثم تقدمت نحوه وقالت « اخرج من هنا » . فنظر اليها الشرطى دهشا كمن وجهت اليه إهانة وهم بفتح فمه ويقوم من مجلسه ربما ليصفعها ولكن نظرة الفتاة كانت قاسية كالمعدن صعبة الاحتمال وعلى ذلك قام الشرطى فى عنف وفى لحظة كان فى الخارج . وهبط الدرج مسرعا وسمعت « لالا » صفعة الباب الخارجى للمنزل . لقد رحل .

الآن بكت العمة واعتمدت رأسها بيديها وجلست على الأريكة فاقتربت منها الفتاة وأحاطت كتفيها وقبلت وجنتيها لتسرى عنها . « ربما كان لزاما علىّ الرحيل من هنا » قالت ذلك فى صوت رقيق عذب كما لو كان الإنسان يحادث طفلا .

« فاذا رحلت فربما كان ذلك خيرا » فأجابت العمة « لا ... لا » ثم

fb/mashro3pdf

اجهشت فى البكاء . وفى الليل حين كان الناس نياما من حولها ولم يبق سوى صوت الريح فى « زنك السقف » وقطرات الماء التى تسيل فى مكان ما فى مجرى صغير . بقيت « لالا » ممدة على الأريكة مفتوحة العينين فى الظلام تفكر فى بيت البلدة هناك بعيدا حين كانت تأتى الرياح الباردة أثناء الليل . فكرت فى أنها تود لو تدفع الباب لتخرج كما فعلت فيما مضى يلفها الليل البهيم وبآلاف النجوم فيشعر بالأرض الصلدة والمتجمدة تحت أقدامها العارية وكانت تستمع الى فرقعة البرد وصياح الطيور وصراخ البوم البديع ونباح الكلاب البرية . لقد فكرت فى انها ستسير هكذا وحيدة فى الليل حتى التلال الصخرية وسط غناء الجراد أو على طول الطريق الضيق للكثبان يجذبها تنفس البحر .

وبكل قواها تأملت الظلام لتفحص عما وراءه وكأن نظرتها تستطيع أن تفتح من جديد السماء حتى تظهر الوجوه المختفية وخطوط السقوف المغطاة والحوائط المعرشة بالألواح وكرتون وأشباح التلال والجميع ونعمان العجوز وفتيات النافورة والسوس وأبناء العمة و « الحارتانى » على وجه الخصوص كما كان دائما لا يتحرك فى حرارة الصحراء واقفا على ساق واحدة وجسده ووجهه ملفوفان دون كلام ولا علامة غضب أو تعب واقفا لا يتحرك أمامها كمن ينتظر الموت وحين جاء رجال الصليب الأحمر ليحملوها . إنما تود أن تراه أيضا هذا الذى تسميه « السر » والذى نظرته تأتى من بعيد فتشملها وتلفها وتنفذ داخلها كنور الشمس .

ولكن أفى مقدورهم أن يأتوا جميعا الى هنا من الجانب الآخر لكل شىء ؟ هل يستطيعون أن يجدوا الطريق السليم وسط هذه الطرق وأن يجدوا هذا الباب بين العديد من هذه الأبواب ؟ لقد ظل الظل كثيفا والفراغ كبيرا جدا فى الحجرة حتى أنه حفر حفرة مقعرة أمام جسم « لالا » وأن الدوار جذبها الى الأمام فتشبثت بكل قواها بالأريكة وقاومت وكان جسدها مشدودا حتى الانفجار . ودت لو أنها

fb/mashro3pdf

صرخت حتى تكسر هذا الصمت وتنتزع اثقال الليل . ولكن احتبس صوتها فى حلقها وكانت تلهث ولم تخرج أنفاسها إلا بصعوبة وبمجهود . فكان يصفر كأنه بخار .

مرت بضع دقائق أو ربما بضع ساعات فقد جاهدت هذا التقلص الذى انتاب جسدها وأخيرا وفجأة لاح نور الفجر فى فناء المبنى شعرت « لالّا » بأن هذا الاضطراب قد فارقها وابتعد عنها . فسقط جسدها على الأريكة . فذكرت الطفل الذى تحمله فى أحشائها وللمرة الأولى أحست بالخوف والقلق لأنها أساءت الى مخلوق يعتمد عليها . فوضعت يديها على جانبى بطنها حتى أحست بشدة وعمق الحرارة فبكت طويلا فى سكون وكانت دموعها تنساب فى شهقات كما لو كانت تتنفس .

fb/mashro3pdf

إنهم سجناء منطقة « السلة » وربما لم يعلموا بهذه الحقيقة فربما يعتقدون أن في استطاعتهم أن يبتعدوا يوما ولا يعودون إلى قراهم الجبلية أو إلى الأودية الطينية ويجدون من تركوهم من أهل وأولاد وأصدقاء . ولكن هذا محال فإن الشوارع الضيقة ذات الحوائط المتآكلة والشقق المظلمة والحجرات الرطبة والباردة حيث الهواء الرمادى الذى يجثم على صدورهم وكذا المشاعل الخانقة حيث تعمل الفتيات على آلات وماكينات تصنع السراويل والأردية وصالات المستشفى وأمكنة البناء والطرق حيث تتفجر فيها أصوات المطارق . كل هذا يمسك بهم ويعتصرهم ويجعلهم سجناء ولا يستطيعون التحرر .

والآن وقد وجدت « لالا » عملا كخادمة فى « فندق سانت بلانش » عند مدخل المدينة القديمة ناحية الشمال وليس بعيدا عن الشارع الرئيسى الذى قابلت فيه « رادكس » للمرة الأولى . ففى كل يوم ترحل مبكرة قبل فتح الحوانيت فتلتف جيدا فى معطفها الكستنائى بسبب البرد وتعبر المدينة القديمة كلها ثم تسير عبر طرقات ضيقة مظلمة وتصعد السلالم حيث الماء القذر يسيل من كل درجاتها . لا يوجد أناس كثيرون فى الخارج وليس هناك سوى الكلاب التى تبحث عن بقايا المأكولات بين أكوام القاذورات . إن « لالا » تحتفظ دائما فى جيبها بقطعة من خبز قديم لانهم لا يطعمونها فى الفندق . وفى بعض الأحيان

fb/mashro3pdf

تتقاسمها مع الكلب الأسود « ديب أو هيب » وما أن تصل الى الفندق حتى يقدم لها صاحب الفندق دلوا ومكنسة لتغسل الدرج برغم أنه قذر جدا حتى أن « لالا » ترى أنه جهد ضائع إن صاحب الفندق رجل غير مسن ولكن وجهه تعلوه صفرة وعيناه متورمتان كأنه لم ينم جيدا . إن فندق « سانت بلانش » مكون من ثلاثة طوابق نصفها خرب ويستغل دوره الأرضى حانوتا لحمل الموتى . ففى أول مرة دخلت فيه « لالا » شعرت بالخوف وكادت تغادر المكان سريعا ذلك لأن المكان فى غاية القذارة وبارد ورطب وتنبعث منه رائحة كريهة . ولكنها الآن قد اعتادت عليه . فهو شبيه بشقة العمة أو مثل حى « السلة » فقد اعتادت على هذا والمسألة مسألة عادة . فما عليها إلا أن تغلق فمها وتتنفس فى بطء حتى لا تسمح بدخول رائحة الفقر الى داخل جسدها وكذا رائحة المرض ورائحة الموت التى تخيم على المكان . تحت هذا الدرج وفى هذه الممرات وفى هذا المكان الذى تعيش فيه العناكب والصراصير .

إن مالك الفندق « يونانى » أو « تركى » فالفتاة غير متأكدة . فحين يسلمها الدلو والمكنسة والفرشاة فإنه يستدير وينصرف لينام فى حجرته فى الطابق الأول . إن باب حجرته من الزجاج حتى يستطيع مراقبة من يخرج أو يدخل وهو فوق سريره . إن هذا الفندق سكن للبؤساء والفقراء فقط من الرجال . إنهم من شمال افريقيا ويعملون فى المبانى أو من بعض الزنوج من جزر « الانتيل » وبعض الأسبان الذين لا عائلات لهم ولا منازل فهم يسكنون هنا حتى يعثروا على مسكن أفضل . ولكنهم قد اعتادوا عليه فمكثوا فيه وغالبا ما يعودون دون أن يجدوا مكانا بسبب غلاء المساكن . وأن أحدا لا يرغب فيهم فى المدينة . وعلى ذلك فإنهم يضطرون للمعيشة فى هذا الفندق . إثنان أو ثلاثة أشخاص فى الحجرة الواحدة دون أن يتعارفوا . وفى كل صباح حين يرحلون إلى أعمالهم فإنهم يدقون على الباب الزجاجى لصاحب الفندق ليدفعوا له ثمن المبيت مقدما عن اليوم القادم .

fb/mashro3pdf

وعندما تنتهى « لالا » من حك درجات السلم القذرة والمشمع الذى يغطى الممرات تقوم الفتاة بمسح دورة المياه وصالة الحمام الوحيدة بالفرشاة . بالرغم من أن هناك أيضا طبقة من القاذورات سميكة حتى أن الفرشاة لا تنظف أى جزء منها . ثم بعد ذلك ترتب وتعد الحجرات فتفرغ بقايا السجائر وتكنس الفتات والتراب . ثم يعطيها صاحب الفندق مفتاحه الرئيسى فتذهب الفتاة من حجرة الى حجرة . لم يعد هناك أحد فى الفندق فقد أعدت الغرف سريعا . ذلك أن ساكنيها فقراء وليس لديهم ما يتركونه فيها . فلا يوجد بها سوى الحقائب الكرتونية أو الزكائب من البلاستيك والتى تحتوى على ملابس قذرة وقطع صغيرة من الصابون على ورق جريدة . فى بعض الأحيان توجد بعض الصور فى حافظة فوق المائدة . تنظر « لالا » الى وجوه هذه الصور الباهتة فبعضها وجوه أطفال رقيقة أو لسيدات نصف مطموسة كأنها وسط ضباب . كما توجد بعض الرسائل أيضا فى مظروف كبير أو بعض المفاتيح وحافظات نقود فارغة أو بعض تذكارات اشتريت من متجر بالقرب من الميناء . أو بعض لعب من البلاستيك للأطفال الذين ترى صورهم الباهتة . إنها تتأمل هذه الكنوز التافهة وكأنها نصف حالمة وكما لو كانت تستطيع الدخول إلى عالم الصور المختلط بعضها ببعض أو تستطيع أن تجد رنة الأصوات والضحكات وشعاع الابتسامات . ثم يتلاشى كل ذلك فجأة فتستمر فى كنس الحجرات ورفع بقايا الطعام بعد الأكلات السريعة . وفى أحيان أخرى تجد « لالا » فوق سرير من الأسرة مجلة بالصور الفاضحة لنساء عاريات وصدورهن عارية منتفخة كالبرتقالة ونساء قد صبغن شفاههن باللون الأحمر القانى وعيونهن ملطخة بالأزرق أو الأخضر وشعرهن الأشقر والأحمر وعلى صفحات هذه المجلة آثار « مَنِى » قد التصق بها وصور قذرة كأنها مرغت فى التراب ووطأتها أقدام الناس . تأملت « لالا » المجلة لمدة طويلة فخفق قلبها فى سرعة من الحسرة والقلق ثم قامت بوضع المجلة على الفراش الذى أعدته بعد أن نظفت تماما صفحات المجلة ورتبت غطاءها كما لو كان هذا أيضا تذكاراً ثمينا .

fb/mashro3pdf

وطيلة وقت عملها من مسح أو إعداد الغرف فإنها لا تقابل بشرا . كما أنها لا تعرف وجوه ساكنى هذا الفندق . ومن جانبهم فإنهم حين يرحلون إلى أعمالهم فى الصباح فإنهم يكونون فى عجلة من أمرهم فيمرون أمامها دون أن يلتفتوا اليها . كما أن الفتاة قد ارتدت رداء كيلا لا يراها أحد . فتحت معطفها الكستنائى ترتدى ثوبا رماديا من أثواب « العمة » يكاد يصل حتى كعبيها وتعصب رأسها بمنديل كبير وتنتعل « صندلا » من الكاوتشوك الأسود ففى ممرات الفندق المظلمة أو فوق المشمع الأرضية الذى فى لون النبيذ وأمام الأبواب الملوثة فهنا تبدو كطيف من الصعب تمييزه بالنظر كأنها كومة من قماش . فإن كل من يعرفها هنا إنما هو مالك الفندق والحارس الليلى الذى يبقى عادة حتى الصباح فهو جزائرى طويل القامة ونحيل جدا وذو وجه قاس وعيناه جميلتان وخضراوان كعينى نعمان الصياد فهو يحيى « لالا » دائما باللغة الفرنسية ويقول لها بعض الكلمات الطيبة والرقيقة فى صوت عال أجش فتجيبه الفتاة بابتسامة . فلعله الوحيد هنا الذى لاحظ بأن « لالا » فتاة شابة كما لعله الوحيد الذى رأى أن لها وجها جميلا وذلك من خلال كومة الملابس التى ترتديها وأن لونها نحاسى وأن عينيها تشعان نورا أما بالنسبة للآخرين فكأنها غير موجودة .

وحين تفرغ من عملها فى الفندق تكون الشمس ما زالت عالية فى السماء . وعلى ذلك تهبط الفتاة الى الشارع الرئيسى المتجه للبحر . ففى هذه اللحظة لا تفكر فى شىء مطلقا غير البحر وكأنها نسيت كل شىء . فعلى جانبى الطريق الرئيسى يتزاحم الناس ويسرعون فى خطاهم حول المجهول فبعض الرجال يلبسون نظاراتهم التى تلمع ثم يذهبون . وهناك الفقراء فى ملابسهم المتآكلة والذين يذهبون فى الاتجاه العكسى عيونهم ترقب كالثعالب وتوجد مجموعات من الشابات فى ثيابهن الضيقة ويسرن محدثات أصواتا بكعوب أحذيتهن .

إن السيارات والدراجات و « الموتوسيكلات » تسير فى أقصى سرعة نحو

fb/mashro3pdf

البحر أو إلى أعلى المدينة . كلها مليئة بالرجال وبالنساء الذين لهم نفس الوجوه . إن « لالا » تسير على الأفريز فترى كل ذلك : هذه المحركات ، هذه الأشكال وسطوع الأنوار وكل هذا ينفذ الى داخلها فيثير اضطرابا . إنها جائعة وجسمها متعب بسبب عملها فى الفندق ومع هذا فعندها رغبة فى السير لترى مزيدا من النور أو لتطرد هذا الظلام المتكدس فى داخلها . إن ريح الشتاء الباردة تهب فى فترات مفاجئة على طول الشارع الرئيسى فتثير الأتربة وقصاصات الصحف القديمة فتغمض الفتاة عينيها نصف إغماض ثم تقدمت مائلة الرأس إلى الأمام كما كانت تفعل فى الصحراء . تقدمت الى مصدر النور فى نهاية الشارع .

وعندما بلغت الميناء أحست بنشوة داخلها فترنحت على حافة الافريز . فهنا تدور الرياح فى حرية طاردة أمامها ماء الميناء ومجلجلة اجزاء السفن . إن النور يأتى من مكان أكثر بعدا من الأفق إلى أقصى الجنوب . سارت « لالا » على طول الأرصفة نحو البحر . ومن حولها ضوضاء الرجال والمحركات ولكنها لم تعبأ بها . لقد ذهبت إلى الكنيسة الكبيرة «المخططة» تارة تجرى وتارة تمشى ثم ابتعدت أيضا فقد دخلت إلى المنطقة المهملة من الأرصفة هناك حيث تهب الرياح فتثير عاصفة من أتربة الأسمنت .

ساد السكون فجأة هنا. كأنه سكون أتى من الصحراء فأمامها مساحات بيضاء ممتدة من الأرصفة حيث يلمع نور الشمس بقوة . سارت « لالا » على مهل فى ظل الهياكل الهائلة لسفن الشحن تحت الخطافات المعدنية وبين صفوف الخزانات الحمراء . لا بشر هنا ولا محركات عربات لا شىء سوى الحجر الأبيض والأسمنت وماء الأحواض الداكن . فاختارت مكانا بين صفين من البضائع المفرغة المغطاة بقماش أزرق وجلست تحتمى من الهواء لتأكل خبزا وجبنا وهى تتطلع الى ماء الميناء . ففى بعض الأحيان يمر بها بعض من طيور البحر مرفرفة بأجنحتها فتذكر « لالّا » مكانها بين الكثبان وطائرها الأبيض الذى كان أميرا من أمراء

fb/mashro3pdf

البحر كانت « لالا » تقتسم خبزها مع طيور البحر الصغيرة كما كانت تأتى بعض الحمائم أيضا . كان كل شيء هادئا هنا . لا أحد يأتى ليبحث عنها غير أنه من وقت لآخر كان يمر بها صياد يسير على طول الرصيف بغابته (بوصه) فى يده باحثا عن مكان مناسب ليصيد سمكه . وكان بالكاد يلتفت إلى الفتاة بطرف عينيه ثم يتجه إلى داخل الميناء أو أن طفلا يسير ويداه فى جيوبه ويسلى نفسه بأن يركل علبة فارغة من علب المأكولات المحفوظة .

شعرت « الفتاة » بأشعة الشمس تنفذ إلى داخلها وتملؤها شيئا فشيئا فتطرد كل ما هو حزين وغائم داخلها . فلم تعد تفكر فى بيت العمة ولا فى الأقبية المظلمة التى تسبح فى ماء الغسيل كما لم تفكر فى فندق « سانت بلانش » ولا حتى فى هذه الشوارع الضيقة ولا الشوارع الرئيسية حيث يسير الناس دون انقطاع فلقد أصبحت كقطعة من حجر يغطيها الطحلب والزبد لا حركة فيها ولا تفكير ولكنها مستمتعة بأشعة الشمس وحرارتها . وفى بعض الأحيان يغلبها النعاس فتنام مستندة الى القماش الأزرق وذقنها مدفون بين ركبتيها وتحلم كأنها فى قارب ينساب بها فوق بحر هادىء الى الطرف الآخر من العالم .

لقد كانت تنزلق الشاحنات فى بطء فى الأحواض السوداء فى اتجاه باب الميناء تريد البحر والرحيل وكانت « لالا » تتسلى بتتبعها وهى تجرى على الرصيف وكانت تتوغل الى أقصى حد ممكن . لأنها لا تستطيع قراءة أسمائها ولكنها كانت تشاهد أعلامها وتشاهد بقع الصدأ أعلى هياكلها وصواريها الضخمة المطوية ومداخنها المرسوم عليها بعض النجوم أو الصلبان أو المربعات أو الشمس . وكأن أمام الشاحنات قارب القيادة الذى يرشدها وكان يتمايل فى سيره كحشرة . وحينما تصل الشاحنات إلى أعلى البحار فإنها تطلق نفيرها مرة أو مرتين كأنها تقول « إلى الملتقى » .

fb/mashro3pdf

إن مياه الميناء جميلة أيضا . و « لالا » تجلس وظهرها مستند إلى وتد حديدى وساقاها متدليتين فوق الماء . إنها تشاهد بقع البترول التى تتكون وتتفكك كالسحب والتى تجرف معها إلى السطح تلك الأشياء الغريبة من زجاجات الجعة وقشر البرتقال وأكياس البلاستيك وقطعا من الخشب والحبال ونوعا من الزبد الأسمر الذى لا يعرف مصدره ولكنه يتحلل ويذوب كاللعاب على طول الرصيف . وعندما تمر سفينة يتصاعد رذاذ من خطوط سيرها حين تشق الماء فيصطدم بالأرصفة . كما أن الرياح تهب فى عنف من وقت لآخر فتحدث تجاعيد فى الأحواض ورعشات تعكر ظل المراكب .

وفى بعض أيام الشتاء حين تكون الشمس ساطعة يأتى « رادكس » المتسول لملاقاة « لالا » إنه يسير متمهلا على طول الرصيف ولكن « لالا » تعرفه على بعد فتخرج من مخبئها وتصفر له من بين أصابعها كما كانت تفعل فى الماضى مع الرعاة فى بلد « الحارتانى » فيأتى الصبى على عجل ويجلس إلى جوارها على حافة الرصيف ويظلا برهة دون أن يتحدثا ليشاهدا ماء الميناء .

ثم يعرض الصبى على الفتاة شيئا لم تلاحظه مطلقا من قبل . فعلى سطح الماء الأسود بعض فقاعات تنفجر فى هدوء وتصنع موجات . فى بادىء الأمر نظرت « لالا » إلى السماء اعتقادا منها أنها من قطرات المطر . ولكن السماء صافية . وأخيرا فقد فهمت أنها فقاعات تأتى من القاع وتنفجر على سطح الماء . جلسا سويا يتسليان برؤية انفجار هذه الفقاعات « هنا ... هنا ... هناك أيضا انظر هناك و .. هناك » .

من أين تأتى هذه الفقاعات ؟ فيجيبها « رادكس » إنها تأتى من تنفس السمك ولكن الفتاة تعتقد أنها تأتى من النباتات المائية . وقد ذكرت الآن نباتاتها الخفية التى تتحرك فى قاع الميناء .

fb/mashro3pdf

بعد ذلك أخرج « رادكس » علبة ثقاب وقال إنه يدخن ولكن الحقيقة أنه ليس التدخين هو الذى يحبه وإنما يعجبه جدا أن يحرق أعواد الثقاب . وحين يكون لديه بعض المال فإنه يذهب الى مكتب لبيع التبغ ويشترى علبة كبيرة من الثقاب عليها رسم غجرية ترقص ثم يذهب الى ركن هادىء ثم يحك الثقاب الواحد بعد الآخر . إنه يفعل ذلك فى سرعة لا لشىء سوى أن يسر حين يرى رأس الثقاب الأحمر الصغير يشتعل محدثا ضوضاء كالصاروخ وبعد ذلك يرى اللهب الجميل البرتقالى اللون وهو يتراقص فى نهاية عود الثقاب الخشبى وبعد أن يحيطها بكفيه .

هناك رياح قوية تهب على الميناء وعلى « لالا » أن تقيم خيمة حين تباعد بين أطراف معطفها حتى تشعر برائحة الفوسفور وحرارته التى تلسع أنفها . وفى كل مرة يوقد « رادكس » عودا من الثقاب يضحك الأثنان فى قوة ويحاول كل منهما أن يمسك بنهاية الثقاب الخشبية كل بدوره ثم شرح « رادكس » كيف يحرق عود الثقاب كله وذلك بأن يبلل طرف أصابعه بلعابه ثم يقبض باصبعين على القطعة الملتهبة . لقد أحدث هذا صوتا صغيرا حين أخذت الفتاة الثقاب من الناحية الملتهبة وما زالت حمراء فقد احترق اصبعيها السبابة والكبير فلم يكن هذا الاحتراق غير مقبول فقد رأت اللهب وقد التهم كل العود انثنى الفحم كأنه كائن حى . ثم دخن الأثنان لفافة سويا وقد اسندا ظهريهما إلى القماش الأزرق وسبحا ببصرهما إلى المجهول ناحية الماء العكر فى الميناء وفى السماء المشبعة بالتراب والأسمنت . سال « رادكس » « كم عمرك ؟ » سبعة عشر ولكن قريبا سأبلغ الثامنة عشرة فأجاب « رادكس » أما أنا فسأبلغ الرابعة عشرة الشهر القادم ثم فكر قليلا وهو مقطب الحاجبين وقال : « هل قمت بمضاجعة رجل ؟ » فوجئت « لالا » بالسؤال وقالت « لا .. بل نعم .. لماذا ؟ » ولكن « رادكس » كان منشغلا حتى أنه نسى أن يقدم للفتاة « اللفافة » بل أخذ منها نفسا تلو نفس دون أن يبتلع الدخان . ثم قال « أما أنا فلم أفعل هذا » « تصنع ماذا » إنى لم

fb/mashro3pdf

أضاجع قط إمرأة « إنك حديث السن » . فقال « رادكس » « هذا غير صحيح ثم أصبح عصبى المزاج وأخذ يتلعثم قليلا بكلام غير مفهوم » هذا غير صحيح « أنا ... لقد فعلها جميع أصدقائى وحتى بعضهم له امرأة خاصة به . إنهم يسخرون منى ويقولون إنى مصاب بالشذوذ ذلك لأنه لا امرأة لى « ثم فكر برهة وهو يدخن لفافته » ولكن سيان عندى فلا أهتم لما يقولون ولكنى أعتقد أنه لا يضح أن ينام الرجل مع المرأة لمجرد التباهى أو المزاج . تماما مثل السجائر هل تعرفين أنى لا أدخن أمام الآخرين مطلقا وهناك فى الفندق يعتقد الجميع بأنى لم أدخن مطلقا وهذا موضع مزاحهم . ولكنهم لا يعرفون . ولكن هذا لا يهمنى وافضل الّا يعرفون . والآن وقد اعطى اللفافة من جديد للفتاة وكانت على وشك الانتهاء فلم تأخذ منها « لالا » سوى نفس واحد ثم داستها بقدمها على الرصيف .

« هل تعلم أنى على وشك أن يكون لى طفل ؟ » . لم تعلم لماذا صرّحت بذلك « لرادكس» فمحصها بنظرة طويلة فقد غطت عينيه سحابة داكنة ولكن ذلك انقشع فجأة قال فى جدية « هذا حسن هذا حسن إنى مسرور » .

لقد كان مسرورا جدا حتى أنه لم يبق جالسا لأنه وقف وسار ناحية الماء ثم عاد للفتاة « هل ستحضرين لرؤيتى هناك حيث أسكن ؟ » فأجابت « لالا » « هذا إذا أردت » . « هل تعرفين أنى أسكن بعيدا . يجب أن تركبى سيارة عامة ثم بعد ذلك تمشين على قدميك مدة طويلة حتى الخزانات فاذا أردت فسنذهب سويا وإلا فستضلين الطريق » .

ثم رحل عنها وهو يعدو وقد غربت الشمس الآن حتى لم تعد بعيدة عن خط المنازل والعمارات التى ترى فى الطرف الآخر من الرصيف . إن الشاحنات دائما واقفة لا حراك بها تشبه تماما صخور الساحل وقد أصابها الصدأ ولا تزال طيور البحر الصغيرة تمر من أمامها محومة على مهل وترقص حول صواريها .

fb/mashro3pdf

توجد بعض أيام تسمع فيها « لالا » صوت الخوف . انها لا تعرف جيدا طبيعة هذا الصوت ولا ماهيته . إنها تسمع هذا الصوت . وكأنه ضربات مطارق على السقوف المعدنية أو أنه ضوضاء مكتومة والتى لا تأتى عن طريق الأذن ولكنها تأتى من أخمص قدميها ويسمع صداها داخل جسمها . إنها الوحدة وربما كان الجوع أيضا . الجوع الى الرقة والنور والأغانى . الجوع إلى كل شيء . وما أن غادرت « سانت بلانش » بعد الفراغ من عملها حتى شعرت بنور السماء الصافى الذى غمرها وأفقدها توازنها فأخفت رأسها وأدخلتها بقدر استطاعتها فى ياقة معطفها الكستنائى كما غطت شعرها حتى عينيها بوشاح « العمة » ولكن شدة بياض السماء وصلت اليها دائما . وكذا خلو الشوارع من المارة . فقد شعرت بغثيان يصعد من بطنها ويصل إلى حلقها فملأ فمها بالمرارة . فجلست الفتاة مسرعة فى أى مكان ودون أن تحاول تفهم الوضع ودون أن تكترث بالناس الذين ينظرون إليها . ذلك لأنها خافت من أن يغمى عليها مرة أخرى . لقد قاومت بكل قوتها وحاولت تهدئة ضربات قلبها والاضطرابات فى أحشائها فوضعت يديها فوق بطنها كى تسرى حرارة كفيها وتخترق رداءها لتنفذ داخلها وتصل الى الطفل . تماما كما سبق أن عالجت هذه الآلام فى الماضى حين أحستها أسفل بطنها كحيوان يلتهمها من الداخل وصارت تتمايل الى الأمام وإلى الخلف وهى جالسة على حافة الافريز بجوار السيارات الواقفة . الناس من أمامها دون

fb/mashro3pdf

توقف وقد كانوا يبطئون قليلا اذا ما اقتربوا منها ولكن حينما كانت الفتاة ترفع رأسها فقد كانت الآلام مرتسمة فى عينيها حتى أنهم يرحلون عنها سريعا فقد كان ذلك يخيفهم .

وبعد لحظة قلّت الآلام تحت يدى « لالا » وصارت قادرة على التنفس من جديد وفى سهولة . وبالرغم من الهواء البارد فقد تصبب عرقها والتصق رداؤها المبلل بظهرها . إنه صوت الخوف الذى لا يسمع بالأذنين ولكنه يسمع من قدميها وجسمها . هو الذى يفرغ شوارع المدينة .

ذهبت « لالا » إلى المدينة القديمة وصعدت فى مشقة درجات السلم تسيل فيه مياه المجارى ذى الرائحة النفاذة ودارت الى اليسار فى أعلى السلم . سارت فى شارع « المسبح الطيب » وقد كتب بالطباشير على حوائط الشارع المتآكلة بعض اشارات وبعض حروف ورسومات غير مفهومة تكاد تكون ممسوحة . وعلى الأرض توجد بقع مثل الدم حيث يتجمع من حولها الذباب . إن اللون الأحمر يتردد صداه فى رأس « الفتاة » وكأنه صفارة إنذار أو صفير يحفر حفرة فى روحها . وفى بطء وبجهد تخطت « لالا » أول بقعة ثم الثانية والثالثة وهناك أشياء بيضاء مختلطة بهذه البقع الحمراء كالغضاريف أو العظام المتكسرة ومن الجلد وقد زاد صفير الانذار فى رأس الفتاة فحاولت العدو على طول الطريق المائل ولكن الصخور كانت رطبة وزلقة خاصة لمن يلبس حذاء من كاوتشوك . وفى شارع « تيمون » توجد أيضا بعض علامات مكتوبة بالطباشير على الحوائط القديمة وبعض كلمات ربما تكون أسماء ؟ ثم رسم إمرأة عارية يبدو ثدياها كالعينين . تفكر « لالا » فى المجلة ذات الصور العارية التى شاهدتها فوق السرير فى حجرة الفندق . وأبعد قليلا صورة لأداة التذكير فى حجم كبير مرسومة بالطباشير على باب قديم كقناع بدائى .

fb/mashro3pdf

استمرت « لالا » فى سيرها وهى تلهث ويتصبب العرق فوق جبينها وعلى ظهرها ويبلل كليتها ويلسع إبطيها . لا أحد فى الطريق فى هذه الساعة وإنما توجد بعض الكلاب التى تقرص عظامها مزجرة . ونوافذ الأدوار القريبة من الأرض مغلقة بالمزاليج وقضبان الحديد . أما العلوية منها فمغلقة (بالشيش) وكأنها بيوت مهجورة كما أن برودة الموت تخرج من فتحات التهوية والإثارة للشقوق المجاورة للأرض . ومن (البدرومات) ومن النوافذ السوداء تماما مثل ريح الموت على امتداد الشوارع والتى تملأ الاركان القذرة فى أسفل الحوائط « الى أين تذهب ؟ » . ثم تقدمت من جديد فى بطء شديد ثم التفتت مرة جهة اليمين نحو حائط البيت القديم . إن « لالا » تشعر دائما بقليل من الخوف حينما ترى هذه النوافذ الكبيرة المزدوجة بالقضبان الحديدية ذلك لأنها اعتقدت أن هذا هو السجن الذى مات فيه الناس من قديم الزمان . كما يقال أيضا أنه أثناء الليل تسمع تأوهات المساجين خلف قضبان النوافذ . لقد نزلت الآن طول شارع « البستول » الخالى من المارة أيضا وعند اجتياز شارع « الرحمة » لترى من خلال الباب الحجرى الكبير القبة الوردية العجيبة التى طالما أحبتها . ففى بعض الأيام كانت تجلس على عتبة منزل من المنازل وتبقى لتشاهد هذه القبعة التى تشبه السحاب وتنسى كل شىء الى أن تأتى اليها امرأة وتسألها عما تفعله هنا وتضطرها للرحيل .

ولكن اليوم وحتى القبة الوردية تخيفها كما لو أن هناك تهديدا خلف نوافذها الضيقة أو كما لو كانت مقبرة . ودون أن تلتفت أسرعت فى سيرها وهبطت ثانية الى البحر على طول الشوارع الساكنة . وكانت الريح التى هبت قد طوحت بالملابس وبالملاءات البيضاء التى تتسلت حوافها وبملابس الأطفال والرجال وببعض الملابس الداخلية النسائية الزرقاء والوردية . فان « لالا » لم ترغب حتى النظر اليها تبين أجساما غير مرئية وأذرعا وأرجلا وصدورا كجثث بغير رؤوس . استمرت الفتاة على طول شارع « روديات » وهناك أيضا وجدت النوافذ المنخفضه والمغطاة بالقضبان الحديدية حيث المساجين من الرجال والأطفال . فقد كانت

fb/mashro3pdf

تسمع أحيانا بعضا من جمل وأجزاء وأصوات أوانى المطبخ أو موسيقى وكانت تفكر فى كل هؤلاء المساجين فى هذه الحجرات المظلمة والباردة مع الصراصير والفئران . فى هؤلاء الذين لن يروا النور والذين لن يستنشقوا الهواء .

هناك خلف هذه النوافذ توجد هذه المرأة البدينة الكسيحة والتى تعيش بمفردها ومعها قطتيها النحيلتين والتى تتحدث دائما عن حديقتها وعن ورودها وأشجارها وعن شجرة ليمونها الكبرى والتى تعطى أحسن فاكهة فى العالم والتى ليس لها إلا مسكن مظلم وبارد وقطتاها العمياء . هنا بيت « ابراهيم » وهو جندى عجوز من وهران وقد قاتل ضد الألمان والأتراك والصرب . هناك فى أماكن يردد أسماءها دون ملل إذا ما طلبت منه « لالا » ذلك مثل : سالونيك فارنا ـــ بجالا . ترى ألا يموت هو الاخر اذا ما وقع فى فخ بيته المتهدم حيث السلم المظلم بدرجاته الزلقة والتى توقع بالشخص فى كل درجة من درجاته وحيث تثقل الحوائط على صدره النحيل كما لو كانت معطفا مبتلا ؟ وهنك أيضا الأسبانية والدة الأطفال والذين ينامون جميعا فى نفس الحجرة ذات النافذة الضيقة أو يتجولون فى حى « السلة » فى لباسهم المهلهل صفر الوجوه أو جوعى دائما . وهناك فى هذا المنزل حيث يجرى شق طولى على الحوائط الرطبة يعيش زوجان مريضان . فهما دائما الكحة حتى أن « لالا » تقفز من فراشها فى بعض الاحيان كما لو كانت تسمعهما فعلا من خلال الحوائط كلها . والزوجان الغرباء فهو ايطالى وهى يونانية والرجل يسكر كل ليلة ويضرب زوجته بلكمات شديدة فوق رأسها لا بسبب الغضب ولكن بسبب أنها موجودة وأنها ترمقه بعينين دامعتين ووجه منتفخ من الغضب . ان « لالا » تكره هذا الرجل وأنها لتصر على أسنانها حين تفكر فيه ولكنها تخشى هذا السكير الهادىء والبائس . كما تكره خضوع هذه المرأة لان هذا ما يظهر دائما فى كل جحر وفى كل بقعة فى هذه الشوارع الملعونة لهذه المدينة بل فى كل اشارة مكتوبة على الحائط فى « السلة » فى كل مكان ترى الجوع والخوف والفقر المدقع تماما كالملابس البالية الرطبة والوجوه الشاحبة الذابلة .

fb/mashro3pdf

فشارع السلة وشارع « بولو » وتقاطع « بوسنو » تظهر دائما حوائط بيوتها المتهدمة وبعماراتها العالية التي يمسها الضوء البارد وعند أسفل الحوائط نجد الماء الآسن الأخضر حيث القاذورات بألوانها . لا توجد زنابير هنا ولا ذباب يقفز بحرية فى الهواء الذى يتحرك فيه التراب ولكن يوجد فقط الناس والفئران والصراصير وكل ما يعيش فى الحفر المظلمة والتى لا هواء فيها ولا ترى السماء . إن « لالا » تدور فى هذه الشوارع ككلب عجوز أسود ذى شعر مشعث لا يجد له مكانا . فهى تجلس لحظة فوق درجات السلم قريبا من حائط خلفه تنمو الشجرة الوحيدة فى المدينة . شجرة تين عتيقة تفوح منها عدة روائح . فتذكر التى أحبتها فى الماضى هناك حين كان نعمان العجوز يصلح شباكه ويقص عليها قصصه . ولكنها لا تستطيع الانتظار طويلا فى مكان واحد كالكلاب المسنة المنهكة فهى ترحل من خلال المتاهة السوداء فى حين نور السماء يخفت شيئا فشيئا . ثم تجلس ثانية للحظة فوق مقعد من مقاعد حدائق الأطفال . وفى بعض الأيام يحلو لها أن تبقى هناك لتشاهد الصغار جدا حين يتعثرون فى سيرهم وسيقانهم ترتعد وأذرعهم مفرودة فى الهواء . والآن ولم يبق سوى الظلام وفوق إحدى الأرائك جلست امرأة سوداء ترتدى ثوبا زاهى اللون فجلست « لالا » الى جوارها وحاولت التحدث معها . قالت « أتقطنين هنا ؟ » من أين أنت ؟ « ما موطنك ؟ » . فرمقتها العجوز دون أن تفهم ثم ارتسم الخوف على وجهها فسترته بطرف ردائها الملون . وفى آخر الميدان يوجد حائط تعرفه « لالا » جيدا ذلك أنها تعرف كل بقعة فيه كل شرخ فيه وكل جزء صدىء . وفى أعلى هذا الحائط توجد مداخن المدافىء السوداء والميازيب وفى أسفل السقف توجد نوافذ صغيرة بزجاجها القذر وفى أسفل حجرة « ايدا العجوز » معلق بعض الملابس على حبل من الدوبار قد تجعدت من المطر والتراب وأسفل هذا أيضا توجد نوافذ الغجر وأغلب زجاجها مكسور بل وأن بعضا منها لا يوجد به حتى الاطار فلم تعد تلك النوافذ الا ثقوبا سوداء فى الحائط واسعة كمحجر العين . حدقت « لالا » فى تلك الفتحات المظلمة فأحست بوجود الموت البارد الرهيب . فارتعدت خاصة حين شعرت

fb/mashro3pdf

باحساس الفراغ المخيم على الميدان أنها عاصفة من الفراغ والموت تولد من تلك النوافذ وتمر حول المنازل . وعلى المقعد الى جوار السيدة التى لم تبد الرغبة فى أية حركة أو أى تنفس لم تر « لالا » منها سوى عروق ذراعيها النافرة الحبال وأصابع يديها الملطخة بالحناء وهى ممسكة بأطراف ثوبها ليخفى من وجهها الجزء المقابل للفتاة . ربما كان هناك فخ ؟ ودت الفتاة أن تغادر المكان عدوا . ولكنها أحست وقد شدت الى مقعدها وكأنها فى حلم . وحل الليل شيئا فشيئا على المدينة وملأ الظلام الميدان وأغرق الأركان والتشققات ويدلف من النوافذ ذات الزجاج المكسور ان الجو بارد الآن فالتفت « لالّا » فى معطفها ورفعت ياقته حتى عينيها ولكن البرودة نفذت عن طريق حذائها الكاوتشوكى إلى ساقيها وآليتها وفى كليتيها . فأغلقت عينيها حتى تقاوم وحتى لا ترى الفراغ الذى يلف الميدان . وحول أراجيح الأطفال المهجورة تحت عيون النوافذ العمياء لم تجد أحدا فقد رحلت المرأة العجوز ذات الرداء الزاهى الألوان دون أن تشعر بها الفتاة . والغريب فى الأمر أن السماء والأرض كانتا أقل إظلاما وكأن الليل قد تراجع .

بدأت « لالا » فى السير فى الشوارع الضيقة الصامتة وهبطت السلالم حيث الأرض مهدمة بفعل الحفارات الآلية . لقد كنس البرد الشارع كما قرع أسقف أكواخ العديد من العمال وأحدث منها أصواتا .

وحين خرجت إلى البحر رأت « لالا » أن النهار لم ينقض بعد . فهناك بقعة كبيرة منيرة فوق الكاتدرائية بين الأبراج . عبرت الفتاة الشارع الرئيسى وهى تجرى دون أن تلتفت الى السيارات التى تخترقه والتى تنبه بالآلات باشعال المصابيح على فترات . فقد اقتربت على مهل من فناء الكاتدرائية المرتفع فصعدت الدرجات ومرت من خلال الأعمدة . لقد ذكرت أول مرة جاءت فيها الى الكاتدرائية . لقد كانت فزعة ذلك لأن الكاتدرائية كانت مبنى كبيرا جدا وتشبه صخور الحاجز ثم ان « رادكس » عرّفها كيف وأين تمضى الليالى أيام الصيف

fb/mashro3pdf

حين كانت تهب رياح البحر الدافئة . لقد أشار لها إلى المكان الذى ترى منه سفن الشحن الكبيرة وهى تدخل الميناء أثناء الليل بأنوارها الأحمر والأخضر كما أراها أيضا المكان الذى منه يمكنها رؤية القمر والنجوم من بين أعمدة الفناء .

ولكن هذا المساء لا يوجد أحد . فالحجر الأبيض والأخضر بارد كالثلج والصمت مطبق ثقيل لا يعكره سوى هزات عجلات السيارات البعيدة وخربشة الخفافيش التى تحوم حول القبة فالحمام قد نام بعد أن حط فى كل مكان من حافة المبنى ملتصق بعضه ببعض .

جلست « لالا » لحظة فوق الدرج محتمية بصف الصخور . نظرت « لالا » إلى الأرض المتسخة بحبات من بقايا الحيوانات والأرض المليئة بالتراب التى أمام الفناء . هبت الريح فى عنف وهى تصفر بين القضبان . إن الوحدة هائلة هنا مثلما تكون فوق المركب فى وسط البحر . فهى تؤلم وتعصر الحلق وتردد الأصوات وأصداءها وتتلاعب بالأنوار البعيدة على طول الشوارع .

واخيرا حين حل الليل عادت « لالا » إلى وسط المدينة إلى أعلى . لقد عبرت ميدان « لنش » حيث يتزاحم الرجال حول أبواب الحانات ثم اخذت تصعد واضعة يدها على الحافة الحديدية المدهونة والتى تحبها كثيرا . ولكن حتى هنا لم يزايلها قلقها فقد كانت تشعر كأن خلفها كلبا كبيراً يركز عينيه الجائعتين عليها وهو يتجول على حافة الطريق باحثا عن عظمة ليقرضها .

إن الجوع بلا شك هو الذى يهرى البطون والذى يغرس الفراغ فى الرأس . انه الجوع فى كل شيء . لكل ما هو مرفوض أو البعيد المنال . فلقد مضى وقت طويل لم يأكل فيه الرجال حتى يشبعوا جوعهم . وقت طويل أيضا لم ينعموا فيه بالراحة ولا السعادة ولا بالحب . ولكن توجد فقط حجراتهم فى « البدرومات

fb/mashro3pdf

الباردة حيث يغمرها بخار الجزع . ودائما هذه الشوارع المظلمة حيث تسرح الفئران وتسيل المياه القذرة وتتراكم القاذورات . إنه الشر .

وحين كانت « لالا » تتقدم على طول الأفريز فى الشوارع الضيقة ثم شارع « الماوى » وشارع « الطواحين » ثم شارع بل « اكييل » وشارع مونت بريون فقد رأت كل هذه القاذورات كما لو كان قد طوحها البحر من علب فارغة صدئة للمأكولات المحفوظة وأوراق قديمة وقطع .ن العظام وبرتقال تالف وخضروات وخرق وزجاجات متكسرة وحلقات من الكاوتشوك وطيور ميتة وقد نزعت أجنحتها وصراصير وأتربة ومساحيق وأشياء عفنة . ترمز للوحدة والاهمال كما لو كان الناس قد غادروا المدينة هربا أو هربوا من هذا العالم وتركوه فريسة المرض وللموت وللنسيان . وأنه لم يعد باق سوى بضعة من بشر فى هذا العالم . البؤساء والتعساء الذين استمروا فى الحياة داخل هذه المنازل الآيلة للسقوط والشقق كأنها القبور فى حين ان الفراغ قد دخلها من النوافذ . إن برد الليل يعتصر الصدور ويحجب نظر الشيوخ والأطفال معا .

إستمرت « لالا » فى سيرها بين هذه الأنقاض وهذه الأكوام من الجير المتساقط . إنها لا تعرف الى أين هى ذاهبة ؟ فلقد مرت عدة مرات بنفس الطريق وبنفس الشارع وحول أسوار « المستوصف » فربما تكون العمة هنا فى هذا المطبخ الكبير تحت سطح الأرض وهى تمر بسكنها فوق مُلاطه الأسود والذى لن ينظفه شيء على الاطلاق . إن « لالا » لا ترغب فى العودة إلى منزل العمة مطلقا . فقد كانت تمر وتدور فى الشوارع المظلمة حين بدأ المطر الخفيف يتساقط من السماء فقد سكنت الريح وكان المارة يمرون كالأشباح السوداء لا وجوه لها أو كأنهم فُقدوا هم أيضا . لقد كانت الفتاة نفسها تتنحى عن طريقهم حتى يمروا . فقد كانت تختفى فى ظلال الأبواب أو تختبىء خلف العربات الواقفة . وحينما كان يخلو الشارع مرة أخرى فانها تخرج من مكمنها وتستمر فى السير دون صوت وهى

fb/mashro3pdf

متعبة وقد أسكرها النوم . ولكنها لا ترغب فيه فأين تنحي نفسها أو تنسى نفسها ؟ فالمدينة خطيرة كما أن القلق لا يترك الفتيات الفقيرات ينعمن بالنوم تماما مثل أطفال الأغنياء . فهناك كثير من الضوضاء فى سكون الليل ضوضاء وأصوات الجوع وأصوات الخوف وأصوات الوحدة . فهناك أصوات الذين لا مأوى لهم داخل الملاجىء . أصوات المقاهى الغربية حيث لا تنقطع مطلقا الموسيقى الرتيبة وضحكات « الحشاشين » البطيئة . وهناك ضوضاء الرجل المجنون الذى يلكم امرأته لكمات عنيفة كل مساء كما توجد أيضا الصرخات الحادة للمرأة التى تصرخ أول الأمر ثم تبكى فى لوعة والتى تئن وتتوجع . لقد سمعت « لالا » كل هذه الأصوات الآن فى وضوح والتى يتردد صداها دائما ولا يتوقف . وهناك صوت خاص يتبعها دائما فى كل مكان تذهب اليه والذى ينفذ الى داخل رأسها وبطنها ويردد دائما نفس البؤس : إنه صوت طفل يسعل فى الليل فى مكان ما فى المنزل المجاور فربما يكون إبن هذه السيدة التونسية البدينة الباهتة اللون وفى عينيها الخضراوين نظرة المجانين أو ربما يكون طفلا آخر هو الذى يسعل فى منزل على مبعدة عدة شوارع أو طفلا آخر هو الذى يرد على الأول من مكان ما من حجرة فى أعلى المنزل ذات السقف المتداعى . أو طفلا آخر لم يستطع النوم فى حجرته الباردة أو طفلا آخر من عشرات أو مئات الأطفال المرضى الذين يسعلون فى الليل فيحدثون هذا الصوت المزعج الذى يمزق الحلق والشُّعَب . وقفت « لالا » وقد أسندت ظهرها إلى باب وقد أصمَّت أذنيها بكفيها حتى لا تسمع سعال الأطفال والتى تنبح فى الليل القارص من بيت الى بيت .

وعلى مبعدة يوجد دوران شارع وعلى مستوى منخفض نجد ملتقى بعض الشوارع يشبه تماما مصب نهر حيث جميع الأنوار التى تومض والتى تعمى البصر . هبطت « لالّا » التل على طوال السور ودخلت من ممر « لوريت » ثم عبرت الفناء الكبير بحوائطه السوداء من أثر الدخان والبؤس مع أصوات المذياع وأصوات الآدميين . توقفت الفتاة برهة ورأسها ناحية النوافذ كأن أحدا سوف

fb/mashro3pdf

يظهر لها . ولكنها لم تسمع سوى أصوات غير إنسانية لصوت إذاعة يصيح بكلام يعيده فى بطء نفس العبارة الآتية : « عند سماع هذه الموسيقى تدخل الآلهة إلى المسرح » ولكن الفتاة لم تفهم معنى لذلك . فهذا الصوت غير الانسانى يطغى على أصوات الأطفال الذين يسعلون وعلى صوت السكارى من الرجال وحتى على صوت المرأة التى تبكى . وبعد ذلك يوجد ممر آخر مظلم كطرقة تنتهى إلى شارع كبير .

هنا ولمدة لحظة لم تشعر « لالا » بعد بالخوف ولا بالحزن . فالمارة يسرعون فوق الافريز فى خفة وعيونهم تلمع وأقدامهم تطأ الأرض الجيرية وأجسامهم تهتز كالكهرباء وفى وسط الشارع تجرى السيارات وسيارات البضاعة والدراجات البخارية وأضواء مصابيحها المسلطة وانعكاسها على الوجهات التى تضىء وتنطفىء على التوالى . تركت الفتاة نفسها لحركة الناس فلم تعد تفكر فى نفسها فهى فى فراغ كأنها لم توجد من قبل ولهذا فإنها تعود دائما الى الشوراع الرئيسية حتى تضيع وسط خضمها ودواماتها وتهيم على وجهها .

إن الأنوار كثيرة و « لالا » تشاهدها وهى تسير قدما إلى الأمام . فالأنوار متعددة الألوان الأزرق ــ الأحمر ــ البرتقالى ــ البنفسجى وهناك أنوار ثابتة وأنوار تتراقص كلهب الثقاب . فذكرت الفتاة سماء الصحراء المرصعة بالنجوم أثناء الليل حينما كانت تتمدد فوق الرمال الصلبة الى جانب « الحارتانى » فكانا يتنفسان معا كأنهما جسد واحد ولكن ... أكان التذكر صعبا . فيجب أن يسير المرء هنا مع الآخرين وكأنه يعرف إلى أين هو ذاهب مع أنه لا نهاية لهذه الرحلة ولا مخابىء هنا فى بطون الكثبان فيجب أن يسير الانسان حتى لا يسقط وحتى لا تطأه أقدام الآخرين . هبطت « لالا » إلى نهاية الشارع الرئيسى ثم صعدت الى شارع رئيسى آخر ثم آخر من بعده فما زالت الأنوار باقية وأصوات الناس وآلاتهم تزأر دون توقف . وفجأة عاد اليها الخوف وتملكها القلق كأن كل هذه الأصوات

fb/mashro3pdf

للاطارات والخطى قد رسمت دوائر واسعة ومركزة على حافة هوة كبيرة وعميقة .

والآن وقد شاهدتهم الفتاة من جديد . فهم هناك جلوس الى جوار الحائط القديمة السوداء متراكمين على الأرض وسط قاذورات الانسان وما يخرج منه وبين بقايا الأطعمة : إنهم المتسولون والمسنون العميان وهم يمدون الأيدى والنساء ذات الشفاه المشققة بطفل معلق فى ثديها والبنات الصغار فى أسمالهن وبوجه مغطى بالقشف . وهم يتمسحون فى المارة والنساء العجائز فى لون الهباب بشعورهن المهوشة كل هؤلاء الذين طردهم الجوع والبرد من مساكنهم غير الصحية التعسة والذين طردوا كقاذورات طردها الموج . إنهم هناك فى وسط المدينة اللّامبالية فى صخب المحركات والأصوات وقد بللهم المطر وأثلجهم الهواء ويبدون اكثر دمامة واكثر فقرا تحت المصابيح الكهربائية . إنهم ينظرون المارة بعيون مضطربة عيونهم الرطبة الحزينة التى تهرب وتعود بدون توقف نحوك كعيون الكلاب . سارت « لالا » أمام المتسولين ونظرت اليهم وقد انقبض قلبها فهو الفراغ المريع الذى يحفر هذا الاضطراب هنا أمام أجسام هؤلاء المهملين المبعدين . كانت الفتاة تسير فى بطء شديد حتى أن إحدى المتسولات ارادت ان تجذبها بعد ان امسكت بمعطفها فناضلت « لالا » فى ضراوة الأصابع التى تشبثت بمعطفها . لقد تطلعت فى شفقة وفى رعب ايضا الى إمرأة ما زالت شابة بصدغيها المنتفختين من تأثير الخمر وقد لطختهما حمرة بسبب البرد . وخاصة عيناها الزرقاوان المكفوفتان تكادان أن تكونان شفافتين حيث أنسانهما ليسا أكبر من رأس دبوس . « تعالى هنا ... تعالى » رددت المتسولة فى حين حاولت « لالا » التملص من أصابعها ذات الاظافر المتكسرة ثم زاد رعبها فانتزعت معطفها من يديها وهربت وهى تجرى فى حين ضحك المتسولون والمرأة التى ظلت نصف واقفة على الافريز وسط أكوام الملابس المهلهلة ثم أخذت تصب عليها وابلًا من الإهانات . جرت « لالا » وقلبها يدق على طول الشارع الرئيسى حتى انها اصطدمت ببعض المارة الذين يتنزهون والذين يدخلون ويخرجون فى المقاهى ودور

fb/mashro3pdf

الخيالة : بعض الرجال فى زيهم الكامل والذين فرغوا من عشائهم ووجوههم التى لا تزال مضيئة نتيجة المجهود الذى بذلوه من كثرة الأكل والشراب . وكان بعض الصبيان المتعطرين وبعض الأزواج وبعض العسكريين بملابسهم الرسمية وبعض الأجانب من ذوى البشرة السمراء والشعر المجعد والذين قالوا لها بعض الكلمات التى لم تفهمها أو حاولوا الامساك بها اثناء سيرهم ضاحكين بقوة . وهناك فى المقاهى كانت موسيقى لا تتوقف أبدا . موسيقى صاخبة ومتوحشة يرن صداها فى الأرض وفى الأجسام والبطون والوجنات . إنها نفس الموسيقى التى تخرج من بعض المقاهى والحانات التى تموج بانوار « النيون » الملونة : لأحمر والأخضر والبرتقالى فوق الحوائط وفوق الموائد وعلى وجوه السيدات المصطبغات بالألوان هن أيضا .

كم من الوقت مضى و « لالّا » تتقدم وسط هذه الدوامات وبين هذه الموسيقى ؟ إنها لم تعد تعرف . ربما كانت ساعات أو ليال بأُكملها لا يقطعها أى نهار . لقد تذكرت المساحات الممتدة للهضبة الصخرية أثناء الليل وأكوام الحصى الحاد كالموسى وطرق الأرانب والثعابين فى ضوء القمر وهى تنظر الآن هنا حولها وكأنها ستراه يظهر أمامها « الحارتانى » فى معطفه الوبرى وبعينه اللتين تشعان ببريق فى وجهها الأسمر وبحركاته الطويلة البطيئة كطريقة مشى الوعول . ولكن لم يكن هنا سوى الشارع الرئيسى وذاك الشارع والتقاطعات المملوءة بالوجوه والعيون وبالأفواه والأصوات الصارخة وهذا الكلام وهذه الهمسات وهذه الضوضاء من المحركات وآلات التنبيه وهذه الأنوار الوحشية . لا يمكن أن ترى السماء كما لو كان هناك غطاء أبيض يغطى الأرض . كيف يستطيعون الحضور إلى هنا ؟ الحارتانى ومحارب الصحراء الأزرق والسر (كما كانت تسميه فى الماضى) إنهم لا يستطيعون رؤيتها من خلال هذا الغطاء الأبيض والذى يفصل هذه المدينة عن السماء . إنهم لن يتعرفوا عليها وسط هذه الوجوه وهذه الأجسام ومع كل هذه السيارات وعربات البضاعة والدراجات البخارية . إنهم لا يستطيعون مجرد سماع

fb/mashro3pdf

صوتها هنا مع كل هذه الضوضاء والأصوات التى تتكلم جميع اللغات ومع هذه الموسيقى التى يتردد صداها والتى تهز الأرض . لهذا كله فإن « لالا » لا تستطيع البحث عنهم وكأنهم قد اختفوا الى الأبد أو كأنهم ماتوا بالنسبة اليها .

إن المتسولين هنا فى قلب هذه المدينة أثناء الليل . لقد توقف هطول المطر وأصبح الليل منيرا أبيض ومتباعدا كممر نحو منتصف الليل . إن الرجال قليلون . إنهم يخرجون ويدخلون الحانات ثم يهربون فى سيارات سريعة . دارت « لالّا » الى اليمين فى شارع ضيق مرتفع قليلا ثم سارت مختفية خلف السيارات الواقفة . وعلى الإفريز المقابل كان بعض الرجال لا يتحركون ولا يتكلمون وإنما ينظرون إلى أعلى الطريق يرقبون مدخل مبنى قذر للغاية بابه صغير مطلى باللون الأخضر ويفتح على ممر مضاء .

وقفت « لالّا » هى أيضا ونظرت وهى مختبئة خلف سيارة . لقد زادت دقات قلبها وملأ فراغ القلق الكبير كل الشارع .

إن المبنى القائم كحصن قديم قذر بنوافذه التى لا « شيش » بها واستعيض عنها بورق الصحف كانت مضاءة بنور ردىء غريب وضعيف فى لون الدم . حتى أن البناء يبدو كعملاق لا يتحرك به عشرات العيون تنام أو تنظر . عملاق ممتلىء بقوة الشرْ والذى سوف يلتهم الرجال الذين ينظرون فى الشارع . لقد كانت الفتاة فى حالة من الضعف حتى أصبح لزاما عليها أن تتكىء على مؤخرة السيارة وكل ما فى جسدها يرتعد .

لقد هبت ريح الشر فى الشارع فهى التى تصنع الفراغ المخيم على المدينة وتصنع الخوف والفاقة والجوع . إنها هى التى تثير زوابعها فى الميادين وهى التى تجعل الصمت يجثم على الحجرات المنعزلة حيث يختنق فيها الأطفال والشيوخ . إن

fb/mashro3pdf

« لالّا » تكرهها كما تكره جميع العمالقة ذوى العيون المشرعة والتى تسيطر على المدينة فقط كى تلتهم الرجال والنساء وتسحقهم فى بطونها . وبعد ذلك انفتح الباب الصغير ذو اللون الأخضر على مصراعيه وعلى الإفريز المواجه للفتاة وقفت أمرأة بلا حراك . إنها المرأة التى كان ينظر نحوها الرجال دون أن يتحركوا وهم يدخنون لفافاتهم . إنها امرأة قصيرة جدا تعتبر قزما ذات جسم عريض ورأس متورم موضوع فوق كتفيها وبلا رقبة ولكن فى وجهها طفولة وفمها صغير جدا بلون « الكريز » وعيناها سوداوان جدا تحيط بهما هالة خضراء وأن أغرب ما فيها بعد طولها القصير هو شعرها فهو قصير مجعد ذو لون أحمر كالنحاس ذو بريق عجيب خاصة فى ضوء الممر الذى خلفها حتى أنه يصنع هالة من اللهب فوق رأسها كدمية ممتلئة أو كمخلوق خارق للطبيعة .

نظرت « لالّا » إلى المرأة القصيرة مسحورة وبدون أن تتحرك كما حبست أنفاسها . هبت الريح الباردة فى عنف من حولها ولكن المرأة بقيت فى مكانها واقفة أمام مدخل المبنى بشعرها الملتهب فوق رأسها . فهى ترتدى مئزرا أسود قصيراً جدا حتى بدا منه فخذاها السمينان الأبيضان وفوقه « بلوفر » لونه بنفسجى مفتوح الصدر وتنتعل حذاء لامعا ذا كعب رفيع عال . وبسبب البرد فإنها تمشى بعض الخطوات وقد كان وقع خطواتها يرن فى فراغ الشارع الضيق . اقترب الرجال منها الآن وهم يدخنون اللفائف ومعظمهم من العرب لأن شعرهم حالك السواد . ولهم بشرة رمادية لا تعرفها « لالّا » وكانهم يعيشون تحت الأرض ولا يخرجون إلا ليلا . انهم لا يتكلمون وعليهم سيماء القسوة والعنف وقد زموا شفاههم ونظرتهم قاسية . لم تنظر المرأة القصيرة ذات الشعر النارى إليهم ولكنها أشعلت لفافة بدورها ودخنتها فى شراهة وهى تزرع المكان وحين أولت ظهرها ظهرت وكأنها حدباء . وعلى آخر مرتفع الشارع سارت سيدة أخرى طويلة القامة على عكس الأولى وقوية البنية ولكنها متقدمة فى السن ذابلة من التعب وعدم النوم . انها ترتدى معطفا واقيا من المطر أزرق وشعرها الأسود مهوش بسبب

fb/mashro3pdf

الهواء . هبطت فى بطء شديد الشارع ضاربة بقدميها وكعبيها الأرض ثم وصلت الى المرأة القزم ثم وقفت هى الأخرى أمام الباب . فاقترب منها العرب وتحدثوا اليها . لم تسمع « لالّا » ما قالوا . ثم ابتعد الواحد بعد الآخر ثم توقفوا على مسافة وعيونهم مسلطة على المرأتين الواقفتين تدخنان . هب الهواء على فترات عنيفا فى الشارع فالصق ملابس السيدتين بجسديهما ونثر شعرهما . إن هذا الشارع يحوى الكثير من الكراهية واليأس وكأنه يهبط دون نهاية من خلال كل درجات الجحيم دون أن يبلغ قرارا ودون أن يتوقف أبدا . إن به كثيراً من الجوع والرغبة التى لا تهدأ ومن العنف . فالرجال الصامتون ينظرون دون ما حركة على حافة الإفريز وكأنهم جنود من الرصاص عيونهم مركزة على بطون السيدات وعلى صدورهن وعلى افخاذهن وعلى بشرة رقابهن الباهتة وعلى سيقانهن العارية . ربما لا يوجد الحب فى أى مكان ولا الشفقة ولا الرقة . وربما كان الغطاء الأبيض الذى يفصل الأرض عن السماء قد خنق الناس أو أوقف نبضات قلوبهم أو أمات كل ذكرياتهم ورغباتهم القديمة وكل الجمال . ؟

شعرت « لالّا » بالدوار المستمر للفراغ الذى بداخلها كأنما الهواء الذى هب فى الشارع الضيق كان هواءً لحركة دائرية . ربما انتزعت الرياح أسقف المنازل التى لا معنى لها واقتلعت الأبواب والنوافذ وهدت الحوائط العفنة وقلبت السيارات وحولتها الى كومة من الحديد . كل هذا يجب أن يحدث ذلك لوجود الكراهية والآلام التى تفوق الحدود . ولكن المبنى الكبير القذر ظل قائما يسحق الناس بارتفاعه . إنها العمالقة الثابتة بعيونها الدامية بعيونها القاسية العمالقة أكلة البشر من رجال ونساء فى أحشائها توطأ النساء فوق الحاشيات القديمة الملطخة ويمتلكها لبضع ثوان رجال فى سكون حيث يلهبهم الجنس مثل الجمرات ثم يرتدون ملابسهم ويغادرون المكان ولا تزال لفافاتهم على حافة المائدة موقدة ولم تنطفىء بعد . وفى داخل هذه العمالقة النهمين ترقد العجائز من السيدات تحت ثقل الرجال الذين يسحقوهن ويلوثون بشرتهن الصفراء ومن ثم يولد الفراغ فى بطون كل

fb/mashro3pdf

هؤلاء النساء . الفراغ المركز والبارد الذى يهرب منهن والذى يهب كالريح على الشوارع والحارات مرسلا دواماته التى لا نهاية لها .

وفجأة لم تعد « لالّا » قادرة على الانتظار . لقد كانت تريد أن تصرخ . وحتى تبكى . ولكن هذا كان من المحال فالفراغ والخوف قد سدا حنجرتها وكان من العسير أن تتنفس . وعلى ذلك فقد هربت وجرت بكل قواها على طول الطريق وكان الهدوء والصمت يردد صدى خطواتها فاستدار الرجال ونظروا نحوها وهى تهرب فصاحت القزم ببعض كلمات ولكن رجلا أخذها من رقبتها ودفعها إلى داخل المبنى فشملها الفراغ واحتضنها . ألقى بعض الرجال لفافاتهم فى المجرى المائى الصغير ثم اتجهوا نحو الشارع الرئيسى يتسللون كالظلام . وجاء غيرهم ووقفوا على حافة الإفريز ورأوا المرأة الطويلة ذات الشعر الأسود وهى واقفة أمام باب المبنى .

بالقرب من محطة السكة الحديد يوجد كثير من المتسولين الذين ينامون غارقين فى ثيابهم المهلهلة أو محاطين بورق الكرتون أمام الأبواب وعلى مبعدة يلمع مبنى المحطة بمصابيحه البيضاء كالنجوم . وفى ركن من أركان الباب وفى حماية قطعة الحجر المحددة وفى بحيرة من الظلال الرطبة نامت « لالّا » على الأرض . لقد أدخلت رأسها وأطرافها بقدر ما تستطيع فى معطفها الواسع الكستنائى وتكومت كالسلحفاة . إن الحجر بارد وصلب وصوت العجلات المبتلة للسيارات جعلها ترتعد ولكنها مع ذلك رأت السماء فوقها تماما كما كان فى الماضى فوق الهضبة الصخرية من بين أطراف الغطاء الذى ينشق وعندما أغلقت عينيها جيدا استطاعت أن ترى مرة أخرى ليل الصحراء .

fb/mashro3pdf

تعيش الآن « لالا » فى فندق « سانت بلانش » فقد صار لها حجرة نوم صغيرة . مخزن ضيق ومظلم تحت السقف . إنها تقتسمه مع مكنساتها وأدلائها وكل الأشياء المهملة من سنوات هناك مصباح كهربائى ومائدة وفراش قديم لفرد واحد . وعندما طلبت من صاحب الفندق أن تعيش فيها أجابها فى بساطة « نعم » ودون أن يوجه لها أى سؤال . كما أنه لم يعلق بل قال « يمكنك أن تنامين هنا لأن الفراش لا يستعمل » ، كما قال أيضا « إنه سوف يخصم ثمن الكهرباء والماء من راتبها وهذا كل شىء » . ثم بدأ فى قراءة صحيفته المفتوح صفحاتها على الفراش . ومن أجل هذا وجدت « لالا » أن صاحب الفندق لطيفا برغم أنه قذر ولم يحلق ذقنه . وجدته لطيفا لأنه لم يوجه اليها أية أسئلة . فالأمر سيان لديه .

أما مع العمة فلم يكن الأمر كذلك . فعندما قالت الفتاة لها بأنها لن تسكن عندها بعد اليوم فقد جمد وجهها وفاهت بعبارات كثيرة غير لائقة ذلك لأنها اعتقدت أن « لالا » ستذهب لتعيش مع رجل . ومع ذلك فقد وافقت . ذلك لانه على أية حال فهذا يوافقها بسبب حضور أبنائها عما قريب وعلى هذا فلن يكون هناك مكان لكل هذا العدد .

والآن فإن « لالا » تعرف أكثر سكان الفندق . فكلهم فقراء وقادمون من

fb/mashro3pdf

بلاد لا يوجد بها ما يؤكل وليس هناك ما يقتاتونه ليعيشوا . ففي وجوههم جمود حتى الشبان منهم . إنهم لا يستطيعون التحدث وقتا طويلا . ففى الطابق الذى تسكنه الفتاة لا يوجد أحد لأن المكان يعيش فيه الفئران . ولكن تحته مباشرة توجد حجرة يعيش فيها ثلاثة زنوج . إنهم غير سيئين ولا محزونين . فهم مرحون دائما وأن « لالا » تحب كثيرا سماعهم وهم يضحكون أو يغنون بعد ظهر السبت والأحد . إنها لا تعرف أسماءهم كما لا تعرف ما يعملون فى المدينة ولكنها تقابلهم من وقت لآخر فى الطرقة حينما تذهب إلى دورة المياه أو حين تنزل مبكرة فى الصباح لتمسح درجات السلم ولكنهم دائما غير موجودين حين تنظف غرفتهم . إنهم لا يملكون أكثر من صندوق من الكرتون مملوء بالملابس وآلة جيتار . وإلى جانب حجرة الزنوج توجد غرفتان يشغلهما بعض سكان من شمال افريقيا من عمال البناء والذين لا يمكثون طويلا . إنهم ظرفاء ولكنهم صامتون دائما وكذا لا تحادثهم طويلا هى الأخرى . لا توجد أشياء فى حجراتهم لأنهم يضعون كل ملابسهم فى الحقائب والحقائب موضوعة تحت الفراش لأنهم يخشون السرقة . أما من تحبه « لالا » أكثر فهو زنجى شاب من افريقيا يقطن مع أخيه فى حجرة صغيرة فى الطابق الثانى فى نهاية الممر . إنها أجمل غرفة لانها تطل على جزء من الفناء حيث توجد به شجرة .

إن « لالّا » لا تعرف اسم شقيقه الأكبر ولكنها تعرف اسم الصغير « دانيال » إنه أسود مفرط فى السواد شعره مجعد جدا لدرجة أن يعلق به أشياء كثيرة وبقايا قطع من القش وبعض من الأعشاب . ان رأسه مستدير جدا ورقبته طويله وهو فاره الطول كما أن ذراعيه ورجليه طويلة ولذا فخطواته غريبة وعجيبة فهو يمشى وكأنه يرقص . إنه دائم المرح ثم انه يضحك دائما حينما يتحدث إلى الفتاة . فهى لا تفهم جيدا ما يقول . ذلك لأن له لهجة فى الحديث عجيبة ومنغمة . ولكن ليس لكل ذلك أهمية لأنه يأتى باشارات عجيبة من يديه الطويلتين وكذا يعمل اشارات وامتعاضات من فمه الواسع الملىء بأسنان بيضاء إنه من تُفَضِّل

fb/mashro3pdf

« لالا » وذلك بسبب وجهه الناعم وبسبب ضحكته ذلك لانه يشبه الطفل الصغير . إنه يعمل فى مستشفى مع شقيقه وفى يومى السبت والأحد يذهب ليلعب كرة القدم فهذه هى هوايته . إنه يعلق على حائط حجرته الكثير من الاعلانات والصور وكذا على الباب وفى داخل دولابه وفى كل مرة يرى « لالا » يسألها متى ستحضر لتراه وهو يلعب فى الملعب . لقد ذهبت مرة بعد ظهر يوم أحد وجلست فى أعلى المدرجات وشاهدته . فقد كان كبقعة سوداء فوق حشائش الأرض وهكذا استطاعت أن تعرفه . إن يلعب فى خط الدفاع الأيمن مع هؤلاء الذين ينظمون الهجوم . ولكن « لالا » لم تخبره قط بأنها ذهبت مرة لتراه ربما لكى يستمر يسألها أن تأتى وعلى ثغره ابتسامة منه التى يرن صداها فى ممرات الفندق . وهناك أيضا رجل يعيش فى حجرة صغيرة جدا فى الطرف الآخر من الممر . إنه لا يتكلم مطلقا مع أحد كما أن لا أحد يعرف من أين أتى . إنه رجل مسن تآكل وجهه بسبب مرض خبيث فلا أنف له ولا فم وله فتحتان فقط بدلا من خياشيمه وأثر جرح بدلا من الشفاه . ولكن له عينين جميلتين وعميقتين وبهما حزن . انه مهذب ورقيق ومن أجل هذا أحبته الفتاة . انه يعيش فى فقر فى هذه الحجرة يكاد لا يأكل . انه يخرج دائما فى ساعة مبكرة من الصباح لكى يجمع بعض الفاكهة التى تتساقط فى السوق ولكى يتنزه فى ضوء الشمس . إن « لالا » لا تعرف اسمه ومع ذلك فهى تحبه . فهو يشبه قليلا « نعمان العجوز » إذ له نفس اليدين الطويلتين والخفيفة الحركة . إن يديه قد لوحتهما حرارة الشمس وذات مهارة عملية . فحين تشاهد يديه فكأنها تتعرف على المناظر الخارقة والمساحات الشاسعة من الرمال والصخور والأشجار المُتَكَلِسَّة والأنهار الجافة . ولكنه هو لا يتحدث مطلقا عن وطنه ولا عن نفسه . فإنه يحتفظ بكل هذا داخل نفسه فهو بالكاد يحدث « لالا » فى كلمات قليلة حين يقابلها فى الممر عن الطقس بالخارج وعن الأخبار التى استمع اليها فى المذياع . ولعله هو الوحيد فى الفندق كله الذى يعلم سر « لالا » ذلك لأنه سألها مرتين وقد ثبت ناظريه العميقتين فيها وقال لها عما إذا كان من الصعب عليها أن تعمل ولم يزد على ذلك شيئا .

fb/mashro3pdf

ولكنها فهمت أنه يعرف أن فى أحشائها طفلا . ولقد ساورها الفزع من أن العجوز يتحدث فى ذلك مع صاحب الفندق . فربما لا يرغب فى بقائها فى الفندق . ولكن العجوز لم يتحدث مع أحد آخر . فى صباح كل يوم اثنين يدفع مقدما ايجار الاسبوع دون أن يعرف أحد من اين يحصل على هذه النقود . ان « لالا » هى الوحيدة التى تعلم جيدا أنه فقير جدا فليس لديه ما يأكله سوى هذه الفاكهة العطنة والتى تتساقط على الأرض فى السوق . وفى بعض الأحيان حينما يكون لديها قليل من النقود فانها تشترى تفاحة أو اثنتين من الصنف الجيد أو من البرتقال وتضعها فوق كرسيه الوحيد فى الحجرة الصغيرة حين تعدها . لم يقدم لها العجوز شكره ولو مرة واحدة ولكنها تجد فى عينيه نظرة الرضا حين يقابلها . أما المستأجرون الآخرون فهى تعرفهم دون أن تعرفهم شخصيا فهو قوم لا يستقرون فبعضهم من العرب والبعض الآخر برتغاليون والآخرون إيطاليون فهم لا يوجدون فى الحجرات إلا للنوم فقط . وهناك من يبقى فى الفندق ولكن « لالا » لا تحبهم : فهناك عربيان فى الطابق الأول تنم قسماتها عن القسوة وهما دائما فى حالة سكر بيّن . كما يوجد الشخص الذى يقرأ المجلات المبتذلة والذى يطرح الصور العارية على الفراش غير المعد حتى تجمعها الفتاة وتراها . إنه يوغسلافى يدعى « جريجورى » . وذات يوم دخلت « لالا » حجرته وكان لا يزال بها فأمسكها من ذراعها وأراد أن يطرحها فوق سريره ولكن الفتاة أخذت تصيح فخاف وتركها ترحل وشيعها ببعض الشتائم ومنذ هذا اليوم لم تضع « لالا » قدمها فى حجرته كلما كان بها . أما الجميع فكأنهم غير موجودين فى الحقيقة ما عدا الرجل العجوز ذو الوجه المتآكل . فهم غير موجودين ذلك لأنهم لا يتركون أثرا عند مرورهم فكأنهم أطياف أو ظلال . فاذا ما رحلوا يوما فكأنهم لم يأتوا مطلقا فإن السرير ذى الأربطة دائما كما هو وكذا الكرسى المخلخل والأرضية المتسخة والحوائط التى يعلوها الشحم وحيث يتساقط طلاؤها والمصباح الكهربائى فى نهاية خيطه المحاط ببعض الذباب . كل هذا باق كما هو .

fb/mashro3pdf

ولكن الإضاءة هى التى تأتى من الخارج من خلال الزجاج المتسخ وهى نور رمادى آت من أنوار الفناء الداخلى وانعكاسات أشعة الشمس الشاحبة والضوضاء . ضوضاء محطات الاذاعة . ضوضاء محركات السيارات فى الشارع الرئيسى وضوضاء الناس من مشاحناتهم . ضوضاء صنابير المياه والبخار حين يصفر ضوضاء كسح مياه السيفونات وصوت السلالم وضوضاء الريح حين تهب فتهز سقوف المنازل والميازيت . استمعت « لالّا » لكل هذه الضوضاء طول الليل ممددة فوق فراشها وناظرة الى البقعة الصفراء للمصباح الكهربائى المضاء إن هؤلاء الناس لا يمكن أن يكون لهم وجود ولا حتى الأطفال ولا أى كائن حى . انها تصغى الى ضوضاء الليل وكأنها داخل مغارة أو كأنها هى الأخرى غير موجودة ففى بطنها شيء يتحرك الآن وينبض كعضو غير معروف دارت « لالا » وتقلبت فى فراشها وركبتاها تسندهما ذقنها وتحاول أن تتسمع ما يتحرك داخلها هذا الذى بدأ يحيا . إنه الخوف مرة أخرى . الخوف الذى يوجب الهروب الى الشوارع ويجعل الانسان يقفز من زاوية إلى أخرى كطلقة من رصاص ... ولكن فى نفس الوقت كانت هناك موجة من السعادة الغريبة من حرارة ومن نور كأنها تأتى من بعيد من البحار من المدن والتى ربطت « لالا » بجمال الصحراء . وعندئذ ككل ليلة أغلقت الفتاة عينيها وتنفست فى عمق وفى بطء أنطفأ نور الحجرة الخافت والداكن وظهر جمال الليل . فالليل مملوء بالنجوم بارد وهادىء ووحيد . إنه يخيم على الأرض بلا حدود وكذا على المساحات الشاسعة من الكثبان الساكنة . والى جانب « لالا » كان « الحارتانى » فى معطفه الوبرى وبوجهه النحاسى الأسود يلمع فى ضوء النجوم . إنها نظرته التى تصل اليها والتى تجدها هنا فى هذه الحجرة الضيقة فى ضوء المصباح المتداعى الخافت . فنظرة الحارتانى تتحرك داخلها فى بطنها فتوقظ فيها الحياة . فقد اختفى منذ أمد بعيد وهى أيضا كانت قد رحلت منذ وقت طويل من الجانب الآخر للبحر . ومع هذا فان نظرة الراعى الشاب قوية جدا . ان « لالا » تشعر بها وهى تتحرك فى أعماقها فى السر الكامن فى بطنها . وعندئذ انمحى كل شيء . سكان هذه المدينة ورجال الشرطة ورجال

fb/mashro3pdf

الشوارع ومستأجرو الفندق . لقد امحوا جميعا واختفوا هم ومدينتهم ومنازلهم وشوارعهم وسياراتهم وسيارات بضاعتهم ولم يبق سوى امتداد الصحراء . حيث ترقد « لالا » و « الحارتانى » معا . وقد التفا فى المعطف الوبرى الواسع يحيط بهما الليل البهيم والعدد اللانهائى من النجوم وقد احتضن كل واحد منهما الآخر فى عنف وشوق حتى لا يشعران بالبرد الذى اجتاح الأرض .

عندما يموت الانسان فى حى « السلة » فإن حانوت الموتى الكائن فى الدور الأرضى للفندق هو الذى يقوم بجميع الاستعدادات . فى أول الأمر ظنت « لالا » أنه أحد أقرباء صاحب الفندق ولكنه ظهر أنه تاجر كالآخرين . كما أنها ظنت أيضا فى أول الأمر أن الناس يأتون ليموتوا هنا فى الفندق وأنهم يرسلون بعد ذلك إلى محل الموتى . ان المحل ليس به موظفون كثيرون وإنما فقط صاحبه السيد « شاريز » واثنان من الحمالين وسائق عربة الموتى . فعندما يموت انسان فى حى « السلة » فإن الموظفين يذهبون بالسيارة الخاصة بالموتى ويعلقون لافتات كبيرة من القماش الأسود به بقع فضية اللون على هيئة دموع فوق باب البيت وأمام الباب على الإفريز يضعون مائدة مغطاة بغطاء أسود وبه نفس البقع الفضية اللون وفوق المائدة يوضع طبق ليضع عليه بطاقات بأسمائهم حين يرغبون فى زيارة الميت .

فعندما مات السيد « سيريسولا » علمت « لالا » بالخبر فى حينه لأنها رأت ابنه فى حانوت الموتى فى الطابق الأرضى للفندق .

إن ابن السيد « سيريسولا » شاب سمين ذو شعر قليل وشارب كفرشاة . إنه ينظر دائما إلى « لالا » كما لو كانت شفافة . أما السيد « سيريسولا » الأب فكان مختلفا عن ابنه . إنه كان أحد من أحبتهم الفتاة . إنه ايطالى متوسط الطول ولكنه عجوز ونحيل ويسير بمشقة بسبب آلام الروماتيزم . انه دائما ملتزم بملابسه الكاملة السوداء والتى كانت قديمة أيضا . لأن القماش قد تحلل وبَلىَ عند المرفقين

fb/mashro3pdf

والركبتين . ومع ذلك كان حذاؤه قديما أيضا وهو من الجلد الأسود دائم اللمعان وحين يكون الجو باردا فانه يضع « كوفية » من الصوف وغطاء للرأس « كاسكيت » كان وجه الأب نحيلا وجافا ومجعدا وشعره أبيض وقصير معقوص ونظارة غريبة مصنوعة من قشر السلحفاة مثبتة بقطع من اللاصق ومن الدوبار . لقد أحبه الناس هنا فى حى « السلة » لأنه مهذب ومؤدب مع كل الناس وعليه سيماءالاعتزاز بالنفس ببدلته السوداء العتيقة وحذائه اللامع والجميع يعلمون انه كان نجارا فيما مضى . ما هى صنعته ؟ وانه قدم من إيطاليا قبل الحرب لأنه لم يكن يحب «موسيلينى»، هذا ما كان يقوله حين يقابل « لالا » فى الشارع عندما يذهب لشراء حاجياته . فقد قال انه حضر إلى باريس وليس معه نقود إلا ما يكفيه لأن يبيت بها فى فندق لمدة يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر كما كان لا يعرف حرفا من اللغة الفرنسية حتى انه حين طلب قطعة من الصابون ليغتسل بها فقد قدموا له وعاء من ماء ساخن . وعندما كانت تقابله الفتاة فإنها كانت تساعده فى حمل حاجياته لأنه كان يسير فى صعوبة خاصة حين يريد صعود السلم إلى شارع « السلة » وأثناء سيرهما كان يحدثها عن إيطاليا وعن قريته وعن أيام أن كان عاملا فى تونس وكم من بيوت بناها فى كل مكان : فى باريس — وفى ليون ، وفى كورسيكا . وكان له صوت عجيب عال فكانت « لالا » لا تفهم لهجته ولكنها مع ذلك تحب أن تسمعه .

والآن وقد مات . وحين علمت « لالا » ذلك انتابها حزن شديد حتى أن ابنه نظر اليها فى دهشة . لقد دهش أن يرى انسانا يفكر فى والده . لقد غادرت الفتاة المكان مسرعة لأنها لا تحب أن تتنفس هواء محل الأموات ولا ترى أيضا كل هذه الباقات من الورد الصناعى وكذا توابيت الموتى خاصة هذان العاملان اللذان ينظران فى شراسة .

تابعت « لالا » سيرها فى الشوارع مطأطأة الرأس حتى وصلت وهى على

fb/mashro3pdf

هذه الحال إلى باب منزل السيد « سيريسولا » وكان حول الباب اللافتات السوداء والمائدة الصغيرة بغطائها الأسود وطبقها . ثم كانت هناك سبورة كبيرة سوداء فوق الباب بحرفين على شكل هلال القمر

دخلت الفتاة المنزل ثم صعدت السلم بدرجاته الضيقة مثل ما كانت تحمل من حاجيات السيد « سيريسولا » صعدت فى بطء حتى أنها كانت تتوقف عند كل طابق لتلتقط أنفاسها . فقد كانت متعبة جدا هذا اليوم . ولقد أحست أن بجسمها ثقلا كما لو كانت ترغب فى النوع . أو كأنها ستموت حين تصل إلى الطابق الأخير .

لقد وقفت أمام الباب ثم ترددت قليلا ثم دفعته ودخلت الى الشقة الصغيرة . فى بادىء الأمر لم تتعرف على المكان لأن « الشيش » كان مغلقا وكان المكان مظلما . لم يكن بالشقة أحد فاتجهت نحو الحجرة الكبيرة وفيها مائدة مغطاة بمشمع لامع وعليها سلة بها بعض الفاكهة . وفى نهاية الحجرة وضع الفراش فى تجويف من الحجرة وحينما اقتربت « لالا » شاهدت السيد « سيريسولا » مسجى على الفراش مغمض العينين وكأنه نائم ويعلو وجهه هدوء ويداه الى جانبيه حتى أن الفتاة اعتقدت فى لحظة من اللحظات أنه نائم . وأنه على وشك أن يستيقظ فهمست فى صوت خافت حتى لا توقظه : « ياسيد سيريسولا » ولكنه لم يكن نائما . وهذا ظاهر من ملبسه ببدلته السوداء الكاملة وحذائه اللامع ولكن القميص معوج والياقة مرفوعة فظنت « لالا » انها ستتجمد . غير أن وجهه كان يعلوه سحابة داكنة شملت صدغيه وذقنه وهالة زرقاء حول عينيه كأن إنسانا قد اعتدى عليه بالضرب . وفى الحال تذكرت الفتاة « نعمان العجوز » حين كان راقدا على الأرض فى بيته ولم يكن فى استطاعته التنفس . كانت تفكر فيه بشدة حتى أنها ظنته لعدة ثوان أنه هو الممدد على الفراش وقد غطى النوم وجهه . وأن الحياة ما زالت تدب داخل ظل الحجرة على شكل همس لا يكاد يسمع . ويداه مفرودتان إلى جانبه . اقتربت « لالا » من الفراش وتفحصت الوجه المنطفىء وبياضه الذى فى لون الشمع وشعيراته البيضاء التى سقطت على وجنتيه

fb/mashro3pdf

المتجعدتين وفمه غير مقفل تماما كما تهدل صدغاه من ثقل الفك المتدلى . ومما جعل شكل الوجه غريبا أن نظارته لم تكن على عينيه . وظهر وجهه عاريا ضعيفا بسبب هذه العلامات التى لم تعد لها قيمة التى على أنفه وحول عينيه وعلى طول خديه . ولقد صار جسده صغيرا جدا ونحيلا جدا فجأة حتى بالنسبة لملابسه السوداء وكأنه قد اختفى ولم يبق منه سوى هذا القناع ويديه من الشمع وملابسه الواسعة عليه والموضوعة على شماعات . عاودها الخوف فجأة . الخوف الذى يلهب الجسد والجلد والذى يزيغ البصر وأصبح ضوء الحجرة خانقا . إنه يتسم بشكل الحركة . أن هذا الضوء الخافت يأتى من قاع الفناء . إنه يتبع الشوارع الضيقة من خلال المدينة القديمة . إنه يغرق كل الذين يجدهم ويجعلهم سجناء فى الحجرات الضيقة من أطفال ونساء وشيوخ . فهو ينفذ الى داخل المنازل من تحت الأسقف الرطبة كما ينفذ الى « البدرومات » بل ويملأ كل الثغرات . ظلت « لالا » دون حراك أمام جثمان الرجل . لقد شعرت ببرودة تتملكها حتى أبيض وجهها ويديها فصارت كالشمع . لقد ذكرت فى الحال ريح الشقاء والتى ذهبت فى تلك الليلة فوق البلدة حينما كان نعمان العجوز على وشك الموت . وهذا البرد الذى بدا وكأنه خرج من جميع الثقوب فى الأرض ليمحو الرجال . وفى بطء شديد ودون أن ترفع نظرها عن جثمان الميت تراجعت الفتاة ناحية باب الشقة . فان الموت يكمن فى الظل الرمادى المخيم على كل ركن من أركان الحجرة : فى حوائطها وفى السلم وعلى الطلاء المتشقق بالممر . هبطت « لالا » بأقصى ما تستطيع من قوة وقد دق قلبها وعيناها تسحان دمعا ثم اندفعت إلى الخارج وحاولت أن تجرى إلى أسفل المدينة نحو البحر تحيط بها الرياح والنور . ولكن ألما فى أحشائها اضطرها أن تفترش الأرض . وقد انطوت على نفسها . وكانت تئن بينما يمر من أمامها الناس وينظرون اليها خلسة ثم يبتعدون . إنهم خائفون هم أيضا . وقد ظهر ذلك جليا فى طريقة سيرهم وهم يتمسحون فى الحوائط وكانوا مثل الكلاب ذات الشعر المهوش .

fb/mashro3pdf

إن الموت فى كل مكان وفوقهم ايضا . هكذا ظنت « لالا » أنهم لا يستطيعون الافلات منه . لقد استقر الموت فى الحانوت الكائن فى الطابق الأرضى من الفندق بين باقات الزهور البنفسجية من الجبس أو من الرخام . إنه يسكن هناك فى المنزل القديم العفن فى حجرات الرجال وفى الممرات ولكنهم لا يعترفون ولا حتى يشكوا . إنه يغادر الحانوت تحت أشكال من الصراصير والفئران أو البق ثم ينتشر فى جميع الحجرات الرطبة وفوق الحاشيات من القش فهو يزحف على أرضية الحجرات وفى الثقوب ويملأ كل ذلك كظل مسمم .

قامت « لالا » وسارت مترنحة تعتصر أسفل بطنها بكفيها حيث تهاجمها الآلام . لم تعد تنظر لأحد . ولكن أين تذهب ؟ هم . هم يعيشون ويأكلون ويشربون ويتكلمون وأثناء هذا الوقت يغلق الفخ عليهم . لقد فقدوا كل شىء ونفوا وضربوا واستذلوا . إنهم يعملون فى هذه الريح الباردة فى الطرقات وتحت وابل المطر . إنهم يحفرون الحفر فى الأرض المملوءة بالحصى إنهم يكسرون أيديهم ورؤوسهم ويصابون بالجنون من ضربات المطارق الآلية . إنهم جائعون وخائفون . إن الوحدة والفراغ تجمد أوصالهم . وحينما يتوقفون فإن الموت يحوم حولهم وتحت أقدامهم فى هذا الحانوت فى الطابق الأرضى من الفندق « سانت بلانش » . هناك حيث الحمالون ذوو العيون الشريرة يمسحوهم بل ويخفون أجسادهم ويغطون وجوههم بأقنعة من الشمع وأيديهم بالقفازات التى تخرج من ملابسهم الفارغة .

أين تذهب ؟ ! أين تختفى ودت « لالا » أن تجد مخبأ مثل الذى كانت تجده فى الماضى فى كهف « الحارتانى » فى أعالى صخور الحاجز البحرى . المكان الذى منه يرى الانسان البحر والسماء فقط .

لقد وصلت إلى الميدان الصغير . ثم جلست على مقعد من البلاستيك أمام حائط المنزل المتهدم ذى النوافذ الخالية التى تشبه عينى مارد ميت .

fb/mashro3pdf

وبعد ذلك كان هناك نوع من الحمى يكاد يكون فى كل مكان فى المدينة . ربما كان بسبب الريح التى هبت فى آخر الشتاء . إنها ليست ريح الشقاء والمرض مثل التى كانت حين كان نعمان العجوز على وشك الموت . ولكنها ريح العنف والبرودة والتى مرت خلال الشوارع الرئيسية فى المدينة مثيرة للتراب وقطعا من ورق الصحف . الريح التى تسكر وتجعل الناس يترنحون ربما لم تحس « لالاّ »ريحا مثل هذا الريح من قبل فهى تنفذ داخل الرأس وتضطرب فيها وتمر فى الجسد كتيار بارد طاردا كل رعدة . وما أن صارت فى الخارج بعد ظهر هذا اليوم حتى غادرت المكان عدوا فى خط مستقيم حتى دون أن تلتفت الى حانوت الموتى حيث يعانى الرجل ذو السواد من الملل .

وفى الخارج وفى الشوارع الرئيسية كانت الأنوار العديدة حيث حملتها الريح معها فصارت تقفز وتتطاير من مؤخرات السيارات وتنعكس على ألواح زجاج المنازل . وهذا أيضا نفذ إلى رأس « لالاّ » فارتعش فى بشرتها وبرق فى شعرها . فهى اليوم تنظر ماحولها لأول مرة منذ وقت طويل فترى البياض الناصع الدائم للصخور والرمال وعلى الحواف القاطعة اللامعة وترى النجوم . فأمامها وعلى البعد فى نهاية الشارع الرئيسى وفى ضباب الأنوار يظهر السراب والقباب والأبراج والمآذن والقوافل التى تختلط مع ضوضاء السيارات والناس .

fb/mashro3pdf

وهذا ريح الأنوار الآتية من الغرب والتى تذهب فى اتجاه الظلال . لقد سمعت « لالّا » كما كانت تسمع فى الماضى ضوضاء النور وهى تزحف على أرضية الشارع « الأسفلت » وانعكاساته فوق الزجاج فأين هى الآن ؟

توجد كثير من الأنوار جعلتها منعزلة وسط كومة من الابر . فربما تمشى الآن فوق المساحات الشاسعة . الصخور والرمال هناك حيث ينتظر « الحارتانى » فى وسط الصحراء ؟ ربما انها تحلم وهى سائرة بسبب الضوء والريح وأن المدينة الكبيرة سوف تذوب عما قريب وسوف تتبختر فى حرارة الشمس حين تشرق بعد هذا الليل المخيف ؟

فى زاوية من شارع قريبا من السلم الذى يقود الى محطة السكة الحديد وجدت الفتاة « رادكس » المتسول واقفا أمامها . كان وجهه متعبا وقلقا . وقد وجدت « لالّا » مشقة فى التعرف عليه ذلك لأن الصبى أصبح شبيها بالرجال كما أنه يلبس ملابس لاتعرفها الفتاة مكونة من بدلة بنية كاملة واسعة على جسمه النحيل ومن حذاء كبير من الجلد الأسود والذى لابد أنه سوف يدمى قدميه العاريتين .

رغبت « لالّا » فى التحدث إليه ولتقول له أن السيد « سيريسولا » قد مات وأنها لن تعود مطلقا لتعمل فى فندق « سانت بلانش » ولا فى أى من حجراته حيث يمكن للموت أن يأتى فى أى لحظة ويبدلها الى قناع من الشمع وعلى ذلك فقد عرضت على « رادكس » قبضتها المليئة بالأوراق المالية وقالت « انظر » شرع فيها رادكس عينيه ولكنه لم يسألها أى سؤال فربما اعتقد أن « لالّا » قد سرقت هذه النقود ربما ظن فيما هو أسوأ .

وضعت « لالّا » النقود فى جيب معطفها . فهذا كل ماتبقى لها من

fb/mashro3pdf

أيامها الماضية سواء فى الفندق وتنظيف الممرات بالفرشاة ومن كنس الحجرات الرمادية والتى ينبعث منها رائحة العرق والسجائر . فعندما قالت لصاحب الفندق أنها سوف تترك العمل لم يرد بكلمة وإنما خرج من فراشه القديم الذى لم يرتب أبدا وتقدم من خزينة فى آخر الحجرة وأخذ منها النقود ثم عدّها ثم أضاف أجر أسبوع مقدما وأعطى كل ذلك للفتاة . ثم رجع وتمدد فوق فراشه دون أن يتفوه بكلمة . لقد فعل كل ذلك دون عجلة وكان يلبس منامة وصدغاه غير حليقين وشعره قذر ثم أستأنف قراءة صحيفته وكأن شيئا غير هذا لايهمه .

والآن فإن « لالّا » سكرى بحريتها فهى تنظر ماحولها من حوائط ونوافذ وسيارات وأناس وكأنها أشكال فقط أو صور وأشباح وعما قريب ستكتسحها الريح والنور .

غطت وجه « رادكس » سحابة من الشقاء حتى أن « لالّا » اشفقت عليه . قالت « تعالى » وجرّته من يده وسط دوامات الجماهير . ثم دخلا معا متجرا كبيرا حيث تلمع فيه الاضاءة وهى ليست اضاءة الشمس الجميلة . ولكنها نور أبيض تعكسه عدة مرايا . ومع هذا فإن النور يسكر أيضا ويصيب بالدوار ويعمى . ومن خلفها « رادكس » يترنح . عبرت الفتاة قسم الروائح وأدوات الزينة والشعر والمستعار والصابون وتوقفت قليلا فى كل مكان ثم اشترت كمية من الصابون من ألوان مختلفة وقربتها من الصبى ليشمها كما اشترت بعض زجاجات الروائح وقد شمتها لحظة فى الممرات حتى أدارت الروائح رأسها أحمر شفاه وأخضر أهداب وبعض الأصباغ وكريم دهان للشعر وبعض الرموش والخصلات الصناعية وكل مايلزم من أدوات التجميل طلبت « لالّا » رؤية كل ذلك ثم عرضته على الصبى الذى لم يقل شيئا ثم اختارت بعناية زجاجة مربعة الشكل لطلاء الأظافر الأحمر الغامق ثم أنبوبة لأحمر شفاه فاقع ثم جلست على كرسى عالٍ أمام مرآة واختبرت الألوان على ظهر يدها فى حين أن البائعة ذات

fb/mashro3pdf

الشعر الذى يشبه القش ظلت تنظر اليها فى غباء .

وفى الطابق العلوى اندست « لالّا » فى قسم الملابس ومازالت ممسكة بيد الصبى ثم اختارت قميصا وعفريتة زرقاء اللون ثم حذاءً للتنس وشرابا أحمر . ثم تركت خلفها فى صالون القياس رداءها القديم الرمادى وحذاءها الكاوتشوكى ولكنها أبقت على المعطف الكستنائى لأنها تحبه جدا . الآن تمشى فى رشاقة وتقفز فى خفة على نعليها المطاطين ويدها فى جيب سترتها الجديدة وشعرها متهدل فى خصلات فوق ياقة معطفها وتسطع فى وسط الأنوار الكهربائية البيضاء .

نظر اليها « رادكس » فوجدها جميلة ولكنه لم يجرؤ على أن يصارحها بذلك . فبرقت عيناها من السرور لقد وجد كأن نارا اندلعت فى شعرها الأسود وفى وجهها النحاسى . والآن وكأن نور الكهرباء قد أحيا لون الشمس والصحراء وأنها جاءت الى هنا فى محلات « بريزونيك » مباشرة عن طريق هضبة الصخور .

ربما كل شىء قد أختفى وأن المتجر الكبير وحيد وسط الصحراء التى لانهاية لها ويشبه حصنا من الصخور والطين . ولكنها المدينة بأكملها التى يحيط بها الرمل ويحتضنها الرمل ويسمع صوت بناء العمارات من الأسمنت المسلح فى حين تنتشر التشققات فى الحوائط وتسقط أعمدة الزجاج والمرايا من ناطحات السحاب .

إنها نظرة « لالّا » التى حملت القوة الخارقة للصحراء . فالضوء شديد حار فى شعرها الأسود وعلى ضفيرتها السميكة على كتفها وهى تسير . الضوء شديد فى عينيها السوداوين فى لون العنبر . فوق بشرتها توجد وجنتاها البارزتان فوق شفتيها . وعليه ففى المتجر الكبير الملىء بالضوضاء وبالكهرباء البيضاء فإن الناس كانوا يتنحون عن الطريق أو يقفون حين مرور « لالّا » و « رادكس » المتسول .

fb/mashro3pdf

كان الرجال والنساء يقفون فى دهشة لأنهم لم يروا قط انسانا مشابها لها . ففى وسط الممر مشت « لالّا » مرتدية حلة العمل الداكنة ومعطفها البنى المفتوح من أعلى عند الرقبة ووجهها النحاسى فهى ليست طويلة ولكنها تبدو عملاقه عندما تقدمت نحو منتصف الممر . وحينما هبطت السلم تسير نحو الخروج .

إنه بسبب كل هذا النور المشع من عينيها ومن بشرتها ومن شعرها النور غير الطبيعى ومن خلفها هذا الصبى العجيب النحيل وهو فى ملابس رجل وقدماه عاريتان داخل هذا الحذاء الجلدى الأسود وشعره الطويل الأسود والذى يحيط بوجهه المثلث الشكل وبصدغيه الغائرتين فى وجهه وفى عينيه الغائرتين . لقد سار إلى الخلف دون أن يحرك ذراعا بل كان هادئا وصامتا ككلب مذعور . لقد شاهده الناس فى دهشة وكأنه ظل انفصل عن جثمان . فقد كان الخوف يُقرأ على وجهه ولكنه حاول اخفاءه بابتسامة عجيبة جافة والتى تشبه الى حد كبير تقطيبة .

وفى بعض الأوقات كانت « لالّا » تلتفت إلى الوراء لتشير اليه باشارة أو لتاخذه من يده « اقترب تعالى » ولكن الصبى سرعان مايجعلها تسبقه وحينما خرجا إلى الشارع من جديد خرجا إلى الشمس والهواء سألته « لالّا » قائلة « أنت جائع ؟ » فنظر إليها « رادكس » بعينين لامعتين حادتين . فقالت له : سنأكل ثم أرته ماتبقى فى قبضة يدها من أوراق النقد الكامنة فى جيب ردائها الجديد .

وعلى امتداد الشوارع الرئيسية الكبرى يسير الناس . بعضهم يسرع الخطى والبعض يسيرون على مهل جارّين أقدامهم . كما تمر السيارات دائما فى محاذاة الأفريز كأنها تنتظر شيئا ما . أو انسانا ما . أو مكانا فيه . توجد عصافير كثيرة فى السماء الصافية إنها تهبط إلى الوادى والشوارع مرسلة بصيحات

fb/mashro3pdf

مدوية . إن « لالّا » سعيدة جدا إذ تسير وهى تمسك بيد « رادكس » دون أن تتكلم وكأنهما يسيران الى آخر العالم وبلا عودة . إنها تفكر فى البلاد التى هى فى الطرف الآخر من البحر . الأراضى الحمراء والصفراء وذات الصخور السوداء الرابضة فى الرمال العليا ويحرك الكثبان . لقد فكرت أيضا فى كهف « الحارتانى » فى أعالى الحاجز الجبلى . ومن هناك كانت ترى السماء وليس غيرها . والآن وكأنها تسير نحو هذه البلاد على امتداد الشوارع الرئيسية . وكأنها عائدة . لقد أفسح الناس الطريق لهما وبعيون صدمتها الاثارة وغير فاهمين فقد مرت أمامهم دون أن تراهم وكأنها تسير بين ظلال من الناس . لم تتكلم « لالّا » بل ضمت فى قوة يد « رادكس » وسارت قُدُما فى اتجاه الشمس .

وحينما وصلا الى البحر كانت الريح تهب فى عنف وكانت السيارات تطلق آلة التنبيه فى قوة بسبب اختناقات المرور عند الميناء . ومن جديد ارتسم الخوف على وجه « رادكس » فأخذت الفتاة يده واعتصرتها لتطمئنه . يجب ألا يتردد والا زالت نشوة الريح والضوء وتركتهما لأنفسهما فلن يكون لهما بعد ذلك الشجاعة على الحرية .

لقد سارا على امتداد الرصيف فى الميناء دون أن يلتفت إلى السفن التى يتردد صدى صواريها وكانت انعكاسات الماء تتراقص على وجه « لالّا » فتلمع بشرتها النحاسية وشعرها . إن الضوء الأحمر يحيط بها . فنظر اليها الشاب وقد تسربت الحرارة المنبعثة منها الى داخله فأثارته . ودق قلبه بشدة وانعكست دقاته على صدغيه ورقبته .

وهنا ظهرت الحوائط العالية البيضاء والزجاج الواسع للمطعم الكبير . فإليه أرادت هى أن تذهب وفوق الباب كانت أعمدة تحمل أعلاما ملونة ترفرف بفعل الهواء . إن « لالّا » تعرف جيدا هذا البيت فقد كانت تراه عن بعد فهو ناصع

fb/mashro3pdf

البياض وبزجاجه الكبير الذى يعكس ويرسل ضوء الشمس أثناء الغروب .

دخلت الفتاة المحل دون تردد بعد أن دفعت الباب الزجاجى . الصالة الكبيرة كانت مظلمة ولكن فوق موائدها المستديرة كونت المفارش نقطا لامعة . وفى لحظة خاطفة تبينت « لالّا » كل شىء فى وضوح . فباقات الورد البمبى فى أصص من الكريستال وأدوات الأكل من الفضة والأكواب ذات الأضلع الكثيرة والمنشفات الجديدة ثم الكراسى المغطاة بالقطيفة الزرقاء وكذا أرضية المكان الخشبية اللامعة حيث يسير فوقها « النُّدُل » يلبسون الملابس البيضاء . إن هذا غير حقيقى وبعيد جدا . ومع ذلك فقد دخلت وهى تتهادى فى مشيتها ودون أن تحدث صوتا فوق الأرضية وممسكة فى عزم وقوة بيد الصبى المتسول .

« تعالى » « فسنجلس هناك » قالت ذلك وأشارت إلى المائدة القريبة من نافذة كبيرة . فعبرا الصالة الكبرى للمطعم وحول الموائد البيضاء . رفع الرجال والنساء رؤوسهم عن أطباقهم وتوقفوا عن مضغ الطعام والكلام . وحتى « النُّدُل » تعلقت نظاراتهم وبقيت ملاعقهم مغروسة فى طبق الأرز أو زجاجة النبيذ الأبيض ظلت مائلة قليلا وسال منها خيط رفيع جدا من النبيذ فى الأكواب وكأنه شعاع على وشك الانطفاء ثم جلست « لالّا » و « رادكس » إلى مائدة مستديرة كل منهما فى جانب من المفرش الأبيض الجميل يفصلهما باقة من الورد . وهنا بدأ الناس يأكلون ويتحدثون ولكن فى صوت خفيض . وبدا النبيذ يسيل وتحمل الملعقة الأرز وتهامست الأصوات قليلا وقد طغت عليها جلبة السيارات التى تمر أمام زجاج المطعم الواسع كأنها الأسماك المتوحشة فى أحواضها . لم يجرؤ « رادكس » على أن ينظر حواليه وإنما ركز بصره على « لالّا » بكل قوته إنه لم ير أجمل من هذا ولا أكبر . فقد أضفت أنوار النافذة على شعرها الأسود الكثيف فصنعت هالة من اللهب حول وجهها وفوق عنقها وأكتافها حتى على يديها المبسوطتين على مفرش المائدة الأبيض . لقد بدت عينا « لالّا » وكأنهما من

fb/mashro3pdf

الحجر البراق فى لون المعدن والنار . أما وجهها فقد بدا كأنه قناع من النحاس الأملس .

وقف أمام مائدتها رجل فاره الطول وضخم الجثة يرتدى بدلة سوداء وقميصا أبيض فى مثل مفارش الموائد ، ذو وجه ضخم ورخو يدل على الملل ، وفم لاشفاه له . وفى اللحظة التى همّ أن يفتح فمه ليقول للشابين أن يغادرا المكان فى الحال ودون إحداث ضجة أو متاعب . التقت عيناه الحزينتان بعينى « لالّا » وفجأة نسى ماكان يزمع قوله فنظرة « لالّا » قاطعة كحافة حجر ومليئة بالقوه حتى اضطر الرجل أن يحول ناظريه وتراجع خطوة الى الخلف كأنه يريد الرحيل . ثم قال فى صوت عجيب ومتلعثم « أنتما : أتريدان أن تشربا شيئا ؟ » فنظرت إليه « لالّا » وقد ركزت نظرتها دون أن يطرف لها جفن « إننا نشعر بالجوع » وقالت فى اقتضاب « أحضر لنا مانأكله » .

فابتعد الرجل ذو الزى الأسود ثم عاد ومعه قائمة الطعام ووضعها على المائدة . ولكن « لالّا » ردت له القائمة ولم تزل تركز نظرها على عينيه . فربما سيذكر بعد قليل كراهيتها وسيخجل من خوفه « أحضر لنا مثل هؤلاء » وأشارت الى المجموعة التى تجلس على المائدة المجاورة لهما . هؤلاء الذين ظلوا يرمقونها خلسة من وقت لآخر من تحت النظارات . فراح الرجل يتحدث الى أحد « النذل » الذى جاء يدفع أمامه عربة صغيرة محملة بأطباق من جميع الألوان . ففوق الأطباق وضع النذل بعض الطماطم وأوراق الخس وشرائح من الأنشوجة والزيتون وبطاطس باردة وبيض وعلبة مسحوق أصفر وأشياء أخرى عديدة . فرأت « لالّا » رادكس الذى كان يأكل فى سرعة وقد أنحنى على الطبق كأنه كلب يقضم عضمة فراودتها الرغبة فى الضحك .

ظل النور والهواء يتراقصان دائما من أجلها حتى فى هذا المكان : فوق

fb/mashro3pdf

الأكواب والأطباق وعلى المرايا التى على الحوائط وعلى باقات الزهور . ثم توالت الأطباق الواحد بعد الآخر على المائدة الكبيرة الملتهبة ومليئة من جميع الأصناف والتى لاتعرفها الفتاة : من أسماك غارقة فى صلصة حمراء وخليط من الخضروات وأطباق حمراء وخضراء وسمراء مغطاة بقبة من الفضة التى رفعها « رادكس » ليشم رائحة الطعام ثم قام رئيس الخدم بصب النبيذ الذى فى لون العنبر ثم صب فى كوب آخر أوسع وأخف نبيذا فى لون العقيق الغامق . غمست « لالّا » شفتيها فى الشراب ولكنه اللون هو الذى شربته وهى تنظر إلى شفافيته . فقد أسكرهما الضوء أكثر من النبيذ والألوان ورائحة الطعام . أكل « رادكس » فى سرعة من كل صنف دفعة واحدة ثم شرب كوبا من وراء كوب من أكواب النبيذ . ولكن « لالّا » لاتكاد تأكل . فقد ظلت تشاهد الفتى وهو يأكل وكذا بقية الناس فى الصالة والذين تجمدوا أمام اطباقهم . مر الوقت بطيئا . أو أن نظرتها هى التى ظلت ثابتة مع الضوء . وفى الخارج استمرت السيارات فى سيرها أمام زجاج المطعم كما كان يرى لون البحر الرمادى من بين السفن .

وحين أنتهى « رادكس » من طعامه وقد أتى على ماق الأطباق جفف فمه بالمنشفة واتكأ على ظهر كرسيه واحمر وجهه قليلا ولمعت عيناه فى قوة فسألته « لالّا » هل هذا طعام جيد ؟ » فأجابها الشاب فى بساطة « نعم » فقد أصيب بالتجشؤ نتيجة لكثرة الأكل . فقدمت اليه « لالّا » كوبا من الماء وطلبت اليه أن ينظر فى عينيها حتى تذهب عنه هذه « الزغطة » .

ثم اقترب منهما الرجل البدين وقال « قهوة » . فهزت « لالّا » رأسها نفيا . وحين جاء رئيس الخدم بقائمة الحساب فوق صينية أعادتها الفتاة له وطلبت اليه أن « يقرأها عليها » ثم أخرجت من جيب معطفها رزمة من الأوراق المالية ونشرتها الواحدة بعد الأخرى على مفرش المائدة . فأخذها رئيس الخدم . وأراد الانصراف ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن غير رأيه وقال « يوجد سيد على المائدة المجاورة يريد أن يتحدث اليك » .

fb/mashro3pdf

فأخذ رادكس الفتاة من ذراعها وجذبها فى عنف قائلا « تعالى يجب أن نغادر المكان » وحين اقترب من الباب رأت « لالّا » رجلا فى الثلاثين من عمره على المائدة المجاورة وعليه سمة من الحزن . وقف الرجل واتجه إليها وقال فى تلعثم « إنى ... سامحينى فى أن أوجه اليك الكلام بهذه الطريقة ... ولكن أنا ... « فنظرت اليه الفتاة وابتسمت « إنى أعمل مصورا وأود أن آخذ لك بعض الصور وقتما تشائين » . ولما لم ترد « لالّا » عليه واستمرت تبتسم زاد الرجل تلعثما أكثر فأكثر . « ذلك لأنى رأيتك هناك من لحظة حينما دخلتما المطعم . وهذا أمر غير عادى ... إنك فى الحقيقة غير عادية .. « ثم أخرج من جيبة قصاصة من الورق وقلما وكتب فى سرعة عنوانه واسمه ولكن الفتاة هزت رأسها ولم تأخذ الورقة وقالت « إنى لأعرف القراءة » . وبعد ذلك سأل الرجل « قولى أين تسكنين ؟ « إن له عينين زرقاوين بهما حزن دفين ومرقرقتين بالدموع كعيون الكلاب . نظرت إليه « لالّا » بعينين براقتين يشعان بالنور . وقد بحث الرجل عن شىء يقوله . ولكن الفتاة قالت وقد سارت مسرعة « إنى أسكن فى فندق سانت بلابش » .

انتظرها « رادكس » المتسول فى الخارج . لقد أسقط الهواء شعره على وجهه النحيل ولم يكن راضيا وحينما كلّمته « لالّا » هز كتفيه لقد سارا معها حتى البحر دون أن يعرفا إلى أين ؟ هنا البحر ليس كشاطىء « نعمان » الصياد إنه حائط كبير من الأسمنت يمتد بطول الساحل . وهذا الحائط معلق فوق الصخور الرمادية والأمواج القصيرة تصطدم بالصخور فتتفجر المياه عليها ويتصاعد الزبد كالضباب . ولكن « لالّا » تحب هذا المنظر حتى أنها تمسح شفتيها بلسانها لتحس طعم الملح وفى صحبة « رادكس » فقد هبطت وسط الصخور حتى تجويف يحميها من الرياح . كانت أشعة الشمس ملتهبة فى هذا المكان . فهى تنعكس بلمعان فوق البحر وفوق الصخور الملحة . فبعد ضوضاء المدينة وبعد هذه الروائح المنبعثة من المطعم كان من المفضل أن يصلا الى هذا المكان حيث لايوجد أمامهم شيئا سوى البحر والسماء . فإلى الغرب قليلا كانت هناك جزر

fb/mashro3pdf

صغيرة وبعض الصخور السوداء التى تخرج من البحر كالحيتان وهذا ما قاله « رادكس » كما أن هناك أيضا بعض المراكب الشراعية ذات الشراع الأبيض الكبير تبدو وكأنها لعب أطفال .

وحينما بدأت الشمس تهبط من السماء وهدأ نورها فوق الأمواج وفوق الصخور وحتى الهواء فقد قلّت نسبة هبوبه وهذا قد أغرى الانسان أن يحلم ويتكلم . فنظرت « لالّا » إلى النباتات الصغيرة والتى تغطى رائحة العسل والفلفل وهى تتمايل من هبات الهواء عليها وهى كامنة بين تجاويف الصخور الداكنة أمام البحر فقد ودت « لالّا » لو أصبحت صغيرة جدا حتى تستطيع أن تعيش وسط هذه الغابة الصغيرة لهذه النباتات ولسوف تسكن فى حفرة من الصخر ويكفيها قطرة واحدة من الماء لترتوى طول اليوم وقطعة صغيرة من لباب الخبز لتسد رمقها لمدة يومين .

أخرج « رادكس » من جيب سرواله علبة سجائر وقد قاربت أن تبلى أعطى منها واحدة للفتاة . لقد قال انه لايجب أن يدخن أمام الغير ولكنه حين يكون فى مكان يحبه وخاصة مع « لالّا » فإن هذه أول مرة يدخن فيها أمام الناس . إنها سجائر أمريكية بها قطعة من الفلين والقطن فى نهاية اللفافة ولها رائحة العسل المقزز . لقد دخنا معا فى بطء وامتد بصرهما أمامهما إلى البحر وقد طرد الهواء الدخان الأزرق .

« هل تريدين أن أقص عليك قصة المكان الذى أسكنه هناك ناحية الخزانات » ؟

لقد تغيرت نبرة صوته الآن . وكان خشنا جافا كما لو أن عاطفته قد ضيقت حلقه . لقد تكلم دون أن يلتفت إلى الفتاة وهو منهمك فى التدخين حتى أنه أحرق شفتيه وأطراف أصابعه .

fb/mashro3pdf

« فى أول الأمر لم أكن أسكن مع الزعيم . فقد كنت أعيش مع أبى وأمى فى مقطورة . فكنا نذهب من سوق إلى آخر . لقد كان لهما ملعب للرماية بغير البندقية . وإنما بالكرات وبصفائح المأكولات المحفوظة . ثم مات أبى بعد ذلك ولما كان عدد العائلة كبيرا وليس عندنا نقود فقد باعتنى أمى للزعيم وعلى ذلك حضرت إلى هنا وأقمت فى مارسيليا . لم أكن أعلم فى أول الأمر أن أمى قد باعتنى . ولكن ذات يوم أردت الرحيل فأمسك بى الزعيم وضربنى وقال لى بأنى لاأستطيع العودة لأمى لأنها قد باعتنى وأنه أصبح من الآن والدى ولم أفكر بعدها فى الرحيل ذلك لأنى لم أرغب فى رؤية أمى . وحزنت لذلك حزنا كبيرا فى أول الأمر . لأنى لم أكن أعرف احدا فقد كنت وحيدا . وبعد ذلك تأقلمت ولأن الزعيم كان لطيفا . فقد كان يعطينا كل مانريد أن نأكله . وكان هذا ذات قيمة بالنسبة لى وخير من البقاء عند أمى مادامت لاتريد أن تهتم بى . لقد كنا ستة صبية مع الزعيم بل سبعة فى البداية ولكن أحدنا قد مات لأنه أصيب بالتهاب رئوى ومات فى الحال . وعلى ذلك كنا نجلس فى أماكن كان الزعيم يدفع ثمن وجودنا . وكنا نتسول ثم نحمل مامعنا من نقود فى المساء ونحتفظ لأنفسنا بالنذر اليسير وأما الباقى فهو للزعيم فكان يشترى منه الطعام . وقد كان يحذرنا الزعيم دائما من أن نقع فى أيدى رجال الشرطة حتى لايذهبون بنا الى جمعية رعاية الأحداث وأنه لن يفلح مطلقا فى اخراجنا منها . ولهذا السبب كنا لانبقى مدة طويلة فى مكان ثابت . وقد كان الزعيم يصحبنا دائما إلى مكان آخر . لقد أقمنا فى البداية فى مخزن كبير فى الشمال وبعدها أقمنا فى مقطورة مثل مقطورة أبى ثم ذهبنا وعسكرنا مع الغجر فى الأراضى الفضاء خارج المدينة والآن أصبح لنا منزل كبير خاص بنا أمام الخزانات مباشرة . وهنا أيضا يوجد بعض الأطفال يعملون لحساب زعيم آخر يدعى « مارسيل » . وهناك أيضا « أنيتا » مع أطفال آخرين صبيان وثلاث فتيات وأظن أن الكبرى ابنتها فعلا . إننا نعمل بجوار محطة السكة الحديد ولكن ليس فى كل الأيام حتى لايقبض علينا . فالبعض يذهب ايضا الى الميناء والبعض الآخر فى طريق « بلسيونس » « أو فى شارع « الكانابير » . أما

fb/mashro3pdf

الآن فقد قال الزعيم بأنى أصبحت عجوزا ولا أصلح للتسول لأنه يتطلب الأعمار الصغيرة وخاصة الفتيات إنه يريد أن أعمل فى أعمال جادة ولهذا فقد علمنى كيف أسرق النقود من الجيوب ومن الحوانيت وفى الأسواق . فمثلا انظرى هذا الرداء الكامل وهذا القميص وهذا الحذاء كل ذلك قد سرقها من أجلى من حانوت بينما كنت أنا أقوم بدور المراقبة فعندما كنا بالمتجر كان بإمكانك الحصول على حاجياتك دون أن تدفعى شيئا إن أردت . فهذا هين وسهل جدا وماعليك إلا أن تختارى . فأنا اعرف كل الحيل فمثلا بالنسبة لحافظة النقود يجب أن يكون هناك شخصان أحدهما يأخذ الحافظة ويسلمها للآخر حتى لاتضبط مع الأول . لقد قال الزعيم بأنى خلقت خصيصا لهذه المهنة . ذلك لأنى أملك يدين طويلتين ومرنتين كما أنه يقول أنهما يصلحان إما لعزف الموسيقى أو للسرقة والآن فنحن ثلاثة أشخاص لنفعل هذا مع أبنة « انيتا » فنزور سوقا كبيرة وفى بعض الأحيان يقول الزعيم « لأنيتا » هيا سنذهب إلى « السوبر ماركت » لنسرق وعلى ذلك يأخذ معه صبيتين وأحيانا أخرى يأخذ ابنة « انيتا » وصبيا وطبعا الصبى هو أنا دائما . أنت تعرفين طبعا « السوبر ماركت » فهى واسعة للغاية ففيها من الممرات والمشايات الكثير لدرجة أنك تفقدين طريقك فيها . فيها أنواع الطعام وأنواع الملابس والأحذية والصابون والاسطوانات . فيها كل شىء . وعليه فبالنسبة لاثنين يعمل الانسان فى سرعة . إن عنده حقيبة بها قاعان للأشياء الصغيرة جدا وللمأكولات أما الباقى فإن أنيتا هى التى تحمله على بطنها . معها حقيبة مستديرة تضعها تحت ردائها كما لو كانت حاملا . أما الزعيم فله معطف ضد المطر وبه جيوب داخلية عديدة يجمع فيها كل مايريد ويذهب لقد كنت فى أول الأمر أخشى أن أمسك ولكن مايجب فعله هو أن نختار الوقت المناسب وألّا نتردد . لأنك إذا ترددت فسيكشفك المراقبون . فأنا الآن أعرف جيدا المراقبين وحتى من بعد أعرفهم لأنهم جميعا يمشون بطريقة واحدة . أو ينظرون من أطراف أعينهم . إنى أستطيع معرفتهم من بُعْد كيلو متر . وأما أنا فأفضل العمل بالشارع مع السيارات . لقد قال الزعيم أنه سيعلمنى أن أعمل فى السيارات فهذا تخصصه وفى

fb/mashro3pdf

بعض الأوقات يذهب الى المدينة ويعود بسيارة حتى أتدرب عليها . فقد علمنى كيف أفتح مقبض السيارات بواسطة سلك رفيع أو بمفتاح مستعار . فأغلب السيارات يمكن فتح أبوابها بمفاتيح مستعارة ثم بعد ذلك علمنى كيف أجذب الأسلاك تحت لوحة العربة حتى أفتح زر الأمان فى العربة ولكنه قال أنى مازلت حديث السن لقيادة السيارة وعلى ذلك فإنى أستولى على مابداخل السيارة وغالبا ماتوجد أشياء عديدة فى صندوق القفازات من كرنيهات وشيكات وأوراق وحتى النقود كما توجد تحت القاعدة آلات تصوير وأجهزة الراديو . إنى أفضل أن أعمل وحدى فى الصباح الباكر حينما لايوجد أحد فى الشارع غير قطة مثلا من وقت لآخر كما أنى أحب جدا شروق الشمس وكم تكون السماء صافيه ونظيفة . إن الزعيم يود لو أنى تعلمت كيف أفتح مزاليج أبواب المنازل والفيلات الغنية هنا بالقرب من البحر . كما أنه يقول إن فى استطاعة شخصين أن يفعلا عملا طيبا اذا كانا خفيفين ويعرفان كيف يتسلقان الحائط . لقد علمنا ايضا حيل فتح المقابض وعلمنا ايضا حيل فتح النوافذ غير أنه لم يعد يفعل ذلك لأنه كما يقول قد كبر فى السن وأصبح عجوزا فلا يستطيع العَدْو إذا لزم الأمر . ولكن لم يكن هذا هو السبب فى الواقع وإنما السبب أنه قد ضبط مرة فأصبح يخاف أن يفعل ذلك . لقد ذهبت مرة مع شخص يدعى « ريتو » فقد كان يكبرنى سنا وكان يعمل من قبل لحساب الزعيم . صحبنى معه وذهبنا معا الى شارع بالقرب من « برادو » فقد راقب منزلا وعلم أنه خال ولا أحد به . لم أدخل المنزل ولكنى بقيت فى الحديقة فى الوقت الذى حمل « ريتو » كل مايستطيع حمله ونقله إلى العربة التى كان بها الزعيم منتظرا . لقد تملكنى الرعب ذلك لأنى كنت الوحيد الذى بقى فى الحديقة لأراقب وأعتقد أن خوفى يكون أقل لو أنى دخلت المنزل لأعمل . ولكن يجب أن يعرف الانسان كل شىء قبل أن يبدأ وإلا فسيقبض عليه . فلكى تدخل يجب أن تعرف جيدا أين النافذة المناسبة . ثم نتسلق فوق شجرة أو فوق « الميزاب » وألا نكون ممن يصابون بالدوار وألا نتصرف بجنون إذا ماحضر رجال الشرطة . فيجب أن تبقى ثابتا لاتأتى بحركة أو تختبىء فوق السطح

fb/mashro3pdf

ذلك لأنك لو عدوت فسيقبضون عليك فى خمس ثوان . لقد أوضح لنا الزعيم كل ذلك فى الفندق فقد دربنا على تسلق المنازل وجعلنا نمشى فوق الأسطح ليلا كما علمنا كيف نقفز من شاهق مثل رجال الباراشوت كما قال أنه لاينبغي أن نبقى هنا بل نشترى سيارة بمقطورة ونرحل الى أسبانيا . ولكنى أفضل أن أذهب الى « نيس » ولكنى أعتقد أن الزعيم يفضل أسبانيا . « ألا تريدين أن تأتى معنا ؟ » إنك تعلمين أنى سأخبر الزعيم بأنك صديقة وهو لن يسألك من جانبه شيئا . سأخبره بأنك صديقتى . وأنك سوف تعيشين معنا فى المقطورة . فسيكون هذا حسنا . وربما تعلمت أيضا كيف تعملين فى المحلات التجارية أو أنك سوف تستطيعين العمل فى السيارات معنا فلكل دوره . وبهذا يثق بك القوم هل تعلمين أن « أنيتا » ظريفة جدا وانى على يقين من أنك ستحبينها . فهى امرأة شقراء وعيناها زرقاوان ولا أحد يصدق أنها غجرية . فإذا أتيت معنا فسيكون سيان عندى أن أذهب الى « نيس » أو إلى أسبانيا . أو إلى أى مكان آخر ...» .

توقف « رادكس » عن الكلام فقد أراد أن يسأل « لالّا » بعض الأسئلة بالنسبة لموضوع الطفل الذى تحمله فى أحشائها ولكنه لم يجرؤ على ذلك . فأشعل لفافة أخرى وأخذ يدخنها وكان من وقت لآخر يعطيها اللفافة كى تأخذ نفسا . لقد نظر الاثنان إلى البحر فراعهما جماله وجزره السوداء كالحيتان وسفنه كاللعب والتى تتقدم فى هدوء وبطء فوق البحر المملوء بالأضواء . فمن وقت لآخر تهب الرياح فى عنف حتى ليقال ان السماء والبحر سينقلبان رأسا على عقب وسيتبادلان مكانيهما .

fb/mashro3pdf

والآن نظرت « لالّا » صورها المطبوعة على صفحات المجلات وعلى غلاف الصحف . نظرت إلى أكوام الصور وعلى لوحات الخشب المثبت عليها الصور وعلى الرسومات المجسمة الملونة حيث يظهر وجهها فى الحجم الطبيعى . ثم قلبت أوراق وصفحات المجلات من الخلف إلى الأمام حيث كانت ممسكة بالوضع المعكوس . وقد مالت رأسها الى ناحية . سألها المصور « هل أعجبتك هذه الصور ؟ » سألها وقد شاب القلق صوته وكأن هذا له أهميته أما هى فقد أضحكها . فابتسمت دون ضوضاء حتى بدت أسنانها الناصعة البياض . ضحكت من كل ذلك من كل صورها . من الصحف . وكأن كل هذا للتسلية وكأنها لم تكن هى التى تُرى فوق الأوراق . أولا لم تكن هى أنها « حواء » فهذا هو الاسم الذى أعطته للمصور ولهذا كان يناديها به لأن هذا هو الاسم الذى ناداها به أول مرة حين قابلها فى درجات السلم فى شارع « السلة » وحين صحبها إلى منزله فى شقته الواسعة فى الدور الأرضى من العمارة الجديدة .

fb/mashro3pdf

والآن فإن « حواء » أصبحت فى كل شىء . على صفحات المجلات وفوق اللافتات الخشبية . فوق الحوائط فى الشقة . « حواء » فى ردائها الأبيض ويحيط وسطها بحزام من الجلد الأسود . وحيدة وسط مجموعة من الصخور بدون ظل .

ثم « حواء » فى رداء من الحرير الأسود وحول جبهتها منديل مثلما يستخدمه قبائل الآباش . وحواء واقفة على ملاط الشارع فى المدينة القديمة الملون : أحمر وذهبى . وحواء واقفة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . وحواء وسط الناس فى شارع « بليسونس » للنزهة أو على درجات سلم المحطة السكة الحديد . ثم حواء فى رداء بلون البنفسج الغامق عارية القدمين على قارعة الطريق فى شارع واسع ممتد كالصحراء بين أطياف من الخزانات والمداخن المشتعلة . وحواء وهى تسير أو وهى ترقص وهى نائمة . ثم حواء بوجهها الجميل النحاسى اللون وبقوامها الفاره الناعم والذى يلمع فى النور . وحواء بعينين كالنسر وشعرها الأسود الغزير والذى يتهدل على أكتافها أو منسدل بماء البحر كغطاء للرأس من البلاستيك .

ولكن .. من هى حواء ؟ ففى كل يوم عندما كانت تستيقظ فى حجرة المعيشة الفسيحة حيث كانت تنام على حاشية من الكاوتشوك موضوعة على الأرض ثم تذهب تغتسل فى صالة الحمام دون أن تحدث ضوضاء ثم تخرج من النافذة لتجوس خلال شوارع الحى حيثما اتفق ثم تسير حتى البحر . استيقظ المصور وفتح عينيه ولكنه لم يتحرك كما لو أنه لم يسمع شيئا وحتى لايضايق حواء فهو يعرف أنها هكذا فيجب ألا يحاول أن يوقفها ولكنه فقط يترك النافذة مفتوحة حتى تستطيع أن تدخل كالقطة .

ففى بعض الأحيان لاترجع إلا فى المساء فهى تتسلل داخل الشقة من النافذة . لقد سمعها المصور تخرج من معمله فذهب ليجلس الى جوارها فى حجرة المعيشة وليتحدث معها قليلا . إنه يتأثر دائما حين يراها . ذلك لأن وجهها مملوء بالنور والحياة . إنه يطرف قليلا بعينه لأنه آت من الظلام فى المعمل . إنه يظن دائما أن لديه كثيرا ليقوله لها . ولكن حين تكون « حواء » أمامه فإنه لايدرى ماعساه يقوله لها فهى اذا التى تتكلم فقد قصت عليه كل ماشاهدته وماسمعته فى الشوارع ثم انها تأكل قليلا حين تتحدث وعن الخبز الذى اشترته والفاكهة والبلح

fb/mashro3pdf

الذى كانت تحمله عند المصور بكميات كبيرة والأعجب من هذا فهى الخطابات فقد وردت من جميع الأنحاء وهى تحمل اسم « حواء » فوق المظاريف فهى من صحف الموضة والمجلات التى بعثت هذه الخطابات وقد أضافت اسم المصور وعنوانه . إنه سعيد جدا وفى الوقت نفسه قلق جدا لوصول هذه الخطابات . لقد طلبت « حواء » أن يقرأها عليها وقد كانت تصغى اليه وهى مائلة برأسها ناحية وهى تشرب قدحا من الشاى بالنعناع (والآن وقد امتلأ مطبخ المصور الصغير بصناديق البارود والشاى بالياسمين وعلبا من النعناع) . ففى بعض الأحيان تقول هذه الخطابات أشياء غير عادية وأشياء تافهة تكتبها للفتيات الصغيرات اللائى رأين صورة « حواء » فى مكان ما وقد تحدثن اليها وكأنهن يعرفنها من زمن طويل . وهنا ايضا خطابات كتبها شبان وقعوا فى حبها ويقولون أنها جميلة مثل « نفرتيتى » أو كأميرة من قبائل « الانكا » ويتمنون مقابلتها يوما ما .

فضحكت « لالّا » وقالت « كاذبون » . وحين عرض عليها المصور التى أخذها لها من وقت قريب « حواء » بعينيها المستديرتين والبراقتين كالماس . وبشرتها سمراء كالعنبر وبها شرر من النور وشفتيها وقد علتهما بسمة مليئة بالسخرية وجانب وجهها الحاد . فضحكت « لالّا » للمرة الثانية وأعادت قولها : « كم أنت كاذب أنت كاذب » لأنها تعتقد أن هذه الصورة لاتشبهها .

وهناك أيضا بعض الخطابات الجادة والتى تتحدث عن عقود وارتباطات مالية ومواعيد للقاء وعرض أزياء وللمصور أن يقرر كل شيء وهو الذى سيتولى كل شيء . فهو الذى يتصل تليفونيا بالحائكين ويسجل مواعيد اللقاءات فى مفكرته ثم يمضى عقود الارتباط . إنه هو الذى يختار النماذج والألوان وهو الذى يعين المكان الذى يصور فيه . ثم يصحب « حواء » فى عربته النصف بضاعة « الفولكس فاجن » الحمراء ويذهبان بعيدا حيث لامنازل ولا شيء سوى تلال داكنة مغطاة بالصخور والحصى والنباتات الشوكية أو فى دلتا النهر الكبير على الشاطىء الناعم

fb/mashro3pdf

من المستنقعات هنا حيث السماء والماء من لون واحد .

ان « لالّا حواء » تحب الرحلات والسفر فى سيارة المصور لترى المناظر وهى تجرى من حولها من خلال الزجاج . والطريق الأسود يتجه ناحيتها والمنازل والحدائق والناس وقوف على جانبى الطريق وهم ينظرون بعيون زائغة وكأنهم فى حلم . لقد كان حلما وربما كان الحلم الذى تعيشه « لالّا حواء » حلم لم تر فيه فى الحقيقة ليلا أو نهارا ولا جوعاً ولا عطشاً ولكن انسياب المناظر الطباشيرية وملتقى الطريق والمدن التى تمر بشوارعها وميانيها الأثرية والفنادق .

لم يتوقف المصور عن تصوير « حواء » . فقد كان يغير الآلات ويقيس الضوء ثم يضغط على الزر . لقد صار وجه « حواء » فى كل مكان فهو فى ضوء الشمس وقد اضيء كالمجد فى سماء الشتاء أو فى اعماق الليل . إنه يتذبذب فى محطات الاذاعة وفى المراسلات التليفونية . لقد حبس المصور نفسه فى معمله تحت ضوء خافت برتقالى اللون . إنه ينظر الى الوجه الذى يتكون شكله على الورق فى حوض الحامض . أولا العيون الواسعة ذات الطابع العميق ثم الشعر الأسود وانحناء الشفاه وشكل الأنف والظل فى أسفل الذقن . العينان تنظران بعيدا كما تفعل دائما الفتاة بعيدا الى الطرف الآخر من الدنيا . وقد نبض قلب المصور بضربات سريعة فى كل مرة كما كان فى المرة الأولى حين تلقى نور نظرتها فى المطعم « جاليرو » أو عندما وجدها بعد ذلك على درجات سلم المدينة القديمة .

لقد أعطته صورتها ولاشيء غير ذلك وأحيانا تلامس كفه بيدها أو أن الشرارة الكهربائية سرت إليه حين هفهف شعرها على جسمه . أو أن رائحتها اللاذعة مثل المو الح أو رنة صوتها أو ضحكتها الصافية . ولكن من هى ؟ ربما لاتكون اكثر من مقدمة حلم يتبعه الى معمله المظلم مع آلاته وأجهزته أو هى العدسات التى تكبر ظل عينيها أو شكل ابتسامتها ؟ حلم يحلمه مع سائر الرجال فوق صفحات الصحف أو فوق أغلفة المجلات .

fb/mashro3pdf

لقد حمل « حواء معه على طائرة إلى مدينة « باريس » . ثم طافا فى سيارة أجرة . وسط سماء ذات غيوم على امتداد نهر « السين » إلى مواعيد عمل . لقد أخذ صورا فوق ارصفة النهر المليء بالطين وفى الميادين الكبيرة وفى الشوارع الرئيسية التى لانهاية لها . لقد صور دون ملل الوجه النحاسى الجميل . والذى ينساب عليه النور كانسياب الماء . إنها ترتدى قميصا من الساتان الأسود أو تلبس معطفا واقيا من المطر أزرق اللون وشعرها معقوص فى ضفيرة واحدة سميكة . وفى كل مرة يلتقى نظره بنظرها فهذا يحز فى قلبه ولهذا فانه كان يسارع فى تصويرها ودائما المزيد من الصور . فتارة يتقدم وتارة يتأخر أو يبدل الجهاز أو يركع على الأرض و « لالا » تسخر منه وتقول « كأنك ترقص » .

يود لو يغضب ولكن هذا كان محالا . فقد كان يجفف جبينه الذى يبلله العرق أو محجر عينيه حيث يسيل العرق إلى ناظريه . ثم فجأة تخرج « لالا » من منطقة الضوء لأنها قد تعبت من التصوير فتذهب . أما هو وحتى لايشعر بالفراغ فإنه يستمر فى النظر اليها ولمدة ساعات . أو فى سواد الليل للمعمل غير المعد فى صالة الحمام لحجرته بالفندق منتظرا وحاسبا ضربات قلبه لكى يظهر الوجه الجميل فى حوض الحامض . منتظرا خاصة النظرة والضوء العميق الذى يسطع من العيون المعبرة والتى فى لون الظل . وأكثر بعدا من السر كما لو أن أحدا آخر ينظر من خلال تلك العيون حتى يحلم فى هدوء . ثم بعد ذلك فإن الذى ياتى بعد ذلك فى بطء مشابه سحابة تتكون وتتشكل من الجبهة وخط الصدغين العلويين وحبات الجلد النحاسى الذى أثرت عليه الشمس والهواء فهناك سر فيها يتكشف مصادفة فوق الأوراق . شيء يستطيع الانسان رؤيته ولكنه لايمتلكه حتى ولو صور فى كل لحظة من لحظات حياته وحتى الموت . فهناك الابتسامة الرقيقة أيضا والهازئة والتى تبدو على ركنى شفتيها والتى تضيق من عينيها . إن كل ذلك هو ماعنى المصور بتصويره بأجهزته ويريد أن يخلقه فى ظلمة معمله . ففى بعض الأحيان ينتابه شعور بأن كل هذا سوف يظهر حقيقة . الابتسامة والنور فى عينيها

fb/mashro3pdf

وجمال الخطوط والملامح . ولكن هذا الشعور لم يدم سوى لحظة قصيرة . فعلى الورقة الموضوعة فى الحامض يتحرك الرسم ويتحسن ثم يضطرب ويتغطى بالظلال وكأن الصورة سوف تمحو الشخص الذى يحيا .

ربما كان هذا فى مكان آخر غير الصورة ؟ ربما كان فى الحركة ؟ فالمصور يرى لمحات « لالا حواء » يرى طريقة جلوسها وتحريك يديها مع فتح كفيها فإن ذلك يكوّن خطا منحنيا من الكوع حتى الأصابع . إنه يرى خط مؤخرة الرقبة والظهر اللَّدِن والقدمين واليدين العريضتين والأكتاف والشعر الكثيف المتهدل فوق الكتفين . إنه ينظر « لالا حواء » ولكل هذا وكأنه فى لحظات يشاهد وجها آخر وجسدا آخر خلف هذا الجسد يرى بالكاد خفيفا وساريا . إن الشخص الآخر يظهر ويختفى تاركا وراءه ذكرى متذبذبه . « فمن هى ؟ » هذه التى تسمى « حواء » . من هى ؟ وماسمها الحقيقى ؟ .

كانت « حواء » تنظر اليه فى بعض الأحيان أو تنظر للناس فى المطعم أو فى صالة المطار وفى المكاتب . كانت تتطلع اليهم وكأن عينيها ستمحوهم فى بساطة وأنهم سيعودون إلى العدم الذى يجب أن ينتموا اليه . وحينما كانت هذه النظرة تبدو منها كان المصور يشعر برعدة فى جسده وكأن برداً نفذ إلى داخله ولايعرف كنهه ربما كان المخلوق الآخر الذى يعيش فى « لالا حواء » الذى يرى ويحكم العالم بعينيه وكأنه فى اللحظة كل هذا البلد العملاق والنهر والميادين والشوارع الرئيسية . كل يختفى ويترك بدلا منه المساحات الشاسعة من الصحراء من رمال وسماء ورياح . وعندئذ صحب المصور « حواء » فى كل الأماكن التى تشبه الصحراء . السهول الكبيرة المليئة بالحصى . المستنقعات والأراضى الفضاء . فبالنسبة له « حواء » تسير فى ضوء الشمس ونظرها يمحو الأفق كما تفعل الطيور الجارحة حين تتحدث عن ظل أو عن طيف فإنها تنظر لفترة طويلة وكأنها تبحث فى الواقع عن شخص ما . ثم تبقى بغير حركة فوق ظلها فى حين يبدأ المصور فى التصوير .

fb/mashro3pdf

فماالذى تبحث عنه ؟ وما الذى تريده ؟. إن المصور ينظر عينيها ووجهها فيحس بقلق عميق خلف قوة نورها . كما أن هناك عدم الثقه وغريزة الهرب . فهذا النوع الغريب من النور يمر فى عيون الحيوانات المتوحشة أحيانا . لقد قالته له يوما بينما كان يتوقع ذلك . لقد حدثته فى رفق عن الطفل الذى تحمله فى أحشائها والذى يُكَوِّرُ بطنها وينفخ ثدييها و « انك تعلم أنى فى يوم ما سأذهب . سأرحل ويجب ألا تحتجزنى أو تحاول لأنى سوف أرحل الى الأبد . » .

إن « لالا » لاتريد مالا فهذا لايعنيها . ففى كل مرة يعطيها المصور مالا ثمن ساعات وقوفها أمامه للتصوير تأخذ الفتاة أوراق النقد وتختار من بينها واحدة أو اثنتين ثم ترد الباق له . وفى بعض أحيان أخرى فهى التى كانت تعطيه نقودا وذلك بأن تقبض قبضات من النقد وبعض النقود الفضية التى تخرجها من جيب معطفها وكأنها لاتريد أن تحتفظ بشىء لنفسها . أو أنها تجوب شوارع المدينة باحثة عن المتسولين عند أركان الحوائط ولتعطيهم بعض النقود وبعض قبضات من العملات الفضية ساندة يدها لأيديهم حتي لايسقط منها شىء . لقد كانت تعطى بعض الغجريات المحجبات اللائى يجبن الشوارع عاريات الأقدام كما تعطى العجائز من النساء فى ملابسهن السوداء الجالسات عند مدخل مكاتب البريد . أو للذين بلا مأوى والذين يفترشون الأرائك الخشبية فى الميادين أو إلى المسنين الذين يبحثون فى مخلفات الأغنياء حين يحل المساء . فهم يعرفونها جميعا وحين يرونها تقترب فإنهم ينظرون إليها وفى عيونهم بريق معين فاللقطاء يظنونها من العاهرات ذلك لأن العاهرات هن اللائى يعطونهم كثيرا من المال فيكثرون من المِلَح معها ويضحكون كثيرا معها ولكن فى عيونهم نظرات الرضا والقناعة أيضا . والآن والجميع يتحدثون عن « حواء » فى باريس يحضر الصحفيون ليقابلونها . وذات مساء كانت هناك امرأة توجه لها بعض الأسئلة فى صالة الفندق .

إن الناس يتحدثون عنك . عن سر « حواء » فمن هى (حواء) ؟

fb/mashro3pdf

« لست أدعى « حواء » وحين ولدت لم يكن لى اسم وعلى ذلك كنت اسمى « بلا اسم »

« ولماذا اذا « حواء » ؟

« هذا اسم والدتى وعلى ذلك فاسمى « حواء » بنت « حواء » هذا كل مافى الأمر »

« من أى البلاد قدمت ؟ »

« إن البلاد التى قدمت منها لااسم لها مثلى »

« واين هى » ؟

« لم يعد منها شىء هناك ولا يوجد بها أحد »

« لماذا أنت هنا ؟ »

« انى أحب السفر »

« ماالذى تحبينه فى الحياة ؟ »

« الحياة » .

« ماذا تأكلين ؟ »

« الفاكهة » .

« أى الألوان تفضلين ؟ »

« الأزرق » .

« ماالذى تفضلين من أحجار كريمه ؟ »

« أفضل الحصى الموجود فى الطريق »

« والموسيقى ؟»

« أغانى هدهدة الأطفال »

« يقال أنك تكتبين الشعر ؟ »

« أنا لاأعرف الكتابة »

« والسينما أَلَكِ بعض المشاريع ؟ »

« لا »

fb/mashro3pdf

« ماالحب بالنسبة لك ؟ »

ولكن فجأة طفح الكيل عند الفتاة فغادرت المكان مسرعة ودون أن تلتفت ثم دفعت باب الفندق ثم اختفت فى الشارع وهناك أناس فى الشارع يعرفونها وبعض الفتيات صغيرات يقدمن صورة من صورها كى تمهرها بامضائها . ولما كانت « حواء » لاتعرف الكتابة فكانت تكتفى برسم علامة قبيلتها مثل ماينقشون فوق الإبل والماعز والتى تشبه القلب.

يوجد كثير من الناس فى كل مكان وفى الشوارع الرئيسية وفى الحوانيت وعلى الطرق . وكثير من الناس يتزاحمون ويتصادمون ويتبادلون النظرات . ولكن حين تنظر إليهم « لالا » فيتلاشى الجميع أمام نظرتها ويصبح كل شىء صامتا وخاليا .

تريد « لالا حواء » أن تعبر هذه الأماكن فى سرعة لترى مابعد ذلك . وذات مساء صحبها المصور فى مرقص يسمى القصر « قصر باريس » فارتدت رداءً أسود مفتوح الظهر لأن المصور يريد أخذ بعض الصور لها . إنه مكان يشبه تماما بعض الأماكن الخالية حيث لايوجد بها سوى أطياف العمارات وهياكل السيارات الواقفة فى الشمس . انه مكان متعب. وخال حيث يتزاحم الرجال والنساء فى ظلام خانق مع سطوع الأنوار الكهربائية وسط سحب الدخان والسجائر وفى ضوء الرعد الذى يهز الأرض والحوائط .

جلست « لالا » فى ركن فوق درجة سلم . وقد أخذت تشاهد الراقصين ووجوههم التى تبرق من تصبب العرق وملابسهم البراقة . وفى آخر الصالة وفى تجويف يجلس الموسيقيون . إنهم يحركون آلاتهم « الجيتار » ويدقون الطبول ولكن صوت الموسيقى يبدو وكأنه يأتى من مكان بعيد وكأنها صرخات المردة .

ثم رقصت بدورها فى الساحة بين الناس . لقد رقصت كما تعلمت فى الماضى أن ترقص . لقد كانت وحيدة وسط هذه الجموع ولكى تخفى خوفها لأن

fb/mashro3pdf

المكان مليء بالضوضاء وبالأنوار بقى المصور جالسا فوق الدرج دون أن يتحرك ودون أن يفكر فى تصويرها . وفى البداية لم ينتبه الناس « لحواء » ذلك لأن الأنوار قد أعمتهم . وبعد ذلك وكأن شيئا غير عادى قد شعروا به قد حدث . فأخذوا يتباعدون عن بعضهم ثم توقفوا عن الرقص شيئا فشيئا ليشاهدوا « لالا » حواء » حين ظلت وحيدة فى حلبة الرقص وسط الأنوار ولم تعد ترى أى شخص . ثم بدأت ترقص على نغمات الموسيقى الكهربائية الخافتة وكأنما الموسيقى كامنة بداخلها والأنوار تنعكس على ردائها الأسود وعلى بشرتها النحاسية وفوق شعرها . ولم تر عينيها بسبب الظلام . ولكن مرت نظرتها بين الجمهور وقد شملت الصالة كلها بكل قوتها وبكل جمالها . لقد رقصت الفتاة عارية القدمين فوق الأرض الملساء وكانت قدماها الطويلتان تضربان الأرض على نغمات الطبول . أو كأنما كانت دقات قدميها تسير نغمات الموسيقى . وكان جسمها اللدن يتلوى وأردافها وأكتافها وأذرعها كانت تتباعد فى رشاقة كأجنحة . وكانت أنوار الكشافات تسقط عليها وتكسوها فتخلق دوامات حول خطواتها . لقد ظلت وحدها وسط الصالة كأنها وسط أرض فضاء محاطة بالمبانى وكأنها وحيدة وسط هضبة من الصخور وكأن الموسيقى الكهربائية تعزف لها خصيصا بإيقاعها البطىء الثقيل . وكأن الجميع قد اختفوا أخيرا وكل من كان حولها من رجال ونساء وانعكاسات الأنوار والمرايا وكأنهم قد تلاشوا . لم تعد تراهم الآن كما أنها لم تعد تسمعهم وحتى المصور نفسه قد اختفى هو ايضا مع أنه كان يجلس على الدرج . فقد اصبحوا جميعا كقطع من الصخور أو من كتل طباشيرية . ولكن هى فتسطيع الحرّكة وأخيرا فهى حرة . فهى تدور حول نفسها مفرودة الذراعين وَقَدَمَاهَا تضربان الأرض بأطراف أصابعها ثم بكعبيها كما لو كانت تدق على شعاعات دائرة كبيرة يصل محورها إلى الليل .

إنها ترقص لترحل ولتصبح غير مرئية ولتصعد كطائر نحو السحب . تحت قدميها العاريتين صارت الأرضية المغطاة بالبلاستيك ساخنة وخفيفة وفى لون الرمل

fb/mashro3pdf

ويدور الهواء حول جسدها بسرعة الريح . لقد أظهر دوار الرقص الأنوار الآن لا كالأنوار الجافة البادرة للكشافات وإنما أنوار للشمس جميلة حين تكون الأرض والصخور وحتى السماء بيضاء . إن الموسيقى الثقيلة البطيئة للآلات الكهربائية والجيتار والأرغن والطبول كلها نفذت الى داخلها . ولكن مع ذلك فهى لم تعد تسمعها . لقد كانت الموسيقى بطيئة جدا حتى أنها غطت بشرتها النحاسية وشعرها وعينيها . شملت نشوى الرقص كل ماحولها من الرجال والنساء الذين سبق أن توقفوا لحظة اخذوا يتحركون مرة أخرى ويرقصون ولكن على وقع نغمات جسم « لالا » حواء » بأن دقوا هم كذلك الأرض بأطراف أقدامهم وكعوبهم . لم يقل واحد منهم شيئا ولم ينبس ببنت شفة . فالكل ينتظر فى نشوة أن تأتى حركة الرقص إلى داخله وتجرفه . ارتفع شعر « حواء » وصار يضرب أكتافها فى وقع موسيقى . ارتعشت أصابع يدها المنفرجة الأصابع وصارت أقدام الرجال والنساء العارية تدق الأرض اللامعة فى دقات سريعة وأكثر قوة فى حين زادت سرعة نغمات الموسيقى . ففى الصالة الكبرى لم يعد هناك كل هذه الحوائط ولا هذه المرايا ولا هذه الأنوار فقد اختفى كل شىء وألغى كل شىء من تأثير دوار الرقص . كما لم يبق هناك هذه المدن التى لا أمل فيها ولا هذه المدن ذوات الهوات مدن المتسولين والعاهرات حيث الشوارع كلها فخاخ وحيث البيوت عبارة عن مقابر . لم يعد هناك كل هذا . فقد محت نظرة الراقصين المنتشية كل العقبات وكل الأكاذيب القديمة . فالآن حول « حواء » توجد مساحات لانهاية لها من الأتربة والأحجار البيضاء ومساحات حبات من الرمال والملح والأمواج والكثبان تماما كما كان فى الماضى فى نهاية طريق الماعز هناك حيث يتوقف كل شىء وكأن الانسان فى نهاية الأرض أو فى أسفل السماء وفى مهب الريح . تماما كما أحست للمرة الأولى بنظرة « السر » وعندئذ وسط دوارها فى حين ظلت قدماها مستمرتين فى أن تجعلها تدور حول نفسها فى سرعة تتزايد فقد شعرت من جديد وللمرة الأولى منذ هذا الوقت الطويل شعرت بنظرة تطل عليها وبعين ترقبها وتفحصها . ففى وسط هذه المساحة الفسيحة العارية بعيدا عن الرجال الذين يرقصون وبعيدا عن المدن ذات

fb/mashro3pdf

الضباب . شعرت بنظرة « السر » تنفذ إلى داخلها وتلمس قلبها . ضوء أضاء فى لمحة خاطفة واشتعل فى قوة لاتحتمل وآثار انفجار أبيض ولكنه حار جدا ويمد اشعاعاته خلال الصالة كلها . إنه بريق يحطم كل مصابيح الكهرباء ولمبات « النيون » التى صعقت الموسيقيين ومازالت أصابعهم فوق الجيتار والتى فجرت كل أبواق الصوت .

وفى بطء ودون أن تتوقف عن الدوران انهارت « لالا » فوق نفسها وانزلقت فوق الأرض الملساء كدمية فكت أوصالها . بقيت لحظة طويلة وحيدة وممددة على الأرض يغطى شعرها ووجهها وقبل أن يقترب منها المصور فى حين أن الراقصين تباعدوا وافترقوا دون أن يفقهوا بعد ماالذى حدث لهم .

fb/mashro3pdf

لقد جاء الموت وقد بدأ بالخراف والماعز والخيل أيضا التى بقيت فى بطن النهير بطونها منتفخة وحوافرهامتباعدة . ثم جاء دور الأطفال ودور الشيوخ الذين يهذون . ثم لايستطيعون الوقوف . إنهم يموتون بأعداد كبيرة حتى أنه يجب حفر مقابر خاصة بهم عند مجرى النهير فوق تل من التراب الأحمر . وأن يحملوا فى مطلع الفجر دون احتفال بالجنازة وملتفين فى خرق قديمة من القماش ودفنهم فى حفرة محفورة سريعا ووضع قطع من الصخور فوقهم حتى لاتنبش الكلاب الضالة المتوحشة قبورهم . وفى نفس وقت الموت فإن ريح الشرق قد أتت وهبت فى نوبات وقد لفت الرجال بين ثناياها الملتهبة طاردة كل رطوبة من الأرض ففى كل يوم يمشى « نور » على غير هدى فوق مجرى النهير مع أطفال آخرين باحثين عن « الجمبرى » ثم إنهم يضعون فخاخا من الحشائش المعقودة ومن فروع الأشجار الصغيرة ليمسكوا الأرانب وغالبا ماكانت الثعالب تمر قبله .

لقد كان الجوع هو الذى نهش الرجال وقتل الأطفال فقد مضت أيام منذ وصولهم أمام البلدة الحمراء . ولم يحصل

fb/mashro3pdf

المسافرون على أى طعام وشارف مامعهم على الانتهاء . ففى كل يوم يرسل « الشيخ الكبير » محاربيه أمام أسوار المدينة ليطلبوا الطعام كما يطلب أراضى لقومه . ولكن سادة المدينة كانوا يَعِدُون دائما ولا يعطون شيئا . فقد كانوا هم أنفسهم فقراء جدا كما يقولون . فقد عز المطر وتشققت الأرض من الجفاف وحتى احتياطى محصول القمح قد نفد . ففى بعض الأحيان يذهب « الشيخ الكبير » ومعه أولاده الى حصون المدينة ليطلبوا أراضى وبعض الحبوب وأجزاء من حقول النخيل . ولكن لاتوجد أراضٍ كافية لأنفسهم كما قال أسياد المدينة . فمن رأس النهر حتى البحر أخذت الأراضى الخصبة كما أن جنود المسيحيين غالبا مايأتون الى مدينة « أغادير » ويستولون على الجزء الأكبر من المحاصيل لأنفسهم .

وفى كل مرة كان يصغى « ماء العينين » إلى مايقوله الأسياد دون أن يجرى جوابا ثم يعود إلى خيمته فى حوض النهر ولكن لم يعد الغضب ولا عدم الصبر هما اللذان يتزايدان الآن فى قلبه ومع وجود الموت فى كل يوم وريح الصحراء الحارقة . ولكنه اليأس الذى يتقاسمه مع قومه ، كأن الرجال المتحولين على امتداد الشواطىء الخالية أو منحنين فى ظل مخابئهم قد رأوا أمام أعينهم مصيرهم المحتوم . فهذه الأراضى الحمراء وهذه الحقول الجافة وهذه المواقع الضئيلة والقليلة والمنزرعة بأشجار الزيتون والبرتقال وهذه النخيلات الداكنة فكل ذلك غريب عليهم بعيد مثل السراب .

وبرغم مابهم من يأس فإن « لارهداف » و « سعديو »

fb/mashro3pdf

يرغبان فى مهاجمة المدينة ولكن الشيخ يأبى عليهما هذا العنف فالرجال ذو الملابس الزرقاء متعبون الآن فقد أمضوا وقتا طويلا فى السير والصوم . وغالبية الجنود مصابون بالحمى ومرض الأسقربوط وأن أرجلهم مغطاة بالجروح المتقيحة وحتى أسلحتهم غير صالحة للاستعمال .

إن سكان المدينة لايثقون فى رجال الصحراء . ولهذا بقيت الأبواب مغلقة طول اليوم فكل من يريد المخاطرة بالاقتراب من الحصون تطلق عليه النيران كإنذار .

وعلى ذلك حينما أيقن من أنه لاأمل له وأنهم سوف يموتون جميعا الواحد بعد الآخر فى مهد النهر الملتهب وأمام حصون المدينة التى لاشفقة عند سكانها فقد أعطى « ماء العينين » الاشارة بالرحيل نحو الشمال . فى هذه المرة لم تؤد الصلاة ولا غناء ولا رقص . فسار القوم البعض وراء البعض فى بطء كحيوان مريض يفرد أطرافه ويقوم فى ترنح . لقد غادر الرجال ذوو الملابس الزرقاء بطن النهر وبدأوا سيرهم نحو المجهول .

والآن لم يعد لمحاربى الشيخ نفسه مظهرهم السابق . فقد ساروا مع قافلة الرجال والماشية فى أسمالهم المهلهلة ونظرتهم الملتهبة والفارغة . فربما لايعتقدون الآن فى أسباب هذه الرحلة الشاقة وإنما يتقدمون الآن بحكم العادة حتى تخور قواهم وهم على وشك السقوط فى أية لحظة . تقدمت النسوة مائلات إلى الأمام تستر وجوههن الأقنعة الزرقاء والكثيرات منهن لم يبق لهن

fb/mashro3pdf

أطفال . فقد بقوا على الأرض الحمراء فى وادى « سوس » ثم بعد ذلك وفى آخر القافلة التى امتدت فى الوادى كله كان الأطفال والشيوخ والجرحى من المحاربين وكلهم يسيرون فى بطء . لقد كان « نور » بينهم وكان يقود المحارب الأعمى إنه لايعرف أين تكون عائلته . فربما تكون قد ضاعت فى مكان ما فى سحب التراب . وكان بعض المحاربين لهم ركائبهم . وكان الشيخ الكبير بينهم فوق بعيره الأبيض وملتفاً بعباءته .

إن أحدا لايتكلم . كل يمشى من أجل نفسه أسود الوجه وأبصارهم زائغة يحدقون فى الأرض الحمراء للتلال يمشون ناحية الغرب كى يجدوا الطريق الذى يعبر الجبال نحو المدينة المقدسة « مراكش » كان المرء يمشى تحت وهج الضوء الذى يلهب الجمجمة ومؤخرة الرأس والذى يحرك الآلام فى الاضلاع فيحرق الجسد حتى الداخل . لم يعد هناك من يسمع الريح ولا صوت أقدام وخطوات الرجال وهى تطأ الصحراء . فلم يعد يسمع الانسان سوى صوت قلبه وضوضاء أعصابه والآلام التى تصفّر وتسحق الآذان .

لم يعد « نور » يشعر بيد المحارب الأعمى وهى تنشب فى أكتافه . فهو يتقدم دون أن يعرف لماذا ؟ ودون أن يأمل فى التوقف . ربما كان اليوم الذى قرر فيه والداه أن يتركا المخيم فى الجنوب فقد أصبح محكوما عليهم أن يتحولوا حتى نهاية حياتهم فى هذا السير الذى لانهاية له . فيتنقلون من بئر إلى بئر على امتداد الوديان الجافة ولكن أيوجد فى العالم أراضٍ أخرى غير هذه : مساحات لاحدود لها ولا نهاية . ممتزجة بالسماء والتراب

fb/mashro3pdf

والجبال دون ظلال وصخور نائتة حادة ونهيرات جافة بلا ماء وشجيرات ذات أشواك يكفى لكل واحدة منها أن تحدث جرحا صغيرا يسبب الموت ؟ فى كل يوم من على بعد يرى الرجال عند سفوح التلال وبالقرب من الآبار بيوتا جديدة وحصونا من الطين الأحمر محاطة بالنخيل . ولكنهم يرونها كما يرى السراب مهتزا فى الهواء الحار يرونها بعيدة من الصعب الوصول اليها . إن سكان القرى لايظهرون فقد هربوا إلى الجبال . أو انهم اختبأوا خلف أسوار حصونهم استعدادا لمقاتلة رجال الصحراء ذوى الملابس الزرقاء .

وعلى رأس القافلة وفوق الابل كان أبناء « ماء العينين » ليرشدوا عن فتحة الوادى الضيقة « طريق الشمال » . وعلى ذلك فقد عبروا الجبال فى بضعة أيام هبت الريح الملتهبة على الأودية الصغيرة . كانت السماء الصافية فسيحة جدا فوق الصخور الحمراء . لأحد هنا لاإنسان ولا حيوان ولكن فقط ترى آثار الثعابين فى الرمال . أو فى أعالى السماء يوجد ظل العقاب . يتقدم المرء دون أن يبحث عن الحياة ودون أن تلوح له بارقة أمل . فكان الرجال والنساء يمشون كعميان بعضهم خلف بعض ويمشون على آثار أقدام من سبقهم من انسان أو حيوان . ولكن من يقودهم ؟ فالطريق الضيق يتلوى على امتداد الوديان الصغيرة ويعير بقايا الصخور المتفتتة والتى تختلط بمجارى المياه الجافة .

وأخيرا وصل المسافرون إلى حافة « وادى اسين » الذى ملأه ذوبان الجليد . كانت المياه صافية وجميلة وتنتقل بين

fb/mashro3pdf

الشواطىء القاحلة . ولكن القوم نظروا اليها بغير حماس لأنها لم تكن لهم ولا يستطيعون حجزها . لقد ظلوا عدة أيام على شواطىء « الوادى » فى حين أن محاربى الشيخ الكبير ومعهم « لارهداف وسعدبو »، قد صعدوا على طريق « شيشاوا » .

« ترى هل وصلنا ؟ » هل هنا أرضنا ؟» بهذا كان يسأل دائما المحارب الأعمى . لقد كانت تتدفق المياه الباردة على شكل شلالات فوق الصخور . وأصبح الطريق أكثر صعوبة . ثم وصلت القافلة أمام قرية « شلوه » فى أعماق الوادى . لقد انتظرهم محاربو الشيخ وقد ضربوا خيامهم . وقد ذبح شيوخ الجبل الخراف لاستقبال « ماء العينين » إنها قرية « اجلا اجلا » فى سفح جبل عال . لقد استقر رجال الصحراء بالقرب من أسوار القرية دون أن يطلبوا شيئا . وفى المساء جاء أطفال القرية يحملون الشواء واللبن الرائب . وشبع كل فرد من الطعام كما لم يشبع من قبل منذ أمد بعيد . ثم أوقدوا النيران لأن الليل كان قارص البرد .

شاهد « نور » النيران تتراقص وتومض وسط هذا الليل البهيم . وكان هناك غناء ايضا وموسيقى عجيبة لم يسمعها من قبل . كانت حزينة وبطيئة يصاحبها صوت « الناى » . وقد طلب القوم من رجال ونساء بركة « ماء العينين » حتى يشفيهم من أمراضهم .

والآن وقد ذهب المسافرون إلى المنحدر الآخر للجبل فى اتجاه المدينة المقدسه . فهناك ربما عرف رجال الصحراء نهاية

fb/mashro3pdf

آلامهم حسبما قال محاربو الشيخ « ماء العينين » ذلك لأنه فى مراكش « مولاى حافظ » قائد المسلمين كان قد تسلم عقد تخفيف الضرائب من « ماء العينين » منذ اربعة عشر عاما . وهنا قد منح الملك الشيخ أرضا ليبنى عليها مدرسة لتعليم التجويد . وهناك فى المدينة كان الابن الأول للشيخ « ماء العينين » ينتظر أباه لينضم إلى الحرب المقدسة . والجميع يحترمون « مولاى هيبة .» الذى كانوا ينادونه « دهيبه » أو كيس الذهب والذى كانوا يسمونه مولاى «سبع» لأنه هو الذى اختاروه ملكا على أراضى الجنوب .

وحينما توقفت القافلة فى المساء وأوقدت النيران قاد « نور » المحارب الأعمى هناك حيث جلس جنود « ماء العينين » يصغون إلى قصص وروايات ماحدث فى الماضى حين حضر الشيخ الكبير وأولاده مع محاربى الصحراء وكانوا جميعا يركبون الإبل السريعة وكيف أنهم دخلوا المدينة المقدسة وكيف استقبلهم الملك ومعه ولدا « ماء العينين » (مولاى سبع ومحمد الشمس) . وقد تحدثوا ايضا عن القرابين والعطايا التى قدمها الملك حتى يستطيع الشيخ أن يبنى حصون مدينة « سمارة » وعن الرحلة التى قاموا بها مع قطعان الإبل العديدة والتى كانت تغطى السهل كله فى حين أن النساء والأطفال والمؤن قد ركبوا السفينة البخارية المسماة « بشير » وسافروا بها لعدة أيام وليالٍ من « مجادور » إلى « مرسى طارفيا » . ثم تحدثوا أيضا عن أسطورة « ماء العينين » بأصواتهم التى تغنى قليلا . وكان هذا كقصة حلم كانوا حلموه فى الماضى . واختلطت أصوات المحاربين بصوت النيران وقد رأى « نور » فى لحظات طيف

fb/mashro3pdf

الشيخ الخفيف من خلال دوائر الدخان وكان يشبه لهبا وسط المخيم .

« لقد ولد الشيخ الكبير بعيدا فى الجنوب فى إقليم يسمى « هواده » . وكان والده ابنا لمولاى « ادريس » وامه من سلالة النبى محمد . فحين ولد الشيخ الكبير سماه أبوه « أحمد » ولكن امه سمته « ماء العينين » لأنها بكت من الفرحة فى لحظة مولده .

أصغى « نور » فى الليل وقد أسند رأسه إلى حجر وإلى جواره المحارب الأعمى . « وعندما » بلغ السابعة من عمره كان قد حفظ القرآن دون أن يخطىء وعلى ذلك أرسله أبوه « محمد الفاضل » إلى المدينة المقدسة « مكه » وفى طريقه إليها ظهرت منه بعض المعجزات . فقد تعلم كيف يشفى المرضى ويعطى الماء لمن يطلب من الناس بأن يقول أن السماء ستعطيكم الماء وفى الحال يهطل المطر مدرارا على الأرض .»

فحرك المحارب الأعمى رأسه يمينا وشمالا وكان يهتز قليلا كما لو كان يسير وفق نغم الكلام وأخذ النعاس يدب فى عينى « نور » بطيئا . وعلى ذلك جاء الناس من كل حدب وصوب من الصحراء ليروا هذا الطفل الذى يصنع المعجزات « ابن محمد الفاضل بن مامينا » فقد كان يضع قليلا من لعابه على عينى المريض ثم ينفخ فى شفتيه فيقوم المريض فى التو ويقبل يد الطفل ذلك لأنه قد شفى . احس « نور » برعدة تسرى فى جسم المحارب الأعمى . بينما كان هذا الأخير يهز رأسه يمينا

fb/mashro3pdf

وشمالا . فقد كان صوت الراوى الرتيب واهتزاز اللهب والدخان وحتى الأرض فقد كانت تبدو وكأنها تتحرك وفق نبرات الصوت .

« وعلى ذلك استقر الشيخ الكبير فى المدينة المقدسة « شانجتى » عند بئر « نزاران » بالقرب من « الداخلة » ليعطى تعاليمه لأنه كان يعرف علم النجوم وأعدادها وكلام الله . وعليه صار رجال الصحراء من تلاميذه وسموه « بركه الله » أى « الذين ينالون بركة الله ... » .

استمر صوت المحارب الأزرق يترنم بالأغانى أثناء الليل أمام اللهب الذى كان يتصاعد ويتراقص مع الدخان الذى كسا الرجال حتى طفقوا يسعلون . استمع « نور » لأحاديث المعجزات وتفجير المياه فى الصحراء من العيون والمطر الذى غمر الحقول الجرداء وكلام الشيخ الكبير فى ميدان « شانجتى » أو أمام مسكنه فى « نزاران » ثم استمع إلى الرحلة الطويلة « لماء العينين » خلال الصحراء حتى « سمارة » أرض الأعشاب . وكيف أسس الشيخ الكبير مدينته ثم استمع إلى أسطورة حروبه ومعه أولاده « ربو ــ طالب لارهداف ــ والشمس ــ والسبع » ضد الأسبان فى « العيون » و « افنى » و « تزنيت » وكان نفس الصوت مستمرا فى سرد الأسطورة ومتغنيا فى بعض الأحيان . فنسى « نور » أين هو . وكأنها قصته هو الشخصية التى يرويها المحارب الأزرق .

وفى الجانب الآخر من الجبال دخلوا السهل الواسع

fb/mashro3pdf

الأحمر وساروا نحو الشمال يذهبون من قرية إلى أخرى . وفى كل قرية كان الرجال وفى عيونهم بريق الحمى والنساء والأطفال يأتون لينضموا الى القافلة وليحتلوا الأماكن التى خلت بموت رجالها . سار الشيخ الكبير فى المقدمة فوق بعيره الأبيض يحيط به أولاده ومحاربوه . وقد رأى « نور » على بُعْد سحابة من تراب كأنها ترشدهم .

وعندما وصلوا أمام مدينة « مراكش الكبيرة » لم يجرؤوا من الاقتراب بل أقاموا مخيمهم بالقرب من النهر الجاف فى الجنوب . وطيلة يومين انتظر الرجال الزرق دون أن يتحركوا . انتظروا محتمين فى خيامهم وفى أكواخهم وقد غمرتهم ريح الصيف الحارة وغطتهم بالأتربة ولكنهم مع ذلك انتظروا وركزوا كل قواهم فى الانتظار .

وأخيرا وفى اليوم الثالث عاد أولاد « ماء العينين » وإلى جانبهم فارس طويل القامة على فرسه وفى لباس محاربى الشمال وقد جرى اسمه على كل لسان « مولاى هيبة » الذى يسمى مولاى دهيبه . مولاى سبع .

وحينما سمع المحارب الأعمى اسمه أخذ يرتعد وسالت الدموع من عينيه الملتهبتين . ثم جرى إلى الأمام وقد فرد ذراعيه ويصيح صيحة عالية كنوع من الآهة الحادة والتى مزقت الآذان . حاول « نور » أن يمسك به ولكن الأعمى جرى بكل قوته متعثرا فوق الصخور ومترنحا على الأرض المتربة . تفرق القوم من أمامه وأصاب بعضهم الذعر واستداروا بأنظارهم لأنهم

fb/mashro3pdf

اعتقدوا أنه أصابه مس من الشيطان . فقد كان يبدو أنه قد تملكه سرور وآلام فوق طاقة البشر . لقد سقط على الأرض أكثر من مرة حين تعثر فى جذر شجرة ولكنه فى كل مرة يقوم ويستمر فى العَدْو إلى المكان الذى فيه « ماء العينين » ومولاى « هيبة » دون أن يراهما . وأخيرا لحق به « نور » وأخذه من ذراعه ولكن الرجل استمر فى عدوه وهو يصيح ويجر معه « نور » . لقد سار قدما وكأنه يرى « ماء العينين » وولده وتقدم اليهما دون أن يخطىء . فخشى محاربو الشيخ فأمسكوا بنادقهم ليمنعوا الأعمى من التقدم . ولكن الشيخ قال لهم فى بساطة « اتركوهما يقتربان » . ثم ترجل عن بعيره واقترب من الأعمى وسأله « ماذا تريد ؟» . فانطرح الأعمى على الأرض مادا ذراعيه إلى الأمام وقد سالت الدموع من مقلتيه حتى خنقته ولكن التأوه الحاد استمر يخرج من حلقه وقد خفت حدته حتى صار كشكوى . وفى هذه المرة تكلم « نور » : « رد اليه بصره أيها الملك العظيم » فأطال « ماء العينين » النظر فى الرجل المسجّى على الأرض وكان جسده يهتز من أثر الدمو ع وأسماله البالية ويديه وقدميه الداميتين من الطريق . ودون أن يتكلم ركع الشيخ إلى جوار الأعمى ووضع يده على مؤخر رأسه فى حين ظل رجال الشيخ الزُرق وأولاده واقفين . وخيم السكون لحظة حتى شعر « نور » بالدوار . انطلقت قوة عجيبة وغير معلومة من الأرض المليئة بالتراب وغمرت الرجال . كان الضوء ضوء الغروب وربما تكون قوة النظر التى تركزت فوق هذا المكان . والتى كانت تسعى لتهرب كماء حبيس . وفى بطء انتصب المحارب الأعمى وقد ظهر وجهه فى النور وقد تلطخ بالرمل والدموع . وبركن من أركان ثوبه الأزرق جفف « ماء

fb/mashro3pdf

العينين » وجه الرجل ثم مر بيده على جبهته وعلى جفونه الملتهبة كما لو كان يريد أن يمسح شيئا ما وفى نهاية أنامله المبتلة بلعابه حك جفون الأعمى ثم نفخ فى هدوء على وجهه دون أن يتكلم . ساد الصمت لفترة طويلة حتى أن « نور » لم يعد يتذكر شيئا مما حدث من قبل ولا ماسبق أن قاله ولكنه ركع على ركبتيه إلى جوار الشيخ فى الرمال واخذ ينظر فقط إلى وجه الأعمى حيث رأى نورا جديدا أخذ يكبر . لم يعد الرجل يتأوه ولكنه بقى بلا حراك أمام الشيخ مادا ذراعيه قليلا وظلت عيناه الجريحتان مشرعتين وكأنهما قد أسكرتهما نظرة الشيخ .

وبعد ذلك حضر أبناء الشيخ ومولاى « هيبة » واقتربوا وساعدوا الشيخ على الوقوف وفى رفق شديد أخذ « نور » بذراع الرجل بعد أن رفعه أيضا عن الأرض . سار الرجل مستندا إلى كتف « نور » وكانت أشعة الغروب تتلألأ على وجهه كتراب الذهب . لم يتحدث ولكنه تقدم فى بطء كمن تخطى مرضا طويلا . وقد وضع قدميه ثابتتين على الأرض المليئة بالحصباء . لقد تقدم مترنحا قليلا ولكن ذراعيه لم تعد منفرجتين كما لم تعد هناك آلام فى جسده . بقى رجال الصحراء بدون حركة وصامتين حين شاهدوه يمشى إلى الطرف الآخر من السهل . لم تعد هناك آلام وقد أصبح وجهه هادئا الآن ورقيقا ونظرته مليئة بنور الشمس الذهبية والتى مالت ولامست الأفق . وفوق كتف « نور » أصبحت يده خفيفة كيد انسان يعرف جيدا إلى أين يذهب .

fb/mashro3pdf

« وادى تدلا »
فى ١٨ يونيو ١٩١٠

لقد غادر الجنود « زيتات » و « بن أحمد » قبل الفجر . فهذا هو الجنرال « موانير » الذى يقود فيلق جنود « بن أحمد » المكون من المشاة المسلحين ببنادق « اليبل » تقدمت القافلة فى بطء فوق السهل الملتهب فى اتجاه وادى نهر « تدلا » . وعلى رأس الفيلق كان الجنرال « موانير » وضابطان فرنسيان ومراقب مدنى ومرشد من عرب « المور » يصحبهم فى ملابس محاربى الجنوب وممتطيا جوادا مثل الضابط .

وفى نفس اليوم فيلق آخر تعداده خمسمائة جندى فقط قد غادر مدينة « زيتات » ليكوّن الفرع الثانى للكماشة التى يجب أن تحاصر العصاة من رجال « ماء العينين » فى طريقهم الى الشمال .

أمام الجنود كانت تمتد الأرض العارية على مدى البصر . كانت الأرض حمراء داكنة وبراقة تحت زرقة السماء . وكانت تمر رياح الصيف المتوهجة فوق الأرض فتثير الأتربة فتحجب الضوء كما يفعل الضباب .

fb/mashro3pdf

لأحد يتكلم . والضباط فى المقدمة يدفعون خيولهم كى ينفصلوا عن باقى الجنود على أمل أن يهربوا ولو قليلا من سحابة التراب الخانقة . تجوب عيونهم الأفق ليروا ماذا هنالك : من ماء أو قرى من الطين أو العدو .

ولقد ظل الجنرال « موانيير » فترة طويلة ينتظر هذه اللحظة . ففى كل مرة يتحدث الانسان عن الجنوب وعن الصحراء كان يفكر فى « ماء العينين » هذا الذى لايهزم هذا «المتعصب» . إن هذا الرجل الذى أقسم أن يطرد كل المسيحيين من أرض الصحراء فهو رأس العصيان وقاتل المحافظ « كوبولانى » . قال نائب القائد فى الدار البيضاء و « فور ترياكيه » و « فور جرورآند » . « ليس هناك شىء خطير » . « فهو متعصب دينى نوع من السحرة وصانع المطر . إنه يجر وراءه جميع المتسولين والفقراء والتافهين من « الذراع » ومن « تندوف » وكل زنوج « موريتانيا » .

ولكن الرجل الشيخ لايمكن الإمساك به وأنه يشار اليه فى الشمال بالقرب من نقاط التفتيش الأولى فى الصحراء . فحين يذهب الانسان لمقابلته أو يراه فإنه يختفى فيقولون عنه أنه على ساحل البحر أو فى « ريو دى اورو » او فى « ايفنى » . فكان من السهل عليه مراوغة الأسبان . فماذا لو كانوا يفعلون هناك فى « العيون وطرفاية ورأس جوبى ؟» إنه شيخ ماكر كالثعلب فهو يعود سريعا مع محاربيه بعد أن يضرب ضربته إلى حدوده هناك فى جنوب « الذراع » أو فى ساقية « الحمراء » أو فى حصنه « سمارة » . فهو دائم التنقل . ثم

fb/mashro3pdf

هناك الشيء الخفى والتطير . فكم من الناس يمكنهم عبور هذه المنطقة وأثناء سيره الى جوار ضباطه مكان المراقب يتذكر « كاميل دولز » عام ١٨٨٧ وقصة لقائه مع « ماء العينين » أمام قصره فى « سمارة » : لقد كان مرتديا عباءته الزرقاء ويضع العمامة البيضاء على رأسه واقترب الشيخ منه وأطال النظر فيه . لقد كان « دولز » أحد أسرى « المور » وكانت ملابسه مهلهلة ووجهه ينم عن التعب ولفحة الشمس . ولكن « ماء العينين » رمقه فى غير كراهية ولا احتقار . ولكنها كانت نظرته الطويلة وصمته الذى طال أمره . كل ذلك جعل المراقب يرتعد . فى كل مرة يفكر فى « ماء العينين » ولكن ربما كان هو الوحيد الذى كان يشعر بذلك حين كان يقرأ « دولز » هذا المتعصب « قال ذلك الضابط : » هذا الهمجى الذى لايفكر إلا فى الشغب والقتل وإشعال الحرائق وإراقة الدماء فى أقاليم الجنوب مثلما حدث عام ١٩٠٤ عندما قتل « كوبلانى » فى « تاجانت » أو مثلما حدث عام ١٩٠٥ عندما قتل « موشان » فى « أوجدا » . ومع ذلك فى كل يوم حينما كان يمشى مع الضباط كان المراقب يشعر فى نفسه هذا القلق والاحساس بالخوف الذى لايفهمه حتى أنه يشك فى أنه سيقابل فجأة وفى منحنى عند التل نظرة الشيخ الكبير وحده فى الصحراء .

« لقد انتهى الآن . إنه لايستطيع أن يتماسك فما هو إلا شهر أو ربما أسبوع حتى يضطر للتسليم أو أنه سيلقى بنفسه فى البحر أو أن يضيع فى الصحراء . فلن يستطيع أحد مساندته فهو على يقين من ذلك » .

fb/mashro3pdf

فمنذ زمن طويل والضباط ينتظرون هذه اللحظة وكذا نائب القائد فى كل من « وهران » و « الرباط » وحتى فى « دكار » . فالرجل المتعصب الآن فى موقف لايمكن التراجع فيه .

فهو الآن موجود بين البحر والصحراء . فالثعلب العجوز سيجد نفسه مضطرا أن يسلم . ألم يتخلَّ عنه الجميع ؟ « ففى الشمال فقد وقع مولاى » معاهدة الجزيرة والتى تضع نهاية للحرب المقدسة . فقد قبل حماية فرنسا وكذا هناك الخطاب الذى مهره بإمضائه ابن « ماء العينين » (خطاب اكتوبر ١٩٠٩ واسمه « أحمد هيبة والملقب بالسبع يعرض خضوع الشيخ لقانون « المخزن » ويطلب فيه بالحاح المعونة والنجدة . فالسبع أصبح الآن وحيدا وكذا أولاد الشيخ الاخرين « الشمس » فى مراكش ولارهداف الخارج على القانون وناهب « الحمادا » لم يعد لديهم معدات ولا موارد كما تخلى عنهم سكان « سوس » . فلم يعد معهم سوى حفنة من المحاربين المهلهلين ولا سلاح معهم سوى المسدسات القديمة وسيوف وسهام من أسلحة القرون الوسطى . وحين كان يمشى مع الضباط كان المراقب المدنى يفكر فى كل هؤلاء الذين ينتظرون سقوط الشيخ العجوز من أوروبى افريقيا الشمالية المسيحيين كما يسميهم سكان الصحراء ولكن دينهم الحقيقى لم يكن سوى المال والأسبان من « طنجه » ومن « افنى » والانجليز من طنجه ومن الرباط والألمان والهولنديون والبلجيكيون وكل أصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال الذين ينتظرون فى قلق سقوط الامبراطورية العربية وقد أعدوا مخططاتهم من قبل لاحتلالها كما

fb/mashro3pdf

قسموا أيضا أراضيها وغاباتها ومناجمها وواحاتها . حتى أن ممثلى بنوك باريس وهولندا قد رفعوا قيمة الضرائب فى الجمارك فى جميع الموانىء ورجال الأعمال مثل مندوبى شركة « اتيين » الذين أنشأوا شركة الزمرد الصحراوى وشركة النترات فى « جواراتوات » والتى تؤول اليها الأرض الفضاء لتنشىء عليها خطوط السكك الحديدية الوهمية وتنشىء الطرق الصحراوية وطرق النقل الموريتانية . لأن الجيش هو الذى سيفتح لهم الطريق عن طريق القتال .

فما الذى يستطيع عمله الشيخ العجوز « شيخ سمارة » ضد هذه الموجة من المال والرصاص ؟ ماالذى تستطيع فعله نظرة الشيخ المتوحشة المحاصر ضد هؤلاء الذين يلاحقونه ويريدون الأرض فى شراهة وكذا المدن ضد هؤلاء الذين يريدون الثروة الموعودة على حساب بؤس هذا الشعب .

إلى جانب المراقب المدنى صار الضباط فوق خيولهم بوجوه هادئة ودون أن يتحدثوا حتى بالتافه من القول . وكانت نظراتهم مركزة فوق الأفق فيما وراء التلال والصخور هناك حيث يمتد السهل ذو الضباب لوادى « تادلا » . وربما لم يفكروا فيما يصنعون ؟ فقد ساروا بخيولهم فوق الطريق الذى لايكاد يرى والذى يرشدهم اليه المرشد الذى يمتطى حصانه الأشهب ومن خلفهم سار ضاربو البنادق من السنغاليين والسودانيين وهم فى ملابسهم الرسمية الداكنة بسبب الأتربة يميلون الى الأمام ويمشون فى تثاقل رافعين أرجلهم إلى أعلى وكأنهم يتخطون بعض الخطوط . وكان وقع أقدامهم يرن فى نغمة على

fb/mashro3pdf

الأرض الصلبة ومن خلف هؤلاء كانت السحابة الحمراء من التراب تتصاعد إلى أعلى فى السماء فتبدو هذه قذرة . لقد بدأ ذلك منذ وقت طويل . لايستطيع المرء عمل أى شىء الآن كما لو كان هذا الجيش جاء ليحارب الأشباح . « ولكن هذا الرجل لن يوافق مطلقا على التسليم وخاصة للفرنسيين فهو يفضل أن يقتل كل رجاله عن آخرهم ويقتل نفسه بجانب أولاده من أن يقعوا فى الأسر وهذا هو الأفضل له . صدقونى لأن الحكومة لن توافق مطلقا على هذا التسليم بعد مقتل « كوبولانى » تذكروا جيدا أنه متعصب قاسٍ ومتوحش فيجب أن يمحى نهائيا هو وكل قبيلته من « بريكى الله والمباركين من الله كما يدعونهم القرون الوسطى . أليس كذلك ؟»

لقد خانه اتباعه وتخلوا عنه بعضهم وراء البعض كما انفصلت عنه القبائل ذلك لأن رؤساءهم شعروا بنجاح وتقدم المسيحيين وأن هذا التقدم لاسبيل إلى مقاومته لا فى الشمال ولا فى الجنوب . فهم يأتون أيضا من البحر ويعبرون الصحراء . لقد كانوا على مشارف الصحراء فى « تندوف » و « تابليالا » وفى « وادان » . لقد استولوا أيضا على المدينة المقدسة ، « شينجاتى » ، حيث القى بها « ماء العينين » تعاليمه الأولى .

وفى « أبودنيب » « فربما كانت فيها آخر المعارك التى وقعت حين قام الجنزال « فينى » بسحق الستة آلاف رجل من رجال « مولاى هيبة » حتى أن ابن « ماء العينين » قد لاذ بالفرار فى الجبال واختفى ليخفى عاره معه بدون شك ذلك لأنه أصبح « لحما بلا عظام » كما يقولون لأنه هزم . ويقى

fb/mashro3pdf

الشيخ العجوز وحيدا سجينا فى قلعته « سمارة » دون أن يفهم سبب هزيمته . فلم يكن السلاح بل كان المال . المال الذى دفعه أصحاب البنوك لجنود السلطان « مولاى حافظ » وكذا ملابسهم الرسمية الجميلة . المال الذى جاء جنود المسيحيين يبحثون عنه فى الموانىء عندما رفعوا نصيبهم فى الرسوم الجمركية . المال ثمن الأراضى التى استولوا عليها بالقوة ومزارع النخل التى اغتصبوها عنوة والغابات التى أعطيت لمن استطاع امتلاكها عن طريق الاحتلال فكيف يفهم كل ذلك ؟ وهل يعرف معنى « بنك باريس وبنك هولندا » ؟ ترى أيعرف معنى القروض لانشاء السكك الحديدية ؟ ترى هل يعرف معنى شركة استصلاح الأراضى والنترات مثل شركة « جوارا توات » هل يعرف أنه أثناء صلاته ومنحه البركات لرجاله أن حكومات فرنسا وبريطانيا العظمى قد وقعتا اتفاقا يعطى للأولى قطرا يسمى المغرب وللثانية قطراً يسمى مصر ففى أثناء القائه الخطب والكلام أو نفخه فى آخر رجاله الأحرار فى كل من « ايزارجن والعروسيين والتدرانيين » « وأولاد » بوسبع وأهل « توبالت » وأهل « رقيبات الساحل » و « ولد ديلم والعمراجيين » فى أثناء بث قوته فى قبيلة « بركى الله » فهل يعلم أثناء ذلك أنه تكون حساب جماعى كان أهم اعضائه بنك باريس وهولندا وقد اعطوا للملك « مولاى حافظ » قرضا بمبلغ ٦٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك ذهب بفائدة ٥٪ وبضمان جميع الرسوم الجمركية للموانىء الواقعة على ساحل البحر ؟ وأن الجنود الأجانب يدخلون البلاد ليراقبوا أن ٦٠٪ على الأقل من الدخل اليومى للجمارك يسلم للبنك وهو يعرف أنه فى اللحظة التى تم فيها توقيع معاهدة الجزيرة التى وضعت للحرب الدينية نهايتها

fb/mashro3pdf

فى الشمال أن يصبح « مولاى حافظ » مدينا بمبلغ ٢٠٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك من الذهب ؟ وبديهى أنه لن يستطيع سداد فوائد هذا الدين لدائنيه ؟ . ولكن الشيخ لايعلم كل هذا لأن جنوده لايحاربون من أجل الذهب ولكنهم يحاربون فقط من أجل البركة وأن الأرض التى يدافعون عنها لاتخصهم شخصيا ولا تخص أحدا ما . ذلك لأنها فقط الفضاء الواسع أمام نظرهم ولأنها هبة الله وعطيته .

« هذا المتوحش وهذا المتعصب الذى قال لمحاربيه قبل المعركة أنه سيجعلهم لايقهرون وسيظلون خالدين وأنه سيرسلهم لمواجهة البنادق ذات الطلقات السريعة وليس لهم من سلاح سوى سهامهم وسيوفهم . »

والآن وقد شغل جنود السنغال والسودانيين السود وادى نهر « تدلا » أمام مكان ضحل فى حين حضر السادة من « قصبة تادلا » ليقدموا ولاءهم وخضوعهم للضباط الفرنسيين . لقد تصاعد دخان النيران من المخيم فى هذا المساء . وكان المراقب المدنى ينظر فى كل خطوط السماء الصافية لليل . لقد فكر فى نظرة « ماء العينين » الخفية والعميقة . هذه النظرة التى صوبت نحو « كاميل دولز » و هو متنكر فى هيئة تاجر تركى والتى تغلغلت فى أعماقه فأيقن فيما يحمله هذا الرجل الغريب المتدثر فى أسماله وعرف أنه اللص الأول فى سرقة الصور والذى كتب يومياته فى كل مساء على صفحات « القرآن » ولكن قد فات الأوان وليس هناك مايمنع القدر من أن يحدث . فمن ناحية يوجد البحر ومن الأخرى

fb/mashro3pdf

توجد الصحراء . فالأفقان قد أغلقا على قوم « سمارة » وقد أحاطا بآخر الرحل وضيقا عليهم الدائرة . دائرة الجوع والعطش فعرفوا الخوف والمرض والهزيمة .

« لقد كان فى استطاعتنا القضاء على شيخكم هذا من وقت طويل بأن يوضع مدفع مقاس ٧٥ سم أمام قصره المصنوع من القش وكذا بعض البنادق السريعة الطلقات فيكنس نهائيا وينمحى . ربما اعتقد البعض بأنه لايستوجب هذا العناء ومن الأفضل أن ننتظر حتى يسقط من تلقاء نفسه كفاكهة عطنة غير صالحة . ولكن الآن وبعد مقتل « كوبلانى » فلم تعد هناك حرب ولكنها عملية من عمليات الشرطة ضد عصابة من القتلة هذا كل مافى الأمر .

لقد خانه حتى من كان يريد الدفاع عنهم وحمايتهم . إنهم رجال « سوس » و « تارندان »« وأغادير » وهم الذين أعلنوا الخبر : إن الشيخ الكبير مولاى أحمد بن محمد الفضل الشهير « بماء العينين » قد سار إلى الشمال مع محاربيه من أهل الصحراء وهم رجال « الذراع » ورجال « الساقية الحمراء » وحتى رجال « أوالانا » الزرق من مدينة « شينجاتى » . إنهم قادمون فى أعداد كبيرة تكفى لتغطية سهل بأكمله . انهم يسيرون نحو الشمال نحو المدينة المقدسة « فاس » ليخلعوا السلطان وينصّبوا مكانه « مولاى هيبة » الذى يسمى « السبع » الابن الاكبر « لماء العينين » ولكن القيادة العسكرية لم تصدق هذا الخبر حتى أنه أضحك الضباط . لاشك أن عجوز « سمارة » قد صار مجنونا . فهل يمكنه مع جنوده وأتباعه

fb/mashro3pdf

المهلهلين أن يهدم السلطان ويطرد الجيش الفرنسى ؟» فهذا مماثل لأن يكون الشيخ العجوز قد حصر نفسه بين البحر والصحراء وقد اختار الانتحار فهو المنقذ الوحيد الذى بقى له وهو أن يقتل نفسه وجميع قبيلته .

اليوم ٢١ يونيو ١٩١٠ فإن قوة الصناديد السود فى الطريق الآن بضباطها الثلاثة الفرنسيين والمراقب المدنى على رأسهم . لقد مالوا إلى الجنوب حتى يقابلوا الفرق الأخرى التى غادرت « زيتات » فيقع الشيخ بين فكى الكماشة لتصرع الشيخ وأتباعه .

لقد الهبت الشمس عيون الجنود بوهجها الممزوج بالأتربة . فعلى مسافة فوق التل الذى يسيطر على السهل الملىء بالحصى ظهرت قرية بالكاد يمكن تمييزها من الصحراء قرية « قضية زيدانيا » بهذا نطق المرشد . ولكنه أوقف حصانه فى الحال فقد ظهرت على بعد فرقة من المحاربين تعدو خيولهم على امتداد التل . فاتخذ الضاربون السود أماكنهم فى حين دفع الضباط خيولهم إلى الجوانب . أطلقت بعض الطلقات وانتشرت فى عدة أماكن دون أن تصيب أحداً . وقد ظنها المراقب المدنى أنها تشبه الى حد كبير الضوضاء التى يحدثها الصيادون فى الريف . لقد جرح رجل وأخذ أسيراً . إنه عربى من قبيلة « بنى أمير » . لم يكن الشيخ « ماء العينين » بعيدا فمحاربوه . يمشون على طريق « البروج » فى الجنوب . رحل الجنود ولكن الآن بقى الضباط قريبا من الجنود . كل واحد يفحص النباتات . إن الشمس كانت عالية فى كبد السماء

fb/mashro3pdf

عندما حدثت المعركة الثانية على طريق « البروج » كانت طلقات النار يتردد صداها من جديد وسط هذا الصمت والهدوء . أعطى الجنرال « مونير » الأمر باطلاق النار ناحية بطن الوادى . أطلق السنغاليون النيران وهم راكعون على الأرض ثم جروا إلى الأمام بعد أن ثبتوا الخناجر فى النبادق . فقتلت قبيلة « بنى موسى » اثنى عشر جنديا من السود قبل أن يهربوا بين الأشجار وبعد أن تركوا عشرات الموتى على الأرض . وعلى ذلك استمر الجنود السنغاليون فى إطلاق النار إلى أسفل الوادى فقد كشفوا الرجال الزرق فى كل مكان ولكن لم يكن المحاربون الذين لايقهرون الذين ينتظرونهم . لقد كانوا رجالا فى أسمال ولا نظام لهم وبدون سلاح يجرون وهم يعرجون والذين كانوا يسقطون فوق الحصى . بعض المتسولين نحيلى الأجسام وقد أحرقتهم الشمس وطحنتهم الحمى فكان يصطدم بعضهم بالبعض ويصيحون فى أسى بينما السنغاليون وهم فريسة لانتقام قاتل يطلقون عليهم الرصاص ويدكونهم بالسيوف على الأرض الحمراء . وعبثا أطلق الجنرال « مونير » نداءه فقد كان الرجال والنساء يهربون فى غير نظام أمام الجنود السود ثم يسقطون على الأرض . لقد جرى الأطفال بين الشجيرات وقد ألجمهم الخوف . وقد جرت قطعان الخراف والماعز وهى تطلق صرخات . ففى كل مكان كانت الأرض مغطاة بأجسام الرجال الزرق وقد رنت آخر طلقات النار وبعد ذلك لم يسمع شيء على الاطلاق . ومن جديد خيم الهدوء المميت فوق المنطقة .

وبدون حراك فوق التل ظل الضباط ممتطين صهوة

fb/mashro3pdf

جيادهم المذعورة يشاهدون المساحة الكبيرة من الشجيرات حيث اختفى بها المحاربون ذو اللون الأزرق وكأن الأرض قد ابتلعتهم . لقد كان الجنود السنغاليون يحملون زملاءهم الموتى دون أن يلقوا نظرة على مئات الرجال والنساء فى أسماهم الذين سقطوا على الأرض وفى مكان ما على منحدر الوادى وبين شجيرات الشوك جلس صبى صغير إلى جوار جثة أحد المحاربين الموتى وقد ركز بصره على الوجه الدامى والذى قد انطفأت منه العينان .

fb/mashro3pdf

فى الشارع وقد أضاءته الشمس المشرقة تقدم الشاب دون سرعة على امتداد العربات الواقفة . كان جسمه النحيل ينساب على امتداد العربات وخياله يجرى على زجاج وحول الأجنحة اللامعة وفوق مصابيح السيارات . ليس إلى هذا ماكان ينظر اليه ثم ينحنى قليلا على كل سيارة وكان يفحص بنظره مابداخل مقدمة السيارة ومقاعدها وأرضيتها تحت المقاعد والزجاج الخلفى وصندوق القفازات .

كان يتقدم فى صمت وحيدا فى الشارع الخالى حيث تسطع الشمس بأشعتها الأولى فى الصباح نقية وواضحة . كانت السماء صافية وزرقاء ليس بها سحب . وريح الصيف تهب من ناحية البحر فتحفر الشوارع . وعلى طول الشوارع المخططة . وتضطرب فى الحدائق الصغيرة فتهز أوراق النخيل .

إن « رادكس » يحب ريح الصيف كثيرا . فهى ليست رديئة كالتى تثير التراب وكالتى تتخلل جسم الانسان وتجمد العظام . فهى رياح خفيفه وبها عبير رقيق . فهى ريح تحمل رائحة البحر والعشب وتبعث الرغبة على النوم . إن رادكس سعيد لأنه نام فى العراء فى حديقة مهجورة واضعا رأسه بين جذور شجرة أرز وليس بعيدا عن البحر .

fb/mashro3pdf

وقبل شروق الشمس استيقظ وقد شعر فى الحال بأن ريح الصيف قد بدأت فتقلب قليلا فوق الأعشاب كما تفعل الكلاب وقام وجرى دون أن يتوقف حتى وصل إلى شاطىء البحر . فنظر إليه طويلا ثم الى الطريق الجميل الهادىء والذى مازال داكنا بسبب الليل . ولكن بعض الأماكن ظهر منها اللون الأزرق ثم الوردى من نور الفجر . وقد مرت به لحظات رغب فى أن يخلع ملابسه وينزل إلى الصخور التى لاتزال باردة ويغطس فى الماء . فهاهى ريح الصيف التى تناديه حتى البحر وتريه الماء . ولكنه تذكر أن ليس لديه وقت فيجب أن يسرع لأن الناس على وشك الاستيقاظ . وعلى ذلك رجع إلى الشوارع للبحث عن السيارات .

لقد وصل الآن أمام مجموعة من العمارات وبعض الحدائق . فسار على امتداد الحديقة العامة . هناك حيث تقف السيارات لم يكن هناك أحد فى الحدائق . كانت ستائر العمارات مازالت مرخية والشرفات كانت خالية . هبت الريح على واجهات العمارات فهزت الستائر وهناك أيضا الصوت الرقيق بين أغصان « الميموزا والغار » وبين شجر النخيل الكبير الذى يتمايل .

ظهر النور رويدا فى السماء أولا ثم ظهر على أعالى العمارات ثم خبت أنوار مصابيح الشوارع . أحب « رادكس » هذه الساعة لأن الشوارع مازالت صامتة وهادئة . ومازالت أبواب المنازل مغلقة . لاأحد غيره وكأنه الوحيد فى العالم . سار فى بطء على امتداد المشايات فى العمارات . فقد كان يظن أن المدينة كلها مِلْكٌ له . ولم يبق أحد غيره . ربما كان . وكأن الرجال والنساء قد هربوا واختفوا بعد أن وقعت كارثة أثناء نومه فى الحديقة المهجورة ثم رحلوا جميعا عَدْوًا نحو الجبال . مخلفين منازلهم وسياراتهم . لقد سار « رادكس » بين هياكل السيارات الثابتة بلا حراك وكان ينظر داخل السيارات والمقاعد الخالية وعجلات القيادة الثابتة . وكان يشعر باحساس أن عينا تراقبه وتهدده . فيتوقف ويرفع رأسه نحو أعالى حوائط العمارات . إن ضوء الفجر قد أنار من ناحية واجهات المنازل بضوئه الوردى

fb/mashro3pdf

الباهت . ولكن الستائر والنوافذ لاتزال مغلقة . ولاتزال الشرفات الكبيرة خالية . وكان صوت الريح الذى يمر متناهى الرقة وبطيئا جدا . صوت لم يخلق للرجال وأن « رادكس » يحس أيضا بالفراغ الذى شمل المدينة . فقد حل هذا الفراغ محل ضوضاء وحركات الرجال .

وربما حين كان نائما ورأسه بين جذور شجرة الأرز العجوز بطريقة خفية وكأنها قادمة من عالم آخر عملت ريح الصيف على تنويم كل سكان المدينة من رجال ونساء وأنهم مازالوا ممددين فوق أسرتهم وفى شققهم ذات النوافذ المغلقة غارقين فى نوم سحرى لن ينتهى مطلقا . وعندئذ وأخيرا تستطيع المدينة أن تستريح وتتنفس والشوارع خالية وسياراتها لاحركة فيها والمحال التجارية مغلقة والمصابيح والأنوار الحمراء تنطفىء . وعلى ذلك يمكن للحشائش أن تنمو على سجيتها بين فتحات الشارع وتصبح الحدائق كالغابات والفئران والطيور يمكنها أن تروح وتغدو فى كل مكان دون خوف مثلما كان ذلك فى الماضى قبل أن يوجد الإنسان .

توقف « رادكس » قليلا حتى ينصت فى هذه الأثناء استيقظت الطيور فوق الأشجار من عصافير وقبر . وأخذت طيور العندليب فى الزقزقة والصياح ثم أخذت تطير من نخلة إلى أخرى وتتقدم قافزة على الأسفلت المبتل لموقف السيارات . إن الصبى يحب هذا النوع من العصافير فلها ريشها الأسود ومنقارها الأصفر كما أن لها طريقة خاصة فى القفز فهى تدير رأسها قليلا إلى ناحية حتى ترقب ماعساه يحدث لها من خطر . إنها تشبه اللصوص ومن أجل هذا يحبها « رادكس » فهى مثله ساهية قليلا وسارقة قليلا كما أنها تعرف كيف تصفّر صفيرا حادا لتحذر اذا كان هناك من خطر . كما أنها تعرف كيف تضحك بأن تصدر صوتا من حنجرتها يضحكه كثيرا تقدم « رادكس » إلى مكان وقوف السيارات ومن لحظة لأخرى يصفر ليرد على صفير العندليب . فربما حلت العصافير محل الناس بينما كان الفتى نائما فى الحديقة ورأسه بين جذور الشجرة

fb/mashro3pdf

العجوز . وأن الرجال والنساء قد تركوا المدينة الكبيرة هكذا دون صوت فحلت العصافير محلهم . راقت هذه الفكرة « رادكس » فأخذ يصفّر فى قوة مستخدما أصابعه وليكلم طيور العندليب ويقول لها أنه متفق معها وأن كل شيء هنا لها وله كل شيء من منازل وشوارع وسيارات وحتى المحال التجارية ومابداخلها .

سطعت الأنوار وشلمت الحديقة العامة حول العمارات وبرقت قطرات الندى فوق أسقف السيارات وعلى أوراق الشجر . فعلى « رادكس » أن يبذل جهدا كبيرا حتى لايتوقف ليشاهد هذه القطرات من النور . ففى فراغ مكان وقوف السيارات بحوائطه العالية البيضاء وستائره المسدلة وشرفاته الخالية كل هذا قد لمع ببريق متزايد . وكأنها الأشياء الوحيدة الحقيقية والحية . فقد كانت تهتز قليلا بسبب الريح التى هبت من ا' حر فكانت تشبه آلاف العيون الثابتة وهى تشاهد العالم .

وبعد ذلك أحس من جديد بالتهديد الذى يجثم على كل هذه الأشياء فى موقف السيارات وأن الخطر يحوم حوله فهى عين أو ضوء لايراه الصبى ولايفهم مصدره . فالتهديد يختفى تحت عجلات السيارات الواقفة وفى انعكاسات الزجاج وفى ضوء المصابيح التى لاتزال تنير رغم ضوء النهار . لقد اقشعر لهذا كل بدنه وأحس أن قلبه قد أبطأ فى دقاته ثم أخذت ضرباته تتزايد وتسرع وجرى فى كفيه عرق بارد .

لقد أختفت الطيور الآن ماعدا بعض الطيور ذات الأجنحة الطويلة والتى تمر فى سرعة كبيرة صارخة كما هربت طيور العندليب الى الناحية الأخرى من بلوكات الأسمنت الكبيرة وأصبح الجو هادئا وصامتا وحتى الريح فقد توقفت شيئا فشيئا . لم يدم الفجر طويلا فوق المدينة الكبيرة . والآن وقد بدأ النهار ولم تعد السماء داكنة أو وردية واجتاحها اللون المنطفىء الذى لايلمع . كما أن هناك نوعا

fb/mashro3pdf

من الضباب من ناحية الغرب هناك حيث المداخن الكبيرة للخزانات قد بدأت تلفظ دخانها المسموم .

رأى « رادكس » كل هذا وكل الذى حدث فانقبض له صدره وقلبه فعما قريب سيفتح الرجال والنساء نوافذهم وأبوابهم وسيرفعون الستائر ويخرجون إلى الشرفات وسيمشون فى الشوارع وسيديرون محركات عرباتهم وسيارات البضاعة ويمرون بها ليشاهدوا كل شىء بعيونهم الشريرة . ولذا فإنه توجد هذه النظرة وهذا التهديد . إن « رادكس » لايحب النهار فهو لايحب إلا الليل والفجر حين يكون كل شىء هادئا وغير مأهول ولا يكون هناك سوى الخفافيش والقطط الضالة .

وعليه فقد استمر يصعد الطرقات ومشايات الموقف الكبير وقد حصى وفحص بعناية فائقة داخل السيارات الواقفة . ومن وقت لآخر كان يرى شيئا مايعجبه فيتلمس مقبض باب السيارة فى سرعة فائقة فيحس أنها كانت مفتوحة . لقد لاحظ ثلاث سيارات أبوابها غير مغلقة تماما ولكنه تركها إلى حين ذلك لأنه لم يكن متأكدا من أنها حتى تساوى المخاطرة . وقال فى نفسه إنه سيعود عما قريب حين يفرغ من دورة حول المكان كله ولأن العربات المفتوحة لاتتطلب جهدا كبيرا ويمكن الفراغ منها سريعا .

زاد ضوء الشمس وملأ السماء وفوق الأشجار ولكنه لن يراه أحد بعد . فلسوف يرى الضوء الجميل الحار الذى ينتشر فى السماء . « إن رادكس » لايحب النهار ولكنه يحب الشمس كثيرا . ولقد سرّ بفكرة مشاهدتها وهى تظهر . ثم لاحت أخيرا كاسطوانة منيرة وأرسلت فى أعماق عينيه ضوءا قويا فتوقف الصبى عن السير لحظة مبهورا .

لقد انتظر وهى يصغى لدقات قلبه فقد أحاط به التهديد دون أن يعرف

fb/mashro3pdf

من أين أتى . وازداد النهار ومعه زادت مخاوفه . أتأتيه من أعالى الحوائط البيضاء أم من مئات الستائر الزرقاء أو من أعالى أسقف البيوت أو من أعالى الأبراج التى من الأسمنت أو من أعالى أشجار النخيل . إنه الصمت الذى يخيفه وصمت النهار والأنوار الكهربائية للمصابيح التى تستمر فى الإنارة وهى تصدر طنينا خاصا . بدا الأمر كما لو كانت أصوات الرجال وأصوات محركاتهم لن تظهر ثانية وكما لو كان النوم قد أوقفها وأبقاها داخل غلاف محركات أصابها الزكام ــ حلوق جافه ووجوه ذوات عيون مغلقة . « حسن فلنذهب » هكذا قال « رادكس » فى صوت عال كأنما يريد أن يتشجع . ثم تحسست يده مرة أخرى مقبض باب السيارة وفحص بعينيه مابداخل السيارة فبرقت أشعة الشمس حين وقعت على قطرات الندى العالقة بزجاج مقدم السيارة . « لاشىء ... لاشىء » .

والآن إن العجلة تمحو القلق قليلا . وامتد نور النهار وتخطت أشعة الشمس أسقف العمارات وأنها حتما تلمع أكثر فوق البحر . ولاشك أن انعكاسات أشعتها فوق الأمواج يرسل شررا متزايدا . ثم تقدم « رادكس » دون أن ينظر حواليه .

« شكرا كل شىء على مايرام » . وانفتح باب السيارة دون جلبة ومر بجسده داخل السيارة وتحسست يداه كل مكان تحت المقاعد فى الأركان ــ فى جيوب الأبواب . وفتحت علبة القفازات وتحسست يداه فى سرعة وفى دراية فائقة . « لاشىء » .

لاشىء فداخل السيارة خال بارد ورطب كالكهف . « يالقذارة هؤلاء » . لقد حل الغضب مكان القلق ثم صار الصبى على الطريق إلى جوار العمارة وكان يفحص مابداخل سيارة . وفجأة حدثت ضوضاء فقفز مذعورا فقد دار محرك

fb/mashro3pdf

سيارة . فقد رأى وهو مختبىء خلف سيارة خضراء واقفة رأى سيارة حاملة القمامات جاءت لترفع القمامة ثم دارت هذه السيارة حول العمارة دون أن تدخل مكان وقوف السيارات . فسار « رادكس » يتستر فى أكوام النباتات وفروع النخيل . وقدر نفسه يشبه حشرة من المعدن كجعران ربما بظهره المنحنى وخطواته المتلصصة .

وحين عاد الهدوء مرة أخرى لاحظ الصبى فوق افريز (سيارة استيشن) أشكالا من الممكن أن تكون هامه . فاقترب من الزجاج الخلفى فميز الملابس . فقد رأى كثيرا من الملابس المتراكمة فى المؤخرة فى أكياس برتقالية اللون من البلاستيك . وهناك ملابس إلى الأمام وصناديق من الكرتون للأحذية وعلى الأرض وقريبا من المقعد وكان من الصعب أن يميزه شخص غير مدرب . فقد رأى زاوية جهاز ردايو صغير . كانت أبواب السيارة مغلقة ولكن زجاج المقدمة غير كامل الاغلاق . فجذبه « رادكس » بكل قوته وعلق حافة الزجاج ليوسع الفتحة ملليمترا فملليمترا ثم استجاب الزجاج وعليه استطاع « رادكس » أن يدخل ذراعه النحيلة حتى لمست أطراف أصابعه زر الأمان ثم جذبه وفتح باب السيارة ثم انزلق إلى مقدمتها لقد كانت العربة فسيحة جدا . وذات مقاعد عميقة من الجلد الصناعى الأخضر الداكن . ارتاح الصبى حين كان بداخل السيارة وقد بقى لحظة جالسا على المقعد البارد واضعا يديه على عجلة القيادة لينظر الى مكان الوقوف والأشجار من خلال الزجاج الأمامى للسيارة . وكان الجزء العلوى من هذا الزجاج مصبوغا باللون الأخضر الزمردى . مما أضفى لونا عجيبا على لون السماء البيضاء حين يحرك رأسه فعلى يمين عجلة القيادة كان جهاز الراديو . أدار الصبى زر الجهاز ولكنه لم يوقد . أسند يده على صندوق القفازات فانفتح الغطاء . كان داخل الصندوق بعض الأوراق وقلم ونظارة سوداء .

انزلق « رادكس » من فوق ظهر المقعد الأمامى إلى المقعد الخلفى . ثم

fb/mashro3pdf

فحص سريعا الملابس فوجدها ملابس جديدة : بعض القمصان وبعض التيروهات والسراويل والبدل النسائية . والبلوفرات الصوفية وكل ذلك مازال فى أكياسه من البلاستيك ثم علب أحذية من الكرتون أربطة رقبة وملفحات . فوضع الملابس فى السراويل وربط عليها بطرف السروال ليعمل منها لفة وفجأة تذكر جهاز الراديو فانزلق ثانية إلى المقعد الأمامى ورأسه تجاه أرضية العربة وتحسست يداه الجهاز ورفعه قليلا . لقد أدار الزر فى هذه المرة فانبعث الموسيقى وأنغام الجيتار التى أنسابت وسالت كغناء العصافير فى الفجر .

وفى هذه اللحظة سمع صوت رجال الشرطة قادمين فهو لم يتنبه لحضورهم . وربما لم يسمعهم حقيقة . فلقد كان صوت العجلات الرقيق فوق الحصى المغطى بالقار والممشى الدائرى وصوت الستارة التى ارتفعت فى مكان ما على الواجهة الفسيحة والهادئة للمبنى الأبيض نتيجة النور . ربما كان شيء آخر هو الذى نبهه عندما كان خافضا رأسه ليسمع موسيقى الطيور من جهاز الراديو ففى داخل جسمه وخلف عينيه أو فى أمعائه انعقد شيء ما وانقبض وملأ الفراغ مقدمة العربة مثل البرد . وعلى ذلك فقد وقف ورآها رأى سيارة الشرطة السوداء التى وصلت مسرعة فوق ممشى مؤقف السيارات ولقد أحدثت عجلاتها صوتا فوق « الأسفلت » فقد رأى « رادكس » بوضوح وجوه رجال الشرطة وزيهم الرسمى الأسود . وفى نفس اللحظة شعر بالنظرة القاسية والقاتلة التى شاهدته من أعلى الشرفة من شرفات العمارة هناك حيث الستارة التى ارتفعت منذ قليل فى سرعة .

أيجب أن يظل مختبئا فى العربة حبيسا كالحيوان ؟ ولكن رجال الشرطة قادمون نحوه فهو يعرف ذلك جيدا ولا يشك فيه . ففرد جسمه ليقفز فقد اندفع من الباب الأمامى للسيارة وأخذ يعدو فوق الإفريز فى اتجاه الحائط الذى يحيط بموقف انتظار السيارات .

fb/mashro3pdf

زادت السيارة السوداء من سرعتها فجأة ذلك لأن رجال الشرطة شاهدوه فكانت هناك ضوضاء الأصوات وصيحات خفيفه يتردد صداها فى الحديقة والتى ارتطمت بالأسوار الكبيرة البيضاء . لقد أصغى « رادكس » لطلقات الصفارات الحادة فأدخل رأسه بين كتفيه كما لو كانت طلقات رصاص . تعالت ضربات قلبه حتى أنه لم يعد يسمع شيئا كما لو أن كل ما يحيط به من موقف انتظار السيارات والعمارات والأشجار فى الحديقة العامة والمشايات أخذت تشاركه فى الدقات وتختفى مع قلبه وتتألم معه . أطلق ساقيه للريح فصار يعدو وقدماه تضربان الأرض وصار يقفز من فوق أحواض الزهور والحوائط المنخفضة التى تحدد الحشائش كانت ساقاه تعدوان كمن أصيب بالجنون ولا يعرف إلى أين تقودانه وإلى أين ستتوقف عن العدو . والآن وأمامه الحائط العالى الذى يفصل موقف انتظار السيارات لم يستطع تخطيه فإن قدميه لاتستطيعان الطيران . فصار يجرى على امتداده وصار يلتوى بين السيارات الواقفة . لم يكن الصبى فى حاجة للعودة أو للالتفات إلى الوراء حتى ليعرف أن سيارة الشرطة فى أثره وأنها قريبة منه فقد يسمع صرير عجلاتها وهى مسرعة وصوت محركها العالى فى المنحنيات . إذا فهى خلفه فى خط مستقيم وفى نهاية هذا الخط يوجد الشارع الرئيسى المفتوح وليس به سوى جسم « رادكس » النحيل وهو يركض كأرنب مذعور . أسرعت سيارة الشرطة واقتربت والتهمت العجلات الممشى . وفى أثناء عدوه استمع الصبى الى صوت الستائر التى ترفع فى كل مكان على واجهات العمارات . وظن أن كل الناس الآن فى الشرفات ليشاهدوه وهو يعدو . وفجأة رأى فتحة فى الحائط . ربما كانت بابا فانفلت بجسمه فيها . أصبح الآن فى الطرف الاخر من الحائط وحيدا فى الشارع الرئيسى الموصل للبحر . ومتقدما بثلاث أو أربع دقائق عن سيارة الشرطة السوداء التى يجب عليها الخروج من موقف انتظار السيارات والدوران نصف دورة فى الشارع الرئيسى وكان الصبى يعرف ذلك يقينا ودون تفكير كما لو كانت قدماه وقلبه اليائس يفكرون من أجله ولكن إلى أين ؟ ففى نهاية الشارع وعلى بعد مائة متر كان البحر والصخور . فإلى هذا الاتجاه وأستمر الصبى يعدو

fb/mashro3pdf

بفعل الغريزة فى سرعة حتى أن هواء النهار الساخن قد أسال دمع عينيه كما لم تعد تسمع أذناه غير صوت الريح ولم يعد يرى شيئا سوى الشريط الأسود للطريق حيث تلمع أشعة الشمس . وفى النهاية وفوق البحر « الكورنيش » . ظهر اللون اللبنى الأبيض للبحر مختلطا بلون السماء . لقد جرى فى سرعة حتى لم يعد يسمع الآن إطارات السيارة السوداء « سيارة الشرطة » فوق الشارع وكذا صوت آلة التنبيه الذى يتردد صداه بين العمارات .

مازال أمامه عدة قفزات أخرى فقط أيتها الأرجل وبعض النبضات أيها القلب لأن البحر غير بعيد حيث لاتوجد منازل ولا رجال ولا عربات . وفى اللحظة التى قفز الصبى على الطريق المؤدى إلى البحر المختلط بالسماد مثل الفريسة التى أوشك الكلاب على اللحاق بها . فى هذه اللحظة نفسها وصلت سيارة ركاب عامة كبيرة وزرقاء ومصابيحها مازالت ترسل أنوارها والشمس المشرقة تسطع كالبرق على زجاجها الأمامى عندما تحطم جسد « رادكس » فوق مقدم السيارة ومصابيحها فى صوت صارخ وفرامل ذات صرير كالصراخ . ولم يكن بعيدا عن هذا المكان وعلى حدود حديقة النخيل العامة كانت هناك فتاة شابة ذات وجه داكن تقف بلا حركة كالظل وهى تنظر بكل عيونها . لم تتحرك ولكنها تنظر فقط فى حين تجمع الناس وأتوا من كل صوب . تجمعوا على الطريق وحول السيارة العامة والسيارة السوداء وحول الغطاء الذى أخفى جثة اللص المحطمة .

fb/mashro3pdf

« تزنيت » فى ٢٣ أكتوبر ١٩١٠

فى المكان الذى تختلط فيه المدينة بالأرض الحمراء من الصحراء والأسوار القديمة من الصخور الجافة ومن أطلال البيوت ووسط أشجار الزيزفون التى أحرق بعضها . هناك حيث تهب ريح محملة بالتراب بعيدا عن الآبار وبعيدا عن ظلال النخيل فى هذا المكان كان الشيخ الكبير يحتضر .

لقد وصل إلى هذه المدينة « تزنيت » فى نهاية رحلته الطويلة التى لاطائل تحتها . ففى الشمال فى اقليم الملك المنهزم تقدم جنود الأجانب . وأحرزوا نصرا على المدن الواحدة بعد الأخرى وقد كانوا يخربون ويقضون على كل من يقاومهم . أما فى الجنوب فإن جنود المسيحيين دخلوا الوادى المقدس « للساقية الحمراء » واحتلوا أيضا مدينة « سمارة » وقصر « ماء العينين » الخالى . لقد هبت ريح الشقاء على الأسوار الصخرية . هذه الريح التى تمحو كل شىء وتخرب كل شىء .

إنها تهب هنا الآن هذه الريح السيئة . الريح الدافئة التى تأتى من الشمال والتى تجلب الضباب من البحر . وانتشر

fb/mashro3pdf

الرجال الزرق حول مدينة « تزنيت » كحيوانات ضائعة ينتظرون فى مخابئهم من الأعراش وفى الأكواخ .

ففوق كل مخيم لم يكن يسمع سوى صوت الريح التى تزأر وتجلجل بين فروع الأشجار ومن وقت لآخر كان يسمع صوت حيوان مقيد . لقد خيم سكون مروع لم يحصل إلا منذ هجوم الجنود السنغاليين على وادى « وادى تدلا » . فقد صمتت أصوات المحاربين وسكتت الأغانى ولم يعد هناك من يتكلم عما عساه يحدث لأن شيئا لم يحدث أو يأتى .

فهى ريح الموت التى تهب على الأرض الجافة . فهى الريح السيئة التى تأتى من الأراضى احتلها وشغلها الأجانب فى « موجادور » وفى الرباط وفاس وفى طنجة . الريح الدافئة التى تحمل صوت البحر وجلبة المدن الكبيرة البيضاء ، حيث يحكمها أصحاب البنوك والتجار .

ففى منزل من اللبن ذى السقف نصف المتهدم يرقد الشيخ الكبير ممددا على معطفه فوق أرضية من الطين . كانت الحرارة خانقة والهواء يملأه طنين الزنابير والذباب . ترى هل يعلم الآن أن كل شيء قد ضاع ؟ وأن كل شيء قد انتهى ؟ فبالأمس وبالأمس الأول جاءه رسل الجنوب يحملون له اخبارا ولكنه لم يشأ أن يستمع لهم . فاحتفظ الرسل بأخبار الجنوب :

مثل التخلى عن « سمارة » وهروب « حسينه » « ولارهداف » أبناء « ماء العينين » إلى هضبة « تاجانت »

fb/mashro3pdf

وهروب « مولاى هيبة » نحو جبال أطلس . ولكنهم حملوا معهم خبرا سوف ينشرونه هناك لهؤلاء الذين ينتظرونهم : الشيخ الكبير « ماء العينين » والذى سيموت عما قريب . فإن عينيه لم تعد تريان كما لم يعد يقوى على الكلام بتحريك شفتيه إنهم سيقولون أن الشيخ الكبير على وشك الموت فى أفقر منزل فى بلدة « تزنيت » كأى متسول بعيدا عن أولاده وعن قومه .

حول أطلال هذا المنزل الخرب جلس بعض الرجال . إنهم آخر المحاربين الزرق من قبيلة « بريكى الله » . لقد هربوا خلال سهل نهر « تادلا » دون أن يلتفتوا أو يحاولوا أن يفهموا . أما الآخرون فقد رجعوا إلى الجنوب نحو الطرق الضيقة ذلك لأنهم أيقنوا ألا أمل هناك وأن الأراضى التى وعدوا بها لن يعطوها . ولكن هؤلاء لم يكن قصدهم الأرض التى يريدونها وإنما كان حبهم « للشيخ » فإنهم يجلونه كأحد القديسين . فلقد منحهم بركته السماوية وكان هذا مما ربطهم به كعهد قطعوه على أنفسهم .

لقد كان « نور » بينهم اليوم وقد جلس على الأرض المليئة بالتراب تحت سقف من فروع الشجر . وأخذ ينظر إلى البيت ذى السقف المتهدم والذى ضم الشيخ وصار حبيسا به إنه لم يعلم حتى الآن أن « ماء العينين » يحتضر . فقد مضت أيام دون أن يراه « نور » يخرج فى عباءته البيضاء القذرة الآن ومستندا إلى ذراع تابعه وتتبعه زوجته الأولى « ميمونة » لوليه وأم « مولاى سبع » عندما وصل « ماء العينين » إلى مدينة « تزنيت » فقد أرسل رسله ليخبروا أولاده بأن يحضروا ليروه .

fb/mashro3pdf

لكن الرسل لم ترجع . ففى كل مساء وقبل تأدية الصلاة كان يخرج من المنزل لينظر جهة الشمال إلى الطريق الذى كان مقررا أن يأتى منه « مولاى هيبة » ولكن الوقت قد مضى وأصبح من الواضح أن أولاده لن يحضروا .

ومنذ يومين فقد الشيخ بصره وكأن الموت قد بدأ بعينه . فقديما عندما كان يخرج ليلتفت نحو الشمال لم تكن عيناه التى تبحثان عن ولده بل كان جسمه ويداه التى يرغب فى حضور « مولاى هيبه » . كان « نور » يتطلع إلى هيكله الضئيل الشبيه بالشيخ ومن حوله أتباعه يتبعهم ظل أسود هو « لالا ميمونة » وكان يشعر بالبرد . برد الموت الذى يظلم المكان كما لو كانت سحابة قد حجبت الشمس .

فكر « نور » فى المحارب الأعمى والنائم فى مجرى نهر « تادلا » . تذكر « نور » وجه صاحبه الذابل والذى ربما تكون الثعالب قد نهشته . ثم فكر أيضا فى الذين قضوا نحبهم فى الطريق وقد تركوا للشمس والليل .

ثم بعد ذلك انضم إلى بقية القافلة الذين نجوا من المذبحة وكانوا يمشون لعدة أيام يميتهم الجوع والتعب . لقد هربوا على طول الطريق وسلكوا أشق الطرق ليتفادوا المدن لايجرؤون على شربة ماء من بئر . وعندئذ وقع الشيخ فريسة المرض وكان لزاما أن يقف هنا عند ابواب « تزنيت » فوق هذه الأرض المتربة حيث تهب ريح الشقاء .

fb/mashro3pdf

إن غالبية الرجال الزرق قد واصلوا السير دون هدف معين وعلى طريق لانهاية له نحو هضبات « الذراع » حتى يجدوا الطريق الصغير الذى كانوا قد تركوه . لقد عاد والد ووالدة « نور » إلى الصحراء . ولكنه لم يستطع أن يتبعهم . ربما كان يأمل فى معجزة فى أن يعثر على الأرض التى وعدهم بها الشيخ الكبير حيث يجد السلام ووفرة الطعام وحيث لايستطيع جنود الفرنجة دخولها . رحل المحاربون الزرق الواحد تلو الآخر حاملين أسمالهم . ولكن كان هناك الكثير من الموتى على الطريق وعبثا أن يجدوا سلام الماضى كما أنه عبثا أن تتركهم ريح الشقاء فى سلام .

وأحيانا كانت تصل شائعة بأن « مولاى هيبة » قد وصل و«مولاى سبع » ملكنا هو أيضا . ولكن لم يكن ذلك إلا سرابا يذوب فى هذا الصمت المرعب .

الآن أصبح الوقت متأخرا جدا ذلك لأن الشيخ « ماء العينين » سيموت عما قريب . لم تعد الريح تهب فجأة والهواء الثقيل دفع الرجال للهواجس . فقد انتصبوا على أقدامهم وقد نظروا ناحية الغرب الى الجانب الذى سوف تغيب فيه الشمس وأصبحت الأرض المتربة والصخور الناتئة مغطاة بطبقة تبرق كالمعدن المنصهر . واحتجبت السماء بغلالة رقيقة من الضباب . حتى أن الشمس ظهرت من خلالها كقرص أحمر متمدد بشكل لايصدق .

لم يعرف أحد لماذا توقفت الريح فجأة ولا لماذا تلون

fb/mashro3pdf

الأفق بهذا اللون الغريب الملتهب . ولكن « نور » شعر من جديد بالبرد ينمذ إلى داخله كأنه الحمى وصار يرتعد . فالتفت إلى المنزل القديم المتهدم حيث يقيم « ماء العينين » . ثم سار إلى البيت وقد انجذب اليه ثم ركز بصره على الباب الأسود .

رأى محاربو « ماء العينين » « بريكى الله » ذو الوجوه السمراء الشاب وهو يتقدم نحو المنزل ولكن أحدا منهم لم يحاول اعتراضه وكانت نظراتهم متعبة وخالية وكأنهم يعيشون فى حلم . فربما فقدوا هم أنفسهم البصر من طول السير غير المجدى . وأن أشعة الشمس ورمل الصحراء قد أحرق عيونهم سار نور فى بطء على الأرض الملتهبة بالحصى نحو المنزل ذى الحوائط الطينية . لقد جعلت شمس الغروب الحوائط العتيقة تلمع وعمقت ظل الباب .

من هذا الباب دخل « نور » الآن مثلما كان يفعل فى الماضى مع والده فى مقبرة الولى . لقد بقى لحظة دون حراك وقد أعمى عينيه الظلام كما شعر بالهواء الرطب داخل البيت وحين اعتادت عيناه ظلمة المكان وجد الغرفة الكبرى خالية والأرض طينية وفى نهاية الغرفة رأى الشيخ الكبير ممددا فوق معطفه وقد أسند رأسه إلى حجر وقد جلست إلى جواره « لالا ميمونه » وقد التفت فى معطفها الأسود وأخفت وجهها بحجاب .

لم يصدر عن « نور » أى صوت . فقد حبس أنفاسه . وبعد وقت طويل أدارت « لالا ميمونة » وجهها ناحية الشاب

fb/mashro3pdf

ذلك لأنها أحست نظراته وأزاحت الحجاب الأسود وكشفت عن وجهها الجميل ذى اللون النحاسى . وقد برقت عيناها فى الظلام ذلك لأن الدموع قد سالت على خديها . فتعالت ضربات قلب الشاب وشعر بألم يعتصر جسمه . كاد يتقهقر إلى الباب ليخرج . ولكنها نادت عليه بأن يدخل . فسار فى بطء شديد إلى وسط الغرفة منحنيا قليلا بسبب آلامه . وحين وصل أمام الشيخ خانته قدماه وسقط على الأرض بكل ثقله وقد مد ذراعيه إلى الأمام فلمست يداه معطف الشيخ الأبيض . وظل ممددا ووجهه إلى الأرض الرطبة . لم يبك كما لم يقل شيئا ولم يكن يفكر فى شىء ولكن علقت يداه بمعطف الشيخ الصوفى فشد عليه حتى شعر بالألم . وإلى جانبه « لالا ميمونه » ساكنة وقد جلست إلى الرجل الذى احبته وهى ملتفة بمعطفها الأسود ولم تعد ترى كما لم تعد تسمع شيئا مطلقا .

تنفس « ماء العينين » فى بطء وفى ألم . كان يتنفس فى صعوبة وكان صدره يعلو فى مشقة وفى حشرجة كانت تتجاوب أصداؤها فى المنزل . وفى النور الخافت ظهر الوجه النحيل أكثر بياضا كأنه شفاف .

نظر « نور » للشيخ الكبير فى قوة كأن نظراته يمكنها تأخير سريان الموت فيه . لقد فغر « ماء العينين » فمه وشفتيه تهمس بكلمات تخنقها الحشرجة فى الحال . ربما كان يذكر أولاده بأسمائهم : » محمد ريو ــ محمد لارهداف ــ طالب حسينه ــ سعد بو ــ أحمد الشمس . وخاصة اسم من كان ينتظره كل مساء على طريق الشمال والذى مازال ينتظره : أحمد

fb/mashro3pdf

كانت « لالا ميمونة » تجفف بطرف معطفها الأسود العرق الذى يتصبب ويتألق على وجه الشيخ فقد كان لايحس حتى يلمس القماش على جبهته وصدغيه . وفى فترات تتيبس ذراعاه وكان يحاول أن يقوم من رقدته . كانت شفتاه ترتعدان وتدور عيناه فى محجريهما .

تقدم « نور » أكثر ليساعد « لالا ميمونة » على رفع الشيخ وأجلساه . وفى بضع ثوان وفى نشاط لايصدق فى جسده الخفيف النحيل بقى الرجل جالسا وقد مد ذراعيه إلى الأمام كمن يريد الوقوف . لقد بدا على وجهه قلق طاغ حتى أن « نور » استشعر الرعب من نظرة عينيه القاتمة وانسانها الباهت . فتذكر « نور » المحارب الأعمى وكيف أن « ماء العينين » لمس بيديه عينى الرجل وحين نفخ على وجهه الرجل الجريح والآن وقد عرف « ماء العينين » نفس الوحدة والتى لامهرب له منها وأن ليس فى مقدور أحد أن يخفف من فراغ نظرته .

إن الألم الذى شعر به « نور » كان كبيرا جدا حتى أنه أراد أن يذهب ويترك هذا المنزل المظلم والذى يكمن فيه الموت . أراد أن يهرب عدوا فوق السهل المترب نحو ضوء الشمس الذهبى أثناء المغيب . ولكن فجأة أحس بالقوة فى يديه وفى تنفسه . وكأنما يحاول تذكر الحركات القديمة . فقد مر « نور » بكفه فوق جبين الرجل دون أن يتكلم . ثم رطب

fb/mashro3pdf

أطراف أصابعه بلعابه ولمس بها جفنى الرجل التى اهتزت من القلق . ثم نفخ فى هدوء ورقة على الوجه والشفتين وعلى العينين . ثم أحاط بذراعه الجسد وببطء شديد استسلم الجسد الواهن ورقد إلى الخلف .

والآن وقد بدا وجه « ماء العينين » وكأنه قد تخفف وتحرر من آلامه . وبعيون مغلقة تنفس الرجل فى هدوء ودون صوت كأنه سينام . كما أن « نور » قد أحس بالراحة فى نفسه وفارقت الآلام جسده ثم تقهقر إلى الوراء قليلا دون أن يتوقف عن النظر إلى « الشيخ » ثم خرج من المنزل فى حين تمدد جسد « لالا ميمونه » المتشح بالسواد فوق الأرض لتنام .

وفى الخارج أرخى الليل سدوله فى بطء . سمعت صيحات الطيور التى تطير فوق بطن الوادى الى أشجار النخيل . وبدأت ريح البحر الدافئة تهب على فترات هازة أوراق سقف البيت المتهدم . أوقدت « لالا ميمونه » مصباح الزيت ثم ناولت الشيخ ماء ليشرب . أمام باب المنزل شعر « نور » بغصة فى حلقه وأنه يكاد يختنق ويحترق . فهو لم يستطع النوم . وفى عدة مرات اثناء الليل ومن إشارة « لميمونة » كان يقترب من الشيخ ويمد يده على جبينه ثم ينفخ فى شفتيه وبين جفنيه ولكن التعب والحزن قد أفسدا قوته فلم يستطع أن يمحو القلق الذى بسببه ترتعد شفتا « ماء العينين » . ربما كان الألم الداخلى فى جسمه هو الذى قطع أنفاسه .

فقبل الفجر تماما وحين كان الجو فى الخارج هادئا

fb/mashro3pdf

وساكنا ولا تسمع فيه ضوضاء ولا صوت أية حشرة فى هذه اللحظة مات « ماء العينين » علمت بذلك « ميمونة » التى كانت ممسكة بيده . فرقدت على الأرض إلى جوار من تحب وأخذت تبكى دون أن تحبس صوت بكائها . وعلى ذلك نظر « نور » الواقف قريبا من الباب وألقى آخر نظرة على هيكل الشيخ الهش والراقد فى معطفه الأبيض . الجسد خفيف حتى كأنه يطفو من على الأرض ثم تراجع فى خطوات وابتعد حتى صار وحيدا وسط الليل فوق هذا السهل الذى يضيئه القمر فى تمامه . لقد منعه التعب والحزن من السير فسقط على الأرض بالقرب من شجيرات شائكة ثم راح فى سبات فى الحال دون أن يسمع صوت « لالا ميمونة » التى كانت تنتحب وكأنها تغنى .

fb/mashro3pdf

وهكذا رحلت « لالا » ذات يوم ودون أن تخطر أحدا . استيقظت فى الصباح قبل الشروق مباشرة كما هى عادتها أيام أن كانت فى بلدها لتذهب الى البحر أو لتمضى إلى مشارف الصحراء . لقد أصغت الى صوت المصور وهو يتنفس أثناء نومه فى فراشه الكبير وقد أنهكته حرارة الصيف . وفى خارج المنزل كانت تسمع صيحات الطيور الحادة وعلى مبعدة كانت تسمع صوت نافورة الماء الرقيقة التى تروى الحدائق الهامة . ترددت « لالا » لأنها ترغب فى أن تترك شيئا ما للمصور أية أشارة أو رسالة كى تودعه . ولما لم يكن معها شىء فقد أخذت قطعة من الصابون ورسمت بها العلامة المشهورة لقبيلتها والتى كانت تمهر امضاءها للمصور فى باريس لأن هذا هو أقدم رسم تعرفه وهو يشبه القلب .

ثم رحلت خلال شوارع المدينة على ألا تعود أبدا . لقد سافرت بالقطار لعدة أيام وليالٍ . ومن مدينة إلى أخرى ومن قطر إلى قطر . كما أنها انتظرت قطارات كثيرة فى محطات كثيرة . انتظرت لفترات طويلة حتى تيبست قدماها وحتى شعرت بظهرها وفخذيها كانها ماتت .

لقد كان الناس يروحون ويغدون ويتحدثون ويتطلعون ولكنهم لم يعيروا هذه

fb/mashro3pdf

الفتاة الشابة أى التفات . هذه المرأة ذات الوجه المتعب والمتلفحة بمعطفها الكستنائى القديم برغم الحرارة والذى يصل إلى قدميها . ربما ظنوا أنها فقيرة أو مريضة . ففى بعض الأحيان يتحدث إليها البعض فى عربات القطارات ولكنها لم تفهم لغتهم وكانت تكتفى بالابتسامة .

بعد ذلك تقدمت السفينة تتهادى فوق بحر كالزيت وابتعدت عن « الجزيرة » واتجهت إلى « طنجة » . وعلى سطح السفينة كانت الشمس والملح يلهبان الأجسام . ولهذا تجمع الناس فى الظل . الجميع من رجال ونساء وأطفال وهم جلوس إلى جانب علبهم من الكرتون وحقائبهم . كان بعضهم يغنى من وقت لآخر ليسروا عن أنفسهم من الهم . وكانت أغنيتهم حزينة ثم ينقطع الغناء أو يخفت فلا يسمع سوى دوى آلات السفينة .

كانت تتطلع إلى البحر من وراء حاجز السفينة . البحر الأزرق المظلم والناعم حيث تدور عجلات السفينة التى تدفع السفينة إلى الأمام وفى الخطوط البيضاء التى تخلفها السفينة تتدافع وتقفز الدرافيل وتقترب وتتباعد . تذكرت « لالا » الطائر الأبيض الذى كان أميرا للبحر والذى يطير فوق شاطىء البحر أيام « نعمان » العجوز . فتسارعت ضربات قلبها وتطلعت فى نشوة كما أو أنها ستشاهده حقيقة . وقد نشر ذراعيه فوق البحر . لقد شعرت بلسعة الشمس فوق بشرتها . الحرارة القديمة وقد رأت النور الجميل والقاسى فى السماء .

لقد أربكها فجأة صوت الرجال الذين يتغنون بأغانيهم الحزينة . فشعرت بالدموع تنساب من عينيها دون أن تفهم سببا لذلك . لقد مضى زمن طويل عند سماعها لتلك الأغنية وكأنها كانت فى حلم قديم كاد أن ينمحى . لقد كانوا رجالا ذوى بشرة سوداء وكانوا يرتدون قميصا من جلود الفهد . وسروالا من القماش غاية فى القصر وأقدامهم عارية فى « صندل » يابانى . لقد كان الواحد منهم بعد الآخر

fb/mashro3pdf

يغنى هذه الأغنية الحزينة والتى لايفهمها غيرهم . يغنون وهم يتمايلون وعيونهم نصف مغلقة .

وعندما استمعت لأغنيتهم شعرت الفتاة فى قرارة نفسها بالرغبة فى أن ترى الأرض البيضاء مرة أخرى وكذا أشجار النخيل فى الوديان الحمراء وفى المساحات الشاسعة من الصخور والرمال والشواطىء الواسعة الخالية وحتى القرى الطينية ذات العرائش حيث أسقف المنازل من الورق المقوى . أغلقت « لالا » عينيها قليلا من الوقت فرأت كل ذلك أمامها . كما لو لم تسافر وتغادر أو كأنها قد نامت لساعة أو ساعتين . ففى داخلها وفى بطنها المنتفخة كانت هذه الحركة أيضا وهى الهزات التى تؤلمها والتى تضرب داخل جلدها الآن . فكرت فى الطفل الذى يود أن يخرج للحياة والذى يعيش الآن ويحلم فجمدت وارتعدت قليلا واعتصرت بطنها بيديها وتركت جسدها لهزات السفينة الثقيلة وقد أسندت ظهرها إلى الحاجز الحديدى الذى يهتز . ثم أخذت هى نفسها تغنى لنفسها تغنى من بين أسنانها تغنى للطفل الذى توقف عن الحركة فى بطنها وتصغى اليها . لقد تغنت بأغنية قديمة والتى كانت تغنيها « العمة » والتى نقلتها عن أمها .

« فى يوم ماسيصبح الغراب أبيض . وسيجف البحر وسيجد الانسان العسل فى زهرة الصبار وسيصنع الفراش من شجر الشوك الوردى » ذات يوم ... آه ذات يوم لن يبقى سم فى فم الثعبان ولن تحمل الرصاصات الموت لأنه فى ذلك اليوم سأترك حبى » .

لقد غطى ضجيج آلات السفينة على صوتها . ولكن مابداخل احشائها الطفل غير المعروف يصغى جيدا لكلماتها وينام عليها . ولكى تحدث صوتا أعلى ولتعطى نفسها قدرا من الشجاعة غنت « لالا » فى صوت أعلى وأكثر قوة كلمات أغنيتها المفضلة : « البحر الأبيض المتوسط » .

fb/mashro3pdf

انسابت السفينة فوق مياه البحر الهادىء كالزيت وتحت سماء ثقيلة . والآن توجد نقطة داكنة دميمة عند الأفق وكأنها سحابه معلقة فوق البحر . طنجة . التفتت جميع الوجوه نحو هذه النقطة وحتى الناس توقفوا عن الكلام وحتى السود توقفوا عن الغناء . لقد اقتربت « افريقيا » من مقدمة السفينة . افريقيا الجرداء وغير الواضحة المعالم . لقد صار البحر داكنا أقل عمقا . وطار فى السماء أوائل طيور البحر الصغيرة الداكنة اللون وهى أيضا النحيلة المذعورة .

إذا لقد تغير كل شىء . فتذكرت « لالا » أول رحلة لها الى مرسيليا . فقد كان كل شىء جديدا : الشوارع ـــ المنازل والناس . لقد تذكرت شقة العمة وفندق « سانت بلانش » والأراضى الفضاء بالقرب من الخزانات . لقد فكرت فى كل ماخلفته وراءها فى المدينة القاتلة . لقد ذكرت « رادكس » المتسول وكذا المصور والصحفيين وكل الذين أصبحوا الآن كالظلال . والآن لم يعد سوى هذه الملابس والمعطف الكستنائى الذى أعطته لها العمة حين وصلت عندها كما ذكرت أيضا النقود ورزم الأوراق المالية الجديدة والتى جمعتها بالدبوس الذى أخذته من جيب جاكتة المصور قبل أن ترحل . ولكن كل هذا كان وكأنه لم يكن أبدا . وكأنها لم تغادر البلدة ذات الأعراش والأوراق التى علاها القار وأنها لم تفارق هضبة الصخور والتلال حيث يعيش « الحارتانى » وكما أنها نامت مدة ساعة أو ساعتين .

لقد شاهدت الأفق البعيد والفسيح من مقدمة السفينة ومن ثم رأت البقعة القاتمة والجبل يتزايد حجما . فظهرت منازل المدينة العربية . شعرت برعدة ذلك لأن الطفل بدأ يتحرك بشدة .

وفى السيارة العامة التى جرت فوق الطريق المترب والتى وقفت لتلقط بعض الفلاحين وبعض النساء والأطفال . شعرت « لالا » مرة أخرى بالنشوة العجيبة .

fb/mashro3pdf

لقد غمرها النور كذلك والتراب الدقيق الذى تصاعد من جانبي السيارة كالضباب . والذى نفذ داخل هيكلها والذى يتشبث بحلقها وأصابعها . شعرت « لالا » بالنور والجفاف وبالتراب شعرت بها جميعا كأن جلدا جديدا يكسوها أو ريحا جديدا .

ترى هل من الممكن أن يوجد شيء آخر غير هذا ؟ وأن كذب الذكريات لاتستطيع أن يعيش فى ضوضاء السيارة العامة المستمرة فى السير . ولا فى الحرارة ولا فى التراب . فإن النور ينظف ويمسح ويشعل كل شيء مثل ماكان فى الماضى فوق الهضبة والصخور . شعرت « لالا » من جديد بثقل النظرة السرية عليها وحولها ولم تعد نظرة الرجال المليئة بالرغبة والنهم ولكن نظرة خفية للذى يعرف « لالا » والذى يسيطر عليها كأنه إله .

جرى « الأتوبيس » فوق الطريق الضيق المترب وارتفعت على التلال . ففى كل مكان لاتوجد إلا الأرض الجافة والملتهبة التى تشبه جلد الثعبان القديم . وعلى سقف السيارة كانت السماء والضوء يلهبان كل شيء . وكانت الحرارة فى الجزء المخصص للركوب كأنه فرن . شعرت « لالا » بقطرات العرق تسيل على جبهتها وعلى رقبتها . وفى ظهرها . بقى الناس فى السيارة العامة لاتبدو منهم أية حركة . فكان الرجال متشحين بمعاطفهم الصوفية والنساء منحنيات على الأرض بين المقاعد ومتشحات بأثوابهن الزرقاء الداكنة . أما السائق فهو الوحيد الذى يتحرك ويتطلع فى مرآة العربة وكثيرا ماتلاقت نظراته بنظرات « لالا » فتدير رأسها . لقد قام السائق البدين بوضع المرآة فى وضعها الصحيح حتى يستطيع التطلع إلى الفتاة . وفى حركة غضب أعادها إلى موضعها الأصلى . ثم أدار المذياع على أقصى ارتفاع فازداد صفيرا وفرقعة خاصة حين اقترب من أعمدة الكهرباء ثم صدحت موسيقى غير واضحة .

fb/mashro3pdf

استمرت السيارة العامة فى سيرها طوال النهار فوق الطريق الممهد بالقار وفوق الطرق الضيقة المتربة كما كانت تعبر أنهارا جافة وتقف أمام القرى ذات البيوت من اللبن حيث تنتظر الأطفال عرايا . كانت الكلاب النحيلة تجرى فى محاذاة السيارة وتحاول عض الاطارات . وفى بعض الأحيان كانت السيارة تقف وسط سهل بعيد عن العمران ذلك لأن المحرك أصابه ضعف . وحينما كان السائق ذو الأنف المفرطح يفحص داخل ماكينة السيارة لينظف ماسورة البنزين نزل الرجال والنساء من السيارة ليجلسوا فى ظلها أو ليتبولوا بين الشجيرات . لقد أخرج بعضهم من جيوبهم ثمرة صغيرة من الليمون ليمتصوها ببطء ويلعقوها بألسنتهم .

ثم استأنفت السيارة سيرها تقفز أحيانا وتصعد التلال . وفى اتجاه الغروب يحل الليل سريعا فوق المساحات الواسعة من السهول وتغطى الصخور ويستبدل التراب بالرماد . وفجأة وفى الليل توقفت السيارة وشاهدت « لالا » عن بعد الأنوار والجانب الآخر من النهير . كان الليل حارا خارج السيارة وقد امتلأ بصوت الحشرات وبصيحات الضفادع . ولكن كل هذا يشبه الهدوء بالقياس الى الساعات التى أمضوها فى السيارة العامة .

هبطت « لالا » ثم سارت ببطء بمحاذاة النهير فقد تعرفت على بنايات الحمامات العامة وكذا الأماكن الضحلة . كان النهير أسود وقد طرد المد التيار المائى الهادىء فعبرت « لالا » المكان الضحل وقد وصل الماء الى فخذيها . ولكن نسيم النهير أنعشها وفى الظل شاهدت « لالا » هيكل امرأة تحمل لفافة فوق رأسها وقد ثنت رداءها الطويل حتى بطنها .

وعلى الشاطىء الآخر وعلى مبعدة يبدأ الطريق المؤدى إلى البلدة . ثم ظهرت المنازل الطينية ذات الأعراش واحدا بعد الآخر . لم تعد تعرف هذه المنازل فقد ظهرت منازل جديدة فى كل مكان حتى قرب النهر هناك حيث تجرى المياه

fb/mashro3pdf

أيام الفيضان لقد كانت الحارات والشوارع الصغيرة مضاءة بنور كهربائى ضعيف كما كانت المنازل المصنوعة من أفرع الأشجار تبدو شبه مهجورة فلما سارت « لالا » على طول الشوارع سمعت صوت تهامس أصوات وبكاء أطفال . وفى مكان ما أبعد من المدينة صوت كلب برى يبدو غير حقيقى . كانت خطوات « لالا » تترسم آثار أقدام قديمه . لقد خلعت حذاءها حتى تستشعر النسيم وحبات الطريق .

إنها نفس النظرة التى ترشدها هنا فى شوارع البلدة . إنها نظرة طويلة جدا ورقيقة جدا والتى تأتى من جميع الجهات دفعة واحدة : من أعماق السماء وهى التى تتحرك مع الريح . سارت « لالا » أمام المنازل التى تعرفها فشعرت برائحة النار فى المواقد والتى على وشك أن تخبو وتنطفىء . إنها تعرف صوت الرياح التى تهب على الورق فوق الأسطح . كل ذلك عاد اليها فى لحظة كما لو تكن قد رحلت أو كأنها نامت ساعة أو ساعتين .

وبدلا من أن تذهب الى منزل « اكيكر » هناك بجوار النافورة فإنها أخذت طريق الكثبان . ذلك لأن التعب قد أثقل جسدها وسرت الآلام فى أوعيتها . ومع ذلك فما زالت هذه النظرة المجهولة تقودها . وأنها تعرف أنه يجب أن تخرج من القرية . عارية القدمين . فقد أسرعت فى سيرها بقدر ماتستطيع بين الشجيرات ذات الأشواك وبين شجيرات النخيل القصيرة . سارت حتى الكثبان .

هناك لم يتغير أى شىء . فقد سارت بمحاذاة الكثبان الداكنة كما كانت تفعل فى الماضى . ومن وقت لآخر كانت تقف وتنظر حولها . ثم تقطف جذعا من نبات لتسحقه بين أصابعها كى تحس برائحة الفلفل التى تحبها . إنها تعرف كل هذه الأماكن وكل الطرقات التى تؤدى إلى التلال ذات الحصى . وكذا الطريق الذى يؤدى إلى المستنقعات المالحة وكذا الطريق الذى يؤدى إلى مكان ما . كان

fb/mashro3pdf

الليل عميقا وهادئا ومن فوق كانت النجوم براقة . كم من الزمن مضى عليها ؟ فهى لم تغير مكانها ووهجها لم ينفد كأنها مصابيح سحرية . ربما تكون الكثبان قد تحركت من مكانها ولكن كيف تعرف ذلك ؟ . إن الهيكل القديم والذى كان يخرج أظفاره وقرونه ليخفيف الناس بهما قد اختفى الآن . كما لم تعد توجد علب المأكولات المحفوظة ملقاة وقد أحرقت بعض الأشجار كما قطعت أغصانها لوقود المواقد .

لم تعثر « لالا » على مكانها فى أعلى الكثبان وحتى الممر الذى كان ينتهى الى الشاطىء قد كسته الرمال . وفى مشقة تسلقت الفتاة كثبان الرمال الباردة حتى القمة وسمع صوت تنفسها فى حلقها وكانت آلام كليتيها شاقة حتى أنها كانت تئن وتتوجع بالرغم منها . لقد صرت على أسنانها ثم أبدلت الأنين إلى نغمات . لقد فكرت فى الأغنية التى كانت تفضلها فى الماضى حين تشعر بالخوف « البحر الأبيض المتوسط » .

حاولت الغناء ولكن صوتها لم يطاوعها فقد فقد قوته . إنها تمشى الآن فوق رمال الشاطىء الجافة الصلبة وبالقرب من زبد الماء . لم تهب الريح بقوة . وكان صوت تلاطم الموج رقيقا وهادئا فى الليل . لقد شعرت « لالا » بنفس النشوة التى أحستها وهى على السفينة وفى السيارة العامة . وكأن كل ذلك كان فى انتظارها . ربما تكون نظرة « السر » هى التى على الشاطىء الآن مختلطة بأنوار النجوم وبخرير ماء البحر وببياض زبد الماء . فهذه الليلة ليست ليلة خوف . إنها ليلة بعيدة وكأن « لالا » لم تعرفها من قبل .

لقد وصلت الآن بالقرب من المكان الذى كان « نعمان العجوز » يحب أن يجذب اليه قاربه ليجفف الصمغ أو ليصلح الشباك . ولكن المكان خال والشاطىء ممتد بطول الليل ولا مخلوق فيه . لم يبق سوى شجرة التين القديمة باسقة

fb/mashro3pdf

فوق الكثيب بفروع قد أمالتها الرياح إلى الخلف كالعادة . لقد سرت « لالا » بأن عرفتها من رائحتها النفاذة .

لقد شاهدت حركة أوراقها . جلست الفتاة فى سفح الكثيب غير بعيد عند الشجرة ثم أطالت النظر فيها وكأنها تتوقع فى كل لحظة أن يظهر « الصياد العجوز » .

ثقل عليها التعب كما شل الألم ساقيها وذراعيها عن الحركة . فتركت نفسها تنزلق إلى الوراء على الرمال الباردة وغلبها النعاس فى الحال مطمئنة إلى صوت البحر وإلى رائحة شجرة التين .

إرتفع القمر فى الشرق وصعد فى الليل فوق التلال والصخور . أنار ضوؤه الباهت البحر والكثبان وغمر وجه « لالا » وفى ساعة متأخرة من الليل هبت الريح أيضا . الريح الدافئة التى تأتى ناحية البحر . وقد صافحت وجه الفتاة كما مرت على شعرها فكست جسدها بطبقة من الرمل . إنها السماء هى الكبيرة جدا أما الأرض فقد غابت عنها . لقد تغير كل شىء تحت مجموعات النجوم (الدب الأكبر والدب الأصغر) تغير وتحرك فقد اتسعت دائرة البلدان كأنواع من العفن فى قلب الوديان فى ظل الرؤوس والخلجان أناس ماتوا وهدمت منازل واندثرت فى سحابة من التراب أو الحشرات . ومع ذلك ففوق الشاطىء قريبا من شجرة التين هناك حيث كان يحضر « نعمان العجوز » كان وكأن شيئا لم يمر وكأن الفتاة الصغيرة لم تتوقف عن النوم .

إرتفع القمر فى بطء حتى السمت ثم بدأ ينحدر نحو الغرب من ناحية عرض البحر . كانت السماء صافية ولا سحب فيها . وفى الصحراء فيما وراء السهول والتلال الصخرية وبرودة الرمل القاسية كل هذا كان منتشرا كالماء . كما لو

fb/mashro3pdf

أن الأرض بكاملها هنا وحتى السماء والقمر والنجوم قد حبست أنفاسها وأوقفت الزمن .

لقد توقف الجميع فى حين بدأ الفجر الأول فى الظهور . وفى الصحراء لم يعد يجرى الثعلب ولا ابن آوى خلف الفريسة من الأرانب . أما الحية ذات القرن والعقرب فقد وقفت فوق الأرض الباردة وتحت السماء السوداء . لقد احتجزها الفجر وحولها إلى حجارة أو مسحوق حجرى أو الى بخار ذلك لأنها ساعة انتشار زمن السماء فوق الأرض فتتجمد الأجسام وفى أغلب الاحيان تتعطل الحياة والتنفس . ففى منحنى الكثيب رقدت « لالا » دون حركة . وارتعد جلدها فى هزات طويلة وارتعدت أوصالها واصطكت أسنانها ولكنها بقيت فى سباتها . ثم جاء الفجر الأبيض الفجر الثانى . وبدأ النور يختلط مع سواد الجو وفجأة تطاير النور من زبد ماء البحر فوق قمم ملح الصخور وفوق الأحجار المبعثرة حول شجرة التين . أضاء النور الداكن الباهت قمم التلال فانمحت أمامه شيئا فشيئا نور الكواكب : المعزة .. الكلب والثعبان والعقرب والنجوم الثلاثة الأخوات منطقة وآلنيام والنطاق وظهرت السماء كأن غطاء أبيض قد كساها . وانطفأت أضواء آخر الكواكب . ففى بطون الكثبان اهتزت الأعشاب الصغيرة الشائكة قليلا فى حين أن قطرات الندى عقدت على فرعها حبات من اللؤلؤ .

سالت بعض القطرات على وجه « لالا » وكأنها دموع . فاستيقظت الفتاة وتأوهت فى صوت خفيض . لم تفتح بعد عينيها ولكن شكواها تصاعدت وامتزجت بصوت البحر الذى لايتوقف والذى طرق من جديد سمعها . لقد كان الألم يعاودها فى بطنها فتصدر نداءات تتقارب أكثر فأكثر بنغمة مثل أصوات الأمواج .

إنتصبت « لالا » فوق فراشها الرملى ولكن الألم كان قويا جدا حتى حبس

fb/mashro3pdf

أنفاسها وفى الحال فهمت أن ساعة الوضع قد حانت الآن فوق هذا الشاطىء فاجتاحها الخوف لأنها تعرف أنها وحيدة وأن أحدا لن يأتى لمعاونتها . أرادت أن تقف وخطت بضع خطوات فوق الرمل البارد مترنحة ولكنها سقطت ثانية.وتحولت الى صرخات . فهنا لايوجد سوى الشاطىء الداكن والكثبان أيضا فى ظلام وأمامها البحر الثقيل المظلم الرمادى الأخضر ممتزجا هو أيضا بالسواد .

رقدت على جنبها فى الرمل وقد ثنت ركبتيها . تأوهت « لالا » من جديد حسب نغم البحر البطىء . لقد كان الألم يهاجمها على موجات وعلى فترات متباعدة . تابعت الفتاة سير آلامها فوق البحر . ففى كل رعشة آتية من أعماق الأفق ومن المنطقة المظلمة حيث يكثف الظلام وينتشر فى بطء حتى حدود الشاطىء فى جهة الشرق وينشر خطوطا كما نقذف بمفارش من الزبد فى حين أن صوت تكسر الماء فوق الرمل الصلب يتقدم نحوها ويشملها متمزقا وأحيانا كان الألم من القوة كما لو كانت بطنها تتمزق وهى تخرج مابداخلها . وتزداد أنّاتها فى حلقها حتى غطت على أصوات تكسر الأمواج فوق الرمال .

قامت « لالا » على ركبتيها وحاولت السير على أربع فى محاذاة الكثيب حتى وصلت الى الطريق . كان الجهد مضنيا جدا حتى أنه برغم برودة الفجر فاض العرق على وجهها وجسدها . لقد انتظرت ثانية وقد ثبتت بصرها على البحر الذى تلون بلون البياض ثم دارت نحو الطريق للجانب الآخر من الكثبان وصاحت منادية : حارتانى . حارتانى . كما كانت تفعل فى الماضى حين كانت تذهب إلى هضبة الصخور وكان يختبىء خلف صخرة . لقد حاولت أن تصدر أيضا صفيرا مثل صفير الرعاة ولكن شفتيها تشققتا وارتعشتا .

بعد قليل من الوقت سوف يستيقظ الناس فى بيوت البلدة وسيطرحون أغطيتهم جانبا وستذهب النساء كى يحضرن الماء من النافورة . وربما ذهبت

fb/mashro3pdf

الفتيات ليتجولن بين النباتات باحثات عن أعواد الحطب والفروع الصغيرة الجافة لإشعال النار . وستوقد النسوة المواقد لتشوى اللحم أو لتدفىء الحساء المصنوع من الشعير وتغلى الماء لعمل الشاى ولكن كل هذا بعيد كأنه فى عالم آخر . كأنه حلم مستمر فى حدوثه . هناك فوق السهل الطينى حيث يعيش الناس عند مصب النهر الكبير أو ربما تكون أبعد من ذلك فى الجانب الآخر من البحر فى المدينة الكبيرة مدينة المتسولين واللصوص . المدينة القاتلة ذات العمائر البيضاء والسيارات . لقد نشر الفجر ضياءه فى كل مكان ببرودته فى اللحظة التى يقابل العجائز والشيوخ فيها الموت فى هدوء وخوف .

شعرت « لالا » وكأنها ستصبح خاوية . فدق قلبها فى ضربات بطيئة ومؤلمة . فلقد تقاربت موجات الألم الآن ولم يبق سوى ألم واحد متواصل يتلوى وينبض داخل أحشائها وفى بطء وقع آلام لانهاية لها جرّت « لالا » جسدها فوق مقدمة ذراعيها على محاذاة الكثيب وأمامها على بعد بضعة أذرع لاح لها ظل الشجرة أمام أكوام الصخور السوداء بالقياس إلى السماء البيضاء . لم تظهر لها شجرة التين عالية وقوية مثلما ظهرت الآن وقد انثنى جذعها العريض نحو الوراء وتبعثرت فروعها الغليظة وتحركت أوراقها من نسمات الهواء العليل براقة فى ضوء النهار . ولكنها الرائحة على وجه الخصوص هى التى كانت جميلة وقوية . فقد غمرت « لالا » وبدت كما لو كانت تجتذبها فهى تثيرها وتقزز نفسها فى وقت واحد . لقد كانت تتمايل مع موجات الألم وهى تتنفس فى صعوبة . رفعت « لالا » جسمها فى بطء شديد على الرمال التى كانت تعوقها . ومن خلفها تركت ساقاها المنفصلتان خطا على الرمال كقارب يجر على الأرض .

وفى بطء وبمشقة كبيرة جذبت حملها الثقيل وهى تئن بصوت مكتوم حين يشتد عليها الألم . لم يفارق ببصرها هيكل الشجرة شجرة التين ذات الجذع الأسود والأوراق البراقة التى تلمع فى ضوء النهار . وكلما اقتربت منها ازدادت الشجرة علوا

fb/mashro3pdf

حتى صارت ذات حجم هائل بل كأنها ملأت فراغ السماء بأكمله . امتد ظلها حولها كبحيرة داكنة اللون حيث يعلق بها آخر خيوط الليل . جرّت جسدها شيئا فشيئا حتى دخلت منطقة هذا الظل وتحت أفرع الشجرة العالية القوية التى تشبه أذرع العملاق . هكذا أرادت لأنها تعرف أنه لايوجد غيرها يستطيع مساعدتها فى هذه اللحظة . رائحة هذه الشجرة القوية نفذت فيها . فهدأ جسدها المضنى . لقد امتزجت هذه الرائحة برائحة البحر والنباتات البحرية . فعند جذع الشجرة الكبيرة ترك الرمل الصخور صدئة بسبب ريح البحر ومصقولة ومتآكلة بسبب الرياح والمطر . بين الصخور توجد الجذور القوية شبيهة بأذرع من معدن .

ضغطت على أسنانها حتى لاتشكو ثم أحاطت جذع الشجرة بذراعيها ومن ثَمَّ نهضت ببطء ثم أنتصبت فوق ركبتيها المرتعشتين . كان الألم داخلها كأنه ألم جرح ينفتح شيئا فشيئا ويتمزق . لم تستطع « لالا » أن تفكر فى أكثر مما تراه والذى تسمعه والذى تحسه : « نعمان العجوز » ــ « الحارتانى » ــ « العمة » وحتى « المصور » ماذا أصبحوا ؟ والى أى شيء صاروا ؟ إن الألم الذى انبثق فى أحشاء هذه الفتاة والذى انتشر فوق البحر وفوق الكثبان حتى بلغ السماء الباهتة اللون . هذا الألم كان أكثر قوة وشدة من كل شيء . لقد محا كل شيء وجعل كل شيء خاليا . لقد تمكن الألم من جسدها كصوت قوى فصار جسدها عاليا كالجبل الراسخ على الأرض .

لقد أبطأ الزمن بسبب الألم وصار يضربها على نغمات دقات القلب ونغمات الرئتين حين تتنفس وتقلصات الرحم وفى بطء كما لو أنها رفعت ثقلا كبيرا رفعت « لالا » جسمها وأسندته إلى جذع الشجرة . إنها تعرف أن ليس هناك غيرها من يستطيع مساعدتها مثلما ساعدت الشجرة أمها فى الماضى يوم أن ولدتها . وبحكم الغريزة وجدت فيها الحركات موروثة . الحركات التى يذهب معناها

fb/mashro3pdf

أبعد منها دون أن يعلمها لها أحد . انحنت نحو أسفل الشجرة وحلت حزام ردائها وفرشت معطفها الكستنائى فوق الأرض وفوق الحصى وعلقت الحزام على أول فرع قوى من جذع الشجرة وبعد أن عقدت القماش لتزيد من مقاومته . عندما تعلقت بيديها الى الحزام اهتزت الشجرة قليلا فأمطرت الأرض بوابل من قطرات الندى . سالت هذه المياه النقية على وجه « لالا » فشربت منها بسرور بأن مررت لسانها فوق شفتيها .

فى السماء كانت الساعة الحمراء قد بدأت الآن . وقد اختفت آخر نقاط الليل وترك البياض اللبنى مكانه لاشتعال الفجر الأخير فى الشروق وفوق التلال والصخور . صار البحر أكثر ظلاما بنفسجى اللون فى حين أن رؤوس الأمواج تتوهج ويلمع الزبد ويزداد بياضه . لم تر « لالا » مطلقا مجىء النهار بمثل ما رأته الآن بعينين حزينتين ووجه ملتهب بوهج النور .

إنها اللحظة التى فيها تصير جميع التقلصات ألما واحدا عنيفا ومريعا تشبه تماما النور الوهاج الأحمر الذى يعمى البصر . وحتى لاتصرخ . عضت بأسنانها قماش ثوبها على كتفيها وبذراعيها المرفوعتين فوق رأسها جذبت فى عنف الحزام حتى أن الشجرة تحركت وارتفع جسدها . وفى كل مرة يصل الألم إلى أقصى مداه تتعلق « لالا » بفرع الشجرة . جرى العرق وانهمر على وجهها فأعماها . فلون الألم الدامى أمامها على البحر وفى السماء وزبد كل موجة آتية . ففى بعض الأحيان تخرج صرخة بالرغم منها وبرغم صرفها على أسنانها ولكنها تضيع وتذوب فى صوت البحر . إنها صرخة من الألم والحزن معا بسبب كل هذا الضوء وبسبب كل هذه الوحدة . كانت الشجرة تميل فى كل هذا وتعكس بريق أوراقها .

وفى خلال فترات الراحة القصيرة كانت « لالا » تستنشق عبير الشجرة . رائحة السكر والسلاف مثل عبير مألوف لها فكان يعمل على تهدئتها ويبعث

fb/mashro3pdf

الراحة إلى نفسها . كانت تجذب الفرع الرئيسى للشجرة فتصطدم كليتيها بالجذع . وكانت قطرات الندى تتساقط كالمطر فوق يديها وعلى وجهها وفى جسدها . كما كانت توجد بعض أنواع من النمل الأسود صغير الحجم يجرى على طول ذراعيها المعلقتين بالحزام ثم تنزل على طول جسدها لتهرب .

استمر هذا وقتا طويلا حتى أن « لالا » شعرت بأن أوتار ذراعيها قد يبست وتصلبت حتى صارت كالحبال . ولكن أصابعها ظلت قابضة فى قوة على الحزام لدرجة أنه لايمكن لأى شيء أن يحلها وفجأة أحست بأن جسدها صار فارغا بشكل لايصدق . فى حين أن ذراعيها يجذبان فى عنف الحزام . وفى بطء شديد وبحركات تشبه حركات المكفوفين تركت « لالا » نفسها لتنزلق إلى الخلف حتى أن ظهرها وكليتيها لامس جذر الشجرة . وأخيرا امتلأت رئتاها بالهواء وفى نفس اللحظة سمعت صرخة حادة لطفل بدأ فى البكاء .

وعلى الشاطىء تبدل الضوء الأحمر وصار برتقاليا ثم فى لون الذهب . فالشمس يجب أن تكون قد لامست التلال فى الشرق فى إقليم الرعاة . أمسكت « لالا » بالطفل بين ذراعيها وقطعت الحبل السرى بأسنانها وعقدته كحزام فوق بطن الرضيع الذى كان يهتز من البكاء . ثم زحفت فوق الرمال الصلبة نحو البحر وركعت على ركبتيها وسط الزبد الخفيف وغمست الطفل الباكى فى الماء المالح . لقد استحم الطفل كما غسلته بعناية ثم عادت إلى الشجرة ووضعت الطفل فى معطفها الكستنائى بنفس التعليمات الغريزية والتى لاتفهمها ثم حفرت بأصابعها فى الرمل بالقرب من جذع الشجرة ورأسها قريبة من الجذع القوى . ثم فتحت المعطف وأخذت الرضيع بين ذراعيها وقربته من ثدييها الممتلئتين . وحين بدأ الطفل فى الرضاعة بوجهه الصغير وبعينين مغلقتين مستندا على ثدييها توقفت « لالا » عن مقاومة التعب . لقد نظرت للحظة إلى النور الجميل نور النهار الذى بدأ وشاهدت البحر الشديد الزرقة بأمواجه التى تشبه حيوانات تجرى . أغلقت

fb/mashro3pdf

عينيها . لم تنم ولكنها مثل من تعوم وتطفو فوق سطح الماء . لقد شعرت بملاصق لها هذا المخلوق الدافئ والذى يلتصق بصدرها والذى يريد الحياة والذى يمتص لبنه بنهم « حواء ابنة حواء » . فكرت « لالا » مرة واحدة . لأن هذا عجيب فسرها ذلك فكان كبسمه بعد كل هذه الآلام والمتاعب . ثم انتظرت فى غير عجلة أن يأتى أحد من البلدة ذات العرائش والورق المقوى أو صياد شاب ممن يصيد « الكابوريا » أو عجوز تجمع أغصان الأشجار الجافة أو فتاة شابة تحب فقط وفى بساطة أن تتنزه فوق الكثبان لترى طيور البحر . فهنا ينتهى الأمر دائما بحضور شخص ما . وظل شجرة التين رقيق جدا ومنعش .

fb/mashro3pdf

أغادير فى مارس ١٩١٢

لقد جاءوا للمرة الأخيرة فقد ظهروا على السهل الفسيح بالقرب من البحر عند مصب النهر . لقد جاءوا من كل صوب : أهل الشمال : أهل عدة او تروما أو اهل عدة او طمان وأية داوود والميسكالا و« اية هادى » وعدة او زمزن « وسيدى أميل وقوم بيجودين وامزميز واشمرارن . وأهل الشرق من تارودانت وقوم تازتاخت والاوارزازات واية كالا والاساراج واية كيديف . والامتزاجين واية تومارت وقوم جبال سارهو وجبال بانى وسكان شواطىء البحر من اسويرا حتى أغادير المحصنة وقوم تزنيت وافنى وآروارا وتان تان وجوليمين وآية ميللول والحسين وآية بلا وآية بوخا وسيدى أحمد أو موسى وعدة جومار وآية باها . وقوم الجنوب وخاصة رجال الصحراء والأمارجين والخليفية ورقيبات الساحل سهل والسبع ورجال لغة الشلوة وعدة بلال وعدة ميريبات وآية عمران .

لقد تجمعوا فى حوض النهر وكان عددهم كبيرا حتى أنهم غطوا الوادى بأكمله . ولكن لم تكن غالبيتهم من المحاربين بل كانوا من النساء والأطفال والجرحى والمسنين . إن كل الذين

fb/mashro3pdf

هربوا دون توقف على الطريق وطردوا حين جاء الجنود الأجانب ولم يعرفوا الى أين يذهبون . فقد أوقفهم البحر هنا أمام المدينة الكبيرة أغادير .

وأغلب الظن أنهم لايعرفون لماذا جاءوا إلى هنا فى حوض نهر « سوس » هذا ؟ ربما كان الدافع لهم هو الجوع والتعب واليأس حتى جاءوا إلى هنا عند مصب النهر أمام البحر . إلى أين يستطيعون الذهاب ؟ فمنذ شهور وربما سنوات وهم يهيمون للبحث عن أرض أو عن بئر ليستقروا عنده . ويضربون خيامهم وحظائر لأغنامهم . فالكثير منهم مات أو فقد هناك على الطرق الضيقة التى لاتؤدى إلى أى مكان معلوم فى الصحراء حول المدينة الكبيرة « مراكش » أو فى وديان وادى تدلا . أما الذين استطاعوا الهرب فقد عادوا الى الجنوب ولكن الآبار القديمة كانت قد جفت . كما أن الجنود الأجانب كانوا منتشرين فى كل مكان . ففى مدينة « سمارة » هناك حيث كان يقف قصر الشيخ « ماء العينين » ذو الصخور الحمراء . تهب عليه الآن رياح الصحراء فتشعل كل شىء . لقد أغلق الجنود الأجانب أسوارهم حول رجال الصحراء الأحرار كما أنهم احتلوا آبار وادى « الساقية الحمراء المقدس » ماعساهم يريدون هؤلاء الأجانب ؟ . لقد أرادوا الأرض بأكملها . فهم لم يتوقفوا عن التهام كل شىء وهذا مؤكد .

منذ أيام كان رجال الصحراء هنا فى جنوب المدينة المحصنة وكانوا ينتظرون شيئا ما أما بالنسبة لقبائل الجبال فقد اختلطوا بآخر محاربى « ماء العينين » بريكى الله وهؤلاء كانت

fb/mashro3pdf

تعلو وجوههم امارات اللوعة والضياع بسبب موت « ماء العينين » . فقد كان يتراءى فى عيونهم بريق الحمى والجوع . ففى كل يوم يتطلع رجال الصحراء نحو القلعة هناك حيث كان يجب أن يظهر « مولاى سبع » بمحاربيه الفرسان . ولكن بعيدا ظلت أسوار المدينة الحمراء ساكنة والأبواب مغلقة . هذا السكون الممتد منذ أيام كان له معنى التهديد لقد حامت فى السماء الصافية الزرقاء طيور سوداء وفى الليل سمع عواء ابن آوى .

لقد كان « نور » هنا أيضا وحيدا بين الناس المنهزمين . فمنذ أمد طويل اعتاد هذه الوحدة . لقد عاد والده وأمه وشقيقاته إلى الجنوب إلى الطرق الضيقة التى لانهاية لها . أما هو فلم يستطع العودة حتى بعد موت الشيخ .

كان يتمدد كل مساء على الأرض الباردة . فقد كان يفكر فى الطريق الذى فتحه « ماء العينين » ناحية الشمال نحو الأرض الجديدة والذى سيتبعه ويسير فيه الآن « السبع » ليصبح ملكا بحق . فمنذ عامين اعتاد جسمه على الجوع وعلى التعب ولم يكن هناك من شيء آخر فى ذهنه سوى الرغبة فى هذا الطريق الذى سيفتح عما قريب .

وذات صباح انتشرت اشاعة فى كل المخيمات مؤادها أن : « مولاى هيبة مولاى سبع : ملكنا ... ملكنا » فأطلقت أعيرة نارية وزغاريد النساء وتعالت صيحات الأطفال ودارت الأبصار والوجوه ناحية السهل المترب . ورأى « نور » فرسان الشيخ وقد لفتهم سحابة حمراء .

fb/mashro3pdf

لقد طغت طلقات الأعيرة النارية والصياح على وقع حوافر الجياد . وارتفع الضباب الأحمر عاليا فوق سماء هذا الصباح ودار فوق وادى النهر وجرى جمهور المحاربين أمام الفرسان مفرغين ماحملته مسدساتهم من أعيرة فى الهواء . كان أغلبهم من رجال الجبال من الناطقين « بالشلوة » فى معاطفهم من الوبر . رجال غير متمرنين مشعثى الشعر وفى غير نظام تقدح عيونهم شررا . لم يتعرف « نور » على محاربى الصحراء رجال « ماء العينين » ذوى الملابس الزرقاء والذين تبعوه حتى موته . فهؤلاء لم تظهر عليهم دلائل الجوع والعطش ولم تلهبهم الصحراء طيلة الأيام والشهور فقد جاءوا من حقولهم وقراهم دون أن يعرفوا أى شيء ولاضد من سيحاربون ولماذا ؟

ففى كل يوم يجرى المحاربون خلال الوادى حتى مشارف أغادير فى حين أن خيل « مولاى سبع » تعدو مثيرة سحابة كثيفة حمراء . ماذا يريدون ؟ فهم يجرون ويصيحون فقط . وترتعش أصواتهم (صوت النساء والأطفال) فوق حوض النهر . وفى لحظات شاهد « نور » مرور الفرسان فى سحبهم الحمراء تحيط بهم ومضات من النور وكذا فرسان « السبع » شاهرين رماحهم وصائحين « مولاى هيبة ـــ مولاى سبع .! وكان الأطفال يصيحون من حوله ثم اختفى الفرسان ناحية الطرف الآخر من السهل عند مشارف أغادير .

إنها النشوة التى تسيطر على الوادى طوال هذا اليوم مع حرارة الشمس الملهبة والتى تحرق الشفاة ثم أخذت ريح الصحراء فى الهبوب حتى المساء . وقد كست المخيمات تحت

fb/mashro3pdf

سحابة من الضباب فى لون الذهب وقد أخفت أسوار المدينة . جلس « نور » فى حماية شجرة وقد التف فى معطفه .

وشيئا فشيئا همدت النشوة بحلول المساء وهب نسيم الظل على الأرض الجافة فى موعد الصلاة حين ترقد البهائم لتحتمى من رطوبة الليل . فكر « نور » مرة ثانية فى الصيف الذى سوف يحل وفى الجفاف وفى الآبار والقطعان البطيئة التى سيقودها والده حتى المناطق المالحة فى الجانب الآخر من الصحراء فى « أولاتا » أو « أوادان » « وشنشان » . لقد فكر فى عزلة تلك الأراضى التى لاحدود لها والبعيدة جدا حتى لايعرف المرء شيئا عن البحر أو عن الجبل . لقد مضى عليه وقت طويل لم يعرف خلاله الراحة وكان كأنه لايوجد شىء سوى الضنى والتعب فى جميع الجهات : فى مساحات التراب والحصى وفى المجارى الجافة والأنهار والصخور الناتئة كالسكاكين والخوف خاصة كظل فوق كل مايمكن رؤيته .

وفى ساعة الطعام حين يقسم الخبز والحساء بين آلاف الرجال ذوى الأردية الزرقاء رأى « نور » نور الليل الملىء بالنجوم وقد شمل كل الأرض . لقد ألهب التعب جلده وكذا الحمى التى تبعث برجفاتها الكبيرة فى جميع أجزاء جسمه .

وفى المخيم الذى لااستقرار فيه وتحت المخابىء المصنوعة من فروع الشجر والأوراق لم يتكلم الرجال الزرق قط ولم يعودوا يقصون أسطورة « ماء العينين » . كما لم يتغنوا مطلقا بل ظلوا متدثرين بمعاطفهم البالية . ينظرون إلى النيران بطرف جفونهم

fb/mashro3pdf

حين تخمد الريح والدخان . ربما لاينتظرون شيئا على الإطلاق الآن . فعيونهم مضطربة وقلوبهم تدق فى تراخ .

إنطفأت النيران الواحدة بعد الأخرى وشملت الظلمة كل الوادى . وعلى مبعدة تمتد داخل البحر الأسود مدينة « أغادير » تومض أنوارها الضعيفة . وعلى ذلك رقد « نور » فوق الأرض ورأسه يتجه نحو النور كما يحدث فى كل مساء يذهب به الفكر فى الشيخ الكبير « ماء العينين » والذى دفن داخل البيت المتهدم فى « تزنيت » . فقد أرقدوه فى حفرة ووجهه متجه ناحية الشرق وفى كفيه وضعوا كل ثروته الباقية له . وضعوا الكتاب المقدس (القرآن) وخطبه ومسبحته المصنوعة من الأبنوس وهالوا التراب الصحراوى الأحمر على جسده ثم وضعوا بعض الحصى الكبير الحجم حتى لاتقتحمه الثعالب وابن آوى وتنبش عن جثته ثم ضغطوا بأقدامهم العارية حتى صارت ناعمة وصلبة كالبلاط . وبالقرب من المقبرة زرعت شجرة صبار وردية ذات أشواك بيضاء كالتى كانت أمام المسجد فى « سمارة » ثم ركع القوم البعض وراء البعض من رجال الصحراء ذوى الملابس الزرقاء « بريكى الله » ثم آخر الرفقاء من « الجودفيا » ركعوا أمام المقبرة ومروا على الأرض الناعمة بأيديهم ببطء شديد ثم على وجوههم حتى ينالوا آخر بركات الشيخ الكبير .

ذكر « نور » هذه الليلة . وحين ترك القول سهل « تزنيت » وبقى هو و« لالا ميمونة » وحيدين إلى جوار المقبرة فى البرد القارص . استمع « نور » إلى صوت المرأة العجوز

fb/mashro3pdf

وهى تبكى بلا توقف داخل البيت المهجور وكأنه أغنية . لقد نام فوق الأرض إلى جوار المقبرة وظل جسده ساكنا لاحركة فيه ولا تراوده الأحلام تماما كأنه قد مات هو الآخر . وفى اليوم التالى والأيام التى تلت لم يكد يفارق المقبرة . فقد كان يجلس على الأرض الملتهبة ملتفا بمعطفه الصوفى تلهب الحمى عينيه وحلقه وكانت الرياح قد حملت التراب فوق أرض المقبرة ومسحتها فى بطء . ثم اجتاحت الحمى جسده وفقد الوعى فحملته بعض النسوة من تزنيت إلى دارهن حيث عالجنه بعناية بينما كان هو على مشارف الموت . وحين شفى بعد بضعة أسابيع سار من جديد نحو المنزل المتهدم حيث مات « ماء العينين » ولكنه لم يجد به أحدا فقد رحلت « لالا ميمونة » إلى قبيلتها . والريح التى هبت قد جلبت الرمال حتى أنه لم يستطع أن يجد مكان المقبرة .

ربما كان هذا مايجب أن يحدث لكل الأشياء . بذا فكر « نور » ولعل الشيخ الكبير قد عاد إلى مجاله الحقيقى ضائعا فى تراب ورمل الصحراء حيث تحمله الرياح . الآن قد ألقى « نور » نظرة على مساحة نهر « سوس » أثناء الليل تنيره بالكاد أنوار النجوم والنور الكبير الذى هو أثر دم حمل الملاك « جبريل » حسبما يقولون . إنها نفس الأرض الصامتة مثل التى بالقرب من « تزنيت » حتى خيل « لنور » للحظات بأنه مازال يسمع الشكوى المنغمة التى غنتها « لالا ميمونة » ولكنه كان على الأرجح صوت ابن آوى الذى يزمجر فى الليل هنا حيث مازالت روح « ماء العينين » . تعيش . فهى تملأ الأرض كلها ممزوجة بالرمل والتراب ومختبئة فى الحفر أو تلمع فوق كل حجر ناتىء .

إن « نور » يحس بنظرته هناك فى السماء وفى بقع الظل فوق الارض . إنه يشعر بنظره مركزا عليه كما كان يفعل فى الماضى فى ميدان « سمارة » . ولهذا شعر برعدة تسرى فى جسده . فقد نفذت النظرة إلى أعماقه وأصابته بالدوار . ماذا يريد أن يقول ؟ ربما يطلب شيئا ما هكذا فى صمت فوق الوادى محيطا الرجال بنوره . أو ربما يطلب إلى الرجال أن يلحقوا به هناك حيث هو الآن . مختلطا بالأرض الداكنة ومنتشرا فى الريح أو أنه صار ترابا . غلب النعاس « نور » وحملته النظرة الخالدة التى لاتموت دون أن يتحرك أو يحلم .

حينما سمعوا قصف المدافع للمرة الأولى ولى الرجال الزرق والمحاربون الأدبار نحو التلال ليشاهدوا البحر . لقد اهتزت السماء من الصوت كأنه الرعد . وفى بحر « أغادير » بقيت بارجة بحرية كبيرة بمفردها شبيهة بحيوان ضخم بطئ يرسل بريقه . لقد وصل الصوت بعد مدة طويلة . إنه صوت مكتوم تبعه صوت القنابل الحاد التى انفجرت داخل المدينة وبعد لحظات لم تعد أسوار المدينة العالية الحمراء سوى أكوام من المخلفات . ومنها ارتفع دخان الحرائق الأسود . ومن الأسوار المتهدمة خرج السكان رجالا ونساء وأطفالا تنزف جراحهم وهم يصيحون . لقد ملأوا الوادى وقد ابتعدوا عن البحر بأقصى مايستطيعون لأنهم كانوا فريسة للذعر .

لقد برق اللهب القصير عدة مرات على فوهات المدافع للطراد « كوزماو » ، وأصوات الشظايا التى كانت تتفجر فى « قصبة أغادير » وترن على طول وادى نهر سوس وكان دخان

fb/mashro3pdf

الحرائق الأسود يصعد عاليا فى السماء الزرقاء ويكسو بظله مخيمات الرحل من البدو .

عندئذ ظهر فرسان « مولاى سبع » . لقد عبروا حوض النهر وتقهقر ــ ناحية التل ــ سكان المدينة . ومن بعيد كان الطراد « كوزماو » واقفا لايتحرك فوق البحر فى لون المعدن . وقد تحولت مدافعه فى بطء ناحية الوادى حيث هرب رجال الصحراء . ولكن اللهب لم يعد يلمع عند فوهات المدافع . فقد كان هناك صمت طويل ولم يكن يسمع سوى صوت الناس الذين يجرون وكذا صرخات البهائم فى حين استمر الدخان الأسود يتصاعد إلى السماء .

وعندما ظهر جنود المسيحيين أمام مشارف المدينة المتهدمة لم يكن لأحد أن يفهم فى الحال من هم ؟ فربما اعتقد نفس « مولاى سبع » ورجاله فى لحظة من اللحظات أنهم محاربو الشمال الذين بعث بهم « مولاى حافظ » قائد المؤمنين من أجل الحرب المقدسة .

ولكنهم كانوا الأربع فرق للكولونيل « مانجن » الذين جاءوا سيرا على الأقدام لتأديب عصاة مدينة أغادير لقد كان عددهم أربعة آلاف مقاتل يرتدون ملابسهم الرسمية . زى ضاربى البنادق . إنهم افريقيون وسنغاليون وصحراويون وكلهم مدجحون بالبنادق من ماركة « ليبل » ومعهم عشر بنادق سريعة الطلقات ماركة « نور نفلد » . لقد تقدم الجنود نحو شاطىء النهر منتشرين على هيئة نصف دائرة فى حين كان من

fb/mashro3pdf

الناحية الأخرى للنهر عند سفوح التلال المليئة بالحصى كان جيش عماده . ثلاثة آلاف من الفرسان من رجال مولاى « سبع » . وقد بدأ بحركة التفاف حول نفسه ليثير التراب الأحمر فى الجو . وإلى جانب الإعصار فقد كان « مولاى سبع » فى معطفه الأبيض يرقب فى قلق طول خط الجنود المسيحيين الذى يشبه عاموداً من الحشرات تسير فوق الأرض الجافة . لقد كان يعلم بأن المعركة خاسرة منذ البداية تماما مثل ماحصل فى الماضى فى « بودنيب » حين حصدت نيران جيش السود أكثر من ألف فارس من فرسانه القادمين من الجنوب . ساكنا فوق صهوة جواده الذى كان يقفز من عدم الصبر . كان يرقب الرجال الأجانب الذين يتقدمون فى بطء نحو النهر كأنه تدريب . لقد حاول أكثر من مرة « مولاى سبع » أن يعطى أمرا بالتقهقر والانسحاب . ولكن محاربى الجبال لم يصغوا له ولم يلبوا أوامره . فقد لكزوا خيولهم ودفعوا بها فى هذه الدائرة الجنونية .

وقد أسكرهم التراب ورائحة البارود وكانوا يصرخون بلغتهم المتوحشة ذاكرين أسماء أوليائهم الصالحين وحين تستكمل الدائرة سوف يقفزون نحو الفخ الذى نصب لهم فيموتون جميعا .

الآن لم يستطع « مولاى سبع » عمل أى شىء فملأت عينيه الدموع . دموع الحزن . وعلى الجانب الآخر من حوض النهر كان الكولونيل « مانجن » قد ثبت مواقع فرق المدافع الرشاشة على كل جناح من جيشه فى أعالى التلال الصخرية

fb/mashro3pdf

وعندما يطلق فرسان « المور » بنادقهم ناحية الوسط فى اللحظة التى سيعبرون فيها • وض نهر « سوس » فإن الإطلاق المتقاطع للضاربين بالبنادق السريعة سوف تحصدهم ولن يبقى سوى القضاء عليهم بخناجر البنادق .

لقد ران صمت رهيب وثقيل . فى حين أن الفرسان قد توقفوا عن الدوران فوق السهل . نظر الكولونيل « مانجن » بمنظاره المكبر وحاول أن يفهم : « ألن يتقهقروا الآن ؟ عندئذ يجب أن يمشوا من جديد لبضعة أيام فوق هذه الأرض القاحلة . أمام هذا الأفق الذى يهرب ويدعو لليأس . ولكن « مولاى سبع » ظل ساكنا لايتحرك فوق فرسه . ذلك لأنه أيقن أن النهاية قريبة لان محاربى الجبال وأبناء رؤساء القبائل إنما جاءوا هنا ليحاربوا لاليهربوا . لقد توقفوا عن الدوران ليؤدوا الصلاة قبل الانقضاض .

بعد ذلك حدث كل شىء بسرعة تحت شمس الظهيرة المحرقة . لقد هاجم ثلاثة آلاف فارس مكونين صفوفا متراصة كمن يصنع عرضا ومصوبين بنادقهم ذات الحجارة ورماحهم الطويلة وعندما وصلوا الى حوض النهر نظر صف الضباط الذين يقودون المدافع الرشاشة الى الكولونيل « مانجن » الذى كان رافعا ذراعه . فقد ترك الأول يمرون وفجأة أنزل ذراعه فبدأت المدافع قصفها فانطلقت رصاصاتها بمعدل ستمائه رصاصة فى الدقيقة . وفى صوت رهيب يصم الآذان ويفتت الهواء ويتجاوب صداه فى الوداى كله حتى الجبال . هل للزمن من وجود حين تكفى بضع دقائق لقتل ألف رجل وألف حصان ؟ وعندما

fb/mashro3pdf

عرف الفرسان أنهم وقعوا فى كمين وأنهم لن يتخطوا هذا الحائط من الرصاص أرادوا أن يرتدوا ويفتحوا طريقا . ولكن كان هذا متأخرا وفات أوانه . فقد كنست المدافع الرشاشة حوض النهر فتساقطت جثث الرجال والخيل كما لو أن موسى غير منظور قد حصدهم . لقد جرت الدماء فوق الحصى انهارا مختلطة بخيوط رفيعة من الماء . ثم عاد الصمت مرة أخرى فى حين أن آخر الفرسان قد هربوا نحو التلال يخوضون الدماء وهم على خيولهم التى وقف شعرها من الذعر .

ومن غير عجلة بدأ جيش الجنود السود السير محاذين حوض النهر فى مجوعات وراء مجموعات على رأسهم الضباط والكولونيل « مانجن » . لقد رحلوا على الطريق نحو الشرق نحو « تارودانت » نحو « مراكش » يتعقبون « مولاى سبع » . لقد رحلوا دون أن يلتفتوا الى مكان المذبحة ودون أن ينظروا إلى الجثث المهشمة فوق الحصى ولا إلى الخيل المبعثرة ولا إلى الجوارح من الطير التى وصلت على الشاطىء . كما أنهم لم يتطلعوا إلى أطلال « أغادير » ولا الى الدخان الأسود المتصاعد الى السماء الزرقاء . وعلى مبعدة كان الطراد « كازمو » ينساب متهاديا فوق البحر الذى فى لون المعدن متجها نحو الشمال .

عندئذ توقف الصمت فقد سمعت جميع صيحات الجرحى من رجال ودواب . والنساء والأطفال كانوا كآهة واحدة لاتنتهى أو كأغنية . لقد كان صوتا مليئا بالأهول والآلام يصدر من جميع الجهات دفعة واحدة فوق السهل وحوض النهر .

fb/mashro3pdf

سار « نور » الآن على الحصى وبين الجثث الممددة وكان الذباب النهم والزنابير تطن فى سحب سوداء فوق جثث الموتى . وقد شعر « نور » بالغثيان فى حلقه .

وباشارات غاية فى البطء وكأنها صادرة من حلم أزاح الرجال والنساء والأطفال النباتات الشائكة وساروا على حوض النهر دون أن يتكلموا . فطول النهار حتى سدول الليل كانوا يحملون جثث الرجال إلى شاطىء النهر ليدفنوها وحين حل الليل أوقدوا النار على كل شاطىء ليبعدوا ابن آوى والكلاب البرية ثم حضر نساء القرية يحملن الخبز واللبن الرائب . وكان « نور » يأكل ويشرب فى تلذذ . فقد نام بعد ذلك بأن تمدد على الأرض دون أن يفكر حتى فى الموت .

وفى اليوم التالى منذ الفجر حفر الرجال والنساء مقابر أخرى للمحاربين . ثم دفنوا الخيل أيضا وكانوا يضعون فوق المقابر بعض الحصى الكبير من النهر .

وحين انتهى كل شىء بدأ آخر الرجال من ذوى الملابس الزرقاء فى السير على الطريق الجنوبى . هذا الطريق الطويل جدا حتى ليبدو أنه لانهاية له . سار « نور » معهم عارى القدمين لايملك شيئا سوى معطفه الصوفى وقليل من الخبز لفه فى قطعة قماش رطبة . لقد كانوا آخر رجال « ايمازيجين » وآخر الرجال الأحرار والتوبالت والتكنه والتدرارمين والأوروسيين والسبع ورقيبات الساحل واخر الأحياء من « بريكى الله » . لم يكن معهم سوى ماتراه عيونهم وما تلمسه أقدامهم العارية . كانت

fb/mashro3pdf

أمامهم الأرض منبسطة وتمتد كالبحر يلمع فيها الملح . لقد كانت الأرض تتماوج وتخلق البلدان البيضاء ذات الأسوار الفخمة والقباب التى تتفجر كالفقاعات . كانت الشمس تلهب وتلفح وجوههم وأيديهم . وكان الضوء يعمق الشعور بالدوار عندما بدا ظل الرجال كآبار لاقرار لها .

وفى كل مساء كانت شفاههم الدامية تبحث عن نسيم الآبار أو عن الطين الرطب على شاطىء النهر . وبعد ذلك يعتصرهم الليل البارد ويكسر أعضاءهم ويحبس أنفاسهم ويضع عبئا فوق رؤوسهم . لانهاية للحرية فهى واسعة كالأرض جميلة وقاسية مثل الضوء رقيقة كعيون الماء ففى كل صباح فى الفجر الصادق يعود الرجال الأحرار إلى مساكنهم صوب الجنوب هناك حيث لأحد غيرهم يعرف أن يعيش . فى كل يوم وبنفس الاشارات يمحون آثار نيرانهم ومخلفاتهم من قاذورات متجهين نحو الصحراء . ويؤدون صلواتهم دون كلام . لقد ذهبوا وكأنهم فى حلم . وهكذا اختفوا .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

International Press
انترناشيونال برس
٥ جمال الشاهد – مدينة الصحفين ت : ٤٧٤٢٥٩

• افق ثقافى جديد تبدأ فى ارتياده « دار المستقبل العربى » .. انه أفق الترجمة .. أفق الثقافة الانسانية العالمية ، فى مختلف مجالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية ...

وستحرص « دار المستقبل العربى » أن تختار للقارىء العربى أبرز عيون التراث الإنسانى القديم والوسيط والحديث والمعاصر فى هذه المجالات جميعا ... حتى يتفاعل وعينا وإبداعنا الثقافى والقومى ، مع الإبداع الثقافى الإنسانى عامة ..

وبهذه الرواية الفرنسية تبدأ « دار المستقبل العربى » أولى خطواتها ...

• رواية الصحراء .. رواية آباء وأجداد « لآلا » الصغيرة .. الرجال الزرق .. محاربو صحراء « ريو أورو » الذين طردهم الغزاة الفرنسيون وتعقبوهم من الجنوب حتى الشمال ثم اغتالوهم فى غير رحمة ولا شفقة .

اما مؤلف الرواية فهو ج .م .ج لوكليزيو الذى ولد عام ١٩٤٠ فى مدينة « نيس » من والد انجليزى وأم فرنسية ... والذى حصل على جائزة « رنيادوت » عام ١٩٦٣ عن أول مؤلفاته ومن بعده طبع كتبا عديدة ..

دار المستقبل العربى
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

٧٠٠ قرشاً

fb/mashro3pdf